

ول
وايرل ديورانت

قصة الحضارة

أوروبا الوسطى



قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

أورويبا الوسطى

مراجعة
عالم أدهم

ترجمة
محمد علي أبودرة

الجزء الأخير من المجلد التاسع

٣٨



تونس



بيروت

فهرس

الجزء الأخير من المجلد التاسع
من قصة الحضارة

الصفحة

الكتاب الخامس
الهجوم على المسيحية
١٧٣٠ - ١٧٧٤

الفصل الثامن عشر
الملحدون
١٧٣٠ - ١٧٥١

- ١ - النشوة الفلسفية ١
- ٥ - خليفة الثورة ٥
- ١٠ - جان مسلييه ١٠
- ١٨ - هل الإنسان آلة ؟ ١٨

الفصل التاسع عشر
ديدرو والموسوعة
١٧١٣ - ١٧٦٨

- ٢٦ - سنوات الضياع والكسل ١٧١٣ - ١٧٤٨ ٢٦
- ٣٣ - الأعمى والأصم والأبكم ٣٣
- ٤١ - تاريخ كتاب ٤١
- ٥٧ - الموسوعة نفسها... .. ٥٧

الفصل العشرون

ديدرو بروتييه

الصفحة

١٧٥٨ — ١٧٧٣

- ١ — القائل بوحدة الوجود ٦٥
- ٢ — حلم دالمبير ٦٨
- ٣ — ديدرو والمسيحية ٧٢
- ٤ — ابن أخى رامو ٧٨
- ٥ — الأخلاق والسياسة ٨٢
- ٦ — ديدرو والفن ٩٠
- ٧ — ديدرو والمسرح ٩٣
- ٨ — ديدرو ١٠٠

الفصل الحادى والعشرون

اتساع نطاق الحملة

١٧٥٨ — ١٧٧٤

- ١ — هلفشيوس ١١٠
- (أ) تطوره ١١٠
- (ب) فلسفة ١١٣
- (ج) تأثير هلفشيوش ١٢٤
- ٢ — فلاسفة مساعدون ١٢٨
- ٣ — دى هولباخ ١٣٣
- (١) الملحد اللطيف ١٣٣
- (٢) منهج الطبيعة ١٣٩
- (٣) الأخلاق والدولة ١٤٨
- (٤) دى هولباخ ونقاده ١٥٦

الفصل الثاني والعشرون

فولتير والمسيحية

الصفحة	١٧٧٨ — ١٧٣٤
١٦٢	١ — فولتير والله
١٦٧	٢ — فولتير ودائرة المعارف
١٧٠	٣ — لاهوت الزلازل
١٧٤	٤ — كانديد
١٧٨	٥ — ضمير أوربا
١٩٣	٦ — اقضوا على الرجس
٢٠٤	٧ — الدين والعقل
٢٠٢	٨ — فولتير متعصب

الفصل الثالث والعشرون

إنتصار الفلاسفة

١٧٨٩ — ١٧١٥

٢١٩	١ — رجال الدين يصدون المهجوم
٢٢٦	٢ — خصوم الفلاسفة
٢٣٤	٣ — سقوط اليسوعيين
٢٤٦	٤ — التعليم والتقدم
٢٥١	٥ — الأخلاقيات الجديدة
٢٥٦	٦ — تراجع الديانة
٢٦٢	٧ — الخلاصة

خاتمة في الفردوس

٢٦٦	حوار البابا بندكت الرابع عشر وفولتير
٢٨٧	المراجع

الكتاب الخامس

المحوم على المسيحية

١٧٣٠ - ١٧٧٤

الفصل الثامن عشر

الملحدون

١٧٣٠ - ١٧٥١

١ - النشوة الفلسفية

لنبداً بتحديد مصطلحاتنا . سوف نغنى بلفظة فيلسوف . كل إنسان يحاول أن يصل إلى آراء مسببة مقنعة عقلانية في أى موضوع مهما يكن ، إذا نظر إليه في أبعاده العريضة . وفي تحديد أكثر ، سنطلق هذا المصطلح في الفصول التالية على أولئك الذى يسعون إلى نظرة عقلانية إلى أصل الكون وطبيعته ومغزاه ودلالته ومصيره ، والحياة أو الإنسان . ويجدر ألا نفهم الفلسفة على أنها ضد الدين أو أنها تتعارض معه ، وينبغي أن نفسح في النظرة الواسعة للحياة البشرية مجالا للدين . ولكن لما كان كثير من فلاسفة فرنسا في القرن الثامن عشر معادين للمسيحية كما عرفوها ، فان لفظة الفيلسوف اتخذت مفهوما معاديا للمسيحية^(*) . وفي استعمالنا لهذا المصطلح الفرنسى فانه سيتضمن هذا المفهوم عادة . وسنطلق على لامترى وفولتير وديدرو ودالمبيرث وجريم وهلفشيوس ودى هولباخ فلاسفة ، ولكننا لن نعد روسو وفيلسوفاً بهذا المعنى — على الرغم من أنه يجدر بنا أن نسميه فيلسوفاً ، لأنه زودنا بحجة عقلانية دفاعاً عن الوجدان والإيمان . كما ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن الفيلسوف قد يعارض الديانات القائمة من حوله ، ومع ذلك ، مثل فولتير ،

(*) ذكر جويوم فرنسوا برتنيه ، المحرر اليسوعى اللامع للجورنال دى تريفو ، في عدد يولية ١٧٥٩ : « جرت العادة على أن نطلق لفظة فلاسفة على أولئك الذين يهاجمون العقيدة الدينية الموحى بها ، ويطلقون لفظة مضطهد على من يناضلون دفاعاً عنها »^(١)

يتمسك إلى النهاية بالإيمان بالله . إن الجدل الذى هاج مشاعر الطبقات المفكرة فى نصف القرن الذى سبق الثورة الفرنسية لم يكن مجرد صراع بين الدين والفلسفة ، بل كان بالدرجة الأولى بين الفلاسفة والمذهب الكاثوليكي المسيحى كما وجد فى فرنسا آنذاك ، إنه الغيظ المكظوم فى قلوب الفرنسيين لقرون طويلة من جراء ما لطخت به الديانة سجلها من الوقوف فى وجه التقدم والمعرفة والاضطهادات والمذابح . وبلغ رد الفعل أقصى مداه ، ولكن كذلك كان الاسفاف فى مذبحه سانت برثلالميو (١٥٧٢) ومقتل هنرى الرابع (١٦١٠) واضطهاد الهيجونوت بعد الغاء مرسوم نانت (١٦٨٥) .

ولم يكن ثمة مثل هذا العدد الكبير من الفلاسفة قط من قبل ، وألمع هلفشيوس إلى « تذوق عصرنا للفلسفة وحبها لها » ^(٢) وكتب دالمبير :

أطلق قرننا على نفسه قرن الفلسفة بغير منازع . فمن أصول العلوم الدنيوية الدنسة إلى أسس الوحي ، ومن الميتافيزيقا إلى مسائل الذوق ، ومن الموسيقى إلى الأخلاق ، ومن حقوق الأمراء والملوك إلى حقوق الشعوب . كل شئ كان موضع دراسة وتحليل ومثار نقاش وخلاف . وليس فينا من ينكر أن الفلسفة أحرزت بيننا تقدما . إن العلوم الطبيعية تقدم لنا فى كل يوم ذخرا جديدا ... واتخذت كل ميادين المعرفة تقريبا أشكالا جديدة ^(٣) .

وكان الفلاسفة الفرنسيون نتاجا جديدا . فكانوا قبل كل شئ واضحين ولم يكونوا جماعة منعزلة عن العالم تكسوهم المهابة والقداسة ، يتحدثون إلى أنفسهم أو إلى نظرائهم أحاديث غامضة لا يفهمها إلا فئة معينة من الناس . وكانوا أدباء عرفوا كيف تتألق الأفكار والآراء فى الألفاظ . ولولا ظهورهم نحو الميتافيزيقا باعتبارها ضالة ميثوسا منها ، ونحو طرائق الفلسفة باعتبارها غرورا كاذبا عريضا . ولم يكتبوا أبحاثا مطولة معقدة جهدوا فيها فى استنباط العالم من فكرة واحدة ، ولكنهم كتبوا نسبيا موضوعات قصيرة ، ومحاورات مسلية وقصصا متبلة أحيانا ببعض الفحش ، وهجاء قتالا من فرط السخرية ، أو حكمة معبرة بطريقة بارعة توهم بالتناقض فى سطر يحطم تحطيا . وساق هؤلاء الفلاسفة حديثهم متناغما مع رجال الصالونات وسيداتهن ، وفى كثير من الأحوال وجهوا كتبهم ومؤلفاتهم إلى شهرات النساء ، وكان لزاما أن

تكون مثل هذه الكتب واضحة جلية يسهل إدراك مراميها ، وقد تضمني على الإلحاد سحراً وفتنة . ومن ثم أصبحت الفلسفة قوة إجتماعية إنتقلت من المدارس إلى المجتمع والحكومة . وأسهمت في الصراع بين الدول ، وكانت جزءاً من الأنباء . ولما كانت كل أوروبا المتعلمة تتطلع إلى فرنسا لمعرفة آخر النظريات والآراء ، فإن مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين وصلت إلى إنجلترا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال وألمانيا والسويد وروسيا ، وأصبحت أحداثاً في دنيا أوروبا . وفاخر فردريك الأكبر وكترين قيصرية روسيا بأن يكونا من بين الفلاسفة ، وربما لم يقلقهما تنبؤ العليقة المحافظة الفرنسية بأن المفكرين الأحرار الفرنسيين كانوا يقوضون أساس أخلاق فرنسا ووحدتها وسلطانها وقوتها .

وكان لجوتنبرج أثره البارز : فإن الطباعة عملت على نشر العلوم والتاريخ ونقد الأسفار المقدسة وروائع الوثنيين ، وأصبح الفلاسفة الآن أقدر على التحدث إلى جماهير أكبر عدداً وأكثر استعداداً من ذي قبل ، ولم يستنكفوا أن يهبطوا من أبراجهم العاجية ليعملوا على تبسيط المعرفة . ولم يكن هذا لأنهم وثقوا كثيراً في « الرجل العادي » كما عرفوه في ذلك العصر ، ولكنهم وثقوا في أن نشر « الحقيقة » قد يعمل على تحسين سائر البشر وتوفير مزيد من السعادة لهم . واعتبر دالمير أن « فن تعليم الإنسان وتنويره أنبل مهمة وهبة في متناول البشر »^(٤) ، وأصبح « التجاسر على المعرفة » شعاراً للاستنارة الذي حققه عصر العقل وفاز به .

ذلك أن الإيمان بالعقل الذي آذن بانبلاج فجره فرنسيس سيكون قبل ذلك بقرن من الزمان أصبح أساس الفكر المتحرر وأداته — أي أن الفكر تحرر بهذا من أساطير الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة وبرز العقل متألقاً في عظمة وحى جديد ، وطالب بالسيادة والسيطرة في كل مجال وميدان ، وعرض إصلاح التعليم والدين والأخلاق والأدب والاقتصاد والحكومة بمفهومه المشرق . وأقر الفلاسفة بضعف العقل ، مثله في ذلك مثل أي شئ بشري ، وأدركوا أنه من الميسور تضليله بأي منطق فاسد أو تفسير خاطئ للحرية . وما كان لهم أن ينتظروا شوبنهاور لينبئهم بأن العقل عادة خادم للرغبة وأداة للارادة . إن هيوم الذي هيمن على عصر العقل هذا في بريطانيا كان

أقوى ناقد واجهه العقل ، وربما باستثناء كانت . واعترف فولتير من آن
لآخر بحدود العقل . واتفق ديدرو مع روسو في أن الوجدان أساسى أكثر
من العقل . واعترف كل فلاسفة القرن الثامن عشر تقريبا بأن غالبية الناس
حتى فى أعظم الأمم حضارة ومدنية مرهقون بالحاجيات الاقتصادية والكسح
فى سبيل العيش إلى درجة لا يجدون معها فسحة من الوقت لتنمية العقل ،
وأن جماهير البشر تتحرك وتتأثر بالأهواء والعواطف والخزانات أكثر
من تأثرها بالعقل ، ومع هذا ظل الأمل معقودا على إنتشار العقل وإمكان
تحريره من الأنانية الضيقة والتعاليم المغرضة .

وهكذا برغم فترات التشاوم التى مر بها الفلاسفة فقد سادت بينهم روح
التفاؤل ، ولم يكن الناس قط من قبل واثقين بقدرتهم ، أن لم يكن على إعادة بناء
أنفسهم ، فعلى الأقل على إعادة بناء المجتمع . وبرغم كوارث السنين السبع ،
وفقدان كندا والهند واستيلاء إنجلترا عليهما ، فقد سيطرت على ذهن فرنسا
فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر حماسة وحيوية بدا أنهما ستعيدان إلى
فرنسا العجز المتوجعة قوتها وشبابها من جديد . ولم يحدث قط منذ أيام
السفسطائيين الإغريق أن انتشرت مثل هذه الآراء والأفكار الكثيرة ، أو ظهرت
روح البحث والتحقيق والحوار والجدل المنعشة ، فلا عجب أن يحس ديكلموس
حولہ « بشئ من اختمار العقل بميل إلى التطور والنمو فى كل مكان » (٥) وبما
أن باريس كانت آنذاك عاصمة الفكر فى أوروبا ، فإن حركة التنوير أصبحت
حركة واسعة النطاق مثل حركة النهضة الأوروبية وحركة الإصلاح الدينى ،
والحق أن حركة التنوير هذه بدت وكأنها ذروة الحركات السابقة . وكانت
النهضة قد ذهبت إلى ما وراء المسيحية لتكتشف ذهن الوثنى ، كما أن
الإصلاح الدينى كان قد كسر قيود السيادة المذهبية ، وعلى الرغم منه تقريبا
أطلق العنان لعمل العقل ، وباتت مقدماتنا العصر الحديث هاتين تكلل الواحدة
الأخرى ، وأصبح الآن فى مقدور الإنسان فى نهاية المطاف أن يحرر نفسه
من معتقدات العصور الوسطى ومن أساطير الشرق . كما أصبح فى مقدوره
أن يهز كنفه استخفافا باللاهوت المربك المرعب ، وأن يصف على قدميه
حرا طليقاً . حرا فى أن يشك ، وفى أن يحقق ويدقق . حرا فى أن يفكر

ويجمع ألوان المعرفة وينشرها . حرا في أن يقيم ديننا جديدا حول مذهب . ا . قل
لخدمة البشر ، وكان ثملا كريما شريفاً .

٢ - خليفة الثورة

ولكن كيف حدث كل هذا ؟ ولماذا انقلب كل هؤلاء الفلاسفة وبخاصة
في فرنسا على المسيحية التي كانت فوق كل شيء قد مزجت الأمل بأهوالها
ورعبها ، والصدقات بجرائمها ، والجمال بآثامها وخطاياها ؟

إن الثورة التي قام بها الربوبيون في إنجلترا استطاعت أن تعبر عن نفسها
مع تسامح نسبي حتى من جانب الكنيسة الرسمية ، وربما كان هذا هو السبب
في خود لحيها ، وفضلا عن ذلك كانت الكنيسة الإنجليزية خاضعة للدولة
فلم تعد تزعم زعما فعلا أنها - أي الكنيسة - سلطة منافسة مستقلة . أما الكنيسة
في فرنسا فكانت هيئة قوية تملك نصيبا كبيرا من الثروة الوطنية وأرض
الوطن ، وهي مع ذلك مرتبطة بولاء أسمى مكانة بسلطة أجنبية . ويبدو أنها
كانت تستنزف مزيدا من الثروة من أيدي العلمانيين إلى أيدي رجال الكنيسة
عن طريق الوصية والتوريث ، كما رفضت أن تدفع أية ضرائب أكثر من
« المنح أو الهبات الاختيارية » واحتفظت بآلاف الفلاحين في أراضيها في
استرقاق فعلي ، واحتفظت بالرهبان فيما بدا أنه خمول عقيم . وكما أفادت
الكنيسة من الوثائق الزائفة والمعجزات الكاذبة . وسيطرت على كل المدارس
والجامعات تقريبا ، وعن طريقها أشربت أذهان الشباب بالسخافات المخدرة
المنافية للعقل ، واستنكرت ، على أنه هرطقة ، كل تعليم يتعارض مع
تعليمها واستغلت الدولة في فرض رقابتها على حرية الكلام والصحافة ،
وبذلت الكنيسة غاية الجهد في خنق التنمية الفكرية في فرنسا . وحرصت
لويس الرابع عشر على اضطهاد الهيجونوت غير الإنساني . والتخريب
الخالى من الرحمة لبورت رويال ، وارتكبت الكنيسة إثمًا في الحملات
الوحشية التي شنتها ضد الألبيجنسيين وإقرار المذابح الوحشية مثل مذبح
سانت برثلميوس ، وأشعلت نار الحروب الدينية التي دمرت فرنسا تقريبا .
وفي وسط كل هذه الجرائم ضد الروح الإنسانية ادعت الكنيسة ، وحملت

الملايين من ذوى العقول الساذجة على الإعتقاد بأنها فوق العقل وفوق الريبة والمساءلة ، وأنها ورثت وحيا إلهيا ، وأنها تمثل الله على الأرض الملهم المعصوم من الخطأ . وأن جرائمها كانت ، بارادة الله مثل حسناتها .

وقدمت الكنيسة ردودا كثيرة على هذه الإتهامات . ولسوف نعرض لها فى الوقت المناسب . وفى الوقت نفسه أثارت هذه الإتهامات المتزايدة حفيظة آلاف الناس ودفعتهم إلى الاحتجاج ، وأخيرا إلى العداوة المريعة . وتضاعف عدد المتشككين إلى حد أنهم لم يعودوا يخشون رجال الدين وأحرجوهم علنا بالأسئلة العويصة . وحين دعا الأب تورنمين غير المؤمنين حوالى ١٧٣٠ إلى كلية « لويس الأكبر » ، يقال « إن غرفته اكتظت بالمفكرين الأحرار والربوبيين وأنصار المذهب المادى ، وما استطاع الأب الجليل أن يحول أحدا عن رأيه » ^(٦) . وجزع رجال الدين من كثرة عدد الفرنسيين والفرنسيات الذين فارقوا الحياة رافضين تناول الأسرار المقدسة للكنيسة . وهددت مدام دى برى بأن تأمر خدماها بالقاء راعى الكنيسة من النافذة حين ألح عليها فى قبول مسحها بالزيت المقدس ^(٧) . وشكا أحد القساوسة من أنه « فى اللحظة التى يظهرون فيها أمام الناس يجبرون على الدخول فى مناقشة ، فنحن مطلوب منا ، وعلى سبيل المثال ، أن نثبت فائدة الصلاة للإنسان الذى لا يؤمن بالله ، وضرورة الصيام لإنسان أنكر طوال حياته خلود النفس ، والمناقشة مزعجة إلى أقصى حد ، على حين أن أولئك الذين يسخرون ويهزأون يقفون إلى جانبنا » ^(٨) .

وذكر باربييه فى ١٧٥١ « قد نرى فى هذه البلاد ثورة تؤيد البروتستانتية » ^(٩) وكان مخطئا . فان طرد الهييجونوت لم يترك طريقا وسطا بين الكاثوليكية وعدم الإيمان بصحة الكتب المقدسة . إن الفكر الفرنسى المتحرر تخطى الإصلاح الدينى وقفز طفرة واحدة من عصر النهضة الأوربية إلى عصر الاستنارة ، وهكذا فى فرنسا فان الذهن الفرنسى لم يعطف بثورته نحو الجانسينيين أو إلى الفئة القليلة الباقية من البروتستانت ، بل انعطف إلى مونتاني وديكارث وجاسندى وبيل ومونتسكيو ، ولما رجع المفكرون الأحرار الفرنسيون إلى ديكارث رفضوا كل آرائه تقريبا اللهم إلا « شكه المنهجى »

وتفسيره الآلى للعالم الموضوعى . وكان بيل موضع إجلال وتقدير باعتباره أدق العقلانيين المتأملين ، فقد ولدت شكوكه مزيدا من آلاف الشكوك . وكان « قاموسه » معيننا لا ينضب من الدروع التى يتسلح بها أعداء الكنيسة ضدها .

وكان ما حدث فى إنجلترا مثالا حافزا ملهما مشجعا للمفكرين الأحرار فى فرنسا . وبدا أولاً دعوة فرنسيس بيكون إلى العلم الاستقرائى تبشر بثار أكثر بكثير مما يبشر استنباط ديكارث السحرى لله والخلود من وجود ديكارث . ثم كانت مادية هوبز الفظة التى لم تكف قط عن إثارة ديدرو . وهناك أيضا نيوتن الذى بدا أنه هبط بالاله إلى مجرد ضاغط زرار فى آلة العالم ، ولم يكن الفرنسيون قد عرفوا بعد أن نيوتن أكثر إنتاجا فى اللاهوت منه فى العلوم . ولا ننس الربوبيين الإنجليز الذين أمدوا فولتر بالشجاعة والقوة الدافعة . وأخيراً جاء لوك ، لأن المثشككين الفرنسيين رأوا أن صرح الدين ينهار أمام القول بأن كل الأفكار مستمدة من الإحساس . وإذا كان الإحساس نتاج قوى خارجية فإن الدهن نتاج الخبرة ، وليس هبة خالدة من لدن اله لا يراه أحد . وإذا كانت الخبرة تخلق الشخصية ، فإن الشخصية يمكن تغييرها بتغيير طرق التعليم ومادته . وإصلاح النظم الاجتماعية ، ومن هاتين القضيتين خلاص رجال مثل ديدور وهلفشيوس ودى هولباخ إلى نتائج ثورية . وتساءل فولتير مستحضرا لوك فى ذهنه « هل يمكن أن يكون ثمة شئ أعظم من أن تشير العالم بأسره سياسيا وإجتماعيا بوضع حجج ومناظرات » . (١٠) مات فولتير قبل ١٧٨٩) .

واستمع مرة أخرى إلى ما كتبه المركز دارجنسون اليقظ فى ١٧٥٣

« قد يكون من الخطأ أن نعزو ضياع الدين فى فرنسا إلى الفلسفة الإنجليزية التى لم تكتسب أكثر من نحو مائة فيلسوف فى باريس ، بدلا من إرجاعه إلى الكراهية التى أضمرها الفرنسيون لرجال الدين إلى أقصى الحدود »
ثم يضيف دارجنسون بعد التنبؤ بالثورة ، مما أسلفنا ذكره :

ستكون الثورة شيئا مختلفا كل الاختلاف عن الإصلاح الدينى - وهو

خليط مشوش من الخرافة والحرية جاءنا من ألمانيا في القرن السادس عشر . ولما كانت أمتنا وقرننا قد استنارا بطريقة متباينة كل التباين ، فانهما سيسيران إلى حيث ينبغي لهما أن يسيرا : سيطردان رجال الدين ، ويلغيان مهنة القساوسة ، ويتخلصان من كل الرحى وكل الأسرار الغامضة فلا يتحدث المرء في مصلحة رجال الدين ولا يساندهم في دوائر المجتمع وإلا كان موضع سخرة واستهزاء ، واعتبر جاسوسا لمحاكم التفتيش . ويشير القساوسة إلى أنه في هذا العام نقص عدد أعضاء الجماعات الدينية بمقدار الثلث ، وهجر الناس الكلية اليسوعية ، وانسحب ١٢٠ راهبا من هؤلاء الرهبان الذين ساءت سمعتهم إلى حد كبير . (١١)

وكان ثمة تأثيرات فكرية أخرى أضعفت عقيدة العصور الوسطى الدينية . وانضم الفلاسفة إلى أصحاب المذهب المحافظ (الأرثوذكسى) في رفض سبينوزا ، لأن هذا اليهودي الكبير دمج بأنه ملحد ، وكان من الخطر التحدث عنه دون إتهامه ، كما حرص هيلم وفولتير على أن يفعلوا . ولكنهم كانوا يقرأون سبينوزا سرا ، وكانت « رسالته اللاهوتية السياسية » تثير نقد الأسفار المقدسة . وشرح كونت بولانفيلير سبينوزا بحجة تفنيده . إن هيوم الذى تأثر بفرنسا هو نفسه ، كان يؤثر فيها كذلك ، وكان البنائون الأحرار (الماسونيون) يؤسسون لهم مراكز في فرنسا ، حيث كانوا يمارسون سرا هرطقهم الربوبية . وكانت الكشوف الجغرافية والتاريخ والدراسة المقارنة للأديان تضيف نارا إلى البوتقة التى تجرى فيها اختبار المسيحية بما لم يعهد له مثيل قط من قبل . وكان كل علم من العلوم فى نموه وتقدمه يزيد من درجة احترام العقل ، ومن الإيمان بقانون كوفى ، ومن عدم الإيمان بالمعجزات ، وبالذات بأعظمها شيوعيا وانتشاراً ، ألا وهى تحويل خمسين ألف كاهن يوميا الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه .

وعملت القوى الاجتماعية على انحلال العقيدة . وكان كل إزدياد فى الثروة يعجل فى التسابق على اللذة والمتعة ، كما كان يجعل الصيود على الأخلاق المسيحية أكثر إزعاجا يوما بعد يوم ، فى باريس التى احتفظ فيها أكثر الملوك مسيحية بمجموعة من الخليلات ، والتى إحتلت فيها مدام دى بمبادور مكان السيدة

مريم العذراء . بل أن الانحلال الخلقي في ذلك العصر تحول إلى إتهام للمسيحية ، فكيف يتأتى ، بعد سبعة عشر قرنا من سيطرة المسيحية ، ألا تكون أخلاق أوروبا أحسن حالا من منحوشى أمريكا أو « الوثنيين في الصين ؟ » .

وكانت كل طبقة ، عدا الفلاحين ، تضم أقلية متشككة ، واستاءت البيروقراطية الحكومية من استقلال الكنيسة وإعفاؤها من الضرائب . والرباط الوثيق القديم بين الكنيسة و « ساعدها » الدنيوى العلمانى وهو الدولة « بدأت تنقصم عراه . وكان هناك مفكرون أحرار . مثل مائشرب في مصلحة الرقابة . وكان يحصى بكل قواه ديدرو ودائرة المعارف . وأوثى صلة بالملك كانت مدام دي عبادور التي كانت تكره اليسوعيين ، والتي اعتبرها فولتير (واحدنا منا) . ورأت الأرستقراطية في الكنيسة دعما لمركز أسرة البوربون التي كانت قد أطاحت بحكم هذه الأرستقراطية ، ومن ثم لم تكن هذه الطبقة تعارض أضعاف رجال الدين . بل لتد همل كثير من النبلاء وسموا بامتهان فولتير وعدم توقيره للكنيسة والذيل منها ، وأبدى أفراد الطبقة الوسطى العليا ارتياحهم ورضاهم عن المفكرين الذين كانوا يحاربون رجل الدين . لأن هذه الطبقة لم تغفر للكنيسة استنكار الفائدة (الربا) وإيثارها ملاك الأرض على رجال المال ، فلو أن هؤلاء الأساقفة المتعجرفين أذيقوا المذلة والهوان لصعدت البرجوازية إلى مراقى الشهرة والسمعة والسلطان ومن ثم فإن رجال المال ، من أمثال بويلنيير وهافشوس ودى هولباخ فتحوا أبوابهم وخزائنها ، بل حتى في بعض الحالات قاومهم ، للحرب ضد الكنيسة . وكان المحامون منذ زمن غير قصير يحقدون على رجال الدين ويحسدونهم ، وكم تطلعوا إلى اليوم الذى يحكمون فيه الدولة . كما كانوا بالفعل يحكمون البرلمانات . وذهب أحد تقارير الشرطة في ١٧٤٧ إلى أنه لا يكاد يوجد موظف في برلمان باريس لا يحتفظ بكتاب أو مخطوط منافع للدين في بيته ، (١٢) . وعجت مقاهى باريس بالاحقاد . وكان هجاء رجال الدين والسخرية منهم متعة ظرفاء المدن الذين أشاروا إلى الله بأنه « السيد وجود » وانتشرت المطبوعات المعادية لرجال الدين إنتشارا واسعا حتى في الأقاليم ، ووزع بعض الباعة المتجولين لقاء ربح وفير ، ومن باب إلى باب ، منشورات عنوانها « أشهر الدجالين

الثلاثة»^(*) ألم ينتقل إلى رجال الدين أنفسهم عدوى الشك الديني ، بل هنا وهناك في كل مكان ، عدوى الاتحاد الصريح غير المقنع ؟ وإليك على سبيل المثال .

٣ - جان مسلييه : ١٦٧٨ - ١٧٣٣

كان جان راعي أبرشية أتربينى في شمبانيا . وكان في كل عام يمنح الفقراء كل ما يتبقى من راتبه بعد تسديد نفقات حياته المعتدلة البعيدة عن الإسراف والتبذير . وبعد ثلاثين عاماً من حياة هادئة مثالية في وظيفة الراعي ، قضى حبه وهو في الخامسة والخمسين ، موصياً بكل ما يملك لأهالي الأبرشية ، تاركاً ثلاث نسخ من مخطوطة عنوانها « عهدى الجديد » وجهت إحداها إلى شعب الأبرشية : توسل فيها إليهم على المظروف الذى وضعت فيه المخطوطة ، أن يغفروا له أنه خدم الخطيئة والأهواء طوال مقامه بينهم . وواضح أنه فقد الإيمان بالدين قبل أن يرسموه كاهناً « إننى لم أتقاد عملاً يتعارض مع مشاعرى بشكل صريح طمعا في المال ، بل أنى امتثلت في هذا لأبوى^(١٣) ونشر فولير أجزاء من « العهد الجديد » ١٧٦٢ وأصدر ديدرو ودى هولباخ خلاصة له في ١٧٧٢ تحت عنوان « رجاحة عقل الكاهن مسلييه » ولم يطبع النص الكامل حتى ١٨٦١ - ١٨٦٤ ونفدت طبعته منذ عهد بعيد . ويندر الحصول عليه . وفي كل الحملة ضد المسيحية من بيل إلى الثورة ، لم يوجد هجوم متطرف قاس لا يرحم مثل هجوم كاهن القرية هذا . ويبدو أنه بدأ شكوكه بدراسة الكتاب المقدس . وأظهرت نتيجة هذه الدراسة أن الكنيسة كانت حكيمة إلى حد ما في إبعاد الكتاب المقدس عن العامة . وكان يجدر بها أن تحتفظ به بعيداً عن متناول رجال الدين أيضاً . ووجد الأب يوحنا صعوبات كثيرة في الكتاب المقدس . لماذا اختلف نسب السيد المسيح في إنجيل متى لاختلافاً كبيراً عنه في إنجيل لوقا ، إذا كان كلاهما

(*) المخطوط محفوظ في المكتبة الوطنية في باريس (وهو بهذا يقصد الأنبياء ، مما لا تفرقه عليه) .

منزلا من عند الله ؟ لماذا لم تنزه سلسلتنا الذئب هاتان بيوسف إذا كان سيعفى سريعا من انحاب يسوع ، لماذا يمتدح ابن الله بأنه ابن داود الذى كان زانيا بكل معنى الكلمة ؟ وهل تنطبق نبوءات العهد القديم على المسيح ، أم أن هذه التطبيقات مجرد شطحات للقوة اللاهوتية ؟ وهل كانت معجزات العهد الجديد حيلة أو خداعات ورعة ، أم كانت عمليات طبيعية أسئ فهمها ؟ وهل نصدق هذه الحكايات أم نتبع العقل ؟ وصوت جان إلى جانب العقل وأيده :

« لن أضحي بعقلي ، لأن عقلى وحده يمكننى من التمييز بين الخير والشر وبين الحق والضلال ... لن أتخلى عن الخبرة لأنهم مرشد وهاد أفضل بكثير من الخيال ، أو من سلطان المرشدين الذين أرادوا أن يزودونى به . لن أرتاب فى حواسى . ولست أتجاهل أنها يمكن أحيانا أن تؤدي بي إلى الخطأ . ولكنى من جهة أخرى أدرك أنها لن تضللى دائما ... إن حواسى تكفى لتصحيح الأحكام والقرارات المتسعة التى ملت إلى إتخاذها ^(١٤) .

ولم يجد جان فى العقل مسوغا للإيمان بالإرادة الحرة أو خلود النفس ، ورأى أنه « يجدر بنا أن نكون شاكرين أن تهباً لنا جميعاً نوم أبدي بعد نصب وصخب الحياة الدنيا التى تسبب المشقة أكثر مما تسبب الله لغالبيتنا ... عودوا جميعاً فى سلام إلى المستقر العام الشامل الذى جثم منه ، ومروا دون ضجة أو تدمير مثل كل الكائنات التى حولكم » . ^(١٥) وعلى أولئك الذين دافعوا عن فكرة الجنة ، من قبيل العزاء ، أجاب « بأن أقلية ضئيلة . على زعمها ، حققت هذا الهدف ، على حين كان مآل الأغلبية إلى الجحيم . فكيف إذن يمكن أن تكون فكرة الخلود عزاء ؟ إن العقيدة التى تخلصنى من المخاوف الرهيبة ... تبدو مرغوبا فيها أكثر من الشك الذى تركنى مؤمنا بالله يتحكم فى عطفه فلا يمنحه إلا لذوى الخطوة لديه ، ويهيئ للآخرين السبيل ليكونوا جديرين بالعذاب الأبدى ، كيف يمكن لأى إنسان متحضر أن يؤمن بالله يحكم على المخلوقات بالخلود فى الجحيم . ؟ »

هل هناك في الطبيعة إنسان بلغ من التسوية حداً يتعمد فيه تعذيب ، لا أقول رفاقه من الكائنات . بل أى كائن واع حساس أياً كان ؟ فأقروا إذن يا رجال اللاهوت أن إلهكم طبعاً لمبادئكم ، شرير أكثر بكثير من أى شرير من بنى الإنسان . إن الفساوسة ورجال الدين جعلوا من الإله كائننا خبيثاً ماكرأ صارماً إلى حد أن فئة قليلة في هذه الدنيا هي التي لا تود إلا أن يكون الإله موحوداً ..
وأية أخلاق نتحلى بها إذ كنا نقلد هذا الإله . (١٦)

ورأى فولتير في هذا شيئاً من التطرف ، وبذل أقصى الجهد عند نشره « العهد الجديد » (الذى ألفه جان) في أن يلفت من الحاد الكاهن بالربوبيه ، ولكن مسليهم كان عنيدا متشديدا . واستطرد قائلاً أن إله المسيحية هو منشئ كل الشرور ، لأنه حيث أنه قادر على كل شئ يتم دون رضاه وموافقته ، فاذا وهبنا الحياة فإنه كذلك كتب علينا الموت . وإذا وهبنا الصحة والثروة ، فإنه يعوض منهما بالفقر والقحط والمصائب والحروب . (١٧) إن في العالم دلائل كثيرة على تصميم بارع ، ولكن هلا توجد فيه علامات كثيرة بنفس القدر على أن العناية الإلهية ، إن وجدت ، قادرة على إيقاع أشد أذى شيطاني؟

إن كل الكتب زاخرة بأشدد المديح والثناء رياء ونفاقا على العناية الإلهية التي أفرطوا في الثناء على رقابتها اليقظة . ومهما يكن من أمر فإننا إذا تفحصنا كل أجزاء الكرة الأرضية لوجدنا أن الإنسان المتحضر وغير المتحضر على السواء في صراع دائم مع العناية الإلهية . فهو مضطر إلى أن يصد الضربات التي تنزلها به في صورة أعاصير وعواصف وصقيع وبرد وفيضانات وجذب وغيرها من مختلف النازلات التي تجعل كد الإنسان وجده غير ذى جدوى . وفي إنجاز أرى أن البشر جميعا مشغولون باستمرار في حماية أنفسهم من الحيل الشريرة الخبيثة التي تدبرها هذه العناية الإلهية التي يقال إنها ساهرة على توفير السعادة لهم . (١٨)

وفوق كل شئ هل وجد إله أغرب وأبعد عن التصديق من هذا ؟ إنه لآلاف السنين ظل مختلفاً عن أعين البشر ، واستمع دون استجابة واضحة بريئة

لصلوات آلاف الملايين ودعواتهم وثنائهم عليه . والمفروض أنه حكيم بالغ الحكمة ، ولكن ملكه يسوده الخلل والاضطراب والخراب . والمفروض أنه خير ولكنه يعاقب كما يعاقب شيطان مجرد من الروح الإنسانية . والمفروض أنه عادل وهو يهيئ للأشرار سبل الرخاء والإزدهار ، على حين يتعذب القديسون حتى الموت . إنه منهمك دائماً في الخلق والتدمير (١٩) .

وبدلاً من الاعتقاد مثل فولتير بأن الإيمان بالله أمر طبيعي عام ، أكد مسلييه أن مثل هذا الإيمان أمر غير طبيعي ، وأنه يجب أن يصب في أذهان المراهقين أن :

كل الأطفال ملحدون — ليس لديهم فكرة عن الإله ... ويؤمن الناس بالله بناء على كلام أولئك الذين لا يعرفون عنه أكثر مما يعرف الأولون . إن مربيائنا هن أول معلمى اللاهوت . إنهن يتحدثن إليهم عن الإله كما يتحدثن عن آدميين تحولوا إلى ذئاب ... إن قلة قليلة من الناس كانت تتخذ إلهاً لولا ما يبذل من جهد في أن يجعلوا لهم إلهاً. (٢٠)

وعلى حين أعلن معظم الملحدون عن إعجابهم بيسوع ، نرى مسلييه يشعل السيد المسيح نفسه في هدمه الغاضب الانفعالي للعقيدة الدينية . وقبل كل شيء . أى رجل عاقل يصدق أن الله ، لكى يسترضى البشر ويستميلهم .. يمكن أن يضحى بأبنه البريء الذى لم يرتكب إثماً ؟ (٢١) أما عن يسوع نفسه فيقول : —

إننا نرى فيه ... متعصباً مبغضاً للبشر ، يعظ البائسين فينصحهم بأن يكونوا فقراء . ويكأنحوا الطبيعة ويجحدوها ، ويكرهوا اللذة ويلتمسوا الآلام والشقاء . ويحتقروا أنفسهم ، ويطلب إليهم أن يتخلوا عن الأب والأم وكل أوامر الحياة ليتبعوه . أية أخلاق كريمة ! ... لا بد أن تكون سماوية لأنها غير عملية بالنسبة للإنسان (٢٢)

وينتقل مسلييه إلى مادية كاماة : وليس من الضروري أن نذهب إلى ما وراء المادة لنسأل عن خاتمتها . ويمكن أن يتخلف لغز المنشأ خطوة إلى الوراء ليفسح مجالاً للسؤال الطبيعي للطفل : « من الذى خلق الله ؟ » وأنا

أقول لكم أن المادة تعمل من نفسها بنفسها ... واتركوا لرجال اللاهوت
علتهم الأولى وليس للطبيعة من حاجة بهذا لإحداث كل الآثار والنتائج
التي تراها (٢٣) وإذا كان لزاماً أن تعبدوا أحداً ، فاعبدوا الشمس ، كما
تفعل شعوب كثيرة ، فإن الشمس هي الخالق الحقيقي لحياتنا وللصحة والضوء
والدفع والبهجة والسرور . ولكن واحسرتاه ! ويأسف مسلييه ، لو أن
الدين كان واضحاً لكان أقل جاذبية وفتنة لدى الجاهل ... إن هؤلاء بحاجة
إلى الغموض والأسرار والخرافات والمعجزات والأشياء التي لا يمكن
تصديقها (٢٤) إن المساوسة والمشرعين ، بابتداع الأديان وإختلاق
الأسرار ... قد أروضوا أذواق الجاهل ، لأنهم بهذه الطريقة يجتذبون المتحمسين
والنساء والأميين . (٢٥)

وصفوة القول ، في رأى مسلييه ، أن الدين كان جزءاً من مؤامرة
بين الكنيسة والدولة لإرهاب الناس إلى إذعان مريح للحكم المطلق (٢٦) .
إن الكهنة « حرصوا كل الحرص على أن يجعلوا إلههم مرعباً متقلباً طاغية
كثير النزوات والأهواء . وكان لزاماً أن يكون كذلك من أجلهم حتى يكون
في خدمة مصالحهم المتنوعة » (٢٧) وتقع تبعة هذه المؤامرة على رؤوس
رجال الدين أكثر منها على الملوك ، لأنهم يسيطرون على الأمير منذ طفولته ،
عن طريق كاهن الاعتراف ، ويلقنونه الخرافات ، ويشوهون عقله ويعوقون
نموه ويقودونه إلى التعصب الديني والاضطهاد الوحشي (٢٨) وبهذا :

زعزعت الخلافات الدينية أركان الإمبراطوريات وأدت إلى
الثورات ودمرت الملوك وخربت أوروبا بأسرها ، ولم يكن من
الميسور إخماد هذه النزاعات الحقة حتى في أنهار من الدماء .
إن الأنصار المتحمسين لدين يدعو إلى البر والإحسان والتآلف
والسلام أثبتوا أنهم أشد ضراوة وقساوة من أكلة لحوم البشر أو
المتوحشين ، في كل مرة يستثيرهم فيها معلومهم إلى تحطيم إخوتهم ،
وليس ثمة جريمة لم يرتكبها الناس في سبيل إرضاء الرب أو تسكين
سورة غضبه (٢٩) ... أو إقرار خداع الدجالين لحساب كائن لا
يوجد إلا في خيالهم وحدهم (٣٠)

إنهم يدافعون عن هذه المؤامرة الضخمة المستمرة بذاتها من جانب الكنيسة والدولة ضد الإنسان والعقل على أساس أن ديانة خارقة للطبيعة ، بل قل ديانة إرهاب ، أمر لا غنى عنه في مهمة بناء الفرد والأخلاق .

ولكن هل حقاً أن نظرية الجنة والنار تجعل الناس على جانب أكبر من الفضيلة ، وهل الأمم التي يسودها هذا الزعم تشتهر بالسلوك الحميد والخلق القويم ؟ (٣١) ويكفى لتتحرر من الوهم أن نفتتح أعيننا على أخلاق أشد الناس تمسكاً بالدين ونفكر فيها ملياً ، وسنرى طغاة متعحررين ، ورجال البلاط ، ومغتصبين لا حصر لهم ، وحكاما لا ضمائر لهم ، ودجالين وزانين وفاسقين وأباحيين فجرة ، وعاهرات ولصوصا ، وأوغاداً من كل صنف ، لم يشكوا لحظة في وجود إله محب للانتقام ، أو لم يشكوا في عذاب الجحيم أو جنة النعيم (٣٢) .

كلا ، إن الأفكار اللاهوتية ، على الرغم من اعتراف كل الناس تقريباً بها ، فإن تأثيرها على سلوكهم ضعيف ، فالإله بعيد كل البعد ولكن الإغراء قريب « من ذا الذي ترهبه وتخيفه فكرة الإله ؟ نفر قليل من الضعاف البائسين المتبرمين بالحياة ، وبعض أفراد انطفاآت فيهم بذرة العراطف والشهوات بحكم السن أو العجز والوهن أو تعثر الحظ . (٣٣) إن الدولة ، لا الكنيسة ، هي التي تخالق النظام وتعود المواطنين على طاعة القوانين » إن القيود والضوابط الإجتماعية أقوى من الدين في تقويم سلوك الناس (٣٤) وأحسن العلاقات ، مع تعاقب الأيام ، هي تلك التي تؤسس على العقل والذكاء .

ولكن يتبين الناس مبادئ الأخلاق القويمية فإنهم ليسوا بحاجة إلى اللاهوت أو الوحي أو الآلهة . إنهم ليسوا بحاجة إلا إلى الفطرة السليمة وحسن الإدراك ، إنهم ينبغي عليهم أن يتفكروا في أنفسهم ويتأملوا طبيعتهم ، ويتدبروا مصالحهم الواضحة ، ويأخذوا بعين الاعتبار هدف المجتمع وهدف كل عضو فيه ، ومن ثم يدركون بسهولة أن الفضيلة نعمة وأن الرذيلة نقمة على رفاقهم من الكائنات . والناس أشقياء لمجرد أنهم جهلة ، وهم جهلة لأن كل شيء يتأمر على

الحيلولة بينهم وبين الاستنارة . وهم أشرار لجرد أن عقلهم لم ينم ولم يتطور بعد بدرجة كافية : (٣٥)

ويستطيع الفلاسفة أن يبنوا أخلاقاً طبيعية فعالة ، لو لم يكرهوا على معتقد تقايدى : ائف خشية الكهنة الأقوياء المتسلطين :

إن اللاهوت منذ أقدم العصور هو الذى حدد مسار الفلسفة وبم ساعدها اللاهوت ؟ إنه حولها إلى رطانة غير مفهومة ... ذات ألفاظ لا معنى لها ، أكثر ملاءمة للتعمية منها للتنوير ... كيف اضطرت ديكرات وماليرانش وليبنز وكثيرون غيرهم لإبتداع فرضيات ومراوغات ليوفقوا بين كشافهم وبين الأفكار الخيالية والأخطاء الفاضحة التى أضفى عليها الدين صفة القداسة ! وأية احتياطات لم يلجأ إليها أعظم الفلاسفة لحماية أنفسهم . حتى إلى حد المغامرة بوصفهم بانطيش والحق ، وبأن كلامهم غير مفهوم إذا تعارضت أفكارهم مع مبادئ اللاهوت ! وكان القسوسة اليقظون على أتم استعداد لهدم المبادئ والآراء التى يتعذر التوفيق بينها وبين مصالحهم . وكل ما استطاع الأفراد المستنيرون أن يفعلوه هو أن يتحدثوا ويكتبوا فى معان خبيثة وغالباً مطاوعة موصومة بالجن ، حتى يوفقوا بين الباطل والحق توفيقاً مخزياً . كيف أمكن أن يدعى الفلاسفة والحديثون ، تحت التهديد بأقسى الإضطهاد والتعذيب ، إلى نبذ العقل والخضوع للعقيدة — أى لسيادة رجال الدين وسيطرتهم — وكيف يتأتى لأناس مكبلين بمثل هذه القيود والأغلال أن يطلقوا العنان لعبقريتهم ومواهبهم ... أو يعجلوا بتقديم الإنسانية (٣٦) ؟

وكان لدى بعض الفلاسفة من الشجاعة ما استطاعوا معه أن يتقبلوا الخبرة والعقل هادياً ومرشداً لهم ، ويخطوا أغلال الخرافة — لوسيبوس وديموقريطس وإبيقور وسترابو — ولكن مناهجهم كانت بسيطة مقبولة مجردة من الأعاجيب والمعجزات من أجل عشاق الخيال حتى اضطرت إلى الاستسلام لأحداس أفلاطون وسقراط وزينون الخرافية . ومن بين الفلاسفة الحديثين اتبع هوبز وسبينوزا وبيل وغيرهم نهج إبيقور (٣٧) .

ورثى مسلييه لما منيت به البشرية من خسارة نتيجة لسيطرة اللاهوت

على الفلسفة . ودافع عن حرية الفكر حقاً أساسياً ، يمكنه وحده أن يحقق للناس معنى الإنسانية وعظمة النفس (٣٨) .

لأنهم باظهارهم الحقيقة وحدها يمكنهم أن يدركوا أفضل مصالحهم ، والعوامل الحقيقية التي تؤدي بهم إلى السعادة . لقد طال العهد بعملى الناس وهم يركزون أبصارهم على السماء ، فليرجعوا بأبصارهم ثانية إلى الأرض . لقد تعب الذهن البشرى من اللاهوت المبهم والخرافات السخيفة ، والأسرار العويصة والطقوس الصببانية . فليتشغل هذا الذهن البشرى بعد هذا الإرهاق بالأشياء الطبيعية والأهداف والأشياء الواضحة والحقائق المعقولة والمعرفة النافعة . (٣٩)

فليطلقوا حرية الكلام والفكر والصحافة والطباعة وليكن التعليم علمانياً غير متعبد . إذن لأسرع الناس الخطى يوماً بعد يوم إلى اليوتوبيا (المثالية) . إن النظام الإجتماعى الراهن جائر ، أنه يهـى لأقلية ضئيلة الثراء الحامل وينشر فيها الفساد نتيجة للترف وللبذخ ، على حساب الإبقاء على الملايين فى فقر مدلل وجهل مخز . ونظام الملكية هو أس البلاء ، فامتلك لصوصية ، وقد كيفوا التعليم والدين والقانون لحماية هذه اللصوصية وإجازتها ، (٤٠) وإن ثورة للفضاء على مؤامرة الأقلية ضد الأغلبية لها ما يبررها كل التبرير . وصاح مسلييه فى غضبته الأنضيرة « أين جاك كليمنت (قاتل هنرى الثالث) ورافايالك (قاتل هنرى الرابع) فى فرنسا ؟ هل بقى على قيد الحياة فى أيامنا هذه رجال يطيحون برووس هؤلاء الجبابرة البشعين المنحرفين أعداء الجنس البشرى . وبهذا يخلصون الناس من الطغيان (٤١) ؟ فلنوزع الأمة الملكية توزيعاً عادلاً ، وليشتغل كل إنسان بعمل مناسب . وليكن الإنتاج قسمة متساوية بينهم . وليتزوج الرجال والنساء وليتفرقوا متى شاءوا . ولينشأ أطفالهم معاً فى مدارس مشتركة ، وعندئذ تكون ثمة نهاية للنزاع فى الأسرة ونهاية لحرب الطبقات والفقير . وهنا تكون المسيحية فى النهاية حقيقة صادقة (٤٢) . وبعد أن ذكر جان مسلييه كل ما أسلفنا ، ختم إنجيله أو عهده الجديد بعبارة يتحدث فيها ، كما أدرك هو ، كل الذين يفتونه ويصبون عليه اللعنات :

(م ٢ - قصة الحضارة)

دعهم يفكروا أو يحكموا ويقولوا ويفعلوا ما يريدون ... لن أعبأ بهم كثيراً ... بل إنى اليوم لم أعد أعبأ كثيراً بما يحدث فى العالم . إن الأموات الذين أوشك أن ألحق بهم قريباً ، لا يعانون الآن شيئاً ولم يعودوا يزعمون أنفسهم . ومن ثم فأنا أضع نهاية لكل هذا . أنا الآن أشبه شئ بالعدم ، وبعد قليل سأصبح لا شئ حقاً (٤٣) .

هل وجد ثمة عهد أو ميثاق مثل هذا فى تاريخ البشرية جمعاء ؟ تصور الكاهن المنعزل مجرداً من كل عقيدة ومن كل أمل ، وهو يعيش منسياً لا ذكر له فى قرية قد ترتعد فيها كل النفوس رعباً ورهباً ، إلا نفسه هو ، لمجرد الاطلاع على أفكاره الخفية . ولهذا لم يتحدث بمثل هذه الحرية إلا لمخطوطته . وهناك ، ودون إكتراث ودون معرفة واسعة بطبيعة الإنسان ، صب كل غيظه واستيائه فى صراحة بالغة معادية للدين غاية العداوة مما لم يعهده حتى عصره نفسه . وهنا كانت حملة فولتير ضد « المنبوذين » وكل مادية لامترى وكل الحاد دى هولباخ ، وكل خيال ديدرو الجامح المدمر ، بل شيوعية باييف أيضاً . واصدار فولتير « عهد » جان مسلييه بعد تردد ، ونشره دى هولباخ فرحاً مغتبطاً ، ومن ثم اختتم فى ذهن فرنسا وأسهم فى التمهيد لسقوط النظام القديم . ونشوة الابتهاج بالثورة الفرنسية .

٤ - هل الإنسان آلة ؟

إن جوليان أجوفروى دى لامترى رد على هذا السؤال بالإيجاب . ولد فى سان مالو ١٧٠٩ لتاجر ميسور ، وتلقى تعليماً واسعاً واعتزم أن يكون شاعراً . وحصد والده الوظيفة الكنسية باعتبارها أقل خطراً ، فأرسله إلى إحدى الكليات فى بليسيس حيث شب الولد جانسنياً متحمساً . ولكن طبيباً صديقاً للوالد رأى (هكذا يقول فردريك الأكبر) أن طبيباً عادياً يمكن أن يحصل من علاج المرضى على أكثر مما يحصل عليه القسيس الفاضل من عمليات الغفران . (٤٤) ومن ثم حول جوليان إهتمامه إلى التشريح والطب وحصل على درجة فى الطب من ريمس ، وتعلم على بورهاف فى ليدن ، وكتب عدة أبحاث طبية ، وعمل جراحاً فى الجيش الفرنسى ، ورأى واحداً

في المائة من المخد والعظمة وتسعة وتسعين في المائة من حالات الإسهال^(٥) في ساحتي القتال في دتنجن وفونتنوي ، ولزم هو نفسه الفراش أثر حمى شديدة ، فلما شفي زعم أن صفاء ذهنه أو موضوع تفكيره كان يختلف باختلاف درجة الحمى . ومن ثم خلص إلى أن التفكير وظيفة المخ ، ونشر هذا كله وما يرتبط به من آراء ١٧٤٥ تحت عنوان « التاريخ الطبيعى للنفس » .

وسار البحث على هذا المنوال : « نحن لا نعرف ما هي النفس . ولا نعرف ما هي المادة ، ولكننا نعرف على أية حال أنه لا توجد نفس بلا جسد . ولدراسة النفس يجب دراسة الجسم ، ولدراسة الجسم ينبغي أن نبحث في قوانين المادة . إن المادة ليست مجرد امتداد ، إنها أيضاً قدرة على الحركة ، وهي تشتمل على مصدر فعال يتخذ مزيداً من الأشكال في مختلف الأجسام ، ولسنا نعرف أن للمادة في ذاتها قوة الإحساس ، ولكننا نشهد دليلاً على تلك القوة حتى في أحظ الحيوانات . وإنه لأكثر إتفاقاً مع المنطق أن نعتقد بأن هذه الحساسية تطور من إمكانية من أصل واحد في المادة ، من أن تعزوها إلى نفس خفية صبت في الأجسام عن طريق قوة خارقة للطبيعة . وعلى هذا فإن هذا المصدر الفعال « في المادة يتطور في النبات والحيوان حتى إذا كان في الإنسان مكنه من أن يدق قلبه ، ومن أن تهضم معدته ومن أن يفكر نحوه . وهذا هو التاريخ الطبيعى للنفس . » -

وارتعدت فرائص القسيس في كتيبه لامترى فزعا لهذه النتيجة ، وصاح منذراً متوعداً ، وفصل الطبيب الفيلسوف من وظيفة الجراح في الجيش ، وكان يمكن أن يهب زملاؤه الأطباء لنجدته ، لولا أنه كان قد كتب في نفس الوقت تقريرا كتابا صغيرا تحت عنوان « سياسة الأطباء » يهجو فيه دسائسهم في تنافسهم على الوظائف التي تدر مالا وفيرا . وانضموا إلى مهاجمته واستنكار آرائه . ورأى أن عمله في الطب قد أنهار كما انهارت شهرته ، ففر إلى ليون ، وهناك شن هجوماً آخر على مهنة الطب وتحول إلى النسيئة .

وهكذا أصدر لامترى في ليون كتاب (الإنسان الآلة) وهو يقصد بالآلة معنا جسما ترجع كل أفعاله إلى أسباب وميليات بالية أو يائسة . أما

جسم الحيوان آلة فيتضح له من مائة ظاهرة : فمن جسم الحيوان يظل ينبض ويرتجف ، وأن أمعائه تظل تتمتعج (التمتعج موجات متعاقبة من تقلص لا إدارى تحدث في جدران الأمعاء فتدفع محتوياتها إلى الأمام) لبعض الوقت بعد الموت . وتنقبض العضلات التي تفصل عن الجسم إذا نهبت وهكذا . فالحيوانات عندئذ آلات ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم لا يكون الإنسان ، وعظامه وعضلاته وأوتاره وأعصابه قريبة الشبه إلى حد بعيد بالحيوانات العليا ؟ وواضح أن الذهن يعتمد على العمليات الفيزيائية الكيميائية في الجسم والأفيون والقهوة والخمر ومختلف العقاقير لا تؤثر في الجسم وحده . بل إنها يمكن أن تغير مجرى التفكير وطبيعته ، ومزاج الإرادة وقوتها . إنك إذا غيرت بعض الأنسجة في مخ فونتينيل جعلت منه شخصاً أحرق أبله ^(٤٦) ، إن مرض الجسم يمكن أن يضعف الذهن . إن النفس تكتسب حيوية ونشاطاً بالجسم ، وتكتسب حدة وذكاء كلما قوى الجسم ^(٤٧) ، والغذاء يؤثر في الخلق . وعلى هذا فان « الانجليز الذين يأكلون اللحم أحمر مشويا بالدم ، غير مطهوه طهيها جيداً مثل لحومنا ، يبدو أنهم يشتركون بشكل أو بآخر في الوحشية تبعاً لهذا اللون من الطعام ^(٤٨) فهل ندهش إذن إذا وعى الفلاسفة دائماً في أذهانهم صحة الجسم حفاظاً على صحة النفس ؟ » ، وأن « فيثاغورس وضع قواعد للتغذية كما حرص أفلاطون على تحريم الخمر ؟ » ^(٤٩) ويخلص لامترى إلى أنه :

حيث أن كل قدرات النفس تعتمد إلى مثل هذا الحد على التنظيم السليم للمخ وكل أجزاء الجسم ... فمن الواضح أن هذه القدرات ليست إلا هذا التنظيم نفسه . وواضح أن النفس آلة مستنيرة ... فالنفس لذلك لفتة جوفاء ، ليس لدى أى إنسان فكرة عنها . ويجدر أن يستخدمها الإنسان المستنير لتعنى فقط ذلك الجزء الذي يفكر فيها ^(٥٠) .

وفي كتاب « الإنسان نبات » (١٧٤٨) توسع لامترى في « سلسلة الوجود » الكبيرة إلى نظرية للتطور . وفقد بعض ثقته حين حاول تخطي الهوة الواضحة بين اللاعضوى والعضوى ، وفجأة نسى الآلية (المذهب الآلى) وانزلق إلى

المذهب الخيزرى : افترض بذورا معينة مكنت المادة من أن تسبب الحياة ^(٥١) ووجد من السهل عليه بعد ذلك أن يتبع اوكريتس « لابد أن الأجيال الأولى كانت ناقصة غير تامة ... وما كان يمكن أن يكون الكمال عمل يوم واحد في الطبيعة ، ولا في الفن » ^(٥٢) . وليضيق الهوة بين الحيوان والإنسان يحاول لامترى ، على النقيض من ديكارث ، أن يبرهن على أن بعض الحيوانات تفكر : —

لننظر إلى القرود والسمور (حيوان ذو فراء ثمين) والفيل وغيرها في تصرفاتها . وواضح أن هذه الأنشطة لا يمكن تأديتها دون ذكاء . ولم ننكر الذكاء على هذه الحيوانات ؟ وإذا وهبهم نفسا فقد ضيعت . ومن ذا الذى لا يرى أن روح الحيوان نجب أن تكون فانية أو باقية ، من أى النوعين نفس الإنسان ؟ ^(٥٣) .

وليس ثمة فرق كبير بين أبسط إنسان وأذكى حيوان « فالبلهاء » أو المعتوهون حيوانات لها وجوه بشرية . كما أن القرود الذكي إنسان صغير ذو شكل آخر ^(٥٤) ويستطرد لامترى فيقول في دعابته المألوفة أن كل مملكة الإنسان ليست إلا مركبات من قرود مختلفة . ووضع البابا نيوتن على رأسها ^(٥٥) ولم يعد الإنسان يكون قردا إلا عندما اخترع أصواتا معينة لتكون تعبيراً مناسباً عن أفكار بعينها . وأصبح إنسانا بفضل اللغة ^(٥٦) . وهل أقر لامترى بوجود إله « محرك أول » لآلة العالم ؟ وكأن فولتير وديدور قد دافعا عن هذه الحججة من الحاجة إلى وجود نظام للكون . ورفضها لامترى في احتقار :

إن كل تفكير يقوم على العلل أو الأسباب النهائية تفكير طائش . إن الطبيعة تمهد الطريق للسيد البرجوازي ليتحدث نثرا دون أن يعرفه . إن الطبيعة عمياء حين تهب الحياة . قدر ما هى بريئة حين تدمرها . وكما أنها دون نظر خلقت عينين تبصران ، فإنها كذلك صنعت دون تفكير ، آلة تفكير ^(٥٧) .

ولم يكن لامترى ملجداً صريحاً . إنه تظاهر بالميل إلى نبذ موضوع الإله

على أنه غير هام « فليس يهمننا من أجل راحة البال ، إذا كانت المادة أبدية أو أنها خلقت ، أو أنه يوجد أو لا يوجد إله » . (٥٨) ولكنه نقل ربما عن صديق وهمي « إن العالم لن يكون سعيداً مطلقاً إلا إذا كان ملحداً » ، فعند ذلك لا تكون ثمة مزيد من خلافات لاهوتية ولا اضطهادات من جانب الكنيسة ولا مزيد من الحروب الدينية ، ويمكن للإنسان أن يعبر عن غرائزه الطبيعية دون شعور بالإثم (٥٩) وقنع لا مرمى بالنسبة لشخصه بالمادية (المذهب المادى) واختتم كتابه « الإنسان آلة » بعبارة جريئة متحدية : « هذا هو منهجى — بل هو الحق ، إلا إذا كنت قد ضللت كثيراً . إنه موجز بسيط . ناقشوه الآن إذا أردتم » . (٦٠) ويحتمل أنه من قبيل الدعاية أهدى لامترى بيانه « اللاأدرى » (الغنوصى) إلى الشاعر المتدين الورع والعالم الفسيولوجى البرخت فون هوللر الذى رفض الإهداء فزعا جزوعاً فى خطاب إلى « صحيفة العلماء » عدد مايو ١٧٤٩ .

إن المؤلف المجهول لكتاب « الإنسان آلة » أهدى إلى كتابه الخطير بقدر ما هو شاذ غير مألوف ، وإنى لأشعر بأنى مدين بالفضل لله وللدن ولنفسى ، إذ أدلى بهذا التصريح ... إنى أعلن هنا أن الكتاب الذى نحن بصددده لا يلتزم مع مشاعرى ، وأعتبر أن فى إهدائه إلى شخصى إساءة بالغة تفوق فى قساوتها كل إساءة وجهها المؤلف المجهول إلى كثير من أفاضل الناس . وأرجو أن يتأكد الجمهور أنى لا علاقة لى بهذا المؤلف ... وأنى لا أعرفه ... وأنه يجدر بى أن أعتبر أى توافق بيننا فى الآراء أعظم كارثة محققة يمكن أن تنزل بى (٦١) .

واستمر لامترى يطبع الإهداء فى الطبقات اللاحقة من هذا الكتاب . وتناول الناس « الإنسان آلة » بالنقد والتحريض على نطاق واسع ، واجمعوا على دحضه وتفنيده . وكان من اليسير نقد الأسلوب المضطرب فى هذا المجلد الصغير وشجب الثقة بالنفس وتبيان مواضع مجانبة الحقيقة . ولم يكن واضحاً على الإطلاق أن النفس والجسم يغلبهما النعاس معاً (٦٢) وبعض الكتاب أكثر إشرافاً فى أحلامهم وأوهامهم منهم فى كتاباتهم . وقد

يستقر جسم مريض فى ذهن سليم مثل بوب وسكارون ، ولن يسلم محبو
البحر النادرة أنهم لا يزالون فى مرحلة الصيد . إن لامترى نفسه الذى كان
كثير المزاج نشر نقدا مزعوما لكتابه ، فى رسالة غفل من اسم المؤلف تحت
عنوان « الإنسان أكثر من آلة » — وربما كان هذا وسيلة لجذب الأنظار إلى
كتابه الأول .

ومن ناحية أخرى ربما كان لامترى متأثرا حقا بالحجج التى تساق ضد
المذهب الآلى ، ونحن نعلم أنه كان مهتما بشرح ترمبلى (١٧٤٤) للقوى
التجديدية فى الماء العذب لبعض الحيوانات المائية البسيطة ، مما لم يتفق بسهولة
مع النظرية الآلية • وكان جورج سقتال الذى اشتهر برأيه فى وجود نارية
فى الأجسام ، قد قلب فى جرة (١٧١٧) الفرضية الفسيولوجية ، ذلك أنه
بدلا من القول بأن الجسم هو الذى يحدد أفكار النفس واختياراتها ، فإن
النفس — وهى العنصر المتأصل النشط — هى التى تتحكم فى نمو الأعضاء
وعملها . وكان تيوفيل دى بوردو — طبيب دالمير — يعتقد أن العمليات
الفسيولوجية ، حتى أبسط الهضم غير قابلة لتفسيرات آلية أو كيميائية
بحثة (٦٣) وعرض جان بابتست روينيه الحيوية كونية وهبت كل المادة
الحياة والحساسية . وكان واضحا أن لامترى يود أن يرتضى هذا الحل لمشكلة
المادة بازاء الحياة .

وفى الوقت عينه انتقل لامترى ليستنتج مذهبا قائما على اللذة من فلسفته
المادية . وفى كتب ثلاثة مستقلة — بحث فى السعادة ، واللذة ، وفن الاستمتاع —
أعلن أن حب الذات هو أسنى الفضائل . وأن اللذة الحسية هى أعظم الخير ،
وكره تحقير اللاهوتيين للملذات الحياة ، ونازع فى سمو المتعة العقلية المزعومة
ورأى أن كل الملذات حسية حقاً . ومن ثم فإن البسطاء من الناس الذين
لا يهتمون بالحياة الفكرية أسعد حالا من الفلاسفة ، ويقول لامترى :
لا يندمن أى إنسان على انغماسه فى الملذات الحسية ما دامت لا تنطوى على
أى ضرر للغير ، ولا يجوز أن يعتبر أى إنسان مسئولاً مسئولية خلقية عن
جرائمه لأنها نتاج الوراثة والبيئة اللتين لا سلطان له عليهما ، وينبغى ألا

يعالجه بالعظاؔ بل بالءواء . وبخزم يخمى المآآمع ، بل وبشفقه آعآرف بمآمية كونية . ومن المرعوب فيه أن نأآار لمناصب القضاء أمهر الأطباء (٢٤) .

وكانآ هذه الآراء من علاآم لآنآصار أبيقور (وقد أسى فهمه) على زينون فى فرنسا القرن الآامن عآشر : واستسلمآ الفلأسفة الرواقية فى العهء الزاهر للويس الرابع عآشر ، لءفاع الأبيقورية عن مذهب اللة فى عصر الإسآنارة ، ولشمولية المااء وإطراح الألة . فلا عجب أن يشآء الإقبال على كآب لآرى من آجمهور آآرر من أوهام اللاهوت وأرهقه الشكليات الآقليءية والقبوء الآلقية . ومهما يكن من أمر فإن المآآمع المذهب نفر من لآمرى باعآباره مفكرا آارجا على آماعه كشف عن كثير من معآقءاء الطبقة العليا . وهو عاجز عن ضبط النفس . وهاآمه رجال الءين مبعوآا من عىء الشيطان . واستآآ رجال اللاهوت فى لىءن الآكومة الهولنءية لإبعاءه عن البلاد . وفى فبراير ١٧٤٨ ءعاه المفكر الآر فرءريك الأكبر للآضور إلى بروسيا ومنحه رآبا . وضمه إلى أكاءيمية العلوم فى برلين ، واستأنف لآمرى ممارسته مهنة الطب وكآب عن الربو وعن الءوسآناريا أآآاا اعآبرها الملك آحسن ما كآب من نوعها . وبعد أن اصآطم فولآير بلامآرى فى آاشية فرءريك . كآب إلى مءام ءنيس فى ٦ نوءبر ١٧٥٠ يقول :

هنا رجل مرآ آءا . هو لآمرى ، وأفكاره عبارة عن ألعاب نارية ، على شكل صوارىآ من السماء ءأما . وآرآرآه مسلية لبضع ءقائق . ولكنها مزعآة بعد ذلك إلى آء مؤلم . إنه ألف ءون أن يءرى كآبا رءىآا . ءأب فيه على آآريم الفضيلة والءم وامآءاح 'رءاآل'، وآرض فيه قراءه على الآياة المآآلفة والمآافية للأآلاق والآشمة - ءون قصد سى منه . وفى كآابه هذا ألف من اللمسآ المشرقة ، ولكن فيه نصف صفآة من العقل . إنها أشبه بومضآ برق فى اللىل .. اللهم آلى بى وبىن آآآاهه طبىيا لى ، إنه قء يعطى عقارا مزعآا يءلا من الراوآء بكل براءة . آم يشرع فى الفآآك والسآورية . وهذا الطيب العجيب هو قارىء الملك .

وأحسن ما فى الموضوع أنه يقرأ له كتاب « تاريخ الكنيسة » إنه يقرأ
مئات من الصفحات من الكتاب ، وهناك مواضع يكاد يختنق فيها
الملك والقارىء من الضحك (٦٥) .

وكان لامترى قد وصف الموت بأنه خاتمة مسرحية هزلية ساخرة تمثل .
وفى ١١ نوفمبر ١٧٥١ ، وهو فى الثانية والأربعين قدم نفسه مثالا لهذه
المسرحية . فى مأدبة عشاء أقامها له مريض عاجله من داء عضال ، فأنخم
بفطيرة من لحم الطير ، فانتابته حمى شديدة وقضى نحبه . وهنا قتل المرص
طبيبه (٦٦) . وكتب الملك بهذه المناسبة رثاء جميلا . وتنفس فولتير الصعداء .
وانتقلت أفكار الرجل المتوفى إلى ديدرو ودى هولباخ ، ودخلت إلى روح
العصر .



الفصل التاسع عشر

ديدرو والموسوعة

١٧١٣ - ١٧٦٨

١ - سنوات الضياع والكسل : ١٧١٣ - ١٧٤٨

ولد ديدرو في ٥ أكتوبر ١٧١٣ في لانجرز في شمبانيا ، على مسافة ٣٨ ميلاً من ديجون . وكان أبوه ديدريه ديدرو يشتغل بصنع الأدوات القاطعة وتخصص في صنع آلات الجراحة وكانت الأسرة تشتغل بهذه الحرفة لماثي سنة خلت . ولم يرث دنيس عن أسلافه ثباتهم القانع على مهنتهم وعقيدتهم ، ولكنه لم يكف يوماً عن أجداله وحسن تقديره لا مائة أبيه الموسومة بالبساطة وأقبله على أعمال البر والخير في هدوء . وينقل عنه دنيس قوله : « أى بنى ، أى بنى أن العقل وسادة ممتازة وثيرة ولكنى أجد وثارة وراحة أكثر حين أسند رأسي إلى وسادة الدين والقوانين »^(١) وهنا في حملة وأحدة تردد الصوتان اللذان سمعا في فرنسا القرن الثامن عشر . - وكان له أخ أصبح كاهناً وخصماً لدوداً لدنيس . وأخت دخلت الدير .

وكاد دنيس نفسه أن يكون كاهناً ، ذلك أنه منذ الثامنة حتى الخامسة عشرة من عمره التحق بمدرسة يسوعية في لانجرز وفي الثانية عشرة حلق شعر رأسه وارتدى غفارة سوداء (لباس الكاهن في الكنيسة) وعاش حياة الزهد والتقشف ، وعقد العزم على أن يكون يسوعياً . وفسر هو هذا فيما بعد ، بأنه فيض من حماسه ، وأنه كان قد أخطأ « الحافز الأول لحنين جنسي ينمو بين جنبيه فخاله صوت الله »^(٢) . وأبتهج الوالد ديدريه لهذا النداء الباطني الجديد لدى أبنه . ورأفقه مغتبطاً إلى باريس (١٧٢٩) ليلحق ، بكلية (لويس الأكبر) اليسوعية هناك ومنها حصل في ١٧٣٢ على درجة الأستاذية . ولكن كما حدث في حالات كثيرة كان اليسوعيون يفقدون راهباً مبتدئاً بشحن ذهنه وصقله : واكتشف دنيس أن باريس عبارة عن

مواخير أكثر منها كنائس . فخلع غفارته وتخلّى عن ورعه وتقواه ، وأنصرف إلى التدريب عند أحد المحامين . وسرعان ما نبذ القانون ، وقضى عشر سنين ينتقل من مهنة إلى مهنة . وعانى آلام الفقر في حجرة فوق السطح ، ونقد صبر والده ففتح عنه النفقة ، ولكن والدته كانت تمده ببعض المعونة خفية . وأقترض دينيس بعض النقود ، وكان أحيانا يسدد ما أقترض . وأعطى دروسا خاصة في الرياضيات ، ودبج العظمت للقساوسة ، وأشتغل كاتباً عند بائع كتب ، وفي نفس الوقت تابع دراسته في الرياضيات واللاتينية واليونانية والانجليزية ، وألم الماما جيداً بالأيطالية . وكان متمرداً على القانون ولكنه كان تواقاً شديد التوق إلى المعرفة والحياة . لم يتعلم النظام والانضباط قط ، ولكنه تقريباً تعلم كل ما عدّ ذلك .

وكان مفلساً خالي الوفاض ، ولكنه ممتلئ حيوية وقوة ، ووقع في شرك الغرام وأعزم الزواج . وكانت انطوانيت تكبره بثلاث سنين وثمانية أشهر ، ولكنها كان سيدة . وعنفته على شبابيه المفاجيء ، ولكنه أكد لها أن هذا مقدمة لحياة زوجية آمنة ، وأنه سيكون رفيق حياتها الخالص الأمين إلى الأبد . « أن خطابات غرامى الأخيرة موجهة إليك ، ولتعاقبنى السماء باعتبارى أشر الناس وأشدّهم خيانة وغدرا إذا سطرت كتاب غرام إلى أحد غيرك »^(٣) . ونقضت أرق خطابات هذا العهد . واستسلمت والدته أنطوانيت لدموع أبنيتها ولقصاحة الخطيب ولسانه الذرب ، ووافقت على الزواج شريطة الحصول على موافقة أبيه . وجمع ديدرو ما يكفى من المال لسداد نفقات العربة إلى لانجرز على بعد ١٨٠ ميلا .

ووصل إلى لانجرز ، وهناك تأثر والده بتجارب طبع وصلت إلى أبنه لترجمته لتاريخ اليونان عن الإنجليزية . وعرض الوالد أن يقدم العون لأبنه في أى عمل . وكان على دينيس أن يختار ، ولا بد أن يقع اختياره على شيء ما . فأعلن الشاب عن تلهفه على الزواج فعنفه أبوه بقسوة على أنه شاب عاق كسول سىء التدبير . ورد الابن رداً وقحا ، وأقسم أن يتزوج سواء وأفق أبوه أم لم يوافق ، ودون أى عون مادي منه . وسجنه أبوه في دير محلى ،

وهرب دنيس وسار على قدميه تسعين ميلا إلى تروى حتى أستقل عربية هناك . وعاد أدراجه إلى باريس .

ولكن مدام شامبيون كانت مصممة على ألا تزوج أبنها من رجل منفصل عن أبويه محروم من الميراث وكان ديدرو يقيم في حجرة حقيرة لأيكاد مملك من حطام الدنيا شيئا ، وأنتابه مرض شديد فلما علمت أنطوانيت بذلك أمرت إليه مصطحبة أمها معها قسرا ، وهناك أنهارت معارضة الأم . وسهرت مدام شامبيون وأبنها على العناية بالفيلسوف المريض ، وفي ٦ نوفمبر ١٧٤٣ تزوجت « نانيت من نينو » (كما كان يسمى الواحد منهما الآخر) في منتصف الليل في كنيسة صغيرة أثرت بمثل هذه الزيجات السرية . وأبتهج الزوجان بانجاب طفلة بعد تسعة أشهر ، ولكنها لم تعمّر لأكثر من ستة أسابيع . وولد لهما ثلاثة أطفال آخرين جاوز واحد منهم سن الطفولة . وأثبتت أنطوانيت أنها زوجة مخلصنة ولكن رفيقة غير ملائمة عاجزة عن متابعة تحقيقات أو شطحات زوجها الفكرية ، غير راضية في شيء من المزاح ، عن دخله الضئيل من الترجمة . وعاد إلى مقاهى الفساد يعيش على القهوة ويلعب الشطرنج . وفي ١٧٤٦ كان قد اتخذ له عشيقا هي مدام بويسيه ، ومن أجلها كتب « الأفكار الفلسفية » « الحلى الزائفة » و « رسائل إلى العميان » .

وكان منذ وقت طويل قد استسلم لفتنة الفلسفة التي تجتذبنا دائما ، لأنها لا تجيب أبدا عن الأسئلة التي لا تكف مطلقا عن القائها . ومثل بعض المفكرين لأحرار في هذا القرن ، تأثر من هذه الناحية تأثرا عميقا بقراءة مونتاني وبيل ، ووجد في كل صفحة تقريبا في « المقال » وفي « القاموس » فكرة رائعة تلفت النظر . واجتذبه كثرة مراجع مونتاني وأشاراته إلى الروائع الوثنية إلى الاستزادة من دراسة الفلاسفة اليونان والرومان وبخاصة ديموقريطس ، وأبنيقوز ولوكريتيوس . وكان هو نفسه « الفيلسوف الساخر » في عصره ، فليسوفا ماديا يتدفق حيوية ونشاطا - ولم تتيسر له نفقات زيارة إنجلترا مثل فولتير ومونتسكيو ، ولكنه تعلم أن يقرأ الإنجليزية في سهولة

ويسر . ولو ليستمتع بالشعراء والكتاب المسرحيين الانجليز . وسوف نراه يتجاوب مع عواطف طومسون ويدافع ، مثل لبلو عن مأساة حياة الطبقة الوسطى . وتأثر بدعوة فرانسيس بيكون إلى قهر الطبيعة وطريق البحث العلمى المنظم ، وانتقل إلى تمجيد التجربة أداة عظيمة للعقل . وأستمع فى سننى تكوينه وتشكيله هذه ، ومرة أخرى عند إعداد الموسوعة - إلى محاضرات فى البيولوجيا والفسيولوجيا والطب . وشهد طيلة سنوات ثلاث مؤتمرات رويل فى الكيمياء ودون ملاحظات فى ١٢٥٨ ورقة من القطع الكبير . ودرس التشريح والفيزياء ، وتمشى مع رياضيات زمانه ، وتابع الأبحاث من بيكون إلى هوبز ولوك والروبين الانجليز . وفى ١٧٤٥ ترجم كتابا شافيتسبرى « بحث فى الفضيلة والجدارة » وأضاف تأملات من عنده ، وأستمر طوال التقلبات يؤمن بأن الخير والحقيقة والجميل كلها مؤتلفة تقريباً ، وأن قانونا أخلاقيا مؤسساً على العقل ، لا على الدين ، يفيد النظام الاجتماعى بدرجة كافية .

وأصدر فى ١٧٤٦ ، مدفوعاً بكل هذه الحوافر وبخياله الواسع الحبيب ، كتابه « أفكار فلسفية » دون أن يذكر اسم المؤلف . وكان متطرفاً إلى حد يمكن معه أن ينسب إلى لامترى ، بليغاً إلى حد يمكن معه أن ينسب إلى فولتير . وربما كان لكليهما بعض الفضل فيه . وبدأ بدفاع عن « الانفعالات » وهنا حاول الفكر الجرىء ، متفقاً فى ذلك مع صديقه روسو ، أن يبرهن على أنه لا ضير من « أن تقول الفلسفة كلمة فى صالح خصوم العقل ، مذ كانت الأنفعالات وحدها هى التى ترتفع بالنفس إلى الأشياء العظيمة ، ولن يبلغ شئ ذروة السمو فى الأخلاق أو الأعمال بدون الأنفعالات ، فقد ترجع الفنون القهقرى إلى طفولتها ، وتقلص الفضيلة إلى أنفاه الأعمال بدونها^(٤) . ولكن الأنفعالات بدون نظام تكون مدمرة . ويجدر أن يكون هناك بعض التنسيق بينها ، ولا بد من إيجاد طريقة ليكبح الواحد بحاج الآخر . ومن هنا نحتاج إلى العقل ، وينبغى أن يكون أعظم هاد ومرشد لنا ، وهنا كانت محاولة مبكرة فى عصر التنوير للتوفيق بين العقل والوجدان ، بين فولتير وروسو .

وكان ديدرو ، مثل فولتير ، فى أولى مراحل تطوره ونموه ، ربوبيا . أن شواهد تصميم العالم وتكوينه ترغم على الإيمان برب ذكى بارع . ويمكن أن يفسر المذهب الآلى المادة والحركة ، ولكنه لا يستطيع تفسير الحياة والفكر . أن ملحد المستقبل تحدى الملحدين أن يفسروا عجائب حياة الحشرات التى كشفت عنها حديثا أبحاث ربومير وبونيه :

هل رأيتم فى تفكير أى إنسان وأعماله ، ذكاءا ونظاما وحكمة وأتساقا أكثر من تركيب الحشرة ؟ اليس بصمات الإله وأصحة فى عين البعوضة الصغيرة وضوح موهبة التفكير فى أعمال نيوتن العظيم ؟ . . . فكروا فقط فى أى لم أبرز لكم إلا جناح الفراشة وعين البعوضة . على حين كان يمكن أن أسحقكم بثقل الكون^(٥) .

ومهما يكن من أمر فأن ديدرو نبذ فى إزدراء الإله الذى جاء به الكتاب المقدس حيث بدأ له هذا الرب جباراً قاسياً غاية الجبروت والقسوة ، واتهم الكنيسة التى نشرت هذا المفهوم بأنها منبع الجهل والتعصب والأضطهاد . وهل تمة شىء أشد حمقاً وسخفاً من أن يجعل الهاً يموت على الصليب لهدىء من غضب الله على رجل وامرأة ماتا منذ أربعة آلاف سنة . ثم ... كما يقول بعض رجال اللاهوت « إذا لعنت وعذبت ألف نفس مقابل خلاص نفس واحدة ، اليس الشيطان هو الرابع فى هذه القضية ، دون أن يسلم الرب أبنه إلى الموت ؟ ولم يعترف ديدرو بأى وحى إلهى سوى الطبيعة نفسها . وناشد قراءه أن يرتفعوا إلى مفهوم رب جدير بالكون الذى كشف عنه العلم . وطالب « بتكبير إلهه وتحريره^(٦) » .

وأمر برلمان باريس باحراق الكتاب بمعرفة المدعى العام بتهمة « تقديمه إلى الأذهان القلقة المضطربة الجريئة أشد الأفكار سخفاً وأجراما ، والتى من شأنها إفساد الطبيعة البشرية ، وبوضعه كل الأديان فى مستوى واحد تقريباً ، فى ارتياب مصطنع ، حتى ينتهى إلى عدم الاعتراف بها جميعاً^(٧) » ولما كان أحراق الكتاب الصغير (٧ يوليو ١٧٤٦) بمثابة إعلان عنه ، فوجد له عدداً غير متوقع من القراء ، وترجم إلى

الالمانية والأيطالية ، ولما تهامس الناس بأن ديدرو هو مؤلفه ، أرتفع إلى مرتبة تدانى فولتير . وتسلم منه الناشر ٥٠ جنيناً ذهبياً . أعطاها لعشيقتة التي كانت في حاجة إلى ملابس جديدة .

ولما تزايدت مطالب مدام دى بويسييه ، ألف ديدزو كتاباً آخر (١٧٤٧) سمع به كاهن الأبرشية ، فتقدم بالرجاء إلى الشرطة لتحضى المسيحية من هجوم ثان . ففاجأ رجال الشرطة المؤلف فى داره وصادروا مخطوطة الكتاب ، أو كما يروى بعضهم ، قنعوا بوعده منه بعدم نشره . وعلى أية حال لم يظهر كتاب « نزعة الشكاك » حتى ١٨٣٠ ولم يزد هذا الكتاب شيئاً فى شهرة المؤلف ولكن كان فيه تنفيذ عن مشاعره . ولجأ إلى حيلة الفيلسوف الأثرية لديه فى المراوغة ، إلا وهى الحوار ، فهياً لربوبى وقائل بوحدة الوجود (الله والطبيعة شىء واحد ، الكون المادى والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات لألهية) وملحد ، بأن يشرحوا وجهات نظرهم فى الألوهية . ويكرر الربوبى فى حماسة الحجة المأخوذة من تصميم الكون ، ولم يكن ديدرو مقتنعاً بعد بأن تكيف الوسائل مع الغايات فى الكائنات هو تكيف رائع ممتاز يمكن تفسيره بعملية عمياء من تطور اتفاق جاء مصادفة . أما الملحد فيصر على أن المادة والحركة والفيزياء والكيمياء تفسير للكون أفضل من إله لا يفعل إلا أن يؤجل مشكاة الأصل أو المنشأ . أما القائل بوحدة الوجود ، وكانت له الكلمة الأخيرة والقول الفصل ، فيعتقد أن الذهن والمادة أبديان معاً ، وأنهما يؤلفان الكون ، وأن هذه الوحدة الكونية هى الله . وربما كان ديدرو يقرأ سبينوزا .

وكان عام ١٧٤٨ مثيراً ومجهداً . كانت أنطوانيت قد وضعت طفلاً . وكانت مدام دى بويسييه تطالب بتعويض عن الزنى والفجور ، ومن المحتمل أن ديدرو ، رغبة فى الحصول على المال بسرعة ، كتب آنذاك قصة فاجرة « الحلى الزائفة » وبناء على ما أورده أبنته (مدام دى فاندليل مستقبلاً فى كتابها : مذكرات من تاريخ حياة وأعمال ديدرو) — ولا ينبغي الأخذ بما جاء به قبل التأكد من صحته — فإن ديدرو ذكر لعشيقتة أن كتابة قصة مسألة سهلة نسبياً ، ولكنها تحدثه فى ذلك فراهن على تأليف قصة ناجحة فى

أسبوعين ، وأوضح أنه كان يقلد كريبيون Crebillon الأصغر في « الأريكة » ١٧٤٠ حيث أخذت أريكة تتذكر من جديد عدد العاشقين الذين كانت تن تحتم . وتخيّل ديدرو خاتماً سحريا عند أحد السلاطين إذا وجهه إلى الحلّي الزائفة عند المرأة ، جعلها وعشيقها يعترفان بكل ما قاسى الأثنان وعانيا من الغرام . ووجه الخاتم السحري إلى ثلاثين سيدة ، وما كاد يفتر عنصر التشويق والأمتاع في المجلدين كليهما . وخلط المؤلف البذاءة بشيء من الملاحظات المثيرة عن الموسيقى والأدب والمسرح - وأضاف حلما رأى فيه السلطان طفلا يسمى « التجربة » أخذ ينمو ويكبر ويقوى حتى دمر معبداً قديماً أسماه « الفرضية » وحقق الكتاب غرضه على الرغم من إقحام الفلسفة فيه ، حيث أمكن أن يدر مالا ، ودفع الناشر لورنت دوراندا لديدرو مبلغ ١٢٠٠ جنيه في المخطوطة وعلى الرغم من أن الكتاب لم يكن يباع إلا خلسة فقد عاد بربح وفير . وخرجت ست طبعات بالفرنسية في ١٧٤٨ وظهرت عشر طبعات في فرنسا بين عامى ١٩٢٠ - ١٩٦٠ والواقع أن هذا أوسع كتب ديدرو أنتشارا وأكثر عدد طبعات^(٨) .

وبدل ديدرو من طبعه وحالته النفسية حين كتب رسائل علمية . وقدر أحسن التقدير كتابه « مذكرات في موضوعات مختلفة في الرياضيات » (١٧٤٨) الذى ضم أبحاثاً علمية أصيلة في الصوت والجهود ومقاومة الهواء ، وتصميماً لا رغن جديد « يمكن أن يعزف عليه أى إنسان . وأثبت « مجلة الرجل المذهب » « وصحيفة العلماء » على بعض المقالات ، بل إن صحيفة اليسوعيين « دى تريفو » إمتدحتا ، ودعت إلى مزيد من مثل هذه الأبحاث من رجل بارع قدير مثل مسيو ديدرو الذى نلاحظ أن أسلوبه رشيق واضح غير متكلف بقدر ما هو مبدع^(٩) . وظل ديدرو طوال حياته ينطلق بشكل غير متواصل إلى العلوم الطبيعية . ولكن إزداد ميله إلى مسائل علم النفس والفلسفة . وكاد يكون فى كل مجال تقريباً أكثر المفكرين أصالة فى زمانه .

٢ - الأعمى والأصم والأبكم ١٧٤٩ - ١٧٥١

لفت نظر ديدرو بوجه خاص مسألة كان قد أثارها وليم مولينكس
الاييرلندى ١٦٩٢ : هل يستطيع لإنسان ولد أعمى كان قد تعلم التمييز بين
مكعب وجسم كروى باللمس . أن يفرق في الحال إذا عاد إليه بصره ، بين
هذين الجسمين ، أو هل يقتضى الأمر قبل هذا التفريق بعض الخبرة في
العلاقات بين الأشكال ملموسة ونفس الأشكال مرئية ؟ وجاء الجواب الثانى
من مولينكس وصديقه لوك . وفى ١٧٢٨ قام وليم شزلدن بتجربة ناجحة
على صبي فى الرابعة عشرة من عمره ، كان ضريراً عند الولادة ، وكان لزاماً
أن يتدرب الصبي قبل أن يتمكن من التمييز بين الأشكال بالنظر وحده .
ولأحظ ديدرو أيضاً بعناية مثيرة حياة نيقولا سوندرسن الذى فقد بصره
فى عامة الأول ، ولم يسترده قط ، ولكنه إبتدع لنفسه كتابة رياضية خاصة
على طريقة بريل ، ومن ثم أكتسب قدرة إلى درجة عين معها أستاذا
للرياضيات فى كمبردج .

وفى أوائل ١٧٤٩ دعا ريومور مجموعة مختارة من الناس ليشاهدوا ماذا
يحدث عند إزالة الضمادات عن عيني امرأة أجريت لها عملية لعلاجها من عمى
خلقى . وأستاء ديدرو وجرحت كبرياؤه لأنه لم يدع هو والفلاسفة الآخرون
إلى هذه المناسبة . وباستهتاره المعهود قال إن ريومور كان قد رتب أن ترفع
الضمادات أمام « بعض عيون لا قيمة ولا شأن لها »^(١) وطبقا لما روته أبنه
ديدرو أساءت هذه العبارة إلى مدام ديبرى دى سانت مور التى كانت
تفتخر بعينها والتى كانت العشيقة الحالية لمدير المكتبة الحالى ، أو كبير مراقبي
المطبوعات الكونت دارجنسون (مارك ببير ، الأخ الأصغر للمركز
رينيه لويس) .

وفى ٩ يونيو نشر دوراند كتاب ديدرو « رسالة عن العميان للخدمة
المبصرين » وكانت على شكل رسالة موجهة إلى مدام بويسيه . وبدأت
بوصف زيارة قام بها ديدرو وبعض الأصدقاء لزراع كروم أعمى . وأذهلهم
روح النظام عند الرجل المكفوف البصر إلى الحد الذى تعتمد عليه فيه زوجته

بالليل في إعادة كل شيء إلى مكانه بعد فساد النظام أثناء النهار . وكانت حواسه الباقية أحد وأقوى من حواسه الناس العاديين » وهناك بالنسبة له فروق بسيطة لاتكاد تذكر من نعومة الأجسام ، وهى فروق لاتقل دقة عن الفروق بين أصداء الأصوات ، ولاخوف من أن يحسب خطأ أن سيدة أخرى هى زوجته ، إلا اذا كان فى المبادلة كسباً له ^(١١) ولم يكن يدرك كيف يعرف الانسان الوجه دون أن يلمسه . وانحصرت روح الجمال عنده فى الأشياء الملموسة وفى رخامة الصوت والمنفعة ولا يجد عاراً فى العرى لأنه يجد أن فى الثياب حماية من الجو لا اخفاء الجسم عن أعين الآخرين . واعتبر السرقة جريمة كبرى لأنه يقف حياها عاجزاً لاحول له ولا قوة .

وخلص ديدرو إلى أن أفكارنا عن الصواب والخطأ ليست مستمدة من الله ، بل من خبرتنا الحسية . بل وحتى فكرتنا عن الله يجب تعليمها ، وهى أيضاً مثل فكرتنا عن الأخلاق ، نسبية متنوعة . ووجود الله مشكوك فيه لأن البرهان من أصل الوجود فقد كثيراً من قوته . حقاً هناك شواهد وبراهين على التصميم والتركيب فى كثير من الكائنات والأعضاء مثلما هو فى الدبابة والعين ، ولكن ليس ثمة شواهد على التصميم فى الكون باعتباره كلاً ، لأن بعض الأجزاء عوائق - إن لم تكن أعداء فتاكة - لأجزاء أخرى ، وكل تركيب تقريباً محكوم عليه أن يلتهمه تركيب عضوى آخر وتبدل العين مثلاً رائعاً لتطابق الوسائل مع الغايات ، ولكن فيها عيوب وشوائب جسيمة (كما يوضح هلمهولتز هذا تفصيلاً فيما بعد) وثمة عفوية أو تلقائية خلاقة فى الطبيعة ، ولكنها نصف عمياء . وتؤدى إلى كثير من الخلل والاضطراب والتبديد والضيعاع . وزعم ديدرو أنه اقتبس من كتاب « حياة دكتور نيقولا سوندرسون وخلقه لمؤلفه وليم انشليف (وواضح أنه لم يوجد قط) ، فأجرى على لسان الأستاذ الأعمى قوله « لماذا تحدثنى عن هذا المشهد الجميل الذى لم يصنع من أجلى قط ؟ . . . إذا أردت منى أن أومن بالله فهنبغى أن تجعلنى أألمسه ^(١٢) وفى سيرة الحياة الوهمية هذه رفض

سوندرسن الإيمان بالله ^(٩) وعزا نظام الكون إلى انتقاء طبيعي للأعضاء والتركيبات العضوية عن طريق بقاء الأصالح .

كل تركيبات معية ناقصة من المادة اختفت . ولم يبق منها إلا ما انطوى تركيبه على تعارض غير ذي أهمية ، والتي يمكن أن تستمر وتبقى بوسائلها الخاصة وتتوالد بنفسها . . . بل إن نظام العالم الآن ليس بالغ الكمال ، ولكن النتائج الضخمة الغريبة تظهر من حين إلى حين . . . ما هو العالم ؟ إنه مركب خاضع لثورات تشير كل منها إلى نزعة ملحة إلى التدمير ، تسلسل سريع للكائنات يعقب بعضها بعضاً . ويدفع بعضها بعضاً ثم تختفي ^(١٣) ويختتم ديدرو بمذهب اللاأدرية : « وأجسرتاه يا سيدتي ، إننا إذ نضع المعرفة الإنسانية في ميزان مونتاني فلن نبعد عن شعاره ، لماذا نكتسب المعرفة ؟ إننا لا نعرف شيئاً عن طبيعة المادة ، وعن طبيعة الذهن والفكر ، لا نعرف إلا أقل من ذلك . بل لا نعرف شيئاً إطلاقاً ^(١٤) .

وجملة القول إن رسالة العميان من أعظم وأروع ما كتب في عصر الاستنارة في فرنسا . إنه كتاب جميل ساحر من حيث السرد والتقصص ، كما أنه يتميز بدقة الملاحظة والتبصر البارع العطوف بوصفه بحثاً في علم النفس ، كما يتميز بخيال مثير بوصفه بحثاً في الفلسفة ، وهو مرهق قرب انتهاء صفحاته الستين ولكنه يضم بعض ما يجافي الحشمة مما لا يكاد يليق برسالة مفروض أنها موجهة إلى سيدة ، ولكن ربما كانت مدام دي بويسييه متعودة على خاطر ديدرو بين بذاة السوق وسعة الاطلاع والمعرفة . وشمل البحث ، لحسن الحظ ، اقتراحاً مفصلاً لما عرف فيما بعد باسم طريقة لويس بريل ^(١٥) .

وأرسل فولتير الذي كان آنذاك في باريس (١٧٤٩) إلى ديدرو تقريراً حماسياً للبحث ، قال فيه : « قرأت في سرور بالغ كتابك الذي يذكر الشيء الكثير ويوحى بشيء أكثر . وكنت منذ أمد أقدرك أعظم التقدير ، بقدر ما أحتقر أولئك الهمح الأغبياء الذين ينقصون من قدر مالا يفهمون . . .

(٥) مات سوندرسن ، طبقاً لما رواه أصدقائه ، متمسكاً بدينه . واستاءت الجمعية الملكية بلندن من نسبة ديدرو الإلحاد إلى أحد أعضائها ، ولم تسمح له قط بالانضمام إليها عضواً مراسلاً .

ولكنى أعترف لك أنى لست من رأى سندرسن الذى ينكرو وجود إله ،
لأنه ولد أعمى . وربما كنت مخطئاً ، ولكن لو أنى فى مكانة لأعترفت بوجود
كائن أعظم بارع وهبى إضافات كثيرة تكمل البصر . أود من كل قلبى
أن أتحدث إليك . وليس يهمنى أن تعتقد أنك واحد من مخلوقاته ، أو أنك
جزء دقيق التنظيم من مادة أبدية ضرورية . وقبل مغادرتى لونغفيل أرجو
أن تشربنى بتناول عشاء فلسفى معى ، فى دارى بصحبة بغض الحكماء .

ورد عليه ديدرو فى ١١ يونية :

سيدى الأستاذ العزيز : إن اللحظة التى تسلمت فيها خطابك من أسعد
لحظات الحياة . . . إن رأى سوندرسن ليس رأى ولا هو رأيك . . . إنا
أومن بالله ، ولكنى أنسجم كثيراً مع الملحدين ، ومن المهم جداً ألا نخلط
بين الشوكران (نبات يستخرج منه شراب سام) والبقدونس . ولكن ليس
يهمنى مطلقاً أن تؤمن بالله أولاً تؤمن به . وقال مونتاني إن العالم كرة تخلق عنها
الإله للفلاسفة ليهيئوا على وجوههم مطوفين حولها . . . (١٦) .

وقبل ظهور أية نتيجة لهذه المراسلات قبض على ديدرو . ذلك أن
الحكومة ثار غضبها لنقد صالح لكس لاشابل المدلل علناً . وأودعت السجن
نفراً من النقاد ، ورأت أن الوقت قد حان لكبح جماح ديدرو وإيقافه عند
حده ولسنا ندرى إذا كان الاتحاد المندس فى رسالة العميان هو الذى أثار
إحتجاج رجال الدين ، أو أن مدام دبرى دى سانت مور وقد ساءتها
إشارة ديدرو إلى العيون التى لا قيمة لها قد حفزت عшиقتها (كبير مراقبى
المطبوعات) إلى إتخاذ إجراء . وعلى أية حال فإن السكونت دارجنسون
أرسل أمراً مختوماً (٢٣ يوليو ١٧٤٩) إلى ماركيز دى شاتيليه محافظ قلعة
فنسان « إستقبلوا فى القلعة المدعو ديدرو ، وأودعوه فى السجن لحين صدور
أوامر أخرى منى » (١٧) وفى الصباح الباكر فى اليوم التالى طرق رجال الشرطة
باب ديدرو ، وفتشوا مسكنه ووجدوا نسختين أو ثلاثاً غير مجلدة من رسالة
العميان ، وعدة صناديق مملوءة بمادة الموسوعة الشهيرة التى كان يعدها

ديدرو ، وحملوها إلى القلعة (في ضواحي باريس) حيث وضع وحيداً في زنزانه في القلعة السكينة ، وسمح له بالاحتفاظ بكتاب كان في جيبه عند اعتقاله « الفردوس المفقود » وتهيأ له الآن فسحة من الوقت لقراءته بعناية . وكتب عليه حواشي وتعليقات بغير الطريقة التقليدية . واستخدم صفحاته الخالية في تدوين بعض أفكار وموضوعات أقل ورعاً وتديناً ، وتوصل إلى صنع الخبر من كشط الازدواز من الجدران وطحنه وخلطه بالنيبذ ، وإستخدام عودا من الخلال قلماً . وفي نفس الوقت هرعت زوجته التي عاشت بمكتبة مع طفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات إلى رئيس الشرطة برييه ، وتوسلت إليه أن يطلق سراح زوجها ، وأنكرت علمها بكتاباته « وكل ما أعرفه أن كتاباته شبيهة بسلوكه . أنه يعتز بالشرف أكثر ألف مرة مما يعتز بالحياة ، وإن مؤلفاته لعكس الفضائل التي يتمسك بها^(١٨) . وإذا كانت إنطوانيت لاتعلم شيئاً عن مدام دي بوسيه ، فإن الشرطة كانت تعلم ، وكان أشد فعالية وتأثيراً من ذلك الالتماس الذي تقدم به الرجال الذين عهدوا إلى ديدرو تحرير الموسوعة ، حيث أكدوا لكونت دارجنسون أن المشروع لا يمكن أن يخطو خطوة بدون السجين . وفي ٣١ يوليو استدعى برييه ديدرو وحقق معه وأنكر ديدرو أنه مؤلف « رسالة العميان » وكتاب « الأفكار » وكتاب « الحلى الزائفة » وأدرك رئيس الشرطة أنه يكذب ، وأعادته إلى السجن .

وفي شهر أغسطس ، كتبت مدام دي شاتيليه - قبل وفاتها بشهر واحد والمفروض أن هذا بايعاز من فولتير ، من لوفيل إلى قريبها محافظ فنسان ، ترجوه على الأقل أن يخفف من الشدة التي يعامل بها ديدرو . وحوالي ١٠ أغسطس عرض برييه أن يسمح للسجين بالتمتع بالحرية والتبسيرات في قاعة السجن الكبرى مع الترخيص له باستقبال الزوار وتلقى الكتب ، إذا قدم اعترافاً صادقاً . وفي ١٣ أغسطس وجه الفيلسوف المعاقب إلى برييه الوثيقة الآتية : -

أعترف لك بأن الكتب الثلاثة أن هي إلا نزوات غواية أملاها ذهن
تملص مني ، ولا كفى أستطيع . . . أن أعد تحت كلمة الشرف (وأنا فعلا
رجل شريف) بأنها ستكون الأخيرة . . . وستكون الوحيدة . . . أما بالنسبة
لهؤلاء الذين اشتركوا في نشر الكتب وطبعها ، فلن أخفي عنكم شيئاً
يتعلق بهم ، وسأفضي إليك سرا بأسماء الناشرين والطابعين ^(١٩).

وفي ٢٠ أغسطس أطلق سراحه من الزنزانة . ووضعوه في غرفة مريحة ،
وسمح له باستقبال الزائرين والتنزه في حدائق القلعة ، وفي يوم ٢١ وقع
تعهداً بالألّا يغادر المبني أو منطقته دون ترخيص رسمي . وجاءت إليه زوجته
لتواسيه وتؤنّب وتلومه ، وبعث من جديد حبه القديم لها . وزاره
دامبير ورسو ومدام دي بوبسييه وجاء إليه ملثموا الموسوعة ببعض المخطوطات
واستأنف عمله في تحريرها . ومنذ علم أن أخاه أبلغ أباه نبأ اعتقاله فانه
كتب إلى الوالد « السكاكيني » المتألم ، وأدعى أن اعتقاله كان بناء على مكيدته
لأحدى السيدات ، وطلب منه معونة مالية . وفي ٣ سبتمبر أرسل الوالد ردّاً
يكشف عن الجانب الانساني في الصراع بين الدين والفلاسفة :

يابني : تسلمت خطاييك للذين بعثت بهما إلى مؤخوا ، تبني بخبر
إعتقالك وسببه ، ولم أتمالك نفسي من القول بأنه لابد بالتأكيد أن هناك
أسباباً أخرى غير التي ذكرتها في أحد الخطابين . . . وحيث أنه لا يحدث
شيء إلا بإذن الله ، فلن لست أدري أيهما أفضل لتقويم خلقك : اخلاء
سبيلك أو إطالة مدة بقائك في السجن لمدة شهور أخرى لتفكر جيداً وملياً
في نفسك . ولا تنس أن الله إذا كان قد أنعم عليك بالمواهب ، فإنه منحك
إياها لا لتستخدمها في العمل على أضعاف مبادئ عقيدتنا المقدسة . لقد
قدمت دليلاً كافياً على حبي لك . هيأت لك فرصة التعلم على أمل أن تفيد
منه أعظم فائدة ، لا أن تورثني أشدّ الهم والغم والكمد حين علمت بما لحق
بك من خزي وعار . . . ساحني يابني . ولسوف أصفح عنك . أنا أعلم
أنه ليس ثمة لإنسان بمنجاة عن الافتراء وتشويه السمعة ، وأنهم قد ينسبون

إليك أعمالاً لم تشترك فيها . . . ولن يكون لك إعتبار أو قيمة في نظري إلا إذا صدقتني القول دون لبس أو مواربة ، بأنك كما أبلغوني من باريس بأنك تزوجت وأن لك طفلين . فان كان الزواج شرعياً وأن الأمر قد انتهى فأنا راض ، وآمل ألا تضن على شقيقتك بالشعور بالفرح لتنشئتهما ، وعلى بالسعادة لرؤيتهما أمام عيني . . . إنك تسألني مالا . ماذا ! إن رجلاً مثلك يعمل في مشروعات ضخمة . . . هل يمكن أن يكون في حاجة إلى مال ؟ ولقد قضيت شهراً في مكان لا تكافئك الإقامة فيه شيئاً ؟ . . . تذكر أملك المسكينة . . . إنها في تأنيبها لك ، كم من مرة قالت إنك أعمى . . . قدم لي الدليل على عكس ذلك . ومرة أخرى ، وقبل كل شيء ، كن صادقاً ومخلصاً في الوفاء بوعدك . . . ستجد مرفقاً بهذا حوالة بمائة وخمسين جنياً . . . تنفقها كما تريد . . . وإني لأنتظر بفارغ الصبر اليوم الذي تخفف فيه من آلامي وهمومي حين أعلم بنبأ إطلاق سراحك . . . وسأقدم الشكر لله حالما أعلم ذلك .

مع كل الحب الذي أكنه لك . . .

(والدك الحبيب ديدرو)^(٢١)

ولسنا ندرى ماذا كان رد دنيس . وربما وجد مشقة في مجازاة هذه الرسالة في نبليها . وفي ٣ نوفمبر ١٧٤٩ أفرج عنه بعد قضاء ثلاثة شهور ونصف شهر في السجن . وقصد داره سعيداً مبتهجاً بالعودة إلى زوجته وصغاره ، ونسى مدام دي بويسيه لفترة من الوقت ؛ ولكن في ٣٠ يونية ١٧٥٠ مات ابنه البالغ من العمر أربع سنوات ، إثر حمى شديدة ، وأنجب طفلاً ثالثاً بعد ذلك مباشرة . ولكنه أودى أذى بالغاً عند تعميده ، حيث أوقعه أحد الخدم على الأرض في الكنيسة ، ومالبت أن يفارق الحياة قبل انقضاء عام واحد على مولده ، وهكذا ولد له ثلاثة ومات ثلاثتهم (وعاد ديدرو إلى أمسياته في مقهى بروكوب . وحوالي ١٧٥٠ قدمه روسو إلى فودريك مديخور جريم ، وهناك بدأ ثالوث من الصداقة كان له بعض الأهمية

فى عالم الأدب . وتلك هى السنة التى غادر فيها فولجير فرنسا إلى برلين
وكتب فيها روسو بحثه الذى نال به الجائزة عن (المدنية مرض) وأصدر
ديدرو نشرة تمهيدية عن الموسوعة :

وبينا كان ديدرو يعمل فى المجلد الأول من مشروع الموسوعة استطرد
إلى تحقيق فى علم النفس نشر نتائجه (١٧٥١) فى « رسالة عن الصم والبكم
لخدمة أولئك الذين يسمعون ويتكلمون » . ولم يكن ديدرو قد نسى قلعة
فنان بعد ، ومن ثم تجنب الهرطقة ، وتسلم من الرقيب (مالشرب الطيب
الرحيم آنذاك) « إذناً ضمناً » بنشر الكتاب فى فرنسا دون ذكر اسمه ،
ودون خوف من المحاكاة أو المقاضاة . واقترح ديدرو أن يوجه أسئلة إلى أحد
الصم البكم ، ويلاحظ الإيماءات التى يجيب بها الأصم الأبكم على هذه الأسئلة ،
وبذلك يلقى الضوء على منشأ اللغة عن طريق الإشارات والإيماءات . أن
الممثل القدير (وكان ديدرو آنذاك منشغلاً بوضع كتابه « تناقض الممثل »
ينقل أحياناً عن طريق إيماءة أو تعبير بالوجه فكرة أو إحساساً بشكل أعظم
تأثيراً منه عن طريق الألفاظ . ومن الجائز أن الألفاظ الأولى (فى اللغة)
كانت عبارة عن إيماءات صوتية أو معبرة توضح فكرة فى الذهن ، وليس
للغة التى يختارها الشاعر دلالة أو معنى عقلى فحسب ، ولكن لها كذلك
مفهوماً رمزياً متضمناً وفارقاً دقيقاً لا يكاد يذكر ، ولها تضمينات بصرية
(قارن مثلاً بين يرى ويتفرس أو يحدق النظر أو نغمات توافقية فى الصوت ،
قارن بين يقول ويتذمر ، Say, murmur) ومن ثم فإن الشعر الحقيقى
تتعذر ترجمته) .

والحديث — كما هو معهود فى ديدرو مضطرب يعوزه الترتيب والنظام
ولكنه زاخر بالجوانب الموحية . « قد تكون فكرتى أن أحلّل الإنسان
إذا جاز التعبير ، وأدرس ماذا يستمد من كل حاسة من حواسه » . (بنى
كوندياك مؤخراً فى ١٧٥٤ ، رسالته عن الأحاسيس حول هذه الفكرة)
أو قارن مرة أخرى بين الشعر والرسم ، أن الشاعر يستطيع أن يسرد

الأحداث على حين يبرز الرسام لحظة واحدة ، وصورته عبارة عن إشارة تحاول أن تعبر في وقت واحد عن الماضي والحاضر والمستقبل . وهنا كانت بذرة في كتاب ليسنج « لاوكون » (١٧٦٦) .

ولكن في هذه الاثناء كان المجلد الأول من الموسوعة معداً للنشر .

٣ - تاريخ كتاب : ١٧٤٦ - ١٧٦٥

قال الناقد الكاثوليكي برنتيير « إن الموسوعة أعظم عمل في عصرها ، والهدف الذي كان يصبو إليه كل شيء سبقها ، ومصدر كل شيء جاء بعدها ، ومن ثم فإنها المركز الحقيقي لأي تاريخ للأفكار في القرن الثامن عشر » . (٢١) وقال ديدرو إن محاولة إخراج موسوعة إنما تنسب فقط إلى قرن فلسفي . (٢٢) إن عمل بيكون وديكارت وهوبز ولوك وباركلي وسبينوزا وبيل وليبيتز في الفلسفة ، والنهوض بالعلوم على أيدي كوبرنيكس وفيساليوس وكبلر وجاليليو وهوجينز ونيوتن ، وإرشياد الأرض بفضل الملاحين والبعثات التبشيرية والسياح ، وإعادة الكشف عن الماضي على أيدي الباحثين والمؤرخين ، كل هذه المعرفة المتراكمة انتظرت لتنسق في موسوعة تكون في متناول الجميع وخدمتهم .

وبدا في أول الأمر أن « موسوعة تشامبرز » أو « القاموس العالمي للفنون والعلوم » (١٧٢٨) قد يسد هذه الحاجة . وفي ١٧٤٣ اقترح ناشر في باريس هو أندريه فرنسوا لي بريتون ترجمته إلى الفرنسية مع بعض تعديلات وإضافات تفي بحاجة فرنسا . ونما المشروع ليظهر في عشر مجلدات ولمواجهة النفقات أشرك لي بريتون معه في هذه المهمة ثلاثة ناشرين آخرين هم برياسون ودافيد ودوران . واستخدموا الأب دي جوادى مالف محرراً . وحصلوا على إذن ملكي بالطبع ، وأصدروا في ١٧٤٥ نشرة مؤقتة . ورأى الناشران أو رأى المحرر دي جوادى مالف الاستعانة بديدرو ودالمبير . وفي ١٧٤٧ انسحب دي جوادى مالف . وفي ١٦ أكتوبر عين الناشران ديدرو ورئيساً

للتحرير مقابل راتب قدره ١٤٤ جنيهًا في الشهر . وطلبوا إلى دالمبير أن يكون مسئولاً عن مقالات الرياضيات .

وكلما تقدم العمل ازداد ديدرو سخطاً على نص تشامبرز ويمكن أن تقدر هذا السخط والاستياء إذا عرفنا أن ديدرو خصص للتشريع ٥٦ عموداً على حين أفرد له تشامبرز عموداً واحداً ، وللزراعة ١٤ دعمواً ، على حين أوردها تشامبرز في ستة وثلاثين سطراً . وأخيراً أوصى بتنحية قاموس تشامبرز جانباً وإعداد موسوعة جديدة تماماً ، (وربما اقترح مالف هذا فوراً) . ووافق الناشرون واستحث ديدرو (ولم يكن قد انضج بعد أنه المؤلف الزنديق لرسالة العميان) المستشار الجاد المتدين دي أجسو حتى يشمل الترخيص الملكي المشروع الموسع (أبريل ١٧٤٨) .

ولكن كيف كان يمكن تمويل المشروع ؟ قدر لي بريتون أنه قد يكلف مليون جنيه . والواقع أنه تكلف مليوناً وأربعمائة ألف — حتى ولو كان من المشكوك فيه كثيراً أن يكون عدد المشتركين كافياً إلى حد يدفعون معه بالموسوعة إلى المطبعة . وكان ديدرو قد أعد بالفعل كثيراً من المقالات وحصل على عدد آخر منها من أجل المجلدات الأولى حين أوقف اعتقاله في فنان سير العمل . وعندما أطلق سراحه تفرغ تفرغاً كاملاً للمضى في المشروع . وفي نوفمبر ١٧٥٠ أخرج الناشرون ثمانية آلاف نسخة من نشرة تمهيدية ديجها يراع ديدرو . (وفي ١٩٥٠ أعادت الحكومة الفرنسية طبع هذه النشرة تذكراً وطنياً لهذا الحادث) . وأعلنت هذه النشرة أن فريقاً من الأدباء والخبراء والمتخصصين اتجه رأيهم إلى جمع المادة الموجودة في العلوم والفنون في صعيد واحد مرتبة ترتيباً أبجدياً ، مزودة بمراجع قد يسهل على العلماء والباحثين والطلاب استخدامها . وقالت النشرة إن لفظة الموسوعة أو دائرة المعارف تدل على العلاقات المتبادلة بين العلوم وهي تعني حرفياً التثقيف أو التعليم مجموعاً في صعيد واحد . وقال ديدرو إن المعرفة لم تنم على أوسع نطاق فحسب ولكن الحاجة إلى نشرها مهمة كذلك ،

حيث لا جدوى منها إلا إذا أفاد منها الجميع . وجاء في النشرة أن هذا كله سوف تضمه ثمانية مجلدات للنصوص ومجلدان للوحات والرسوم ، وحدد الاشتراك بمائتين وثمانين جنياً للمجموعة تدفع على تسعة أقساط . ويجب تسديد المبلغ كله على مدى عامين . وتبدو لنا الآن هذه النشرة وكأنها أحد الأعلانات بأن عصر العلم قد بدأ . وأن عقيدة جديدة قد ظهرت لخلاص الجنس البشرى .

وكانت الاستجابة للنشرة مشجعة ، وبخاصة لدى الطبقة الوسطى العليا . وتبين بعد وفاة مدام جيوفرين أنها وزوجها أسهما في نفقات الموسوعة بمبلغ ٥٠٠ ألف جنيه (٢٣) .

وبهذه الموسوعة في فرنسا وقاموس جونسون في إنجلترا (١٧٥٥) أعلن الأدب الأوربي إستقلاله عن الأرستقراطيين والأهداءات الدليلة ، وإتجه إلى الجمهور العريض الذى عرض هذا الأدب أن يكون عينه التى تبصر وصوته الذى يعبر . وكانت الموسوعة أشهر تجربة لتبسيط المعرفة ونشرها (٢٤) .

وظهر المجلد الأول في ٢٨ يونية ١٧٥١ محتويا على ٩١٤ صفحة من القطع الكبيرة من ذات النهرين . وكانت صورة الصفحة الأولى من رسم شارل كوشان ، وكانت رمزاً صادقاً للقرن الثامن عشر ، فقد أبرزت البشرية تتلمس طريقها إلى المعرفة تمثلها امرأة جميلة في ثوب رقيق شفاف . وكان العنوان مثيراً : الموسوعة أو قاموس موضوع بعد دراسة وترو ولتختلف العلوم والفنون والمواد ألفه فريق من رجال الأدب رتبته وحرره ديدرو وتعهد قسم الرياضيات فيه دالمبير ، ونشر بتصديق من الملك وترخيص منه وأهدى المجلد من باب الحكمة إلى السيد الكونت دار جنسون وزير الحربية . ولم يكن موسوعة بالمعنى الحالى عندنا ، فانها لم تر أن تشمل سير حياة أو تاريخا . ولكن الغريب في الأمر أنها تضمنت بعض سير الحياة تحت عنوان محل الميلاد للشخص . وهذه أحدى كانت بشكل جزئى قاموسا عرض لتعريف بعض المصطلحات وإيراد المترادفات وبعض قواعد الأجرومية .

وأبرز ما في المجلد الأول وأجدره بالذكر هو « مقال تمهيدى » ووقع الاختيار على دالمبير لكتابته لأنه كان معروفا بأنه من رجال العلم المرموقين وبأنه كذلك من البارعين الأفذاذ في النثر الفرنسى ، وعلى الرغم من هذه المزايا كان دالمبير يحيا حياة رواقية بائسة فقيرة في باريس . وحين وصف فولتير المشهد الرائع من لى دليس أجاب دالمبير : « أنت تكتب إلى من مخدعك حيث تشرف على عشرة فراسخ من البحيرات وأنا ارد عليك من جحرى الذى لا يشهد إلا رقعة من السماء لا تتجاوز ثلاث أذرع » (٢٥). وكان لا أدريا ، ولكنه لم ينضم إلى نقد على الكنيسة . وفى - مقاله التمهيدى حاول أن يفحص حجج معارضى الكنيسة :

« إن طبيعة الإنسان سر لا يمكن سير أغواره إذا إستنار الإنسان بالعقل وحده . ويمكن أن نقول مثل هذا عن وجودنا فى الحاضر والمستقبل ، وعن جوهر « الكائن » الذى ندين له بهذا الوجود ، وعن نوع العبادة التى يتطلبها منا . ومن ثم فأننا أحوج ما نكون إلى ديانة منزلة تهدينا سواء السبيل فى مختلف الموضوعات (٢٦) . »

واعتذر لفولتير عن هذه الاحترامات : « أن مثل هذه العبارات هى أسلوب توثيقى ، وما هى إلا طريق وصول أو جواز مرور إلى الحقائق التى نشد تدعيمها . . . أن الزمن سيعلم الناس كيف يميزون بين ما فكرنا فيه وما قلناه (٢٧) . »

ونهج المقال التمهيدى نهج إقتراح لفرانسيس بيكون ، فصنفت المعارف وفق الموهبة العقلية التى تنتج عنها : فوضع التاريخ تحت بند « الذاكرة » والعلوم فى باب « الفلسفة » واللاهوت تحت بند « العقل » والأدب والفن فى باب « الخيال » وكان ديدرو ودالمبير فخورين كل الفخر بهذا التقسيم وجعلنا منه ورقة مطوية وضعها بعد المقال أو خريطة للمعرفة أثارت أشد الإعجاب . وكان أقوى أثر فى الموسوعة بعد أثر بيكون هو أثر لوك . « أننا مدينون للأحاسيس بكل أفكارنا » . هذا هو ما جاء فى المقال . ومن

هذا البيان راود الأمل المحررين على مدى المجلدات الثمانية أن يستنتجوا فلسفة كاملة دينا طبيعيا يهبط بالاله إلى مجرد دفعة لبندائية أولى وإن يستنتجوا علم نفس طبيعيا يجعل الذهن وظيفة من وظائف الجسم ، ومبادئ أخلاق طبيعية تحدد الفضيلة على أساس واجبات الإنسان نحو الإنسان لا نحو الله - وتضمن « المقال التمهيدى » هذا البرنامج فى حرص وحذر .

ومن هذه المبادئ الأولى أنتقل دالمبير إلى إستعراض تاريخ العلم والفلسفة وأمتدح الأقدمين ، وأستنكر العصور الوسطى وانتقص من قدرها ، وهلل لعصر النهضة وأبتهج به :

لن نكون منصفين إذا لم نعرف بفضل أيطاليا علينا ، فنها تلقينا العلوم التى انتجت فيها بعد ثمارا وفيرة فى كل أوربا . ونحن مدينون لها فوق كل شئ بالفنون الجميلة والذوق الرفيع الذى زودتنا منه بعدد كبير من نماذج لا تبارى أو تتعذر محاكاتها^(٢٨) .

وجاء أبطال الفكر الحديث ليتوجوا بأكاليل الغار :

يجدر أن يوضع على رأس قائمة الشخصيات اللامعة مستشار إنجلترا لخالد فرانسيس بيكون الذى تستحق أعماله بحق أن ندرسها حتى أكثر من أن تمتدحها . أننا حين نتأمل وندرس آراء ونظرات هذا الرجل العظيم الحكيمة الواسعة الأفق ، والموضوعات الكثيرة التى أستعرضها فى ذهنه ، وجرأة أسلوبه التى جمعت فى كل موضع بين أروع الأفكار والأنطباعات الذهنية وبين أعظم الدقة والأحكام . فأننا نميل إلى أن نبارك عظم الفلاسفة وأفصحهم وأشملهم وأوسعهم بحثا^(٢٩) .

وأنتقل دالمبير ليبرز كيف أن عبقرية ديكارت العميقة الخصبية فى الرياضيات قد عوقها فى الفلسفة الأضطهاد الدينى :

إن ديكارت على الأقل تجاسر فبين للأذهان اليقظة كيف تحرر من نير السكولاسية والرأى والسيطرة - وصفوة القول من التحيز والتحامل

والوحشية . وبهذه البورة التي نجنى نحن ثمارها اليوم أدى ديكرت للفلسفة خدمة قد تكون أجسل وأشق مما تدين به لخلفائه البارزين المشهورين . وقد نعتبره زعيم عصابة تعاهدت ، وكان لها من الشجاعة ما قادت به ثورة ضد سلطة أستيدادية . وأرسي بفضل تصميمه الأكيد المشجع الملمهم أساس حكومة أعدل وأفضل ما كان يمكن أن يعيش ليراها قائمة ، وإذ أنهى به التفكير إلى أيضا كل شيء ، فإنه على الأقل بدأ بالشك في كل شيء . إن الأسلحة التي يجب إستخدامها لمحاربته ليست على الرغم من ذلك أسلحته لأننا نصوبها إليه .

وبعد أن تحدث دالمير عن نيوتن ولوك وليبنز ختم حديثه بالإعراب عن إيمانه بالنتائج الطيبة للمعرفة التي تزكو وتنمو وتنتشر : « إن قرننا ليعتقد بأنه قد كتب عليه أن يغير القوانين في جميع المجالات »^(٣٠) . ونشجع دالمير بحرارة هذا الأمل فجعل من مقاله التمهيدى هذا تحفة من روائع النثر الفرنسى في القرن الثامن عشر . وشارك بيوفون وموتسكيو في الثناء على مقدمة الموسوعة هذه كما اعتبرها - أى صفحات المقدمة - من أعظم المقالات التي كتبت في لغتنا فلسفة ومنطقا وإشراقا وأحكاما ودقة^(٣١) .

ولم يكن المجلد الأول ضد الدين بشكل سافر . وكانت المقالات عن العقيدة والطقوس المسيحية تقليدية تقريبا . وأبرزت عدة مقالات بعض الصعوبات ، ولكنها أختتمت كلها عادة باحترام مهيب للكنيسة . وكثيراً ما وجدت هرطقات مغلفة وهجمات عارضة على الخرافة والتعصب ، ولكنها مستترة في مقالات واضح أنها كانت تعالج موضوعات بريئة مثل « حمل سكينزيا » أو النسر . من ذلك أن ما كتب عن حمل سكينزيا توسعوا فيه حتى صار بحثاً عن شواهد تركت الإيمان بالمعجزات في حالة يرثى لها . كما أن مادة « النسر » بعد مناقشة سداجة الناس وسرعة تصديقهم لإنهت بهمكم صريح :

و سعيد هذا الشعب الذى تطالبه ديانته ألا يؤمن إلا بالاشياء الحقيقية

المقدسة السامية الرفيعة الشأن ، وإلا يقتدى إلا بصالح الأعمال . ومثل هذه الديانة هي ديانتنا وهي التي فيها لا يتبع الفيلسوف إلا عقله حتى يصل إلى مذبحنا^(٣٢) وفي شيء من المكر والدهاء كانوا يهاجمون الخرافات والأساطير هنا وهناك . وأنبتت روح من الإنسانية العقلانية .

وعلى الرغم من كل شيء أستقبل اليسوعيون هذا المجلد استقبالا ودياً . وأعرض جويوم فرنسوا برتييه المحرر العالم المثقف لصحيفة تريفو في رقة وأدب على تأكيد المقال التمهيدى على الفلاسفة المهرطقين ، وأشار إلى بعض الأخطاء والانتحالات ، وطالب بتشديد الرقابة على المجلدات التي ستصدر فيما بعد ، ولكنه أثنى على الموسوعة مشروعا عظيما ضخمًا جدا يمكن لحرريه بحق بعد إنجازه أن يطبقوا على أنفسهم قول هوراس « لقد أقمت نصبا أبى من النحاس » .

ثم أضاف برتييه « ليس هناك من هو أكثر منا ميلا إلى تبين الخفايا الدقيقة في الموسوعة ولسوف نعرضها برفق في مقتطفاتنا القادمة^(٣٣) .

وثمة كاهن آخر لم يكن مترفقا متساهلا إلى مثل هذا الحد ، وهو جان فرنسوا بوير أسقف ميربوا سابقاً الذى شكوا المحررين إلى الملك بأنهم خلدوا الرقباء ، فأرسله الملك لويس إلى مالشرب الذى كان قد أصبح كبير مراقبي المطبوعات ، فوعده مالشرب بفحص المجلدات التالية بشكل أدق ، ولكنه أثناء توليه مناصب حكومية مختلفة استخدم كل نفوذه لحماية الفلاسفة . وكان من حسن حظ الثائرين أن هذا المسيحي جويودى مالشرب الذى كان قد أصبح متشككا حين قرأ كتابات بيل والذى كان قد ألف كتاب « حرية الصحافة » هو الذى كان رقيب المطبوعات من ١٧٥٠ - ١٧٦٣ وهي أخرج فترة في حياة فولتير وديدرو وهلفشيوس وروسو . وكتب مالشرب « في قرن كان يستطيع فيه كل مواطن أن يتحدث إلى الأمة عن طريق الكتاب فلن هؤلاء الذين أوتوا المقدرة على تعليم الناس وتثقيفهم أو موهبة التأثير فيهم - وفي إنجاز رجال الأدب - وسط شعب مشتت يقومون بالدور الذى

كان يقوم به مخبطاء رومه وألينا في شعب نلتف حولهم . وشجع ما لشرب الحركة الفكرية بمنح « تراخيص ضمنية » للمطبوعات التي لا يمكن أن تحصل في ظل النظام القائم على ترخيص ملكي أو تنال إستحسان السلطات . ذلك أنه كان من رأيه أن الإنسان الذي لم يقرأ إلا الكتب التي صدرت بموافقة صريحة من الحكومة . . يكون متخلفا عن معاصريه بنحو قرن من الزمان تقريباً (٣٥) .

وانتهت هذه الفترة السعيدة في حياة الموسوعة بحادث من أغرب الحوادث في تاريخ عصر الاستنارة ، ذلك أنه في ١٨ نوفمبر ١٧٥١ تقدم جان مارتين دى براد للحصول على درجة جامعية من السوربون ، وعرض على رجال اللاهوت رسالة ظاهرها البراءة والخالو من أية شائبة « من ذا الذي نفخ الله في وجهه روح الحياة » ؟ وبينما كان النعاس يغلب على أعضاء هيئة الإمتحان عرض الراهب الشاب في لغة لاتينية ممتازة تضاربات زمنية في الكتاب المقدس ، وهبط بمعجزات المسيح إلى مستوى معجزات أسكولا بيوس ، وإستبدل بالوحى لا هوتا طبيعيا متحرراً . وقبلت جامعة السوربون الرسالة ومنحت دى براد الدرجة . وأتهم الجانسنيون الذين كانوا يسيطرون على برلمان باريس الجامعة ، ورأحت الشائعات بأن لديدرو بدأ في الرسالة ، وسحبت الجامعة الدرجة وأمرت بالقاء القبض على الراهب . وهرب دى براد إلى هرويسيا حيث آواه فولتير حتى خالف دى لأمترى قارئاً لفرد ربك الأكبر .

وصبق الأمانة الحراس على الديانة التقليدية إذ رأوا أن دى براد هذا نفسه كان قد كتب مقالة « اليقين » في المجلد الثاني من الموسوعة الذي صدر في يناير ١٧٥٢ . وكان في هذه المقالة أيضا بعض لمحات من ديدرو ، وتعاليت الصيحات ضد الموسوعة حتى أن برتويه الذي أطرى هذا المجلد لما فيه من إسهامات كثيرة في المعرفة ، وجه اللوم إلى المحررين على قطعة ذكر فيها أن معظم الناس ينظرون إلى الأدب بعين الأجلال والأخبار مثلما ينظرون إلى الدين « أى إلى شيء لا يستطيعون أن يعرفوه ، أو يمارسوه أو يحبهوه » .

وقال اليسوعيون أن مثل هذا الكلام يجب لفت نظر المؤلفين والمحريين إليه حتى لا يعودوا يثبتون شيئا من هذا القليل في الموسوعة مستقبلا^(٣٦) . وفي ٣١ يناير أتهم كريستوف دي بومونت مطران باريس الموسوعة بأنها هجوم ماكر على العقيدة الدينية : وفي ٧ فبراير صدر قرار من مجلس الدولة يحظر بيع الموسوعة أو نشرها . وفي نفس اليوم كتب مركز دارجنسون في صحيفته « صدر في هذا الصباح قرار من المجلس لم يكن متوقعا يقضى بمنع تداول الموسوعة أو نشرها بسبب مزاعم مروعة : منها الكفر بالله والتمرد على سلطة الملك . وفساد الأخلاق وقيل في هذا الصدد أن مؤلفي الموسوعة ينبغي إعدامهم في أقرب وقت^(٣٧) .

ولم تصل الأمور إلى هذا الحد من سوء ، فلم يعتقل ديدرو ، ولكن الحكومة صادرت كل المادة التي كان قد جمعها ، وكتب فولتير من بوتدام يستحث ديدرو على نقل المشروع إلى برلين حيث يمكن النهوض به تحت حماية فردريك ، ولكن ديدرو وقف عاجزا بدون المادة التي صودرت . أما لي بريتون فكان يأمل أن تعدل الحكومة من قرار الحظر بعد سكون العاصفة ، وأيد مالشرب ومركز دارجنسون ومدام دي بمبادور النداء الذي تقدم به لي بريتون إلى المجلس . وفي ربيع عام ١٧٥٢ وافق المجلس على نشر المجلدات الأخرى « بترخيص ضمني » وأشارت دي بمبادور على دالمبير وديدرو بامتنان العمل « مع تحفظ ضروري فيما يتعلق بما يخص الدين والسلطة الحاكمة »^(٣٨) . ورغبة في تهدئة خواطر رجال الدين وافق مالشرب على أن يراجع المجلدات التالية ثلاثة من رجال اللاهوت يختارهم الأسقف السابق بوير .

وصدر المجلدان الثالث والرابع فيما بين عامي ١٧٥٣ - ١٧٥٦ ، بعد خضوعهما لرقابة صارمة . وزاد الغضب من إنتشار الموسوعة ، كما أصبحت رمز الأفكار الحرة ، وزاد عدد المشتركين إلى ٣١٠٠ في المجلد الثالث ، و ٤٢٠٠ في المجلد الرابع

واجتاز دالمبير المحنة وقد اهتزت أعصابه ببعض الشيء ومن ثم فانه ضماناً لسلامته الشخصية إشرط ألا يكون مسئولاً بعد الآن إلا عن هتالات الرياضيات ، ومهما يكن من أمر فان ديدرو ظل يناضل الرقابة . وفي ١٢ أكتوبر ١٧٥٢ نشر ظاهرياً في برلين وباسم دى براد « مواصلة الدفاع عن الراهب دى براد » ، وتحدث فيه غاضباً ، مشيراً إلى أن أحد الأساقفة شجب مؤخراً رسالة السوربون : « لست أعلم شيئاً أكثر مفاجأة للياقة وأشد خطراً على الدين من هذه الخطب العامضة التي تهاجم العقول والتي يلقيها بعض رجال اللاهوت . وقد يقول المرء لدى سماعها أن الناس لا يستطيعون الدخول في المسيحية إلا كما يدخل قطيع من الحيوان إلى حظيرة ، وأن علي المرء أن يتخلى عن الإدراك السليم وحصافة الرأي ليعتنق ديننا أو يستمسك به . وأكرر القول بأن إقرار هذه المبادئ معناه الهبوط بالإنسان إلى مستوى الحيوان ، ووضع الزيف والحقيقة على قدم المساواة » (٣٩) .

وتابع في المجلد الثالث هجماته غير المباشرة على المسيحية ، مغلظة بالجر بالايمن بالعقيدة القويمة . وأبرزت مقالته « التوقيت الزمني المقدس » مرة أخرى تناقضات التوراة . وألقت ظلالاً من الشك في نصوص الأسفار المقدسة . وأكدت مقالته عن « الكلدانيين » على إنجازاتهم في الفلك ، ولكنها رثت لخضوعهم للكهنة « أنه لما يزرى بالعقل ولا يشرفه تقييده في الأغلال كما فعل الكلدانيون . ولد الإنسان ليفكر لنفسه » وعددت مقالته عن « الفوضى » الاعتراضات على فكرة الخلق وأسهب - زعماً أنها تدحض وتفند - القول في حجج أبدية المادة . واشتملت على بعض النقاط الخلافية التي تثير الجدل مقالاته الممتازة في التجارة والمنافسة وأسلوب التأليف والتركيب (في الرسم) « والكوميديين » أي الممثلين ، وأوضح ديدرو أنه لم يكن رساماً ولا خبيراً باللوحات والرسوم ولكنه اضطر إلى الكتابة في الموضوع لأن « الهاوى المتبجح » الذي عهد إليه بالكتابة عن أسلوب التأليف في الرسم ، كان قد قدم موضوعاً تافهاً غير جدير بالنشر . وعبرت مقالة ديدرو عن بعض

فكار أبهجت فيها بعد « صالوناته » فكانت مقالته عن « الممثلين » لإستمرلو حملة فولتير دفاعاً عن حقوقهم المدنية .

وحظى المجلد الثالث بثناء كبير خفف منه نقد اليسوعيين ولبلى فرينون في مجلة « السنة الأدبية » ورفع المشتركون الجدد من قيمة العمل ومكانته : وبدأ ديكلوس ينهض بقسط من الجهد في إخراج المجلد الرابع ، وفولتير وترجو يشاركان في المجلد الخامس . وفي أثناء السنوات الأربع الأولى من المشروع كان فولتير مشغولاً أو متورطاً في ألمانيا — أما الآن في عام ١٧٥٥ فقد استقر به المقام في جنيف وأرسل منها المقالات عن « الأناقة » و « الفصاحة » و « الذكاء » وكلها تفيض أناقة وفصاحة وذكاء وكتب ديلرونفسه للمجلد السادس مقالا تحت عنوان « الموسوعة » عده بعض العلماء والباحثين أحسن ماكتب في المجموعة كلها . وكانت بالفعل من أطول المقالات حيث بلغ عدد كلماتها ٣٤ ألف كلمة ، تحدث فيه عن الصعوبات التي واجهت العمل لامن حيث القوى التي كانت تهدف إلى هدم المشروع فحسب بل كذلك من حيث ضالة الاعتمادات المالية غير الكافية لدفع أجور المؤلفين ونفقات الطبع ، والعلل الطبيعية التي لإنتابت الكتاب حيث أقعدهم المرض أو ضيق الوقت . وأقر العيوب الكثيرة التي صابت المجلدات الخمسة الأولى التي كانت قد أخرجت في عجلة وخوف ، ووعد بالعمل على ملاقاتها ، وفي شيء من الانفعال كتب قانون الإيمان الخاص به : إن الغاية القصوى من أية موسوعة هو جمع المعرفة المتناثرة هنا وهناك على الأرض ، وشرحها للمعاصرين ونقلها إلى الأعقاب ، والغرض من ذلك هو ألا تكون جهود القرون الماضية غير ذات نفع للأجيال القادمة وأن يكون خلفاؤنا وقد أصبحوا أكثر ثقافة وأغزر علماً ، في نفس الوقت أسعد وأكثر تمسكا بالفضيلة ، وألا نفارق الحياة دون أن نحظى بثناء الجنس البشري وتقديره . ورأى ديلرون في الموسوعة لطمة للأعقاب ، ووثق أنهم سيدافعون عنه ويبرثونه ، وتصور ثورة عارمة عطلت مؤقتاً تقدم العلوم وعمل فنون

الصناعة ، وغمرت من جديد بالظلام جزءا من العالم . وراوده أكبر الأمل في « إعراف مثل هذا الجيل بفضل أولئك الرجال الذين أوجسو خيفة من هذا الخراب وتوقعوه فجمعوا شتات المعرفة التي تراكت عبر القرون وحفظوها في حرز أمين » وقال « إن الأعقاب بالنسبة للفيلسوف هي بمثابة الدار الآخرة بالنسبة لرجل الدين »^(٤٠) .

وخلق المجد السابع الذي ظهر في خريف ١٧٥٧ أزمة أخرى أسوأ مما سبقها . وذلك أن كسنى وترجوكتبا أبحاثاً مستفيضة مشهورة في شرح سياسة عدم التدخل الحكومي في الشؤون الاقتصادية ، (مذهب الفيزيوقراطيين في حرية التجارة والصناعة - ظهر في فرنسا في القرن الثامن عشر) كما أن لويس دى جوكور ، الذي كثيرا ما أسهم الآن في الكتابة في الموسوعة ، كتب مقالة موجزة مهيئة تحت عنوان « فرنسا » بلغت كلماتها تسعمائة كلمة ولم ترو معظمها شيئا من تاريخ فرنسا ، بل عددت شوائبها وأخطائها : الافراط الخطير في عدم المساواة في توزيع الثروة ، فقر الفلاحين ، وتضخم باريس وتناقص السكان في الأقاليم . وفي مقال عن « الحكومة » كتب جوكور « أن الخير كل الخير للشعب في حريته . . . وبدون الحرية تنتفي السعادة في الدول » وفي هذا المجلد كتب فولتير مقالة عن الفسوق والزنى ، وتفاخر بأنها علمية ، ولكن مقالة « المقاومة » - على الأقل المقالة التي أثارت أشد مقاومة - هي المقالة عن جنيف التي التقينا بها في محيطها السويسرى . ونسى دالمبير ما أخذ به نفسه من حيطة وحذر وتصميمه على الاقتصار على الرياضات وأثار على نفسه سخط جنيف وباريس كليهما حين صور رجال الدين الكلفنيين بأنهم يرفضون ألوهية المسيح .

ورأى جريم على الغدر أن هذه المقالة زلة فظيعة تعوزها اللباقة ، وقال إنها تسبب احتياجا ويلبلة . واستنكر أحد اليسوعيين المجلد في عظة ألقاها أمام الملك في فرساي . وكتب دالمبير إلى فولتير يقول « إنهم يجزمون بأنى أمتدح قساوسة جنيف في أسلوب يضر بالكنيسة الكاثوليكية »^(٤١) . وفي ٥ يناير

١٧٥٧ بذلت محاولة لقتل الملك . فكان رد الملك عليها أنه أحيا قانوناً قديماً يعاقب بالإعدام مؤلفي وناشري وبائعي الكتب التي تهاجم الديانة أو تزعج الدولة ، وزج بعدد من الكتاب في السجن ، ولم يعدم أحد ولكن دالمبير المرهف الحس تولاها الفزع بشكل واضح ، وقطع علاقته بالموسوعة نفوراً من الهياج والصخب (١ يناير ١٧٥٨) . وفقد بعض الوقت قدرته على رؤية الأشياء في أوضاعها الصحيحة ، وأتهم مدام بمبادور بمحابات « أعداء الفلاسفة » وتأييدهم ، وطلب إلى مالشرب أن يكبح جماح زعيمهم فريرون . وألح عليه فولتير في عدم الاستقالة ، فأجاب دالمبير في ٢٠ يناير « أنت لاتدرك الوضع الذي نحن عليه ، وصورة غضب السلطات علينا . . . أنا أشك في مواصلة ديدرو العمل بدورى . . . فإذا فعل هذا فإنه يمهّد السبيل لسلسلة من المحاكمات والبلايا لمدة عشر سنوات » (٤٣) وكان رعبه قد إزداد في السبعة أو الثمانية أيام التالية « إذا كان الأعداء ينشرون مثل هذه الأشياء اليوم باذن صريح من قبل هذه المراجع المسئولة ، فلن يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن هذا يعنى إثارة الهياج ضد المجلد السابع ، وألقائنا في أتون المحرقة بالنسبة للمجلد الثامن » (٤٣) وأذعن فولتير لرأى دالمبير . ونصح ديدرو بالتخلي عن الموسوعة ، حيث أنه إذا استمر العمل فيها بأية حال ، فستكون خاضعة لرقابة تقضى على قيمة العمل باعتباره أداة للحد من سيطرة الكنيسة على الأذهان في فرنسا (٤٤) وأبى ترجو ومارمونتيل وديكلوس وموريللى أن يكتبوا أية مقالات أخرى ، وفترت همة ديدرو نفسه لفترة من الزمن ، وكتب يقول « لا يكاد يمر يوم إلا وتحادثنى نفسى بالذهاب إلى مسقط رأسى في شيمانيا لأعيش منزوياً في هدوء » (٤٥) ولكنه لن يلقى سلاحه ولن يستسلم . وفي فبراير ١٧٥٨ كتب إلى فولتير « أن التخلي عن العمل معناه أن ننقض العهد ونتكص على أعقابنا ونفعل ما يريد منا هؤلاء الأوغاد الذين يضطهدوننا . آه لو علمت كم إبتهجوا وفرحوا عندما علموا باعتزال دالمبير العمل ، وكم من مناورات قاموا بها للحيلولة دون رجوعه إليه !

وفي إجتماع أساقفة فرنسا ١٧٥٨ قدموا إلى الملك منحة اختبارية كبيرة بشكل غير عادي ، وتقدموا إلى برجاه إلغاء « الترخيص الضمني » الذي يجيز نشر الموسوعة في فرنسا . وفي ١٧٦٨ شرع أبراهام دي شوميكس في إصدار سلسلة من النشرات تحت عنوان « أحكام شرعية ضد الموسوعة » وأثار نشر كتاب هلفشيوس « أسس الروح » (٢٧ يوليو ١٧٥٨) مزيداً من الاحتجاجات ، وتورطت الموسوعة في هذه العاصفة حيث إنتشرت الشائعات القوية بأن ديدرو تربطه بهلفشيوس علاقات وثيقة . وزاد الطين بلة أن روسو الذي كان يكتب للموسوعة مقالات في الموسيقى ، رفض أن يسهم في التحرير الآن . وروجت رسالته إلى دالميز عن العروض المسرحية نبأ لإنشاقه على الفلاسفة . وبدأ أن معسكر الموسوعيين قد تمزق . وفي ٢٣ يناير ١٧٥٩ حذر وكيل الملك أميردي فليري برلمان باريس من أن هناك مشروعاً أعد وجماعة تكونت لنشر المذهب المادي ، والقضاء على الدين ونشر روح الاستقلال ، والعمل على إفساد الأخلاق^(٦) ، وأخيراً في ٨ مارس ، صدر من مجلس الدولة أمر بتحريم الموسوعة تحريماً تاماً ، فلا يطبع أى مجلد جديد ، ويمنع بيع أو تداول المجلدات الموجودة . وأوضح القرار أن الفوائد التي تجني من هذا العمل من حيث تقدم الفنون والعلوم لا يمكن بحال من الأحوال أن تعوض عن الأضرار البالغة المتعذر إصلاحها التي تنشأ بالنسبة للعقيدة الدينية والأخلاق^(٧) .

ولم يهدد هذا المرسوم سلامة أشخاص الفلاسفة فحسب ، بل تهدد كذلك قدرة الناشرين على الوفاء يديونهم . وكان كثير من المشتركين قد دفعوا قيمة إشتراكهم في المجلدات التالية ، فكيف يتيسر رد ما دفع مقدماً ؟ فعظم هذه الأموال أنفق على المجلدات السبعة الأولى ، وعلى الأعداد لخراج المجلد الثامن الذي كان معداً للتوزيع حيث صدر المرسوم الملكي . وحرص ديدرو الناشرين على ألا يستسلموا ، لعل هذا المرسوم يجرى أيضاً تعديله أو العلول عنه في الوقت المناسب ، وإلا طبعت المجلدات الباقية في الخارج .

وبناء على طلب الناشرين لزم ديدرو داره وواصل العمل في المجلد التاسع .
وفي الوقت نفسه بذل ما لشرب وآخرون غيره أقصى الجهد في تسكين
غضب الحكومة .

وهنا - في صيف ١٧٥٩ ظهرت في باريس نشرة سرية غفل الاسم ،
تحت عنوان مذكرة إلى « فرنسوا شوميكس » وهي قطعة عملة عنيفة
في موقف واحد ، تهاجم في أقذع الإهانة والسباب ، لا الحكومة والبرلمان
واليسوعيين والجانسينيين وحدهم ، بل هاجمت المسيح وأمه كذلك . وقال
ديدرو « إن العمل منسوب إلينا بما يشبه الاجماع » ، ^(٤٨) وقصد إلى مالشرب
وإلى مدير الشرطة وإلى المحامي العام للبرلمان وأقسم أنه لاعلاقة له بتفجير
الإلحاد في الشوارع على هذا النحو ، وصدقه أصدقاؤه ، ولكنهم نصحوه
بمغادرة باريس فأبى الهروب ، محتجاً فإن في الهروب إقراراً بالذنب .
وحذره ما لشرب من أن الشرطة ستهاجم منزله وتصادر أوراقه ، ومن ثم
ينبغي إخفاؤها . فتساءل الثائر الحائر المزعج « ولكن أين أخفيها ؟ » وكيف
يتسنى له في ساعات قلائل أن يوفق إلى مكان يخفي فيه كل هذه المادة التي
جمعها ؟ فقال مالشرب « أرسلها إلى أنا ، لن يأتي أحد ليفتش عنها هنا ^(٤٩) » .
وفي الوقت نفسه عثر رجال الشرطة على طابعى النشرة المخزية ، وانتهوا
إلى أن ديدرو لم يكن له صلة بها ، ولم يصدر أمر بمصادرة أوراقه ،
وتنفس الصعداء ولكنه أشرف على الإصابة بانهياء عصبي ، وصحبه صديقه
الغني دى هولباخ لقضاء عطلة في بعض الأماكن القريبة من باريس . وكتب
ديدرو « حملت معي إلى كل مكان قصدناه خطي مضطربة متعثرة
ونفساً مكتئبة » ^(٥٠) .

وعاد ديدرو إلى باريس ، ووقع مع الناشرين عقداً جديداً لإعداد
تسعة مجلدات إضافية من الموسوعة لقاء مبلغ ٢٥ ألف جنيه . وعرض دالمبير
أن يستأنف مسئوليته عن مقالات الرياضيات ، ووجه ديدرو إليه اللوم على
تخليه عن العمل في وقت المحنة حين حمل عليه العدو ، ولكنه قبل أسهامه

في الموسوعة ، وكذلك لإنضم إليهم فولتير . وكان ديدرو يأمل أن يكمل المجلد السابع عشر والأخير في ١٧٦٠ . ولكنه في سبتمبر ١٧٦١ . كتب يقول « إنّهت المراجعة المزعجة ، حيث قضيت فيها خمسة وعشرين يوماً متصلة بمعدل عشر ساعات في اليوم »^(٥١) وظل لعشرة أيام آخر حبيساً في داره لمراجعة اللوحات والرسوم . وتم طبع المجلدات من الثامن إلى السابع عشر في تعاقب سريع في باريس ، ولكنها موسومة بعلامة تشعر بأنها نشرت في نيوشاتل ، وتغاضى سارتين مدير عام الشرطة الجديد عن هذه الخدعة أو التضييل^(٥٢) ومهد الطريق لهذا طرد اليسوعيين من باريس ١٧٦٢ (*) وفي سبتمبر ١٧٦٢ عرضت كثيرين قيصة روسيا استكمال الموسوعة تحت حماية الحكومة في سان بطرسبرج ، وجاء مثل هذا العرض من فردريك الأكبر عن طريق فولتير . وربما استحثت هذه الاقتراحات الرجال الرسميين في فرنسا على إجارة الطبع في باريس . وظهر المجلد الأخير من النصوص في ١٧٦٥ ، وأضيف أحد عشر مجلداً للوحات والرسوم فيما بين عامي ١٧٦٥ و ١٧٧٢ وصدر ملحق من خمسة مجلدات ، مجلدان لفهرس الموسوعة فيما بين عامي ١٧٧٦ - ١٧٨٠ وطلب إلى ديدرو تحريرها ولكنه كان منهوكاً مرهقاً فرفض ، فان أهم مشروع نشر في هذا القرن لإستنزف قواه ، ولكنه خلد ذكره بالقدر الذي تسمح به تقلبات المدينة .

(*) إن القصة الطريفة التي تقول بأن مدام بمبادور أقنعت لويس الخامس عشر بالتخلي عن معارضته في نشر المجلدات من الثامن إلى السابع عشر باطلاعه على مقالة « البارود » قصة مرفوضة الآن بصفة عامة على أنها من نسج خيال فولتير^(٥٣) والقصة المذكورة في المجلد الثامن والأربعين من طبعة بيشو لأعمال فولتير ، وفي كتاب جونكور « مدام دي بمبادور » ص ١٤٧ .

٤ — الموسوعة نفسها

إن كل محتويات الموسوعة تقريباً نسختها الثورة الفكرية التي ساعدت على إذكاء نارها ، ولكنها تسترعى إنتباهنا لمجرد أنها أحداث في تاريخ الأفكار ، وأسلحة استخدمها الفلاسفة في صراعهم مع المسيحية الوحيدة التي عرفوها ، وقل إن كان الهجوم مباشراً كما رأينا وكانت مقالتنا « المسيح والمسيحية » وكلتاها بقلم ديدرو . فويعنين تقليديتين في جوهرهما . وامتنح المقالة الثانية أحد الرهبان الإيطاليين . وكتب نفر من الكهنة مقالات للموسوعة ، ومن ذلك أن الراهب يفون كتب مقالة بعنوان « الملحدون » ولم تؤيد الموسوعة الإلحاد بل الربوبية . ومهما يكن من أمر فإن المراجع المفترضة كانت في بعض الأحيان مضللة ، ملحقة بمقالة تقليدية رشيدة . وكثيراً ما أشارت إلى مقالات أخرى تثير الشكوك . من ذلك أن المقالة المثالية عن « الله » أشارت إلى مقالة « البرهان » التي أوردت قواعد للبرهنة فيها تشويه للمعجزات والأساطير . وفي بعض الأحيان شرحت أقل العناصر إعتدالاً ومعقولة في العقيدة المسيحية في قبول ظاهر . ولكن بطريقة تستدعي الإرتياب والجدل . ورفضت المبادئ الصينية أو الإسلامية المماثلة للنظريات المسيحية باعتبارها غير عقلانية . وارتفعت الصيحات بأن مقالة « الكهنة » غير ودية . ويحتمل أن دى هولباخ هو الذى دجها . لأن الفلاسفة كانوا يفتنون رجال الدين بوصفهم أعداء للفكر الحر ومشجعين على الاضطهاد وزعم المؤاف أنه إنما كان يكتب عن رجال الدين الوثنيين : « إن الخرافة ضاعفت من مراسم وطقوس الشيع المختلفة . ومن هنا شكل القائمون عليها طائفة مستقلة . واعتقد الناس أن هؤلاء الأشخاص مخلصون للمعبود كل الإخلاص . ومن هنا كان للكهنة نصيب في إجلال الناس لله . وبدت المناصب العادية التي يشغلونها أدنى مستوى منهم . واعتقد العامة أنهم مرغمون على أن يقدموا لهؤلاء الكهنة ما يعولهم ... وكأنهم ودائع ينفذون وصية الله . ووسطاء بين الآلهة والناس .

وعمد الكهنة . لكى يثبتوا سلطانهم ويؤكدوا سيطرتهم . إلى تصوير الآلهة بأنهم قساة حقودون محبوبون للإنتقام لا يستشعرون الرحمة . وأدخلوا

لمراسم والطقوس والشعائر والأسرار التي يمكن أن تبعث فظاعتها في نفوس الناس الإكتئاب الرهيب الملائم كل الملاءمة الدنيا التعصب . ثم تدفق الدم البشرى الغزير فوق المذابح . وظن الناس ، وقد ملأهم الخوف بالجن وأعمتهم الخرافة . أنه لن يكون أى ثمن يدفعونه غاليا في سبيل الخطوة برضا الأرباب . وأسلمت الأمهات أطفالهن الصغار دون أن يذرفن دموعا واحدة ، إلى النيران الملتبئة . وسقط آلاف الضحايا تحت سكين القربان المقدس ... وكان من الميسور على الرجال الذين كانوا موضع الإجلال والإحترام إلى هذا الحد . أن يبقوا طويلا داخل حدود الخضوع الضروري للنظام الإجتماعي . فإن الكهنة الذين أسكرتهم السلطة كثيرا ما نازعوا الملوك حقوقهم . وأمسك التعصب والخرافة بالسيف مصلتا على رؤوس الملوك واهتزت العروش حين رغب الملوك في كبج جماح أو معاقبة الرجال المقدسين الذين كانت مصالحهم متشابكة مع مصالح الآلة ... كان الحد من سلطانهم يعنى تقويض أركان الديانة . » (٥٤) .

وبصفة عامة اتخذت الحرب ضد العقيدة القديمة شكل الثناء على المعتقدات الجديدة في العلوم والفلسفة ومناهجهما . وكان الفلاسفة يحلمون باحلال العلوم محل الدين والفلاسفة محل الكهنة على الأقل بين الطبقات المتعلمة . وحظيت العلوم بتفسيرات وشروح مسهبة . مثال ذلك أن ستة وخمسين عمودا خصصت «للتشريح» . وتحت بند « الجيولوجيا » كتبت مقالات مطولة عن المياه المعدنية والمعادن والطبقات وأنهار الجليد والأحافير والمناجم والزلازل والبراكين والأحجار الكريمة . وكان لزاما أن توضع الفلسفة في النظرة الجديدة إليها على أساس من العلوم تماما . وينبغي ألا تبنى « نظما » ويجب أن تتمجنب الميتافيزيقا ويجب ألا تتحدث بلغة الأساقفة عن منشأ العالم ومصيره . وشنت مقالة « المدرسة » هجوما مباشرا على الفلاسفة السكولاسيين (المدرسين) على إعتبار أنهم تخلوا عن البحث عن المعرفة ، واستسلموا للاهوت . وضعوا أنفسهم ، وهم آمنون في المنطق الواهى مثل خيوط العنكبوت ، وسط غيوم الميتافيزيقا .

ودبح ديدرو سلسلة من المقالات الممتازة في تاريخ الفلسفة ، استندت

كثيراً على كتاب جوهان جاكوب بروكر « تاريخ النقد الفلسفي » (١٧٤٢ — ١٧٤٤) ولكنها كشفت عن بحث أصيل في الفكر الفرنسي ، وشرحت المقالات التي كتبت عن مدرسة إلبا وأبيقور المذهب المادى . وأفرطت بعض المقالات في إطراء برونو وهوبز . وباتت الفلسفة عند ديدرو ديانة . « والعقل للفيلسوف هو بمثابة البركة والنعمة الإلهية للمسيح » ^(٥٥) . وصاح « فلنسارح لنجعل الفلسفة شعبية » ^(٥٦) . وفي مقالة « الموسوعة » كتب كما يكتب الرسل أو الحواريون « اليوم حين تتقدم الفلسفة إلى الأمام بخطى جبارة ، وتخضع لسلطانها كل الأشياء التي تهتمها ، وحين يكون صوتها عالياً مدوياً ، وتشرع في طرح نير السلطة والتقاليد وتستمسك بقوانين العقل ... » وهنا كانت العقيدة الجريئة الجديدة مع ثقة فتية شابة قليلاً ما توجد ثانية . وربما كان يفكر في حاميته الإمبراطورية في روسيا ، فأضاف مثل أفلاطون « وحدوا بين حاكم (كثيرين الثانية) وبين فيلسوف من هذا الطراز (ديدرو) ومن ثم تجدون ملكاً بلغ درجة الكمال ^(٥٧) .

وإذا حل مثل هذا الفيلسوف محل كاهن اعتراف مرشد وموجه للملك ، فلا بد أن ينصحه أول ما ينصح باطلاق الحرية ، وبخاصة حرية الكلام والصحافة « إن أحداً لم يتلق من الطبيعة حق التحكم في الآخرين » ^(٥٨) وفي هذا تعريض شديد بحقوق الملك الألهية أما بالنسبة للثورة : « إن السلطة التي يتم الإستيلاء عليها عن طريق العنف ليست إلا اغتصاباً ، لا تدوم إلا بقدر تفوق قوة من سيطر على قوة من أذعنوا له . فاذا توافر لهؤلاء الآخرين قسط كبير من القوة وتخلصوا من نير من تسلط عليهم من قبل فإنهم يفعلون بحكم الحق والعدل مثل ما فعل هذا الذي كان قد تحكم فيهم وفرض عليهم سلطانه من قبل . إن نفس القانون الذي فرض السيادة هو الذي يحطمها ويبطلها ، وهو قانون الأقوى ، ... ومن ثم فإن السلطة الحقيقية الشرعية لها بالضرورة حدود وقيود ... إن الأمير (الملك) يتلقى من رعاياه السيادة التي يمارسها عليهم . وهذه السيادة محدودة بقوانين الطبيعة وقوانين الدولة ... إن الدولة لا تتبع الأمير ، بل إن الأمير هو الذي يتبع الدولة وينتسب إليها ^(٥٩) .

ولم تكن الموسوعة إشتراكية ولا ديموقراطية ، بل إنها قبلت الملكية ،

ونبذت نظرية المساواة التي شرحها روسو بقوة ١٧٥٥ . ودافعت مقالة جوكور « المساواة الطبيعية » عن المساواة أمام القانون ، ولكنها استطردت تقول « إنى أدرك تمام الإدراك ضرورة تباين الأحرار والدرجات والمقامات والطبقات والإمتيازات والتبعية التي يجب أن تسود في كل الحكومات » (٦١) واعتبر ديدرو آنذاك أن الملكية الخاصة أساس لا غنى عنه للمدنية (٦١) على أن مقالة « الإنسان » على أية حال كانت لها وقفة مع الشيوعية : « إن الربح الصافي للمجتمع إذا وزع توزيعاً عادلاً بالتساوى قد يكون مفضلاً على ربح أكبر إذا لم يوزع على قدم المساواة ، ومن ثم تكون نتيجه تقسيم الشعب إلى طبقات » . وعند التحدث عن الملاجىء قيل « قد يكون السعى إلى منع الفقر والرؤس ذا قيمة أكبر من مضاعفة الملاجىء لإيواء الرؤساء » (٦٢) .

إن الملك الفيلسوف قد يفحص من وقت لآخر شئون الإقطاع ويلغى الإمتيازات الإقطاعية التي لم تعد تتكافأ مع خدمات السادة الإقطاعيين للفلاحين أو للدولة (٦٣) . وقد يجد بديلاً إنسانياً للعمل الإجبارى ، أى نظام السخرة ، ويحرم تجارة الرقيق ، ويضع حداً ، كلما اتسع سلطانه ، للحروب بين الأسرات المتنافسة والصراعات التي يملها الجشع ، ويسعى إلى تطهير المحاكم من الفساد ، ويوقف بيع الوظائف ، ويخفف من وطأة قانون العقوبات وعلى الأقل يضع حداً للتعذيب القضائى . وعليه ، بدلاً من العمل على استدامة الخرافة وانتشارها ، أن يبذل أقصى جهوده فى أن يدفع إلى الأمام هذا العصر الذهبي الذي يمكن أن يتحالف فيه فن الحكم وسياسة الدولة مع العلم فى حرب متصلة ضد الجهل والمرض والفقر .

وكانت الأفكار الإقتصادية فى الموسوعة فى جملتها هى أفكار الطبقة الوسطى التي ينتمى إليها معظم الفلاسفة . وهى على الأغلب آراء الفيزيوقراطيين التي سيطرت بزعامة كني وميرابو الأب على النظرية الإقتصادية فى فرنسا فى أواسط القرن الثامن عشر . فقد ساد الاعتقاد بأن حرية العمل والمشاريع — ومن ثم التجارة الحرة والمنافسة الحرة — أمر حيوى بالنسبة للأحرار من الناس . ولذلك كانت النقابات وهى عوائق لهذه كلها ، غير مرغوب فيها ولا يتقبلها أحد . وقدّر لهذه الأفكار أن تبرز على مسرح التاريخ فى وزارة

ترجو ١٧٧٤ ونهت الموسوعة الأذهان إلى التكنولوجيا الصناعية وأولتها
عناية متحمسة ، وهى التكنولوجيا التى بدأت تغير وجه الإقتصاد فى إنجلترا
وفرنسا . واعتقد ديدرو أن الفنون الميكانيكية يجب إكبارها والرفع من
شأنها باعتبارها تطبيقاً للعلوم ، والتطبيق بالتأكيد ذو قيمة كبيرة مثل النظرية
تماما . « ما هذا الحمق فى قراراتنا وتقديراتنا ! إننا نحض الناس على أن يشغلوا
أنفسهم بما يفيد وينفع ، ثم نحقر الرجال النافعين » (٦٤) . وكان يأمل فى أن
تكون الموسوعة مستودعا جامعاً مانعاً للتكنولوجيا حتى إذا وقعت بالفنون
الميكانيكية كارثة دمرتها أمكن بناء هذه الفنون من جديد بفضل مجموعة
باقية من مجلدات الموسوعة . وكتب هو نفسه مقالات مطوالة بذل فيها جهداً
كبيراً عن الصلب والزراعة والإبر والبرونز وآلة النقب والقمصان والجوارب
والأحذية والخبز . وأعجب بعبقرية المخترعين وبمهارة الحرفيين . وقصد
بنفسه أو أرسل مساعديه إلى المزارع والحوانيت والمصانع لدراسة العمليات
والمنتجات الجديدة ، وأشرف على حفر الرسوم والنقوش التى قارب عددها
ألفا والتى جعلت من مجلدات اللوحات الأحد عشر إحدى العجائب من
نوعها فى ذلك العصر . وكانت الحكومة فخورة بأن يشمل هذه المجلدات
الأحد عشر الإذن الملكى بطبعها ونشرها . وقد ضمت خمساً وخمسين لوحة
عن صناعة النسيج وإحدى عشرة لوحة عن سلك العملة وعشراً عن الصناعات
الحربية ، وخمسا عن البارود ، وثلاثاً عن صناعة الدبابيس . وكانت هذه
اللوحات الثلاث الأخيرة مصدرأ لمقالة آدم سميث الشهيرة عن توزيع العمل
إلى « ١٨ عملية متميزة » فى إنتاج الدبوس (٦٥) . قال ديدرو : « من أجل
الحصول على هذه المعاومات كنا نقصد إلى أقدر الحرفيين فى باريس وفى
سائر أنحاء المملكة ، وحرصنا على أن نوجه إليهم الأسئلة ونكتب ما يملون
علينا . ونحصل منهم على المصطلحات المستخدمة فى حرفهم . وفى مقابلات
طويلة كثيرة مع مجموعة واحدة من العمال كنا نستكمل ما قد يكون الآخرون
قد شرحوه بشكل ناقص أو غامض أو أحياناً غير دقيق . وأرسلنا إلى
الحوانيت حفارين ورسامين رسموا الآلات والأدوات دون أن يحذفوا شيئاً
يمكن أن يجعلها واضحة تمام الوضوح أمام الأعين . » (٦٦)

وفي ١٧٧٣ ، عندما طلب سلطان تركيا إلى بارون دي توت أن يصنع المدافع لحصون الدردنيل استخدم البارون مقالة « المدافع » في الموسوعة مرشدا دائما يسترشد بما جاء فيها . (٦٧)

وبعد أن فرغ ديدرو من إعداد النص كاملا ، أصيب بنكسة زلزلت كيانه وحطمت روحه ، ذلك أنه وهو يراجع إحدى المقالات اكتشف أن أجزاء كثيرة من أوراق التجارب التي كان قد صححها واعتمدها حذفت أو سقطت عند الطبع . وأظهرت مراجعة بعض المقالات الأخرى أن حذفا مماثلا جرى في المجلدات من التاسع إلى السابع عشر ، وجرى الحذف والتعديل عادة في أجزاء ربما أثارت مرة أخرى رجال الدين أو البرلمان . وجرى الحذف دون اعتبار للمنطق أو السياق في الجزء الباقي من المقالة . واعترف لي بربتون بأنه عمدا إلى هذه العملية الجراحية (الحذف) لينقذ الموسوعة مما قد تتعرض له من محن ، وينقذ نفسه من الإفلاس . وروى جريم نتيجة هذا العمل « لقد جن جنون ديدرو عند اكتشاف هذا التصرف ، ولن يغيب عن ذاكرتي مطلقاً هذا الذي حدث له وظل لعدة سنين يصرخ في وجه لي بريتون « لقد كنت تخدعني بشكل مخز ودنيء وضيعت جهود عشرين من أفاضل الرجال ، الذين خصصوا كل وقتهم وقدراتهم ومواهبهم ونشاطهم حبا في الحق وجريا وراء الحقيقة ، يحذوهم مجرد الأمل في وصول آرائهم إلى جمهور الناس ، ولا يريدون منها إلا أيسر الجزاء بضمن غال ... ولسوف يذكرولك منذ الآن رجلا اقترف جريمة الخيانة ، وتصرف تصرفا وقحا كريها ، مما لا يقارن به أي شيء حدث في هذا العالم » (٦٨) . ولم يغتفر ديدرو لبريتون هذه الزلة قط .

إننا لو ألقينا نظرة فاحصة إلى هذا العمل ، سواء من حيث تاريخه أو محتوياته : لأدركنا أنه المشروع البارز الرائع في عصر الإستانارة في فرنسا ، ومنذ كان ديدرو فيه رئيسا لا غنى عنه ، كانت مكانته تجيء بعد فولتير وروسو في الصورة العامة الشاملة للحياة الفكرية في فرنسا في القرن الثامن عشر .. وكانت مثابرتة على تحرير الموسوعة عملية متشعبة الأطراف مضنية . إنه أثبت المراجع المتعارضة وصحح الأخطاء وقرأ تجارب الطبع ، وطاف

بأرجاء باريس يبحث عن الكتاب ويستحهم . ودبج بقلمه مئات المقالات في حالة عدم العثور على الكتاب أو عجزهم عن الكتابة . وكان المرجع الأخير إذا قصر الآخرون ، ومن ثم نجده يكتب في الفلسفة والفن والمسيحية ، والأصالة العاصرة (نوع من الحيات الضخمة الماحقة) والجمال وأوراق اللعب ومصانع الجعة والخبز المقدس . وسبقت مقالته عن « التعصب أو عدم التسامح » رسالة فولتير في نفس الموضوع ، وربما أوحى ببعض الأفكار الواردة فيها . وزخر الكثير من مقالاته بالأخطاء ، وكان بعضها عدائيا غير منصف بشكل مشوش ، مثال ذلك مقالته عن اليسوعيين ، ولكنه كان في عجلة من الأمر ، على حذر يستعد للنضال . كما كانوا يطاردونه ، وكان يحارب بكل سلاح في متناول يده .

أما وقد خفت حدة المعركة ، ففي مقدورنا أن نتيين مواطن الضعف في الموسوعة . ففيها ألف خطأ في إيراد الحقائق ، وفيها تكرارات طائشة غير مدروسة وحذف فاضح . وكان فيها انتحالات جوهرية ، كما أوضح الباحثون اليسوعون « وكانت بعض المقالات » لوحة من المسروقات أو الإقتباسات ^(٦٩) . وفي ثلاثة أعداد من صحيفة تريفيو أورد برتيني ، استناد إلى مراجع دقيقة ومقتبسات متطابقة أكثر من مائة من الانتحالات في المجلد الأول وكان معظم هذه المسروقات منحصرًا غير ذي أهمية ، ولكن بعضها إمتد إلى ثلاثة أو أربعة أعمدة منقولة بالحرف الواحد .

وكان في الموسوعة شوائب فكرية خطيرة . ومن ذلك أنه كان لدى المؤلفين فكرة بالغة السذاجة عن الطبيعة البشرية ، وتقدير متفائل إلى حد بعيد لأمانة العقل وإدراك غامض غاية الغموض لضعف هذا العقل وهشاشته أو سهولة إنقياده ، ونظرة عامة متفائلة أكثر مما ينبغي إلى كيفية استخدام الناس للمعرفة التي يزودهم بها العلم . إن الفلاسفة بصفة عامة وديدرو بصفة خاصة ، كانت تعوزهم الحاسة التاريخية . لأنهم قليلا ما توقفوا ليجتثوا كيف نشأت ونهضت تلك المعتقدات التي حاربوها ، وأية حاجات بشرية ، لا إبتداعات كهنوتية انتجتها وهيأت لها الدوام . وعميت أبصارهم تماما عن إسهام الديانة الضخم في النظام الإجتماعي وفي الأخلاق وفي الموسيقى والفنون ، وفي

تخفيف الفقر والشقاء . إن تحاماهم على الدين شديداً إلى حد أنهم لا يستطيعون مطلقاً إدعاء النزاهة أو عدم التحيز الذي ينبغي أن نعتبره الآن عنصراً أساسياً في الموسوعة الجيدة . وعلى الرغم من أن بعض اليسوعيين مثل برتبيه ، كانوا في الغالب منصفين في نقدهم للموسوعة ، فإن معظم نقادنا كانوا متحيزين مثل الفلاسفة .

وأحسن ديدرو إحساساً قوياً بالأخطاء الحقيقية الفعلية في الموسوعة فكتب في ١٧٥٥ : إن الطبعة الأولى من موسوعة لا يمكن إلا أن تكون جمعاً وتصنيفاً مشوهين ناقصين ، ^(٧٠) وتوقع أن تحل محلها وشيكا طبعة أخرى مصححة . وحتى مع هذا شق هذا الإنتاج الضخم طريقه إلى الأوساط الفكرية في القارة . وأعيد طبع المجلدات الثمانية والعشرين ثلاث مرات في سويسرا ، ومرتين في إيطاليا ، ومرة في ألمانيا ، ومرة في روسيا ، وعادت الطبعات المنتحلة إلى فرنسا لتنتشر تأثير الأفكار المهربة . وبلغ عدد الطبعات ثلاثاً وأربعين طبعة على مدى خمسة وعشرين عاماً — وهو رقم قياسى لمثل هذه المجموعة الغالية الثمن . وكان أفراد الأسرة يجتمعون في المساء ليقرأوا الموسوعة وتألقت مجموعات متلهفة على دراستها . وأشار توماس جفرسون على جيمس ماديبون بشرائها .

والآن وقد ظهر إنجيل العقل ضد الأساطير ، وإنجيل المعرفة ضد العقيدة والتعاليم الدينية ، وإنجيل التقدم عن طريق التعليم ضد التأمل أو التفكير القديم في الموت ، فكأنما هبت هذه كلها على أوروبا مثل ريح محملة بلبقاح جديد ، تبدد كل التقاليد وتغير الفكر وتوقظه ، وتدعو آخر الأمر إلى الثورة .

إن الموسوعة كانت ثورة قبل « الثورة الفرنسية »



الفصل العشرون

ديدرو بروتيه

١٧٥٨ - ١٧٧٣

١ - القائل بوحدة الوجود

إننا نسميه بروتيه Proteus لأنه مثل إله البحر عند هوميروس ، حاول أن يفلت من أيدي صائديه بالتشكل في مختلف الأشكال. ^(١) أما فولتير فقد أطلق على ديدرو اسم بانتوفيلس ، لأنه أولع بكل فروع العلوم والأدب والفلسفة والفن . وكان له بكل هذه المجالات معرفة واسعة ، وأسهم في كل واحد منها إسهاماً مثيراً موحياً . وكانت الأفكار هي كل زاده وعتاده . فجمعها وتذوقها وفحصها . ثم سكبها مشوشة تشويشاً مسرفاً حينما وجد قرطاساً خالياً أو آذاناً صاغية « إلى أضع أفكارى على الورق ولتكن ما تكون » ^(٢) وربما أصبحت أعداء . ولم ينسق قط بينها ولم يهتم قط بترابطها . ويمكن أن نفتبس عنه في أى اتجاه تقريباً ، ولكن نزعتة المركبة كانت جليلة واضحة . وكان أكثر أصالة من فولتير ، وربما كان السبب في هذا أنه لم يرتض قط المعايير التقليدية . وقد يطلق لنفسه العنان دون قيود مقبولة . وتتبع كل نظرية أنى قادته ، أحياناً إلى أعماقها وأحياناً أخرى إلى حثالتها . وتعرف على كل وجهات النظر إلا وجهات نظر القسيس والقدّيس لأنه لم يكن لديه حقائق أو أشياء يقينية « أنى لا أهتم بتشكيل السحب أكثر منى بتبديدها ، وتعطيل القرار أو الحكم ، لا باتخاذ .. أنا لا أقرر ، بل أتساءل » ^(٣) أنا أترك ذهني يهيم إلى حد السرف ، وأطلق العنان لمتابعة أية فكرة سليمة كانت أو طائشة ، تأتى أو تقفز إلى ذهني أولاً ، وأتعبها كما يتعب الشباب الداعر محظية بائسة وهى تبسم ، وتتلأأ عينها وتنتظر بازدراء ... إن أفكارى هي محظياتى ^(٤) . (م ٥ - قصة الحضارة)

وكان لديدرو خيال عقلاني ، فتخيل الأفكار والفلسفات والشخصيات كما يتخيل الآخرون الأشكال والمشاهد . ومن غيره كان يستطيع في زمانه أن يتصور « أين أخى رامو » المخزى اللا أخلاقى الفاتن . إنه بعد أن يخلق أحد شخصه يدعه ينمو ويتطور وكأنما يفعل ذلك طواعية واختياراً . ثم يدع هذه الشخصية تقوده ، وكأنما المؤلف هو الدمية المتحركة أو الألعابة . إنه تخيل نفسه في مكان راهبة شابة كارهة ثم جعلها حقيقة إلى حد أن المشتكيين الفرنسيين تولاهم الجزع لمحنتها . أنه جرب الأفكار تجريباً عقائياً ، وتمسك بها بعض الوقت ، وتخيل نتائجها منطقياً أو عملياً ، ثم طرحها جانباً . وما كادت توجد فكرة في هذا العصر إلا دارت بخلده . أنه واقعياً لم يكن مجرد موسوعة متحركة ، بل كان معملاً متنقلاً . سارت أفكاره معه أينما سار .

وهكذا فإن ديدرو في كتابة « بعض الأفكار في تفسير الطبيعة » الذى نشره فى ١٧٥٤ غفلاً من اسم المؤلف ، بترخيص ضمنى من الرقيب الكريم المحسن مالشرب — تلاءم بأفكار عن الأحادية (القول بأن ثمة مبدأً غائبا واحداً ، كالعقل أو المادة . القول بأن الحقيقة كل عضوى واحد) . والمادية والآلية والحيوية (المذهب الحيرى الذى يقول بأن الحياة مستمدة من مبدأ حيوى وأنها لا تعتمد اعتماداً كلياً على العمليات الفيزيائية والكيميائية) والتطور . وكان لا يزال متأثراً ببيكون وأخذ عنه العنوان والصيغة الحكيمة ودعوة رجال العلم ليتكاتفوا فى العمل على قهر الطبيعة عن طريق التجريب والعقل . وتأثر كذلك بكتاب موبرتيوس « منهج عام للطبيعة » (١٧٥١) وكتاب بيفون (التاريخ الطبيعى (١٧٤٩) . واتفق مع موبرتيوس على أن كل مادة قد تكون حية ، ومع بيفون فى أن علم الحياة (البيولوجيا) مستعد الآن للتحدث إلى الفلسفة . ورحب عند المؤلفين كليهما بفرضية التطور الناشئة .

وبدأ ديدرو بمخطط ضخم : (لأنها الطبيعة هى التى أريد أن أصفها ، إن الطبيعة هى الكتاب الوحيد أمام الفيلسوف) (٥) وتصور أن الطبيعة قوة

نصف عمياء ونصف ذكية ، تؤثر في المادة وتبحث فيها الحياة ، ونهىء
للحياة مليون شكل تجريبي ، وتدخل التحسين على هذا العضو . وتنبذ ذلك
العضو ، نجى وتميت بشكل مبدع . وفي هذا المعمل الكوني ظهرت واختفت
آلاف الأنواع .

(أنه مثل ما هو حادث في مملكتي الحيوان والنبات ، ينشأ فرد وينمو
ويبقى ثم يهلك ويزول ، فهلا يمكن أن تكون كل الأنواع على هذا الموال؟
إذا لم تعاملنا العقيدة أن الحيوانات تأتي عن يدي الخالق كما نراها ، وإذا
كان هناك أدنى شك في بدايتها ونهايتها ، فهلا يفترض الفيلسوف المستسلم
لخواتمه أن الحيوانية أخذت عن كل الأهدية كل العناصر الخاصة بها ، ثم
تبعثرت واختلطت بكتلة المادة ، وحدث أن هذه العناصر اتحدت كلما أمكن
حدوث هذا الاتحاد ، وأن الجنين الذي تكون من هذه العناصر مر بتنظيمات
وتطورات لاحد لها ، وأنه اكتسب على التوالي حركة وأفكاراً وتفكيراً
وتأملاً ووعياً ومشاعر وانفعالات ورموزاً وإيماءات وأصواتاً واضحة ولغة
وقانوناً وعلوماً وفنوناً ، وأن ملايين من السنين انقضت بين هذه التطورات ،
وأنه قد لا يزال أمام هذا الكائن تطورات أخرى يمر بها وأضافات أخرى
يتلفها ، غير معروفة لنا الآن . . وأنه قد يفقد هذه المواهب والقدرات
كما اكتسبها ، وأنه قد يخفى إلى الأبد من الطبيعة ، لا بل إنه قد يبقى
على قيد الحياة في شكل آخر بمواهب وقدرات مختلفة كل الاختلاف
عما نراه فيه في هذه اللحظة من الزمان ؟ ^(٦)

إن الطبيعة عند ديدروهي كل شيء وهي إله . ولكننا لا نعرف عن
جوهرها إلا وفرتها المضطربة والتغير الدائب الذي لا يهدأ فيها . والطبيعة
هي المادة الحية . ولكن المادة تحتوي في نفسها على اندفاع الحياة وعلى
إمكانية التفكير . وليس الإنسان آلة كما أنه ليس روحاً غير مادية ، والجسم
والنفس كائن واحد ويفنيان معا (إن كل شيء يدمر نفسه ثم يهلك

ولا يبقى إلا العالم ، ولا يثبت إلا الزمان ^(٧) والطبيعة محايدة ولا تعتمد إلى التفريق بين الخير والشر والكبير والصغير والآثم والقديس . أنها تعنى بالأنواع الفرد . فلينضج الفرد ويتكاثر ثم ليتمت ولسوف يفنى كل نوع كذلك . أن الطبيعة حكيمة في عدد لا يحصى من التفاصيل البارعة التي يبدو أنها تكشف عن التخطيط . إنها تمنح الكائنات غرائز تمكنها من الحياة ومن تهيئة الحياة لغيرها ، ولكن الطبيعة أيضاً عمياء تدمر الفلاسفة والحمقى على حد سواء ، بقذيفة واحدة من النار أو بضربة واحدة من يدها على أديم الأرض ، ولن يكون في مقدورنا أن نفهم الطبيعة ولا أن نكشف النقاب عن أغراضها أو معناها إذا كان لها ثمة أغراض أو معنى ، لأننا نحن أنفسنا طوال تاريخنا الدموي الجليل من بين ألعابها أو رياضاتها العابرة المتناهية في الصغر .

٢ - حلم دالمبير

تابع ديدرو تأملاته في الطبيعة في واحد من أغرب المؤلفات في الأدب الفرنسي - حلم دالمبير (وامتاز ديدرو بعرض أفكاره في صورة حلم ، ودس الحلم على صديقه بأن جعل اثنين من مشاهير المعاصرين - جولى دى لسبياس ودكتور تيوفيل دى بوردو - متحدثين في الحوار . وقال ديدرو لخليلته « إني أضع أفكارى على لسان رجل يحلم . وغالباً ما يكون ضرورياً أن نضفى على الحكمة جواً من السخف والحمق حتى نهيء لها مدخلاً » ^(٨) وتحت هذه الأقنعة أطلق العنان لخياله الفاسفى غير مهال بأى خطر شخصى أو أية نتائج اجتماعية ، وكان مسروراً غاية السرور بالنتيجة . ووصفه صوفى فوللاندر بأنه (أكثر ماكتب حمقا وعمقا ، فيه خمس أو ست صفحات تجعل شعر رأسك ينتصب) ^(٩) على أنه أكد لها أنه لم يتضمن كلمة واحدة خاطئة ^(١٠) . أنه كتبه في عام ١٧٦٩ وقرأ أجزاء منه على أصدقائه ، وفكر في طبعه ، والمفروض في الخارج . فاحتجت الأنسة دى لسبيناس لأسباب سوف تتضح فيما بعد . وفي حركة بطولية ألقى بالخطوطة في النار ، وربما كان يعلم أن هناك نسخة أخرى . وعلى أية حال طبع الكتاب في ١٨٣٠ .

أنه عمل ثلاثى . وفى « المحادثة » الأولية بين ديدرو ودالمبير يعترض العالم الرياضى على مذهب صديقه المادى الحيوى بأنه ليس مقبولا أكثر من قبول مفهوم الله عند رجال اللاهوت فى القرون الوسطى . يقول ديدرو : « ليس بينك وبين الحيوان إلا فارق واحد فى الكائن الحى (درجة التطور العضوى) وكذلك الحال بين الحيوان والنبات » . ومن ثم فإن كل شىء فى الإنسان يجب أن تكون له بذرته أو نظيره فى النباتات » . ويسأل دالمبير : وفى المادة أيضاً ؟ فيرد ديدرو بالإيجاب ، لأنك « كيف تعرف أن الوجدان لا يلتئم مع المادة—أنت الذى لا تعرف جوهر أى شىء لا المادة ولا الوجدان؟ وليس ثمة إلا جوهر واحد فى الكون فى الإنسان وفى الحيوان ^(١١) » .

ويبرز الجزء الثانى من هذه الثلاثية دكتور بوردو والآنسة دى لسبيناس إلى جوار سرير دالمبير وهو نائم بعد أمسية قضها فى الجدل والحوار مع ديدرو (وكانت الآنسة وقد اشتهرت فعلا بصالونها تقيم مع دالمبير فى لون من الحياة الأفلاطونية) . وتروى للطبيب أن صديقها رأى فيما يرى النائم حلما مزعجاً وأنه تحدث فى نومه حديثا غريبا وأنها دوت بعض ملاحظات عن هذا الحديث ، مثال ذلك إن دالمبير قال لديدرو « انتظر قليلا أيها الفيلسوف . أنا أستطيع أن أدرك بسهولة مجموعة . . من الكائنات الصغيرة التى تحس ، ولكن الحيوان ؟ هل هو كل . . بوعى من وحدته الخاصة به ؟ أنا لا أرى هذا ^(١٢) ويرى الخالم فى منامه أن ديدرو يروغ إذ من السؤال يتخذ موقفاً عفويا « عندما رأيت المادة الهامدة تصبح فى حالة شعور فلا شىء يدهشنى بعد ذلك » . ^(١٣) . ويتابع ديدرو : « إذا كانت كل الأنواع الموجودة ستزول فلأنها أو أية أشكال أخرى من الحيوان ستنتج على إمتداد الزمن تخمر الأرض والهواء . ويشترك بوردو والآنسة فى المناقشة ، ولكن تقاطعهما صرخة مفاجئة من الرجل الذى يحلم الذى يتحدث الآن مثل ديدرو . « لماذا أكون أنا الآن كما أنا ؟ لأنه لم يكن ثمة مفر من أن أكون . كذلك . إذا كان كل شىء فى تغير عام متواصل فما الذى لا يمكن لإنتاجه هنا أو فى أى مكان آخر

بمرور ملايين القرون وتقلباتها ؟ . . . ومن يدرينا أن الكائن المفكر الذى يحس ويشعر موجود على كوكب زحل ؟ . . . هل يمكن أن يكون للكائن المفكر الذى يحس ويشعر فى زحل حواس أكثر منا ؟ آه إذا كان الأمر كذلك لكان ساكن زحل سىء الحظ لأنه كلما ازدادت الحواس ازدادت الحاجات ^(١٤) .

ويلحق بوردو على ذلك « أنه على حق طبقا لنظرية لا مارك فى التطور العضوى ، فإن الأعضاء تولد الحاجات وبالتبادل تولد الحاجات الأعضاء .
وبصحو دالمبير لحظة ويجد بوردو يقبل لسبيناس فيحتج . ويأمرانه بالعودة إلى النوم فيمتثل . وينسى الطبيب وصاحبه الصانون ويتبعان الأفكار التى بدأت فى الحلم ويشير بوردو إلى ولادة المخلوقات الإنسانية الغريبة ويتحدى المؤمنین بالتمخطيط الالهى أن يفسروها . وتسنع للآنسة لحة خاطفة بارعة « ربما كان الرجل مجرد صورة مشوهة من المرأة أو المرأة صورة مشوهة من الرجل ^(١٥) . ويضيف الطبيب إلى هذا على طريقة ديدرو « الفرق الوحيد بينهما أن لأحدهما كيس يتدلى فى الخارج وللآخر كيس مثبت فى الداخل » . ويستيقظ دالمبير ويحتج « أنت تتحدث بكلام بذىء إلى الآنسة لسبيناس » وينفض بوردو لأنه كان على موعد مع مريض آخر ، ويتوسل إليه دالمبير أن يبقى ليفسر له : « كيف حدث أنه ظل كما هو بالنسبة لنفسه وللآخرين طوال التقلبات التى عاناها طوال سنى حياته على حين أنه ربما لم يعد لديه شىء قط من الجزئيات التى كانت له عند مولده » ؟ فيجيب الطبيب « أنها الذاكرة و . . . بطء التغيرات » . وتقدم الآنسة قياسا مثيرا « أن الدير يحتفظ بروحه لأنه يمتلىء بالرواد شيئا فشيئا وإذا قدم راهب جديد فإنه يجد مائة راهب قديم يقودونه إلى أن يفكر ويحس مثل ما يفعلون هم أنفسهم ^(١٦) » .

ويسيطر بوردو منذ الآن على المناقشة وهو يفرق بين النزعة الرومانتيكية والنزعة التقليدية القديمة حسبما تسيطر الحواس على الذهن الواعى أو يسيطر

الذهن الواعى عليها . ويرى ن لسبيناس مثال وأضح على الحالة الأولى ويقول لها فى رقة « إنك ستوزعين وقتك بين الضحك والدموع ولن تكونى أكثر من طفل » ويذكر تفسيراً فسيولوجياً للإحلام : « النوم حالة لا يعود يوجد فيها تنسيق بين الحواس عن طريق الوعى أو الهدف ، ولا يعود يوجد أى عمل مدبر أو نظام وضبط والسيد (النفس الواعية) ستسلم لهوى أتباعه (الحواس) . . . هل الخيط (الأعصاب) مشدود ؟ إذن يرى أصل الشبكة (المخ) . وإذا أراد خيط السمع فإنه يسمع . والفعل ورد الفعل (الأحساس والاستجابة) هما الشيطان الوحيدان اللذان يبقيان بينهما . وهذا نتيجة طبيعية لقانون الاستمرار والعادة . إذا بدأ الفعل بالغاية الشهوانية التى قدرتها الطبيعة للذة الحب ، وتكاثر النوع فإن أثره على أصل الحزمة (المجموعة) هو الكشف عن صورة المحبوب . ومن جهة أخرى إذا ظهرت هذه الصورة بادية ذى بدء لأصل الحزمة فستكون شدة الرغبة الشهوانية وهياج السائل المنوى وتدفقه ، هذه كلها ستكون نتيجة رد الفعل . . . وفى حالة اليقظة تدعن الشبكة للصور التى يطبعها فى الذهن شىء خارجى . وفى حالة النائم ، فإنه من ممارسته شعوره الخاص ، ينبثق كل شىء فى نفسه . وليس فى الحلم شىء يصرف الانتباه ومن ثم كانت حيوية ونشاطه^(١٧) . »

وربما أحس بوردو بأن المريض الذى كان قد قرر زيارته قد يشفى بالطبيعة أسرع منه بالدواء ، ولذلك نسيه ، وأنطلق يشرح الجبرية (الإيمان بالقضاء والقدر) ويصف « إحترام الذات ، والحجل والندم » بأنها صيانيات مبنية على جهل وغرور شخصى ينسب لنفسه مزايا ونقاتض فى لحظة لا مفر منها^(١٨) .

وأفتن ديدور بالطبيب بوردو ناطقاً بلسانه ، حتى أنه فى الجزء الثالث « مواصلة المحادثة » أغفل الدليير . وإذا تحرر الطبيب فإنه أنكر العفة باعتبارها أمراً غير طبيعى ، ويقر الاستمناء متنفساً ضرورياً عن الحويصلات المكتظة أو المحترقة « أن الطبيعة لا تجيز شيئاً غير ذى فائدة . فهل أكون ملوماً فى

مساعدتها إذا أهابت في لمعونتها في أقل الأعراض شبه وريبة ؟ وبجدر بنا
إلا نستفزها أبدا ، بل نمد لها يد المعونة بين الحين والحين^(١٩) . ويختتم
الطبيب كلامه بتحيزيد التجارب في مجال الخلط المنتج بين مختلف الأنواع ،
حيث يمكن أن ينتج هذا الخلط نمطا من الإنسان الحيوان الذي قد يقنع
بخدمة الإنسان . وتستيق الآنسة لسيناس أناتول فرانس والبطارقة ، فتتسأل :
وهل ينبغي تعميم أنصاف الرجال هؤلاء ؟

بورديو (وهو يهيم بالخروج) : هل رأيت في حديقة الحيوان ، في
قفص من زجاج لإنسان الغاب (ضرب من القرودة العليا الشبيهة بالإنسان
يقطن في بورنيو وسومطره) يبدو وكأنه سان جون يلتقي المواعظ في
الصحراء ؟

الآنسة : نعم رأيته .

بورديو (وهو يغادر المكان) : قال له الكاردينال دي بوليناك ،
« تكلم وأنا أعمدك^(٢٠) » .

وفي « مبادئ الفسيولوجيا » (١٧٧٤) صاغ ديدرو نظريته في التطور ،
متأملا في الحلقة المفقودة ، فهو يقول « من الضروري أن نبدأ بتصنيف
الكائنات ، إبتداء من الجزئ الحامل غير الفعال (إذا وجد) إلى الجزئ
النشط الفعال ، إلى الحيوانات الدقيقة التي لا ترى إلا بالمجهر . . . إلى النبات ،
وإلى الحيوان ، وإلى الإنسان . . . » . يجدر إلا يصدق المرء أن سلسلة الكائنات
قد عوقبت وأعتراض سبيلها تبين الأشكال وتنوعها ، فالشكل مجرد قناع
خداع . وربما وجدت الحلقة المفقودة في كائن غير معروف ، لم يستطع
علم التشريح المقارن بعد أن يحدد مكانه الحقيقي^(٢١) .

٣ — ديدرو والمسيحية

كان ديدرو قد وعد صوفي فوللاند بأنه لن يتعرض للديانة في « حلم دالمبير »
والواقع بطبيعة الحال أن « الثلاثي » أورد فلسفة استغنت عن الألهة تماما .
وظل ديدرو في العلن ربوبيا متمسكا بأن الله هو « المحرك الرئيسي » فقط ،

منكرا العناية الالهية والتخطيط والتدبير الالهى . وكان من الناحية النظرية « لا أدريا » ينكر أى علم أو إهتمام بأى شىء فيما وراء دنيا الحواس ودنيا العلوم ، وتحدث أحيانا بشكل غامض عن وعى كوفى تعثر وتخط عبر زمان لا حدود له ، وقام بتجارب تنتج الآن أشخاصا غريبة عقيمة أو يسبب أحداثا سعيدة — لا يكاد يكون ألها بتقبل الصلوات والدعوات . ويمكن أن يصبح فى إحدى نوبات الغضب خصيماً عنيفا ، وأنبأ عن مبغض البشر الذى بث فكرة الإله ، أنتقاما من الحياة ، وانتشرت الفكرة ، وسرعان ما تشاجر الناس وكره بعضهم بعضا ، وقطع الواحد منهم رقبة الآخر . وكانوا يفعلون نفس الشىء منذ جرى هذا الأسم الكريه على الألسنة . وأضاف ديدرو فى إبتهاج مقرون بالحدز « ربما ضحيت بحياتى فى سبيل القضاء على فكرة الآلة قضاء مبرما^(٢٢) . » ومع ذلك فأن نفس العبقرية المهوشة أحست بنظام الكون وعظمته المذهلتين ، وكتب إلى الآنسة فوللاند : « أن الألحاد أقرب ما يكون إلى الخرافة ، وكلاهما صيبانى طائش » ، ثم أضاف « لقد جن جنونى لأنى حائر متورط فى فلسفة شيطانية لا أملك إلا أن يقرها ذهنى وينبذها قلبى^(٢٣) » وأقر فى سنيه الأخيرة بعد ذلك صعوبة أشنشقاق العضوى من غير العضوى أو الفكر من الأحساس^(٢٤) .

ولكن ديدرو لم يهدأ قط فى حملاته على المسيحية . وثمة فقرة مثيرة من رسالة خاصة تلخص موقفه منها ، « من رأى أن العقيدة المسيحية أسخف وأشنع ما تكون فى تعاليمها ومبادئها ، كما أنها مستعصية على الفهم ، ميتافيزيقية مربكة غامضة إلى أبعد الحدود . ومن ثم كانت أكثر تعرضا للأقسامات والشيع والأنشفاقات والمهرطقات ، وأكثرها إيذاء وازعاجا للهدوء العام ، وخطرا على الملوك والحكام فى تسلسل مراتبها الكهنوتية واضطهاداتها ونظامها العام ، وهى أشد العقائد فتورا وكآبة وبعدا عن المدنية ، وعبوسا فى طقوسها ، وأشدّها صيبانية وأنطوائية وبعدا عن الروح الاجتماعية فى اخلاقياتها . . . وهى متعصبة لا تحتمل إلا أقصى^(٢٥) .

وفى « نزهة المتشكك » (١٧٤٧) كان ديدرو قد اعترف بخدمات الكنيسة فى تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق ولكنه بعد ذلك رأى أن المسيحية ، على حين تنهى عن الجرائم البسيطة ، تبعث على إقتراف الجرائم الكبيرة ، « سيأتى ، أن عاجلا أو آجلا . الوقت الذى نرى فيه أن نفس العقيدة التى حالت بين الإنسان وبين سرقة شلن واحد ، تكون سببا فى قتل ١٠٠ ألف شخص . تعويض رائع ! »^(١٦) ومهما يكن من أمر ، فإن لأفكارنا الدينية أقل الأثر فى أخلاقنا^(١٧) ، والناس يرهبون القوانين الحالية أكثر مما يخشون نار جهنم الآجلة والآله الذى لا يرونه . أن القسيس نفسه قلما يعتمد على الدعاء والصلاة للالة ، اللهم إلا إذا كان المرء لا يعنيه إلا قليلا^(١٨) . وفى ١٧٧٣ تنبا ديدرو بأن الإيمان بالله والخضوع للملوك لن يعود لهما وجود فى بحر سنوات قلائل فى كل مكان^(١٩) ويبدو أن النبوة تحققت فى فرنسا فى ١٧٩٢ . ولكن ديدرو تنبأ أيضاً « بأن الإيمان بوجود الله سيبقى »^(٢٠) .

ومثل معظم الذين فقدوا إيمانهم بالمذهب الكاثوليكي ، فإن نفس ديدرو الذى ذهب إلى أن المراسم والطقوس الكاثوليكية كثيية حزينة ، ظل حساسا لجمال ووقار الشعائر الكاثوليكية . ودافع عنها ضد النقاد البروتستانت فى صالونه ١٧٦٥ ، فهو يقول : « أن هؤلاء المتشددىن الحمقى لا يدركون مدى تأثير الطقوس المظهرية على الناس . أنهم لم يشهدو قط توقيع الصليب فى يوم الجمعة الحزينة ، وحاسة الجماهير فى موكب عيد القربان . وهى حساسة كانت فى بعض الأحيان تجرفنى أنا نفسى . أنى لم أر قط هذا الصف الطويل من القساوسة فى ملابسهم الكهنوتية ، ومساعدىهم الصغار فى ثيابهم البيضاء ينثرون الزهور أمام القربان المقدس ، ولم أن هذه الجماهير الحاشدة التى تسبقهم وتعقبهم فى صمت دينى رهيب ، كما أن كثيرا من الناس ينبطحون على الأرض . ولم أسمع قط هذه التراتيل الوقورة التى ينشدها الكهنة وترددها فى حب وإخلاص الجموع الخفيرة من الرجال والنساء والأطفال ، إلا أهتز قلبى من الأعماق ، وذرفت عينى الدموع »^(٢١) .

ولكنه إستأنف الهجوم بعد أن مسح عينيه . ففي « مناقشة فيلسوف مع المارشال دى . . . (١٧٧٦) تخيل رجلاً متشككاً أسماه كروديلى (معناها بالأيطالية قاس) يتحدث مع إحدى سيدات المجتمع النبيلات ، تعتقد أن من ينكر « التثليث المبارك » إنما هو متوحش مصيره إلى المشنقة . وتدهش السيدة إذ تجد أن كروديلى الذى هو ملحد ، ليس أيضاً لصاً ومنغمساً فى الشهوات يقول « أظن أنه إذا لم يكن لدى شىء أخشاه أو أمل فيه بعد الموت فأنى سأستبيح لنفسى كثيراً من الملذات اليسيرة هنا » . ويسأل كروديلى « وما هى هذه الأشياء » ؟ « أنى أعترف بها للكاهن فحسب ولكن ما لدى يدفع الكافر غير المؤمن ليكون طيباً إلا إذا كان مجنوناً ؟ » أنها تراجع قليلاً أمام حججه ثم تتخذ خط دفاع آخر : « ينبغي أن يكن لدينا ما نرهب به الأعمال التى تفلت من قبضة القانون القاسية وفضلاً عن ذلك إذا قضيت على الديانة فإذا توضع محلها ؟ » . فيجيب كروديلى « هى أنه ليس هناك شىء يحل محل الدين ، فلسوف يكون دائماً على ية حال ضرر وظلم أقل » . إنه يصور المسلمين فى ثورة يذبحون فيها المسيحيين ، والنصارى يحرقون المسلمين واليهود .

المارشال : هب أن كل ما اعتقدته باطلاً كان حقاً ، وأنتك هالك . إنه لشىء رهيب مزعج أن تكون هالكاً ملعوناً وأن تصلى النار إلى الأبد .

كروديلى : يقول لافونتين بأننا سننعم بالراحة ، مثل السمك فى الماء . المارشال : نعم ، نعم ، ولكن لافونتين أصبح وقوراً ثقيلاً جداً آخر الأمر ، وأتوقع أن تكون كذلك .

كروديلى : أنا لا أستطيع أن أجيب بشىء إذا ضعف مخى .

أن أشد الفلاسفة عداوة لرجال الدين كان يحس بمرارة بالغة نحو ما بدا له أنه ضياع لحيوية البشر وطاقاتهم فى أديار الرهبان والراهبات . وفى إحدى

صفحاته الغاضبة أنحى بأعنف اللوم على الآباء الذين حكموا على بناتهم بالعيش بين جدران الدير وهن كارهات . إن من أروع كتاباته من الناحية الفنية ، بحثاً خيالياً من جديد لحياة راهبة من هؤلاء . أنه كتب رسالة الراهبة في ١٧٦٠ نتيجة مزحة كان يأمل جريم وديدرو من وراثها أن يعيدا إلى رفقهما المركيز دى كرواكسمير من كاين إلى باريس . وحوالى هذه الفترة أثار ديدرو نداء وجهته الراهبة إلى برلمان باريس لاحتلالها من القسم الذى أكرهها والداها عليه (كما تدعى) . وتعطف المركز فكتب إلى البرلمان يناصر قضية الراهبة ، ولكن دون جدوى .

إننا لانعرف عن هذه الراهبة شيئاً أكثر من هذا ، ولكن ديدرو أعاد كتابة تاريخها فى تصوير واقعى يخلد ذكرها على مدى القرون . وافترض أنها هربت من الدير ، وأرسل إلى كرواكسمير عدة رسائل - وكأنها بقلمها - تصف فيها معاناتها فى الدير ، وتطلب أن يمد لها يد المساعدة لتبدأ حياة جديدة . وأجاب المركيز ، ورد ديدرو ، باسمها ، واستمرت هذه المراسلات أربعة شهور فى مائة وخمسين صحيفة .

وصور ديدرو سوزان تعانى من رئيسة الدير الغليظة القلب ، فهى تضطهدها وتحبسها وتجردها من ملابسها وتعذبها وتحرمها من الطعام ، فتشكو إلى أحد الكهنة الذى يهينها لسبيل الانتقال إلى دير آخر . وهناك كانت رئيسة الدير الجديد مساحقة وشغفها الراهبة حباً ، وتوسلت إليها لمعاونتها . وربما بالغ ديدرو فى وصف قساوة الأمهات رئيسات الأديار وشقاء راهبات وحننهن . ولكنه جعل كل الكهنة فى قصته ودودين محبوبين مطبوعين على حب الخير ، وعالج فكرة السحاق فى رقة نادراً ما ظهرت فى مؤلفاته . وتأثر المركيز وقدم إلى باريس . وتكشفت له الخدعة ولكنه تجاوز عنها وكانت هذه القصة الغريبة قد أدت إلى دراسة رائعة فى علم النفس ، كانت متأثرة بقصة ريتشاردسن « كلاريسا » ولم يتعمق أى متشكك قط بمثل هذه القوة فى مشاعر الفديس ، وفاجأ أحد الزوار

الكاتب وهو يدون هذه الرسائل ، فوجده كما يروى جريم « حزيناً غاية الحزن ... ويزرف الدمع »^(٣٢) واعترف ديدرو بأنه كان يبكي لقصته هذه ، فما أسرع ما كانت الدموع تجري في عينيه ، مثل روسو . وكان فخوراً ، بشكل يمكن الصفح عنه ، بقصته الموضوعية على هيئة رسائل ، وباحتمال أن تكون صحيحة ، وبالعاطفة الدافقة فيها ، وبأسلوبها ، وقد عني بمراجعتها وتنقيحها ، وأوصى بنشرها بعد موته . ورأت هذه القصة الثورة في ١٧٩٦ في عهد الثورة وفي ١٨٦٥ أحرقت قصة « الراهبة » علناً بناء على أمر من محكمة السين^(٣٣) :

ومع قصة الراهبة ، نشر في ١٧٩٦ ، كما أحرقت معها في ١٨٦٥ « جاك المؤمن بالقضاء والقدر وسيده » الذي اعتبره ديدرو أعظم إنتاجه^(٣٤) ، بداعي التقارب في الزمن . وربما كان الأمر كذلك ، ولكنه أيضاً أسخف ما كتب . وافتتن ديدرو بقصة « ترسترام شاندى » فالتخذ أسلوب ستيرن (قصصى انجليزى في القرن الثامن عشر ١٧٦٠ — ١٧٦٨) في تأليف قصة قائمة إلى حد كبير على اعتراض السياق ، فيقطعه من حين إلى آخر ، في نزوة من نزواته ، ليتحدث إلى القارئ عن شخوص القصة . وبدأ الكتاب واختتمه بقطع وأحداث منقولة مباشرة من ستيرن .^(٣٥) وفاق ستيرن في إزعاج القارئ بين الحين والحين بفحش القول . إن شخوص القصة يعكسان أسلوب سرفنتيز في التباين بين السيد وتابعه في المزاج والفلسفة . فالسيد يرفض فكرة القضاء والقدر على حين يؤمن جاك بها . إن كل شيء يحدث هنا على الأرض مسطور في كتاب هناك .^(٣٦) إن جاك « يعتقد أن الإنسان يشق طريقه بالضرورة إلى الجحيم أو إلى الخزي والعار ، كما تنطلق الكرة متتبعة انحدار الجبل الذي تدرجت عليه . إن رئيس جاك السابق كان قد ملأ رأسه بكل هذه الأفكار التي استقاها من سبينوزا الذي حفظه عن ظهر قلب »^(٣٧) وهو رئيس نادر المثال .

وفي أواسط القصة يتلصق ديدرو ليروى في حماسة وبراعة قصة

المركيزة دى لا بومراى عشيقة المركز دى ارسيز . أنها أرتابت فى أنه سئمها ، فعزمت على أن تكتشف الأمر بالأشارة إلى أن علاقتها أصبحت عبثاً ثقيلًا ، أنه أساء إليها أبلغ أساءة بتصريحه بأنه يود أن يفلت من عشيقة إلى صديقة ، فتدبر المركيزة إنتقاماً فريداً فى يابه . وتعثر على بغى جميلة ، وتتحمل نفقات أبدال ملابسها وتعلمها الأجرومية وآداب السلوك وتلقنها مبادئ التقوى المثيرة للعجاب ، وتقدمها إلى المركز على أنها سيدة من ذوات الحسب والنسب ، ودربتها على أن تثير نزواته وترفض عرضه لأن تكون صديقته ، وأرشدتها إلى الطريقة التى تنتزع بها منه لإقتراحا بالزواج . وبعد بضعة أشهر من الزواج تكشف مدام لا بومراى للمركز عن ماضى زوجته . ولكن يفسد على المركيزة أنتقامها تطور غريب . ذلك أن المرأة الآثمة التى أعيد تشكيلها وصالح حالها عرفت كيف تحب زوجها المركز ، وأعترفت له بحيلة بأكية بخدعتها وعرضت أن تحتفى من حياته ، وفى الوقت نفسه كانت هى زوجة مخلصة ووفية إلى حد أن المركز أكتشف أن فى الزواج سعادة أكبر مما هى فى الفجور والزنى . فيغتفر لها تضليلها ويأبى أن تفارقه ، ويعيش معها عيشة راضية ممتازة ، ويتحطم قلب بومراى من مرارة الهزيمة .

أن هذا الفاصل على أية حال هو أكثر ما يأخذ بالآلباب فى « جاك المؤمن بالقضاء والقدر » فإنه يتميز بمثانة التركيب ، واللمسات الرقيقة للواقعية النفسية (السيكولوجية) ، والشعور العميق فى تعبير هادى . وهذه كلها تعوزها القصة على وجه الأجمال . واعترف شيلر بأنها درة فى فن الأدب . وترجمها إلى الألمانية فى ١٧٨٥ .

٤ — ابن أخى رامو

أن « ابن أخى رامو » ، لا « جاك المؤمن بالقضاء والقدر » هو أعظم كتب ديدرو وأسماء جوته ، الكتاب الممتاز الذى ألفه رجل لامع (٣٨) ، كتبه فى ١٧٣١ ومات قبل أن ينشر ، لأنه كان أقبح كتبه وأكثرها خزيًا ، وفى

نفس الوقت أكثرها أصالة . وظاهر أنه رأى أنه غير مستساغ ليقدمه حتى لأصدقائه . وبعد موته تسربت نسخة منه إلى ألمانيا أحدثت هناك دويًا شديدًا . وارتاع له شيللر وثارَت نفسه ، وحمله إلى جوته ، وكان آنذاك في قمة الشهرة (١٨٠٥) فترجمه إلى الألمانية . ودخلت هذه الترجمة إلى فرنسا وأعيدت ترجمة الكتاب إلى الفرنسية (١٨٢١) ونشرت طبعة أخرى ١٨٢٣ ولكن هذه لم تصل إلى المطبعة إلا بعد أن كانت أبتة ديدرو قد هذبها وحذفت منها ما لا يليق نشره . ولم تكتشف المخطوطة الأصلية إلا في عام ١٨٩١ في كشك للكتب على ضفة نهر السين وهي موجودة الآن في مكتبة بيير بونت موجان في نيويورك .

وأختار ديدرو لسانا ناطقا بأفكار غريبة شاذة إلى حد كان من العسير معه أن يعبر عنها ديدرو بضمير المتكلم . جان فرنسوا رامو هو ابن أخى الملاحن المشهور جان فيليب رامو (الذى توفى ١٧٦٤) والذى كان لا يزال على قيد الحياة حين كتب الحوار غير القابل للنشر . وعرف ديدرو الموسيقى معرفة جيدة ، وتحدث بطلاقة ودون تكلف عن لوكاتلى ، برجوليسى وجوهميللى ، وجالوبى ، وليووفنسى ، وتارتينى ، وهاس ، وتنبأ بحق أنه فى العزف على الكمان سرعان ما سيحل العزف الشاق محل العزف الجميل ويزحزحه من مكانه (٣٩) .

وألف ابن الأخ موسيقى ، وأصاب بعض النجاح معلما للموسيقى . ولكن كان اسمه يقص مضجعه ويقلق باله . وكان يغار أشد الغيرة من عمه ويحقد عليه تفوقه . فتدخل عن المعركة ، وانغمس فى اللهو وأطلق العنان لشهواته ورغباته بشكل يتنافى الاختلاق ، مما وصفه ديدرو فى قصته . وأكدت التقارير المعاصرة^(٤٠) كثيراً من الصفات الأخرى التى نسبت إليه فى الحوار ، ولكن التاريخ لم يؤيد مذهب إليه ديدرو من أنه كان قواد يتجر بجمل زوجته فى سوق الدعارة . وعندما فارقت هذه الزوجة الحياة فقد جان فرانسو كل احترام للنفس وجعل منه لسانه البذىء غير العف ، الشديد التهكم

والسخرية منبوذا في المجتمع ، وطرده من دار مسيو برتان الثرى الذى كان لعدة سنوات قد اعتمد عليه في تناول العشاء عندة ، وصار عليه أن يلتمس الزملاء في مقهى « لا ريجانس » وفي أماكن أخرى تزخر بالأفكار التقدمية التى لاتغنى ولاتسمن من جوع . يقول ديدرو (لاحظ كيف يعكس حياته في كتبه) : « فليكن الطقس معتدلا أو غائما معتما ، إن من عادتي أن أقصد سيرا على الأقدام في الساعة الخامسة بعد الظهر إلى البالية رويال . وأنا الشخص الذى يمكن أن يقع بصرك عليه وحيدا دائما ، حالما على مقعد دارجنسون ، أبحث بيني وبين نفسي مشاكل السياسة والحب والذوق والفلسفة ، وأطلق لذهنى العنان وإذا أشتد البرد أو هطل المطر ، آوى إلى مقهى لا ريجانس ، أراقب لعب الشطرنج . . . وكنت ذات مساء هناك ، أتلقت إلى ما حولى ، أتكلم قليلا ، وأسمع قليلا بقدر الأمكان . حين دنا منى شخص من أغرب الأشخاص على الأرض^(٤١) » .

وتجيب بعد ذلك شخصية رائعة : رجل أخنى عليه الدهر ، وهو يتذكر الخمر في مرارة وكان فيما مضى كثير المال ناعم البال مع أجمل زوجة في باريس ، واستقبل مرة في كل دار أنيقة^(٤٢) ، كما كان متمشيا مع كل الوان الثقافة في فرنسا . ولكنه الآن يعاني الفقر والحزى والعار ، يعيش على ما يقتات به من موائد الذين يستشعرون الأشفاق عليه ، وعلى القروض المنسية ، لا يرى في الحياة إلا الصراع والحزيمه ، يذب كل الديانة باعتبارها قرية جميلة ولكنها مرعبة ، وينظر إلى الاخلاقيات على أنها جبن وخداع ، ومع كل هذا يحتفظ بقدر ركاف من ماضيه ليغلف تحررا من الوهم بفصاحة بارعة مهذبة ، ويكسو هذا التحرير رداء عقلانيا . ودعابته حادة مريرة : من ذلك قوله « أن السيدة (كذا) وضعت توأما ، سيكون لكل والد واحد منهما » أو قوله عن أوبرا جديدة « أن فيها بعض قطع جميلة والمؤلّم حقاً أن هذه القطع لم توضع لأول مرة^(٤٣) » . أن مأساته الكبرى هى أنه لا يؤمن بشيء » وسمع بعض كلام روسو عن الطبيعة — كم هى أفضل من المدنية

وخير منها ، ولكنه يلاحظ أن في الطبيعة يفتك كل نوع بالآخر ؟ والخاتمة
الرهيبية هي التهام كل كائن وهو يرى نفس الأتهام والفتك (أكل الكائنات
بعضها بعضاً) في دنيا الاقتصاد ، اللهم إلا أن فيها أناسا يستنزف بعضهم دم
بعض عن طريق اجراء قانوني مقبول . وهو يرى أن الأخلاق مجرد خدعة
يضلل بها ذوو الدهاء من الناس بسطاء العقول منهم ، أو يخدع بها السذج من
الناس أنفسهم . أنظر إلى تلك المرأة التقية الورعة التي تغادر الكنيسة (بعد
الصلاة) « أنها أثناء الليل تتدرب في خيالها على مشاهد الفسق والخلاعة وعلى
الأوضاع الشهوانية الداعرة عند أريتينو^(٤٤) » ويرى ابن الأخ (جان فرنسوا)
أن الرجل العاقل لأبد أن يسخر من الوصايا العشر « ويتمتع بكل الخطايا
والآثام في حكمة وتبصر » . مرحى أرحى ! بالحكمة والفلسفة ! — حكمة
سليمان : شرب أجود الخمر ، التهام أطيب الأطعمة ، مضاجعة أجمل
النساء ، النوم على الفراش الوثير ، وكل ماعدا هذا تافه لا قيمة له^(٤٥) ؟
وماذا بعد هذا يمكن أن يقول الفيسوف الألماني نيتشه أو الشاعر والكاتب
الفرنسي بودليير وأمثالهما ؟ .

ويختتم ديدرو هذا العرض المفزع « للأفكار بأن يعتنق ابن الأخ بأنه
« بليد شره جبان ، روح من الطين » ويجب رامو على هذا بقوله « أعتقد
أنك على حق^(٤٦) » وتجول بخاطرنا فكرة خبيثة : كيف كان يتسنى لديدرو
أن يصور هذه الشخصية بمثل هذه القوة والحيوية ، إذا لم تكن تكن بين
جنبه هو نفسه ؟ أنه يحتاج على هذه الفكرة ، ولكنه يسلم بأنه ليس قديساً :
« أنا لا أستنكر لذة الحواس ، فإن لي أنا أيضاً ذوقاً يستسيع أطباق الطعام
الشهي والأنبذة الجميلة . كما أن لي قلباً وعينين أحب أن يقعا على سيدة
جميلة ، وأحب أن المس بيدي أن رقبتها مستديرة ثابتة ، وأن تعصر شفتيها
شفتي ، وأن أرشيق اللذة والمتعة من عينيها ، وأن ألفظ النفس الأخير بين
ذراعيها . ولا يزعجني الإنغماس البسيط في الملذات في بعض الأحيان مع
أصدقائي ، حتى ولو كان صاحبها بعض الشيء . ولكن لا أخفي عليكم أنه
(م ٦ — قصة الحضارة)

يبدو لي أنه نحلولى أكثر إلى أبعد الحدود ، أن أمد يد المساعدة إلى المنكوبين ، أو أسدى نصيحة مفيدة ، أو أقرأ كتاباً جيداً ، أو أتزده مشياً على الأقدام مع رجل أو امرأة عزيزة لدى أو أقضى مع أولادى بضع ساعات أتولى فيها توجيههم و تثقيفهم ، أو أكتب صفحة جيدة أو أؤدى واجبات عملى ، أو أصب فى أذن حبيبى بضع كلمات حلوة رقيقة حتى تحيط عنقى بلذراعيها وتعانقنى .. إن أحد معارفى رجل من ذوى الثراء فى قرطاجنة ، وكان الأبن الأصغر فى بلد جرت العادة فيه أن تؤول كل الممتلكات إلى الأبن الأكبر ، وترامت إليه الأنباء فى كولمبيا أن أخاه الأكبر ، وهو شخص متلاف ، قد سلب أبويه اللذين دللاه وتساهلا معه كل ما كانا يملكان ، وطردهما من قصرهما . وأن هذين الوالدين الطيبين يعيشان الآن فى مدينة صغيرة فى الأقاليم يعانيان مرارة الفقر ، فماذا فعل هذا الأبن الأصغر الذى أساء والده معاملته إلى حد إنه رحل إلى أقصى الأرض يلتمس الرزق ؟ إنه أرسل إليهما معونة وعجل بتدبير أموره ، ليعود ثرياً ميسوراً إلى أبيه وأمه ، واسترد لهما دارهما ، وهياً الصداق لأخواته ليتزوجن . آه يا عزيزى رامو ، إن هذا الرجل يعتبر تلك الشهور أسعد أيام حياته . إنه حدثنى عنها والدموع تغمر عينيه . أما أنا ، وأنا أقص عليك هذه القصة ، فإنى أحس بأن قلبى قد أرهقه الفرح والغبطة والسرور الذى لا أجد كلمات للتعبير عنه (١٧) .

٥ - علم الأخلاق والسياسة

كان لديروو مثلما لنا جميعاً ، شخصيتان على الأقل : نفس بأطنة تختزن فيها خفية كل دوافع الطبيعة البشرية ، كما هو موجود فى الحياة البدائية بل حتى حياة الحيوان ، ثم نفس ظاهرة للعيان تتقبل على كره منها التعليم والانضباط والأخلاق ، ثمنا يجب أن يدفع مقابل الحماية التى يبسطها النظام الاجتماعى . ولا تزال له أنفس أو شخصيات أخرى : ديدرو الذى لم يكن قد نسى شبابه ، وحياته البوهيمية وحيباته وخلوه من المسئوليات اللهم الا

أمام الشرطة ، ثم ديدرو رب أسرة ، الذى لو تهيأت له سيدة قادرة على فهم كلامه وأفكاره ، لأمكن أن يكون هو أيضاً . أحيانا ، زوجا صالحاً وأبا شغوفا بأبنائه ، وحيواناً شبه مستأنس ، ورجلا يقدر بعض التقدير المسالى والأخلاق والقانون .

إن هذه الشخصية المزدوجة ، « دكتور جيكل ومستر هايد » ، أنتجت فيما بين عامى ١٧٧٠ - ١٧٧٢ . محاورتين توضحان تذبذب آرائه . ففي « حوار بين أب وأبنائه » يقدم صورة جميلة لأبيه وهو يشرح فى رفق «خطر أولئك الذين يتعالون على القانون أو يضعون أنفسهم فوقه » ولكنه بعد ذلك بعامين كتب أكثر أعماله تطرفا . وكان لويس أنطوان بوجينفيل قد نشر لتوه (١٧٧٢) كتابه « رحاة حول العالم » عدد فيه خبراته وتجاربه فى تاهيتى وغيرها من جزر المحيط الهادى الجنوبى ووقع بصر ديدرو على بعض أجزاء من هذا الكتاب تبين تفوق الحياة البدائية فى بعض النواحي على المدنية . ورغبة من ديدرو فى إبراز نواحي التفوق والسمو هذه ، كتب فى ١٧٧٢ بما هو معهود فيه من حيوية وخيال وتميز وشغف ، « ملحق لرحلة بوجينفيل » ، وهو كتاب لم ير النور إلا فى ١٧٩٦ . واختار ديدرو رجلا عجوزاً من أهالى تاهيتى أورد بوجينفيل ذكره ، وتخيل أنه يلقي خطابا يؤدع فيه أمير البحر لدى الفرنسيين الراحلين عن الجزيرة : « وأنت يا زعيم عصابة اللصوص المطاع الذين يمثلون لأوامرك ، إغرب بسفينتك عن شواطئنا . فنحن أبرياء سعداء ، وكل ما نستطيع أن نفعل لنا هو أن نفسد علينا سعادتنا . إننا نهج نهج الفطرة النقية ، ولكنك تسعى لحوأساس هذه الفطرة من نفوسنا . وهنا كل الأشياء ملك لكل الناس ، أما أنت فتبشر بتفريق غريب بين ما هو « ملك لك » وما هو « ملك لى » وكل بناتنا وزوجاتنا كانت لنا جميعاً . إلى الشيوخ ، ولكنكم شاركتموننا هذه الميزة ودفعتم بهم إلى لوثات من السنين ، ولم يكن لمن بها عهد من قبل . . . وتناحرتهم وقتل بعضكم بعضاً من أجلهم . وعدن مضرجات بدمائكم ... نحن أحرار ، ولكن تأمل كيف أنكم نقسّم

على أرضنا عنوان عبوديتنا في المستقبل .. إنكم كتبتم على هذا النصل المعدني « هذا البلد بلدنا » ... ولكن لماذا فعلتم هذا ؟ هل لأنكم حططتم رحالكم هنا ؟ وهل إذا رسا أحد أبناء تاهيتي ذات يوم على شواطئكم ، ونقش على حجر عندكم « هذا البلد تابع لأهل تاهيتي » فماذا عساكم ترون في مثل هذا العمل ؟ .. إن هذا التاهيتي الذي يريدون أن تمسكوا به وكأنه حيوان ليس أخاً لكم .. وأى حق لكم عليه ليس له حق مثله عليكم ؟ إنكم جئتم إلينا ، فهل سطونا عليكم ؟ وهل أعملنا السلب والنهب في مراكبكم ؟ .. كلا . لقد احترمنا ذاتنا في شخصكم . . . اتركوا لنا عاداتنا وأعرافنا ، أنها أحكم وأشرف من عاداتكم وأعرافكم . وليست بنا من حاجة أو رغبة في مقايضة ما تسمونه جهلنا بالمعرفة القيمة لديكم » (٤٨) .

ويعضى حكيم تاهيتي فيذكر الأوروبيين بما قوبلوا به من ترحيب حار ، وكيف أسكنوهم وأطعموهم وأحبوهم . ولم يكن في الجزيرة « وصية سادسة » (كما افترض ديدرو) كما لم يكن ثمة حقد ولا حسد . فلم يفهم نساء الجزيرة ما تحدث به قسيس السفينة عن الخطيئة والعار ، وأحطن البحارة بكل الكرم والرعاية . وماذا كانت النتيجة ؟ إن مرض الزهري الذي لم يعرفه سكان الجزيرة من قبل ، ظهر الآن بين نساءها ، ثم انتقل إلى رجالها . ويتوسل الرجل العجوز إلى الزائرين أن يرحلوا إلى غير رجعة .

وأضاف ديدرو « مناقشة بين القسيس وأورو » وهو مواطن من تاهيتي كان قد تعلم الأسبانية ، صدرت إليه الأوامر بايواء القسيس في كوخه . ويعرض أورو على القسيس أن يختار لمشاركته فراشه بين زوجته وإحدى بناته ، ويوضح القسيس أن قانونه الأخلاقي يحرم عليه قبول مثل هذا العرض الكريم . ولكن إحدى البنات تمسه بيدها فيصبح رجلاً . ويقضى القسيس الأيام الثلاثة التالية يشرح لأورو الأخلاق المسيحية والليالي الثلاث التالية مضاجعا البنات واحدة بعد الأخرى ، أما الليلة الرابعة ، وكأنما ارتبط بكلمة الشرف ، فإنه يخصصها لزوجته مضيغة (٤٩) وأمدت محاولات القسيس لتحويل أورو إلى المسيحية ديدرو بصحيفة سارة بهيجة .

القسيس — ما هو الزواج عندكم ؟
أورو — اتفاق على المشاركة فى كوخ واحد ، والمشاركة فى سرير
واحد كلما طاب لنا أن نفعل ذلك .

القسيس — وإذا رغبتُم عن ذلك
أورو — نفترق :

القسيس — وماذا يحدث للأبناء ؟
فيقول أورو إن هذه ليست مشكلة : تعود السيدة بأبنائها إلى بيت أبيها ،
وسرعان ما يتزوجها رجل آخر يسعد بقبول أبنائها ، لأن الأولاد فى المجتمع
الزراعى كسب اقتصادى عظيم .

القسيس — هل يستطيع الوالد أن يضاجع ابنته ؛ والوالدة ابنها ، والأخ
أخته والزوج زوجة رجل آخر ؟
أورو — ولم لا ؟

القسيس — أظن أنه حتى هنا — مهما يكن من أمر ، لا يضاجع الابن
أمه غالباً .

أورو — لا . اللهم إلا إذا كان احترام هذا الابن لأمه شديداً (٥٠)

ويخرج القسيس من هذا وهو يكاد يحبذ كل التحيز طرق معيشة أهل
تاهيتى ، ويقر بأنه « أغرى بخلع ملابسه الكهنوتية فى السفينة ليقضى بقية
أيام حياته بين أبناء الطبيعة هؤلاء .

وينتهى ديدرو إلى مثل ما انتهى إليه صديقه القديم روسو ، الذى كان
يناقش فى كتابه « بحث فى الفنون والعلوم » (١٧٥٠) و « بحث فى منشأ عدم
المساواة » (١٧٥٥) « هل تريدون لحظة موجزة عن كل تعاستنا وشقائنا تقريباً ؟
هاكم هذه اللحظة . لقد وجد إنسان طبيعى ثم أدخل إلى هذا الإنسان الطبيعى
إنسان صناعى ، ونشبت حرب أهلية استمرت طيلة الحياة . وكان الإنسان
الطبيعى فى بعض الأحيان هو الأقوى ، كما حطمه فى أحيان أخرى الإنسان

الصناعى الأخلاقى . وقى كلنا الحالتين يعامل العملاق بقسوة ويضيق عليه الخناق ويعذب، ويسام الخسف .. إنه دائماً تعس منكروب » (٥١) .

وكان ديدرو بطبيعة الحال لا يعرف إلا القليل عن أهل تاهيتى ، وكان بوجينفيل قد وصفهم بأنهم متمسكون بالخرافات والمحرمات ، يرهبون أرواحاً شريرة خيالية ، يستسلمون للكهنة ، ناهيك بالعديد من أنواع الحشرات والأمراض . إن ديدرو الذى كان يضيق ذرعا بالزواج بوحدة ، لم يكن فى حاجة إلى أن يدرك لماذا وضعت ضرورات النظام الاجتماعى مثل هذه القيود الكثيرة على الغرائز الجنسية غير المشروعة لدى الجنس للبشرى ، وكان نموذجاً آخر للفكر الفردى الذى يتصور نفسه أحكم وأعقل من عادات البشر وأعرافهم .

وثمة تناقض طريف بين الفلسفة الأخلاقية عند ديدرو الكاتب وديدرو الإنسان من الناحية النظرية ، وفى بعض الأحيان أشرفت آراؤه الأخلاقية على الفوضوية ، ففى تلك الأوقات وصف الطبيعة البشرية بأنها خيرة فى أساسها ، وبناء على هذا الفرض اقترح « إن نتبع الطبيعة أى الغريزة، وأحس ديدرو أنه عن طريق الغرائز وحدها يمكن للإنسان أن يحرر نفسه من القيود التى يفرضها الدين والمجتمع بآلاف التقاليد والمحظورات والقوانين . وفى هذا المزاج وصف الاتصال الجنسية بأنه « أعلى مراتب السعادة » (٥٢) ، وعرف الجلب بأنه « احتكاك شهوانى بين غشائين » و « فقدان شهوانى لبضع قطرات من السائل » (٥٣) وأكد تحليلته أن الزنى « خطأ يستحق لوما أو توبيخاً أقل مما تستحق أفعه كذبة » (٥٤) . كان ديدرو فيلسوفاً يتوق إلى أن يحيا حياة الديك الذى يختال عجباً بين الدجاجات .

ولما عركه الدهر وزادت خبرته بالحياة نقض كل آرائه الأخلاقية . ومنذ انخرط عن روسو إلى فولتير ، فإنه نظر إلى الإنسان نظرة تزداد كآبة وقتاً ما ، على أنه شرير سيء بالطبيعة . أو بسبب تدهور النظام الاجتماعى على حد سواء . « وليس ثمة شئ يوضح أن الطبيعة البشرية كريمة بغية ؛

مثل السهولة التي يتقبل بها الناس أسوأ الأعمال حين لا يكون (كما هو الحال في حشد منهم) .. هناك من هو مسئول شخصياً عن الشر الذي وقع (٥٥) ويقول جاك المؤمن بالقضاء والقدر : « صدقنى نحن لا نشفق على أحد إلا على أنفسنا » (٥٦) ويلغى ديدرو الآن مبالغاته القديمة بمبالغات جديدة . فربما « لوى الإنسان الطبيعي عنق أبيه ليضاجع أمه ، لولا تنمية عقله يفضل التعلم (٥٧) ولما تضاءلت حاجيات ديدرو الجنسية ، اتفق مع ابيقور على أن « ملذات أو مباحج النفس » مرضية بشكل أكثر اطرادا من الملذات الجنسية ، أو المادية (٥٨) وهو يتساءل « هل هناك متعة أو لذة مادية فحسب في اقتناء امرأة جميلة ؟ وهل هناك ألم مادي فحسب في فقدانها بسبب الموت أو التحول عنها ؟ أليس التمييز بين المادى والمعنوى قائماً وطيداً مثل التمييز بين الحيوان الدقيق الذى لا يرى إلا بالميكروسكوب والذى يحس ، وبين الحيوان الذى يفكر ويتأمل ويعقل (٥٩) .

وإذ وصل الآن ديدرو إلى المفهوم البيولوجى للفضيلة — صفة تعمل على البقاء ، فقد تسنى له فى شيء من الغموض أن يدرك أن اسمى الفضائل هي تلك التي تعمل على بقاء المجموعة ، حيث أن التنظيم الاجتماعى هو الوسيلة الرئيسية لبقاء الفرد ، وفى قصة « أين أخى رامو » تبين ديدرو ماذا يحدث لمن يحاول تحطيم القيود المفروضة على الفرد من أجل الاحتفاظ بالجماعة أو الإبقاء عليها . ومثل هذا الإنسان يصبح كما مهملاً ومنبوذاً بغير عقيدة أو طعام أو زوجة أو أمل . وبذلك يختم ديدرو حلمه عن تاهيتى بشيء من الاعتدال فى بطاء : « إننا سوف نندد بالقوانين الوحشية حتى يتم إصلاحها ولكننا فى نفس الوقت سنخضع لها . إن من يكون من سلطته أن ينتهك حرمة قانون سىء يعطى لكل إنسان غيره الحق فى انتهاك حرمة القانون الصالح إنه أقل إزعاجاً أن تكون مجنوناً بين المجانين من أن تكون عاقلاً بمفردك » (٦٠) .

وعندما اكتملت وبرزت مفاتن الأنوثة فى أنجليك ابنة ديدرو ، بدأ

يساوره القلق بشأن أخلاقها، وكان يقظا حريصا على عذريتها باعتبارها ذخرا ثميننا وسلامة رائجة . ولما رأى أنه قد تم زواجها في أمان ، حذرهما من الزنى ، قائلا إن مجرد الارتياح في خيانتها لزوجها سيقتل الزوج كمدا ، وستقضى عليه بسبب الخزي والفضيحة . (٦١) وفي نقده للفنون عاب على الفنان بوشيه فساده وفسقه ، وامتنح التواضع وغيره من الفضائل المسيحية كما صورها جريز وشاردان . وبشر ديدرو في رواياته بالفضائل القديمة مثل أى برجوازي راسخ الأركان مزدهر الأحوال . وتسلى ديدرو ببعض قطع من المرح الطائش مثل « ملحق رحلة بوجينفيل » وبعض المرح الصاحب وشطحات الخيال على مائدة العشاء عند دى هولباخ . حتى إذا عاد أدراجه إلى بيته أصر على الاستمسك بكل فضائل الطبقة الوسطى ، وحاول أن يمارسها إذا أجزله شئ من الزنى على نطاق ضيق فقط .

وكانت أفكاره السياسية مهوشة مثل آرائه في الأخلاق . وسلم هو بهذا في صراحته لمحبية . ولم يتفق مع فولتير في أن الملك المستنير هو أفضل أداة ممكنة للأصلاح . واتهم فردريك الأكبر بأنه طاغية ، وحاول أن يحول كاترين الكبرى إلى الأفكار الديمقراطية . ووافق على الملكية الدستورية ولكنه اقترح جمعية وطنية ينتخبها الملاك لأن لهم سندا أو مصلحة في حكومة اقتصادية صالحة . (٦٢) (وعندما كتب هذا لم يكن من المتصور أن يكون بديلا ممكنا للأرستقراطية في حكومة فرنسا إلا الطبقة المتوسطة من الملاك) وحلم ديدرو بمجتمع كريم تتحقق فيه للجميع الحرية والمساواة كلتاها (وهما العدوان الطبيعيان) ولكنه ارتاب في جدوى أية اصلاحات ، حتى يرفع انتشار التعليم من مستوى تفكير الناس وعقولهم ()

(*) الأبيات التي كثيرا ما اقتبست وشوهت هي : وقد تلوى يدها أحشاء الكاهن ، لعدم وجود حبل لشق الملوك » وضعها ديدرو عن لسان أحد المتعصبين في رواية « المجانين بالحرية » ولا يمكن أن تؤخذ على أنها وجهة نظر ديدرو ، لأنه استنكر صراحة قتل الملك : « لا يجوز أن يرى الشعب =

وكانت آراؤه الاقتصادية متطرفة من الناحية النظرية ، معتدلة عند التطبيق ، وحتى في سنى الشيخوخة تعاق ديدرو بشيوعية فوضوية ، مثلاً أعلى له : « إني مقتنع بأنه لن يتيسر للجنس البشرى أية سعادة حقيقية إلا في دولة اشتراكية ليس فيها ملك ولا قاضى ولا قسيس ولا قوانين ، ولا يكون فيها هذا لك ، وهذا لى ، وليس فيها حق تملك ، وليس فيها رذائل أو فضائل ^(٦٥) ولكنه اعترف بأن هذه النظرية « مثالية إلى حد شيطاني » ^(٦٦) وتعجب أبن أخى راموقاثلا « أى اقتصاد اجتماعى شيطاني عندنا ! فهناك أناس يتوافر لديهم كل شىء إلى حد التخمّة ، على حين هناك آخرون يقضدرون جوعاً ولا يجدون ما يتبلغون به » ^(٦٧) وأدرك ديدرو في ساعات العسرة أن عدم المساواة في التملك سيبقى ببقاء عدم المساواة أو التكافؤ في القدرات ، وطرح فكرة الاشتراكية لأنها غير عملية ، حيث لم يوجد انذاك إلا بروليتاريا صغيرة غير منظمة لا تكاد تكون واعية ، ولكن راوده الأمل في أن يرتفع مستوى هؤلاء العمال ويتحسن وضعهم وشيكاً . ولما انتهى الأمر إلى الاصلاحات العملية ، أيد ديدرو الفيزيوقراطيين ووقف إلى جانب الرأسمالية الناشئة . وأعلن أن حق التملك يجب أن يكون مقدساً مطلقاً ، واستنكر أى اعتداء على هذا الحق من جانب الدولة . وانضم إلى كنى وترجو وفولتير في الدعوة إلى تحرير الصناعة والتجارة من أية قيود حكومية ^(٦٨) .

وحذ الإعانات الحكومية للزراعة بوصفها أكثر فروع الاقتصاد حيوية وأهمية ، على حين أنها أيضاً أكثر الفروع وقوعاً تحت رحمة ساء الفروع ^(٦٩) . إن ديدرو مثلنا جميعاً أصبح أكثر معافظة (على القديم) كلمة ، تقدمت به السن وزاد دخله .

= الدم الملكي مسفوحاً لئى سبب مهما يكن ^(٦٤) ولا يمكن أن يكون لهذه الأبيسات أى تأثير على مصير لويس السادس عشر ، لأنها لم تنشر إلا في ١٧٩٥ .

٦ - ديدرو والفن

ن هذا العلاج المتجول للاهوت والأخلاق والسياسة والاقتصاد لا يشكل إلا بعض جوانب يسيرة من ديدرو المتعدد الاهتمامات والأنشطة ، فهناك غير هذا كثير . ومن كان يظن أن هذا الرجل الفظ الذى يزدهم رأسه بأفكار كثيرة سيصبح بين عشية وضحاها أعظم ناقد فى عصره ؟ .

فى ١٧٥٩ كان صديقه جريم مشغولا بشئون الحرب وبمدمام دى ايبيناي ، فطلب إلى ديدرو أن يقوم مقامه فى تغطية أنباء معارض بينالى الرسم والنحت فى اللوفر من أجل قراء « كورسبوندانس - الرسالة » التى كان يصدرها جريم . وذكر ديدرو أنباء المعارض فيما بين عامى ١٧٥٩ - ١٧٧١ ، وعامى ١٧٧٥ - ١٧٨١ وكان فى بعض الأحيان يسهب فى ذلك أيما اسهاب لأنه كان فى هذه المذكرات يطلق لقلمه العنان ليعرض لكل مظاهر الحياة البشرية تقريبا . ولم يظهر فى مجال النقد الفنى شيء يمثل هذه القوة والصرامة وفى الصميم . وجاء بعض هذا النقد فى صيغة محادثات مع الرسامين أنفسهم فى المعرض أو على شكل رسالة شخصية إلى جريم . كما حدث فى ١٧٦١ : هاك يا صديقى الأفكار التى جالت بخاطرى عندما شاهدت اللوحات والرسوم الموجودة فى معرض هذا العام . ولقد دونتها دون أن أعنى كثيراً بفحصها أو التدقيق فيها أو إيضاحها .. وكل ما كان يدور بخلدى هو أن أوفر لك شيئا من الوقت تستغاه استغلالا أفضل (٧٠) .

وأقبل على مهمته الجديدة فى ابتهاج متحمس ، وشكر لجريم إرغامه أياه على أن ينظر إلى الفن المعروض لانظرة الجمهور العابرة ، أى نظرة سطحية زائفة ، بل العزم الأكيد على دراسة كل رسم وكل تمثال ، حتى شعر بحق بالبراعة الفنية فى العمل المعروض وقيمته وأهميته . ولم يكن ديدور معاداً من الناحية الفنية ولكنه تحدث إلى الفنانين أنفسهم - شاردان لا تور ، كوشان ، فلكونيه . . . وهرم طريقتهم فى التأليف والعمل ،

وشغل الفرشاة والتلوين . « فتحت قلبي للآثار التي ينتجها جهد الفنان ، وأدركت سحر الضوء والظل وعرفت اللون ، واكتسبت شعور الجسد (٧١) »

وأصبح ديدرو آخر الأمر ناقدًا قديرًا للأسلوب الفني ولكنه أنكر أية معرفة تقنية أو فنية ، فإنه عرض أن يقول ماذا يعنى عنده كل عمل فني ، فعمد بادئ ذي بدء إلى شرح الموضوع أو القصة في شيء من التفصيل ، حيث أن بعض قراء جريم لم يكن يتيسر لهم قط رؤية القطع الفنية التي هي موضوع البحث ، كما أن نفرًا منهم اشتروا اللوحات على أية حال ، بناء على تقرير ديدور لها . إنه غالبًا ما يتخيل ثم يعيد كتابة المسرحية الحية التي لم يمثل منها الفنان إلا اللحظة المعبرة المركزة . وحول في بعض الأحيان الفن إلى أدب ، ثم تباهى آخر الأمر بقوله . « إن شاردان ولا جرينيه ، وجريز وغيرهم . . . أكدوا لي أنني الأديب الوحيد الذي يمكن لصوره أن تمر على قطعة الفماش المعدة للرسم مثلما تعاقبت في رأسك الواحدة بعد الأخرى تقريباً (٧٢) » .

إن ديدرو أوضح ما يحب وما يكره ، أو ما يؤثره وما لا يعجبه بصراحة لا خجل فيها . إنه بعد أن استنكر كل شيء تقريباً في المدنية الفرنسية المعاصرة عاد فدافع عن الرسامين الفرنسيين في حماسة مشربة بحب الوطن . ورمى هوجارت بالكذب والجهالة لأنه قال إن فرنسا ليس فيها رسامون برعوا في استخدام الألوان ، ورد على ذلك بقوله « ربما كان شاردان من أبرع من استخدموا الألوان في كل عصور فن الرسم » (٧٣) وكان قاسياً مع نتائجه وعاب على بوشيه لوحاته العارية ولكنه استمتع بها . وبعد أن نقد العيوب في إحدى هذه اللوحات قال « كله يستوى عندي فلاحصل عليها كما هي ، ولا أظن أنني سأضيع الوقت في الشكوى من أن شعرها فاحم إلى حد بالغ . وأغضبته لوحة تمثل يوسف يرفض عروض زوجة بوتيفار » لا يمكن أن أتخيل ماذا كان يريد ، وما كنت أنا أتطلب شيئاً خيراً من هذا ،

وغالباً ما أرتضيت أقل منه ^(٧٤) وأبدى عطفاً نحو الفنانين الذين يرسمون الصور العارية ، وبصفة خاصة نحو المثاليين الذين يصونها . وفوق كل هذا « ماذا تفعل في التماثيل بالأزرار والنقثات ^(٧٥) وأحب صور جريز التي تمثل براءة الفتيات وشارك جريز نزعته العاطفية وبصفة خاصة قدر لوحاته التي رسمها لزوجته التي كانت عشيقة ديدرو أيام شبابه . واستساغ المناظر الطبيعية الموحشة في الفن الهولندي والفلمنكي ، ووجد شعراً أكثر في شجرة بمفردها تعاني من كثر السنين وتعاقب الفصول ، منه في واجهة قصر منيف فلا بد أن يكون القصر أطلالا حتى يثير الاهتمام وتكون اللوحة مشوقة ^(٧٦) واستهجن التوكيد القديم الكلاسيكي - التقليدي على العقلانية والنظام والتناسق ، وامتدح الخيال الخلاق وأثره على التفكير التحليلي . ودعا إلى « تأليف مرعبة أو حسية ... تنقل الحب أو الرعب إلى أعماق القلب وتذيب الحواس وتطهر النفس ، فثمة شيء في هذا الذي لا يمكن أن تحققه أية قواعد ^(٧٧) واحتقر فكرة « الفن للفن » فكان يرى أن للفن مهمة أخلاقية هي « تمجيد الفضيلة والتنديد بالارذيلة ^(٧٨) .

وكان ديدرو واثقاً من ملاحظاته على معرض ١٧٦٥ إلى حد أنه أضاف إليها مقالا عن الرسم « ووجد مثل أفلاطون وأرسطو ، إن جوهر الجمال يكمن في علاقة التناسق بين الأجزاء في كل واحد، ولكنه ارتأى أن يضاف إليها أيضاً تناسق بين الشيء وبيئته والغرض المقصود منه . ومن الوجهة المثالية عرف الجمال بأنه تكيف كامل مع الوظيفة فالإنسان الذكي الصحيح الجسم لا بد أن يبدو جميلاً . وينبغي على الفن أن يختار في منظره ، المعالم والقسمات التي تحدد مغزاه ، كما ينبغي أن يستبعد العناصر التي لا علاقة لها ، وليس ثمة ما يدعو إلى أن يكون الفن تقليداً صاعراً حقيراً للهدف والواقع ومع ذلك يجدر بالفنان أن يدرس الشيء الطبيعي لا النماذج القديمة أو القواعد الشكلية فإن تنيير Teniers واحد خير من إثني عشر واتو Watteau خياليين . وأحس ديدرو بشيء من التنافر بين الفن والعقل ، وتبين له أن

قواعد بوالو التقليدية الكلاسيكية قد عوقت الشعر الفرنسى أو أصابته بالشلل. وهنا خالف فولتير لينضم إلى روسو فى أن الفن يجب أن يكون فوق كل شىء صوت الوجدان ونتاجه . لذلك رفع من شأن اللون على حين أن رينولدز فى نفس العقد من السن كان يطرئ التصميم . وسلم ديدرو بأن التصميم يعطى الكائنات شكلا ولكن اللون يعطيها حياة^(٧٩) . ووجد جوته فى هذا المقال أشياء كثيرة بدا له أنها خطأ ، ولكنه ترجم نبذا منها ووصفها لشيلر « بأنها عمل رائع ، أنها تتحدث بشكل أنفع حتى للشاعر منه للرسم ، ولو أنها للرسم كذلك مشعل قوى الضوء يهديه على الطريق^(٨٠) » .

٧ - ديدرو والمسرح

كتب ديدرو يقول « ترددت عندما كنت شابا ، بين السوربون (الكهنوت) والمسرح^(٨١) . وفى ١٧٧٤ كنت قد قضيت نحو ثلاثين عاماً أكتب الموسوعة على غير هوى منى ، وكتبت روايتين اثنتين^(٨٢) » وأولى إهتماما أكبر لرواياته منه لقصصه . ولما كان معظم قصصه لم ينشر إلا بعد وفاته فقد كان لرواياته أثر أكبر على شهرته وعلى حياته ، كما أنها شكلت ما يقرب من الثورة فى تاريخ المسرح الفرنسى .

وكان ديدرو قد قرأ فى شغف زائد قصص ريتشاردسن . وفى ١٧٦١ كتب مقالة « فى مدح ريتشاردسن سما فيها إلى التغنى بالشئ على الرجل الإنجليزى ، لأنه ينفخ فى القارىء من روحه وبغرس الفضائل ، كما أنه أوتى الشجاعة ليصور حياة الطبقة الوسطى الجديدة بفن جاد وفوق هذا كان ديدرو قد تأثر برواية جورج لالو Lillo « تاجر لندن » (١٧٣١) التى كانت قد أبرزت بنجاح عواطف طبقة رجال الأعمال وبلاياهم على المسرح الإنجليزى . وقال أن الرواية « من مستوى رفيع » حتى لو قورنت بسوفوكليس . لماذا لا تكون القلوب الكسيرة جديدة بمسرحية « مأساوية على الرغم من أنها ليست من ذوات الحسب والنسب ؟ وعندما لجأ ديدرو إلى تأليف الروايات فى الأسلوب الجاد نراه قد أزعج وروع التقاليد الفرنسية بأستخدامه لروايته

شخصاً من الطبقة الوسطى وبالكتابة نثراً . وهكذا أرسل إلى المسرح والمطبعة في ١٧٥٧ « الأبن الطبيعي أو المحرومون من الفضيلة ولم تلق نجاحاً على خشبة المسرح ، ومثلت مرتين في الأقاليم (١٧٥٧) ولم تمثل إلا ١٧٧١ في باريس ، وواضح أنها مثلت مرة واحدة آنذاك ولكنها كانت حدثاً هاماً وحققتم نجاحاً ورواجاً وهي مطبوعة في كتاب .

والقصة ممتعة إلى حد كبير فإن دورفال الأبن غير الشرعى المتمسك بالفضيلة الذى يعيش فى مجبوحة ، يجد نفسه قد وقع فى غرام روزالى المخطوبة لمضيفه كليرفيل ، ويحس دورفال أن الفتاة تبادلته حبه فيعتزم أن ينأى بنفسه حتى لا يحطم زواج صديقه . وعندما كان على وشك مغادرة المكان رأى رجلاً مسلحين يهاجمون كليرفيل ، فاشتبك فى قتال معهم وأنقذ حياة صديقه وعندما علم بأن والد روزالى التاجر فقد كل ثروته ولم يعد يستطيع أن يقدم لها صداقاً ، فإنه يعرض الحسارة خفية ومن ثم أصبح التاجر المفلس والد دورفال ووالد روزالى معاً ، وتوطن النفس على أن تكون أختاله وتزوج من كليرفيل ، ويتزوج دورفال من أخت صديقه كنستانس وتختتم الرواية وقد غمرت الجميع دموع الفرح . وهذا كان اسهام ديدرو فيما كان النقاد قد أسموه بالفعل « مسرحية الدموع » .

أن الذى هيا للرواية مكاناً فى التاريخ الفرنسى سلسلة من الحوادث نشرت معها ، سميت فيما بعد « مناقشات حول الأبن الطبيعي » وجرت تقاليد المسرح الفرنسى على أن المسرحية الجادة (تمييزاً لها عن الهزلية) يجب أن تقتصر على أشخاص النبلاء ويجب أن تكتب شعراً . وأوضح ديدرو آنذاك فكرته فى أن المسرحية الجادة ينبغى إلا تخشى إستخدام شخوص وأعمال رمهن برجوازية ومشاهد من حياة الأسرة والبيت فى شكل واقعى ، مع كتابة الرواية نثراً . ورأى ديدرو أن يبين أن عبارة « سيد مهذب من الطبقة الوسطى » ليست التناقض اللفظى الساخر الذى كان قد ارتآه مولير ، ولكنه تطور المجتمع الجديد الذى تصاعدت فيه ثروة البرجوازية ومكانتها وسلطتها ، واحتج بأنه

يجدر بالسكاتب المسرحى إلا يعرض كثيراً من الدراسة للشخصية بل كثيراً من ظروف الحياة الواقعية فى الأسرة ، فى الجيش ، فى السياسة ، فى المهنة ، بل حتى فى الصناعة . وحيث كانت الطبقات الوسطى منيع الفضيحة فى فرنسا فقد أصر ديدرو على أن يكون من وظائف المسرحية الجديدة أن تغرس فى الناس حب الفضيلة ومقت الرذيلة « ودمغ الفن المقصود به مجرد الترفيه بأنه ترف الطبقة الحاملة » فلا بد أن يكون لكل فن وظيفة وفائدة اجتماعية . وأى هدف أن يسعى المسرح إلى تحقيقه أفضل من أن يكسو الفضيلة فتنة وسحراً وجلالاً !

أن الرواية وما صاحبها من بيانات وتصريحات فرقت أهل الفكر فى باريس إلى معسكرات متنازعة ، وتناول باليسو وغيره من أعداء الفلاسفة آراء ديدرو بالتسفيه والتسخيف . أما فريرون فإنه لم ينقد الرواية بأنها تعليمية جافة كثيفة متبلة ببعض المشاعر والفضائل الزائفة فحسب ، بل أنه كذلك أوضح فى إعداد متواليه من « السنة الأدبية » التى كان يصدرها تشابها مريباً بين النصف الأول من « الأبن الطبيعى » وبين كوميدى « الصديق الحق » التى كان جولدونى قد مثلها فى البندقية ١٧٥٠ . وأعترف ديدرو بقوله : لقد إستحوذت عليها وكأنها ملك خاص بى ولم يكن جولدونى أكثر تدقيقاً فإنه إستحوذ على رواية مولير « البخيل » . وما كان يدور بخلد أحد أن هذا غير لائق . ولم يحلم أحد منا باتهام مولير أو كورنى بالدطووالانتحال لأنه أقتبس ضمننا فكرة إحدى الروايات من مؤلف إيطالى أو مسرح أسباني^(٨٣) .

وهذا يصدق بطبيعة الحال على رواية كورنى « السيد Lecid » ورواية مولير « مآدبة الصخرة » Le Feslin de Pierre (دون جوان) .

وبتشجيع من الأصدقاء وتحدياً للأعداء ، ووسط أشد ما يلاقى من عناء فى الموسوعة ، ألف ديدرو ونشر (١٧٥٨) رواية أخرى أسمها « رب الأسرة » وأضاف إليها موضوعاً أثار الغضب : بحث فى الشعر المسرحى ، وهو عنوان يذكرنا بالعنوان الذى إستخدمه دريدن لبحث مماثل منذ تسعين

ومهما يكن من أمر فإن ديدرو أحس بأن مسرحية القرن السابع عشر في فرنسا كانت على شكل غير طبيعي تماماً في أسلوبها الخطابي الحماسي الطنان الرنان ، وفي وحداتها المحكّمة المتزمنة في العمل والمكان والزمان ، وفي تقليدها الكثيب للروايات الكلاسيكية القديمة لا الواقع الحى ، وكانت رواياته وهى عاطفية حسية دون موازنة أو خجل بشائر رد الفعل الرومانتيكى ضد المذهب العقلى والسكبت العاطفى فى العصر الكلاسيكى ، وكان تأثير ديدرو محسوساً أيضاً فى الواقعية المتزايدة فى إعداد المسرح تبعاً لمختلف الفصول ، وفى دقة ملابس الممثلين بالنسبة لعصور التاريخ وفى الحفاظ على الخصائص القومية فى النطق . واشترك ديدرو مع فولتير فى الحملة التى شنّها لاختلاء خشبة المسرح من النظارة . وقال جوستاف لانسون إن كل تحسين طرأ على فن الإخراج فى المائة والخمسين عاماً الماضية نبع من ديدرو^(٨٧) اللهم الا أن المناظر الآن تميل إلى أن تكون تخيلية أكثر منها واقعية . وكذلك تجاوزت ألمانيا مع ديدرو الذى أطلق عليه سانت بييف أقرب الفرنسيين إلى الألمان . وترجم لسنج رب الأسرة والمقالات المسرحية ، وصرح بأنه ليس ثمة ذهن أكثر ميلاً إلى الفلسفة وتأثرأ بها لإنشغل بالمسرح منذ عهد أرسطو إلا ديدرو^(٨٨).

الكوميدي كذلك كان لديدرو رأيه فى فن التمثيل المسرحى ، وفى مقال طابعه التحدى تحت عنوان « تناقض حول الممثل الكوميدي » ١٧٧٨ اعترض على القول بأنه من أجل تحريك شعور جمهور المتفرجين والتأثر فيهم يجب على الممثل ألا يستسلم للعاطفة التى يعبر عنها بل يجب أن يكون هادئاً رابط الجأش ، وهذا بالطبع تسفيه لرأى هوراس الذى نصح الشعراء بقوله « إذا أردتمونى أن أبكى فملتجھشوا أولاً بالبكاء » . ويرد عليه ديدرو : « يجدر بالممثل أن يضم بين جنبهيه مشاهداً أو متفرجاً لا يتأثر وغير متعيز . ويجب أن يكون لديه حسن الإدراك والتبيز ، لا الحساسية . . . وإذا كان الممثل مليئاً حقاً بالشعور والوجدان فكيف يمثل نفس الدور مرتين بنفس الروح ونفس النجاح ؟ وإذا كان ممثلاً حاساً ونشاطاً فى العرض

الأول ، فلا بد أن يهن ما اشتد من قوته أو يصبح جامداً كالصخر في العرض الثالث ، أملاً المسرح بأناس يذرفون الدموع ، ولكني لا أسمح لأحد منهم بأن يكون على خشبته (مثلاً) ^(٨٩). وتلك نصيحة قلما إتبعها ممثلو مسرحيات ديدرو . وكان ثمة تناقض في ديدرو نفسه ، ذلك أنه في ١٧٥٧ كتب يقول إن الشعراء والممثلين يحسون بقوة ولكنهم لا يعكسون إلا القليل من أحاسيسهم ^(٩٠) ولكنه الآن يناقض نفسه ، وربما كان هذا راجعاً إلى أنه شاهد في باريس فيما بين عامي ١٧٦٣ / ١٧٧٠ دافيد جارك Gorrick يثير إنفعالات وأحاسيس متباينة في تعاقب سريع ، متى أراد . أو أنه كان قد وجد المفارقة في هملت وهو يأمر الممثلين السنيور : « وسط السيل والعاصفة (كما يمكن أن أقول) ودوامة الانفعال تذرعو بشيء من الاعتدال الذي يضمني عليها شيئاً من الهدوء والرفق » ^(٩١) ورفض سير هنري أرفنج تحليل ديدرو ولكن ناقداً حديثاً يعتقد أنه « ظل حتى اليوم أهم محاولة لمعالجة مشكلة التمثيل » ^(٩٢) . ويمكن أن يكون الممثلون عاطفين في الحياة ولا يجوز أن يكونوا كذلك على خشبة المسرح . (وربما يؤدي ضبط النفس على المسرح إلى الانطلاق والتحرر في الحياة ، ومن ثم يجب أن يغفر لهم خطايا كثيرة) . وينبغي عليهم أن يدرسوا الاحساس المعين في أسبابه وعقله ، ويعبروا عنه بإيماءاتهم وإشاراتهم وكلامهم . ولكن يجب « أن يتذكروا في هدوء وسكون » ^(٩٣) . وتوصل ديدرو إلى إيضاح الفرق في رسالة إلى آنسة جودان : « ن الممثل الذي لا يتحلى إلا بحسن التقدير والتمييز فاتر بارد ، أما هذا الذي يتميز بالحيوية والحساسية فهو مجنون » ^(٩٤) .

إننا إذا ألقينا بنظرة إلى الوراثة في العرض غير المرتب الذي أوردناه للذهن ديدرو المشوش تغفر له إضطرابه وسط هذا العدد الوفير من الأفكار والآراء ومجالات إهتماماته . ولم يكن شيء من الانسانيات غريباً عليه أو بعيداً عنه ، اللهم إلا الدين . بل إنه حتى بالنسبة لهذا ، فإن ديدرو لم يخل من الشعور الديني : وكان من خصائص ديدرو أن يبدأ بالرياضيات والفيزياء

وينتهي بالمسرحية والموسيقى . ولم يكن فى مقدوره أن يكون من جهابذة العلوم ، لأنه لم يكن يطبق صبراً على البحث والتجربة ، ومن ثم قفز مبتهجاً إلى التعميمات . على أنها كانت كثيراً ما تنير العقل . وعرف من الموسيقى الشيء الكثير حتى أنه كتب عن طريقة إستعمال المفاتيح ، ورسالة عن علم الايقاع ، وألف أعظم الروايات أثراً وأحسن القصص فى عصره ، ويتفرق فى القصة القصيرة على كل معاصريه فيما عدا فولتير . ولكنه بز فولتير نفسه فى أنه أضفى على القصة القصيرة من تركيز الفكر والعمل ما حدد لها شكلها حتى يومنا هذا . وحيث أدمن ديدرو على الحديث والنقاش وتدريب على إرتياد المنتديات (الصالونات) فانه طور الحوار إلى درجة من الاشراق والحيوية ، نادراً ما سمع بها قبله أو بعده . وكتب فى الفلسفة ، ولكنه لم يكتب لغة غامضة للابراج العاجية ، وإنما كتب مناقشة حية فى موضوعات حية بين أناس إندفعوا إلى سترك الحياة أو إلى خضم العالم راضين طائعين .



وراء هذا الدهن المتغير الأشكال والألوان ، كان ثمة إنسان تجمل بفضائل كثيرة ، كما أنه لم يبرأ من كل الأخطاء تقريباً ، مما لعب كل منها دوره على مسرح حياته ، وعند مارسم فأنلو لوحة لديدرو ، أحتج هذا على أن الوجه في الصورة لم يظهر من صاحبه إلا جزءاً سريع الزوال ، فلم يبرز إلا مجرد تعبير واحد عن حالة نفسية واحدة أو مزاج واحد وقال : إن لي مائة من التعبيرات المتباينة في كل يوم ، تبعاً لحالتي النفسية أو مزاجي في كل لحظة : كنت هادئاً حزينا حالماً رقيقاً عنيفاً منفعلاً متلهفاً . أن العلامات الخارجية الظاهرة لحالات ذهني الكثيرة المتباينة كانت تلاحق بعضها بعضاً بسرعة على وجهي إلى حد أن عين المصور وقعت على شخص مختلف من لحظة إلى أخرى ولم تقع على الشخص الحقيقي قط^(٩٥) .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الوجوه الكثيرة أندمجت شيئاً فشيئاً في قالب مركب ، وتركت له التقاطيع والقسمات المجددة التي نراها في اللوحة التي رسمها له جريز Greuze مثل قيصر أضناه الالتحام العنيف مع جيش من الأفسكار والأعداء ، كما أرهقته محاولاته التعبير بأدق عبارة وأجلى بيان عن قبوله أو رفضه أى عن قوله نعم أولاً . وكان له حاجبان عاليان يطلان على رأس نصف أصابع واذنان كبيرتان وأنف كبير منحن ، ولسان ناطق وذقن متجعد ، وعينان سمرائون ، ثقيلتان حزينتان ، وكأنما تستدكران من الأخطاء مالا يجوز تذكره ، أو تأكيدان من عدم قابلية الحرافة للتخريب ، أو تلاحظان ارتفاع معدل السذاجة ، وكان أمام الناس عادة يضع شعراً مستعاراً ، وقد يخلعه إذا نسي نفسه في نشوة الحديث ، وقد يلعب به أو يضعه على حجره ، وكان مستغرقاً في الحياة ، ولم يكن لديه فسحة من الوقت للتظاهر . ولم يدع لأى إنسان في تقدير أخلاقه . وسلم « بأنى قد يغلبنى التأثير لحظة ولا ألبث إلا قليلاً حتى أعود سيرتى الأولى ، الإنسان الصريح الوديع

المنصف المتسامح الأمين المحسن الذى يأسر الناس بحسن صنيعه . أستمروا من فضلك فى قصيدة المديح لأنها لم تكمل بعد ، إلى لم أذكر شيئاً بعد عن ذكائى . وساوره الشك فى أن يوجد على ظهر البسيطة إنسان أكثر منه أمانة . وكان وأثقا من أنه حتى « أعمدة الكنيسة » تستطيع أن تعتمد على كلمته . وكتب إلى خلياته : « أية نفوس جميلة نفسك ونفسى ونفسي » وهنا أدخل جريم فى هذا الثالث . وغمرته نشوة الفرح والأبتهاج وهو يتحدث عن مؤلفاته ورواياته وأثقا من خلودها . وأعتقد أن أخلاقه قديمة . والحق أنه أحفظ بسيدة واحدة فى وقت واحد . وتحدث عن نفسه على « أنه » الفيلسوف . « وسلم بوجود شبه بينه وبين سقراط وتساءل : « ماذا يهمنى إذا كنت أدين بمناقبي وماثرى للطبيعة أو للخبرة مادامت ثابتة وطيدة ولن يفسدها الغرور »^(٩٦)

والواقع أن ديدرو تحلى بمعظم الفضائل التى نسبها لنفسه ، لقد كان أميناً بمعنى صريح ، ولو أنه أقترف كثيراً من الكذب فى شبابه . ولم يكن يتكلف أو يتظاهر ، وكان وديعاً رفيعاً ، اللهم إلا فى الحديث ، حيث كثيراً ما كان متهوراً ، وفى بعض الأحيان خشناً جافاً إلى حد كانت تضطر معه مدام جيوفرين إلى أن تنبهه إلى التزام النظام واللباقة . إنه يقينا كان شجاعاً لأنه أستمروا يناضل حين تخلى عنه الكثير من أصدقائه ، بل حتى نصحه فولتير بأن يكف . وكان منصفاً اللهم إلا مع التقوى ومع روسو ، وقد ندرك فيما بعد أنه لم يكن يستسيح كثيراً حساسية جان جاك روسو . وكان كريماً بلا منازع مستعداً لمعونة من يلجأون إليه ، أكثر ثناء وأطراء للناس منه لنفسه . وقضى أياماً كثيرة فى القيام بأعمال جريم فى صحيفة كورسبندانس ، « وصياغة محاولات أصدقائه الأدبية فى الشكل الملائم . وساعد نفراً كبيراً من الفقراء بمنح قدمها إليهم من دخله المتواضع . وإذا عرض عليه أحد الصحفيين المحتاجين قطعة هجاء فى ديدرو نفسه طالباً إليه أن يراجعها معللاً ذلك بأنه إنما يسعى وراء القوت أجابه ديدرو إلى طلبه وراجعها ونقحها . بل أقترح

عليه إهداءها إلى دوق أورليان الخالي الذي يولني شرف كراهيته لي « وهذا ما حدث فعلا وأرسل الدوق للصحنى الناشئ خمسة وعشرين جنيا^(٩٧). وكان متساهلا في نقده للكتب واللوحات والرسوم (فيما خلا رسوم بوشيه) قائلا أنه يؤثر الأشاره إلى الأعمال الجيده على السخرية من الأعمال الرديئه^(٩٨) » وكان أكثر الفلاسفة أنسا وودا . وأيد روسو حتى ١٧٥٨ ، وجريم حتى النهاية تقديرأ من ديدرو لخلقه هو نفسه . وقالت مدام أبيناي أنهم تحدثوا عنه « بأعظم الأجلال والاحترام » وأعجبوا بعبقريته ، ولكن خلقه كان مثار حماسة خاصة بينهم . ويقول جريم إنه أكمل من عرف من البشر^(٩٩) . وكانت أخطاؤه في نظر مثل هؤلاء الاصدقاء أخطاء طفل صريح إلى حد السذاجة . وأعتبروا أنه أعمق من فولتير .

ومن المحقق أنه كان أكثر ثراء في الأفكار من فولتير ، لأنه لم يكن ثمة قيود ولاضوابط في بنيانه ، وكان أكثر خيالا وأقل عقلانية . وكان أكثر نهورا وطيشا ، ولم يكن ناضجا قط . يقول فولتير « أن ديدرو أنون شديد الحرارة إلى درجة يحترق معها كل ما يخبز فيه^(١٠٠) » . ومع ذلك خرجت منه أشياء كثيرة لم يكتمل نضجها ولاخبزها ، وكان شديد الحساسية مثل روسو رقيق العاطفه مثله ، كما كان ، مستعدا ليكي على جمال الطبيعة ومآسى الحياة وأعلن رأيه في الدين وربما عبر هذا الرأى عن نفسه : أن في ذرف الدموع بالنسبة للنفس الحساسة الرقيقة لذة وبهجة^(١٠١) . ورآه زواره أحيانا بلذرف الدمع - أو في سورة غضب - على كتاب ، وربما كانت صداقته مع روسو قائمة على التماثل في المشاعر ونفس قسوة الوجدان ، ونفس حب الطبيعة ونفس المفهوم الرومانتيكى للبقريه على أنها غريزه وأنفعال وخيال ، ونفس التحمس لقصص رتشاردسن . وتلهف على تحذير كلارايمان Loelace وعندما قرأ عن الملوك القساة كان من اليسير عليه أن يتخيل أنه يستخدم خنجرأ في سهولة عجيبة^(١٠٢) أن فولتير + روسو = ديدرو . ولم يغفر أى من هذين الرجلين له أنه جمع بينهما كليهما ، على حين بقى هو فريدا مع نفسه .

وعبرت عاداته عن تناقص صفاته ، فإنه أحب الطعام إلى حد الشره والأصابة بالحصى . ولكنه كان يقظا لكل النتاج الثقافى فى زمانه . وكره الترحال ولم يحبه^(١٠٣) ولكنه عبر قارة أوربا ليقيم إلى كاترين الثانية قيصرية روسيا شكره وتقديره ، وأنهمرت دموعه للشعر الجميل ، وانغمس فى البذاءة الفاحشة ، وأحتقر المال وتحدث عن الفقر صديقا ملهما للفلاسفة ، ولكن عندما مات والده قصد إلى لانجيز (١٧٥٩) ، وسر بحصوله على ثلث الركة . ومن ثم بلغ دخله فى ١٧٦٠ نحو أربعة آلاف جنيه سنوياً . فقال عند ذلك « أنا فى حاجة إلى عربة وإلى مسكن مريح ، وإلى فراش وثير وإلى سيدة معطرة ، ومن ثم أستطيع بسهولة أن أصبر على بلايا دولتنا المتمدنة . أو هنا كبح جماح فولتير فى ديدرو ، وجماح روسو فيه وسخر منه .

وشغلت زوجته بالأوممة المثبطة للهمة وبأعمال البيت غير المعطرة إلى حد لم تستطع معه أن تلقى أذنا صاغية إلى أفكار زوجها وآرائه المتكاثرة . وجأر مثل ملتون بطلب الطلاق على أساس عدم التكافؤ العقلى ، ولما لم يجزوا له الطلاق لجأ إلى ما لايزال الفرنسيون يلجأون إليه ألا وهو إتخاذ خليله — وصفوة القول كانت هناك الآنسة بابوتى Babuti التى لازمتها عشر سنين . وفى جريز Greuze ثم مدام بوسيهه Puisieux التى لأزمتها عشر سنين . وفى ١٧٥٥ وجد ضالته المنشودة فى سيدة شابة وفرت له لمدة ثمانية عشر عاماً الحب والأخلاص وحسن التفاهم . تلك هى لويز هنريت فوللان Volland ، وعاد فأطلق عليها أسم صوفى Sophie (لأنها بدت فى عينيه روح الحكمة) وكانت عندما التقيا لأول مرة فى الثامنة والثلاثين من عمرها غير متزوجة ريانة ممتلئة الجسم قصيرة البصر ، ووصفها بأنها تضع منظراً على وجه « جاف » تقريباً . وكثيراً ما عنفها بين الحين والحين لأنها كانت تنافسه فى حب القراءة ، لكنها جمعت الكتب بدلا من العشاق ، وقرأت كثيراً حتى فى السياسة والفلسفة ، وكانت حلوة الحديث ، ولكنها أستمعت أكثر مما تحدث ، ووجد ديدرو أن ساقها غليظتان أكثر مما ينبغي ، ولكنه كان

شاكرا لها حسن أصغائها إليه ، مولعا بعقلها وقلبها . وكتب يوما إلى جريم يقول « آه يا عزيزى جريم ، أية سيدة هذه ! كم هى لطيفة جميلة أمينة رقيقة حساسة . ولسنا نعرف أكثر مما تأتى به هى من عادات وأخلاقيات ومشاعر فيما لا يحصى من الأشياء العامة . أن لها حكما على الأشياء ، ووجهات نظرها وأراؤها وأفكارها وطريقة تفكيرها الخاصة بها ، كل أولئك قائم على العقل والحق وحسن الإدراك . ولا يشئها عن شئ من ذلك الرأى العام أو الساطات أو أى شئ آخر^(١١٤) » ولا يمكن أن يكون كل هذا هياما وغراما ، أما جوهر الموضوع فلأن دكتور ترونشين رأى فيها روح نسر تسكن بيتا من السحاب^(١١٥) أى أنها أحببت الثياب الفاخرة والتحليق فى سماء الفكر والعقل .

وكتب إليها ديدرو طيلة عشرين عاما أرق رسائله التى ستظل من ذخائر القرن الثامن عشر الأدبية . وقد استطاع أن يكتب إليها فى كل شئ بصراحة ويرسل إليها قصصه الداعرة وآخر تأملاته وأفكاره . فكتب لها كما لو كان يتحدث إليها « إذا كنت بجوارك وذراعى يطوق ظهر مقعدك^(١١٦) » . وفى علاقته بها تحقق مما لم يتحقق من مثله قط من قبل : تحقق من الدور الذى يمكن أن يلعبه الوجدان والعاطفة فى الحياة ، وكاد أن يكون من العسير عليه إلا أن يؤمن بالجبرية (القضاء والقدر) وبدا بعيداً عن التصديق أن تبادلهما المزدوج للأخلاص والحب والأفكار نتيجة فيزيوكيميائية لسديم بدائى . واستطاع وهو فى مثل هذه الحالة النفسية أحيانا أن يتحدث حتى عن الله . ولأنه ليروى لصوفيا كيف أنه بينما كان يسير فى الريف يوماً مع جريم التقط سنبله من القمح وأستغرق فى التفكير فى سر النمو فسأله جريم « ماذا تفعل » ؟ فأجاب « استمع » « ولكن من الذى يكلمك ؟ » فرد عليه « الله »^(١١٧)

وبعد اثنتى عشرة سنة من اتصاله بصوفيا فوللان فتر حبه لها . وأصبحت رسائله إليها موجزة ، كما أصبح توكيد الإخلاص أكثر تكلفاً . وفى ١٧٦٩ وهو فى السابعة والخمسين ، خلف صديقه المتوفى داميلافيل عشيقاً لمدام دى مو ، وكانت فى الرابعة والخمسين ، وبعد عام واحد أزاح ديدرو عن مكانه عاشق شاب ، على أن دنيس (أى ديدرو) ظل فى الوقت نفسه يؤكد لصوفى خبه الأبدى .

وفي كل شطحات قلبه وذهنه احتملت زوجته أنطوانيت بكل الصدق والإخلاص ، ولم تكف عن لومه وتوبيخه . والتمست السلوى والعزاء في الدين ولعب الورق ولم ينقطع الشجار بينهما يومياً تقريباً ، ولم يضيئ الزمن الهوة بين الرجل الذي تدور برأسه ألف فكرة والمرأة التي تعبد رباً واحداً ولم يتوقف أصدقاؤه قط لتحيتها عندما كانوا يأتون لزيارته . ولما اكتشفت علاقته بصوفي ثارت ثائرتها التي بدت له فرصة غير ملائمة للافتراق عنها تماماً . ولفترة من الوقت ظل يتناول طعامه في مكتبه ، وكتب إلى جريم يقول « إنها بدأت تحس بنتائج هذا الفراق البسيط . إن نفاذ نقودها وهو ما أريد وشيكا ، سيؤدي حتماً إلى الصلح وعودة الأمور إلى مجاريها^(١٠٨) . وإنتابها المرض فرق قلبه لها وتولى رعايتها متذمراً ، وتجاوبت معه في رقة ظن منها أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة . ومهما يكن من أمر فإنه في رسالة بعث بها إلى صوفي وصف مرض زوجته أنطوانيت مازحاً . وعندما فكر صديقه سوارد في الزواج نصحه ديدرو أن يلقي بنفسه في لجة اليم بدلا من الزواج . (وكان زواج سوارد من أسعد الزيجات في عصر الشقاء هذا) .

وكان من الجائز أن يولى ديدرو الفراق من داره لولا أنه أحب وسائل الراحة في بيته ، وشغف حباً بابنته الجميلة . وكانت أنطوانيت (١٧٣) في الثالثة والأربعين حين وضعت طفلها الرابع . وشبت ماري أنجليك واكتملت لها كل مفاتن الأنوثة ، فركز ديدرو كل اهتمامه عليها وتعلق بها ، فشاركها في ألعابها . وأنا لتتصور الرجل الذي أثقلت الفلسفة رأسه يلعب مع ابنته الصغيرة الغمضية والحجلة والطفل المعصوب العينين « كنت شغوفاً بابنتي الصغيرة إلى حد الجنون . أية شخصية محبة هي : أوأية سيدة أستطيع أن أخلق منها إذا سمحت لي أمها بذلك » . وعنى بتلقينها كل الفضائل المسيحية . ولما قاربت سن البلوغ زودها بتوجيهات صريحة لتصون نفسها من ذئاب باريس . وماذا كانت تعنى عروضهم ؟ « إنها تعنى يا آنسة رضاء لي ، هلاجلت نفسك بالفضيحة والعار ، وفقدت مركزك الاجتماعي

وتواريت عن أنظار المجتمع ، وحبست نفسك في أحد الأديار وجعلت أبالك وأملك يموتان حزناً وجزعاً (١٠٩)؟

ومن ثم فإنه مثل أى أب فرنسى أدخر مالا ليدفع لها الصداق ، واتصل بمختلف الأسرات ليجد لها زوجاً في الوقت المناسب ، واستقر رأيه على اختيار زوج ابنته ورفضته أمها انطوانيت ، ولكن وافقت عليه الآنسة ماري وزفت إليه (١٧٧٢) ، وبكى ديدرو لفراقها ، ولكن اغرورقت عيناه أكثر بدموع الفرح عندما رأى سعادتها الزوجية ، وعاون الزوجان الصغيرين بسخاء قائلاً « أليس من الأفضل أن أعاونهم في وقت الشدة أكثر من أن أنتظر إلى الوقت الذي لا يعودان محتاجان إلى فيه » . وأصبح زوج الابنة هذا صاحب مصنع ناجحاً كما أصبحت ذريته بعد عودة حكم البوريون (١٨١٤) من المحافظين الحذرين الحريصين .

ولما نضج في ديدرو الاحساس بالأبوة بدأ يحسن فهم أبيه ، وينظر بين الاجلال والتقدير القانون الأخلاقى الذى ساعد رجلا على تنشئة أسرة طيبة ، ولكن قدراً كبيراً من البوهيمية ظل يلازمه . وعلى الرغم من أنه حب عرينه وملابسه وأخفافه القديمة ، وأولع بتدنية أصابع قدميه أمام النار ويلزم البيت ، فإنه كان يحرم نفسه من هذه المتعة بين والحين ، مثلما قضى مرة شهراً مع دى هولباخ في جرانندفال Grandval وظل يرتاد المقاهى ، وكان شخصية مألوفة في بعض الصالونات ، وأحبته مدام جيوفرين على الرغم من خشونته في الحديث . وفي نوبة من نوبات عطف الأمومة أرسلت إليه مكتبا جديداً وطاقماً من الكراسى المريحة المصنوعة من الجلد وساعة حائط ضخمة من الذهب والبرونز ومبذلاً فاخراً - « روب دى شامبر » وقدم لها الشكر وتخلّى عن أثاثه القديم وهو حزين ولكنه عبر عن أعظم الأسف لردائه الذى نبذه ! « لم لم احتفظ به أنه قد صنع من أجلى ، ولا يصلح إلا لى ولا يصلح إلا له ، والتأم مع كل ثنية في جسمى دون أن يزعجنى ، وكان رداء جميلاً مليحاً على حين أن الرداء الجديد جامد يابس

وكأنه يجعل منى تمثالا لعرض الأزياء (مانيكان) . وكانت طبيعته الطيبة الودودة تسارع إلى تلبية كل نداء وتلبية كل خدمة ، فإذا علا التراب أحد الكتب أمكن استخدام أحد جوانب الرداء منفضة . وإذا كان الحبر على قلمي سميكا لا يتدفق كان جانب الرداء على أهبة الاستعداد . وإنك ترى من خلال الخطوط السوداء الطويلة كم من الخدمات أدى هذا الرداء . إن هذه الخطوط والأشرطة السوداء هي التي أنبأت عن الأديب وعن الكاتب وعن المجد الكادح ، أما الآن فيبدو على انى ثرى خامل الذكر ، لا يعرفنى أحد وكنت صاحب السلطان المطلق على ردائى القديم أما الآن فقد أصبحت عبداً أسيراً للرداء الجديد « (١١٠)

واعتبر ديدرو أن صداقته هي أكبر ساوى وأعظم إلهام له في حياته . وكان ارتباطه بجريم أوثق وأبقى من سائر محبيه . وفي ١٧٧٢ بعد أن كان الواحد منهما قد عرف الآخر لمدة اثنتين وعشرين عاما كتب إليه « عزيزى صديقى الوحيد ، لقد كنت دائماً وستكون دائماً صديقى العزيز الوحيد » (١١١) ومع ذلك أساء فتور جريم وتظاهره بعدم الاكتراث في بعض الأحيان إساءة بالغة إلى ديدرو . إن جريم الألماني استغل طيبة قلب ديدرو وكثيراً ما أنابه عنه في تحرير صحيفته « كورسبندانس » وحل محله لا في كتابة أخبار المعارض فحسب ، بل في عرض أحدث الكتب كذلك . وفي بعض الأحيان اشتغل أثناء الليل حتى آخر لحظة حددها جريم لإنجاز العمل (١١٢) وعرض جريم على ديدرو أجراً فرفض أن يؤجر . ومن المؤسف أن نرؤى أنه في ١٧٧٣ سمع ستانلاس بونياوسكى ملك بولنده أن ديدرو كان يعد العدة لزيارة سانت بطرسبرج ، وفكر في دعوته للتوقف لعدة أيام في وارسو ، فما كان من جريم إلا أن نصح الملك بأنه لا غناء في التعرف على الفيلسوف « إن ديدرو بدلا من استغلال وقته في اقتسام مجد العبقرية مع فولتير يضيعه في كتابة شذرات لصحيفة كورسبندانس أو يضيعه سدى مع كل من يجد في نفسه الجرأة ليسأله . وأستطيع أن أؤكد لجلالتكم أنه سيموت مغموراً غير معروف » (١١٣) .

وربما كانت أسعد ساعات ديدرو (عدا الوقت الذى كان يقضيه مع ابنته أنجيليك) هى تلك التى كان يقف فيها خطيباً فى أمسيات دى هولباخ أو مدام جيوقرين للعشاء ، وينطلق فى الحديث بفصاحة فى أى موضوع وهو لا يكون فى أفضل حالاته فى الاجتماعات التى يغلب عليها الأدب والتعذيب والتى يكون فيها الظرف هو المطلوب لا الأفكار . وكم انزعجت مدام جيوفرين نفسها من تحمسه ، وكانت نصائحها له بالاعتدال والالتزام آداب اللياقة قدر شطحاته هو ، ولكن على مائدة البارون التى اجتمع إليها كما أكدوا لهيوم ، سبعة عشر ملحدا أطلق ديدرو لنفسه العنان ومن ثم (كما أجمع كلهم تقريباً) لا يكون فى أحاديث باريس الممتعة ما هو أكثر امتناعاً وسحراً من حديث ديدرو ويقول مارمونتيل « إن الذى عرف ديدرو من كتاباته وحدها لا يعرفه إطلاقاً... لقد نعمت منه بمتعة فكرية أعظم (١١٤) أما هنرى ميستر الذى كثيراً ما نسمعه فإنه يصفه فى مقارنة ملائمة « إنى عندما استرجع ديدرو فى ذاكرتى وأرى شدة تنوع أفكاره وغزارة علمه المذهلة وتحليقه وشطحاته السريعة وحرارته واضطراب خياله المتهور وكل ما فى حديثه من فتنه وسحر وتشويش ، أنجاسر فأشبهه بشخصيته بالطبيعة نفسها تماماً ، كما تعود أن يتصورها ، غنية خصبة تكثر فيها الجرائم من كل جنس ، وديعة عنيفة بسيطة فخمة ، قيمة مهيبة ولكن على غير مبدأ أو قاعدة ، ودون سيد ذى سلطان ودون إله (١١٥) .

واستمع إلى تقرير مباشر عن حديث ديدرو عن نفسه « بدا أنى شاذ غريب عليهم ، ملهم سماوى . إن جريم نفسه لم يتهبأ له من البصر ما يرانى به ولا من السمع ما يستمع إلى به ، ودهشوا جميعاً وأحسست أنا نفسى بين جنبى بشيء من الرضا لا أستطيع التعبير عنه ، إنه كان أشبه بنار تضطرم فى أعماق تفتح صدرى ، انتشرت بينهم وأهبتهم . كانت أمسية من الحماسة كنت أنا مضرماً » (١١٦) .

وكانت شهرته المعاصرة أعظم بين من عرفوه منها بين أولئك الذين

أوافق فقط أعماله المنشورة ، وأهمها دائرة المعارف ورواياته وأحسنها التمسك بالدين وجاهك المؤمن بالقضاء والقدر ، وحلم دامير وابن أخى رامو ، ولم تكن قد طبعت عند وفاته . ومل أجل هذا السبب من ناحية ولتطرف آرائه وأفكاره فى الدين والجنس انخفى ولم يحاول قط اللحاق بالأكاديمية ومهما يكن من أمر فإنه فى نظر اصدقائه كان الفيلسوف زعيم جماعة الثائرين المتمردين . إن روسو حتى بعد أن كرهه باعتباره عدوا خفيا كتب فى اعترافاته « سيبدو ديدرو لعدة قرون قادمة فذا أعجوبة ، وينظر الناس من بعيد إلى هذا الرأس العالمى بمزيج من الإعجاب والدهشة كما ننظر نحن الآن إلى رأس أفلاطون وأرسطو ^(١١٧) .

وافتن جيته وشيلار ولسنج بكتابات ديدرو وشارك ستندال وبلزاك ودلاكروا فى الاعجاب به واعتبره كومت أسمى عبقرية فى ذاك العصر المثير ^(١١٨) واسماه ميشيليه « برومثيروس الحقيقى (فى الأساطير اليونانية هو الشيطان المعبود الذى سرق النار من السماء وعلمها لأهل الأرض) . وقال إن المرء ليستطيع أن ينهل من كتابات ديدرو لمدة مئة سنة ومع ذلك تبقى ذخائر لا حصر لها ^(١١٩) وهلا استمعنا إلى مدام جيوفرين التى عرفته حتى المعرفة ، ولكنها لم تقرأ كتبه ، إنها كتبت تقول « أنه رجل طيب ورجل أمين ولكنه عنيد متشبت برأيه (ولو كان خطأ) غير متزن إلى حد أنه يرى ويسمع الأشياء على ما هى عليه ومثله دائماً كمثل رجل يحلم ثم هو يؤمن بأنه أحلامه صادقة ^(١٢٠) .

كان ديدرو طيباً وسيئاً ، أميناً وخائناً ، عنيداً ونزاعاً إلى الحق ، قليل التوازن وخلاقاً مبدعاً بشكل بارع ، كما كان حالمًا ومناضلاً ومتنبئاً ، يبدو أن مكانته فى التاريخ تملو وتسمو كلما ابتعد زمانه ، حتى إن بعضهم اليوم ليعتقد أنه أعظم شخصية امتاعا وإثارة فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ^(١٢١) ولنقف الآن عند هذا الحد حتى نلتقى به مرة أخرى وجهاً وجهاً مع امبراطورة ثم فى لقاء الفلاسفة مع الموت .

الفصل الحادى والعشرون

إتساع نطاق الحملة

١٧٥٨ - ١٧٧٤

هلفشيوس ١٧١٥ - ١٧٧١

١ - تطوره :

إنحدرت الأسرة من أصل سويسرى ألمانى شل هؤلاء الأقوام الأشداء الممثلين نشاطاً انذب تزهو وتزدهر بهم اليوم برن وزيويخ . واتخذ أحد الأعضاء فى نيوشاتل إسم Schweitzer ومعناه سويسرى . وحمل آخر إنتقل إلى الأراضى الوطيفة لإسم Helvetius ومعناه أيضاً سويسرى ، وانتقل هذا الفرع الثانى إلى باريس حوالى ١٦٨٠ ، وهنا أصبح جان كلود أدريان هلفشيوس طبيباً للملكة مارى لىزكنسكا . ومن أولاده العشرين يعيننا هنا كلود أدريان الذى ولد فى ٢٦ يناير ١٧١٥ والذى نشأ وترعرع فى كنف الطب الذى ترك بعض بصمات على فلسفته وبعد أن تلقى تعليمه على يد الجزويت فى كلية لويس العظم تتلمذ على يد أحد جبابة الضرائب . وسرعان ما أثرى . وفى سن الثالثة والعشرين بلغ دخله نحو ٣٦٠ ألف جنيه فى السنة ^(١) وكان وسيماً وراقصاً ومبارزاً بارعاً كما كان محبوباً لدى رجال الحاشية ونساءها ، وعين سديراً للشئون الداخلية للملكة . ولم يكن مستعداً بأية حال ليكون فيلسوفاً ، اللهم إلا أنه كان يحذق تأليف الكتب :

والله ، أنه فى ١٧٣٨ ألتقى بفولتير فروعته عقله وشهرته وراوده حلم الكتابة والتأليف . فهلا يكون إمتيازاً غريباً أو غير مألوف أن يكون رأسالياً وفيلسوفاً فى وقت معا ؟ وقضى بعض الوقت فى بور دو ضيفا على منتسكبو ،

ثم في برجندى مع بيفون . وعمل تأثير هذين الرجلين على تشكيل هلفشيوس ، وأصبح صديقاً وثيق الصلة بمليونير آخر هو البارون دى هولباخ الذى كان الزعيم المادى فى هذا العصر . وفى أمسيات العشاء لدى البارون وفى صالون مدام دى جرافينى التقي بديدرو وجريم وروسو ود يكلوس وجاليانى ومارمونتيل وترجو . ومن ثم تحولت لإتجاهاته .

وفى ١٧٥١ إتخذ قرارين خطيرين ، فتخلى عن منصبه الوفير الكسب وهو منصب الملتزم العام للضرائب ، ولجأ إلى ضيعة إقطاعية فى Vore - au perche وتفرد لتأليف كتاب يهز العالم وفى العام نفسه وهو فى السادسة والثلاثين تزوج من آن كاترين دى لينيفيل دى أوتريكورت ؛ وهى كونتيسة من الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وكانت آنذاك فى الثانية والثلاثين من العمر وهى من أجمل السيدات وأكثرهن كياسة وعقلا فى فرنسا وأخذها على النور إلى بلدته فوريه حتى لا تفسدها باريس على حد قول جريم . وهناك أوفى باريس دخل فونتيل وكان يناهز مائة عام إلى حجرة ملابس الكونتييسة الجميلة وهى تكاد تكون عارية تماماً ، فصرخ وهو يرتد من من الحجرة فرحا : آه ياسيدتى لو أنى كنت فى سن الثمانين فقط (٢) .

واحتفظ الزوجان السعيدان كذلك بدار فى باريس . وهناك جذب إليها كرم هلفشيوس ومفانن زوجته كثيراً من قادة الفكر مثل ديدرو ودى هولباخ وفونتيل وبيون ودالمير وبيفوت وترجو وحالبانى وموريلى وكوندرسيه وهبوم . ويقول مارمونتيل : كم أصبحت هذه الدار ملائمة مريحة لرجال الأدب (٣) وحاول هلفشيوس فى حفلات العشاء أن يوجه المناقشة إلى الموضوعات التى فكر فى أن يكتب فيها ، ويشير النقد لأفكاره وأبدى أنه يصغى كل الاصغاء لما يقال من نقد ، وشكا موريليه من أن هلفشيوس يؤلف كتابه شركة بينهم (٤) .

وظل هلفشيوس يعمل فى إعداد الكتاب سبع سنين دأباً ، حتى خرج

الكتاب المرموق في ١٥ يولية ١٧٥٨ بعنوان « الذكاء » ولشد ما كانت دهشة الأصدقاء الذين رأوا المخطوطة حين ظهر الكتاب متمتعا بالترخيص الملكي الثمين بالنشر . ذلك أن ما لشرب كان قد عهد إلى جان بيير ترسسية بمراجعة الكتاب تمهيداً لنشره (عمل الرقابة على المصنفات) ، فقرر ترسسية « من رأي أنه ليس في الكتاب ما يحول دون نشره^(٥) » ولكن المحامي العام في برلمان باريس دفع الكتاب في ٦ أغسطس بأنه محشو بالهرطقة والكفر ، وألغى مجلس الدولة في ١٠ أغسطس الترخيص بالطبع ، وسرعان ما عزل ترسسية عن مناصبه المربحة . ودفع يهاجم المسيحية قائلاً : بأى لون من الإلحاد والكفر يتهمونني ؟ أنا لم أنكر في أى جزء من الكتاب التثليث أو ألوهية المسيح أو خلود الروح أو بعث الموتى أو أية ناحية أخرى من نواحي العقيدة البابوية ، ومن ثم فاني لم أهاجم الديانة بأى شكل من الأشكال^(٦) . وخشى فولتير أن يرسل هلفشيوس إلى الباستيل فنصحه بالرحيل ، ولكن هلفشيوس كان مستريحاً في ذلك إلى حد لا يضحى معه من أجل الكتاب ، فأصدر تراجعاً في صيغة رسالة إلى قسيس ، فأعلنت الحكومة بأن هذا غير كاف فنشر هو اعتذاراً يقول جريم « أنه مذل إلى حد لا يدهش معه المرء أن يرى رجلاً يؤثر أن يلجأ إلى الهوتنتوت (قبائل السود في جنوب أفريقية) على أن يضع اسمه على مثل هذه الاعترافات^(٧) » وقصدت مدام هلفشيوس إلى فرساي لتشفع لزوجها ورضيت الحكومة بأن يأوى إلى ضيعته لمدة عامين ، وربما أصبحت العقوبة أشد من ذلك لولا أن الملك تذكر أن والد هلفشيوس أنقذ حياته ذات مرة حين كان طبيباً للملكة . وفي ٣ يناير لمهم البابا كليمنت الثالث عشر الكتاب بأنه مخز فاسق لا يلتزم قواعد الدين ، وفي فبراير أحرق علناً بأمر من البرلمان . ولقد رأينا كيف أن هذه « الضجة حول مسألة تافهة كما سماها فولتير قد أسهمت مع مقالة دالمير عن جنيف في تضيق الخناق على موسوعة ديدرو ، وبكل هذا الإعلان الواسع النطاق عن كتاب « الذكاء » تهافت الناس على قراءته أكثر مما أقبلوا على أى كتاب

لعب دوراً في الحملة على المسيحية . وظهرت منه عشرون طبعة بالفرنسية على مدى ستة أشهر . وسرعان ما ترجم إلى الإنجليزية والألمانية واليوم لا يعرف عنه شيئاً إلا القليل من العلماء والباحثين ويكاد يكون من المتعذر الحصول على نسخة منه .

ولم ينشر هلفشوبوس شيئاً بعد ذلك ، ولكنه استمر يكتب . وصرح ثانية وتوسع متروياً غاضباً في شرح وجهات نظره في رسالة «عن الإنسان» وهي التي هاجم فيها رجال الدين بوصفهم باعة متجولين يتجرون في الرجاء والخوف وينشرون الجهل ويقتلون الفكر . وفي هذين الكتابين نجد كل مثله العليا في هذا العصر الطموح ، الحرية والمساواة والأخوة : حرية الكلام والصحافة والاجتماع والعبارة ، والمساواة بين الجنسين كليهما ، وبين كل الطبقات في فرص التعليم وأمام القانون ، وتأييد يكاد يكون إشتراكياً لدولة الخير العام حماية وتعويضاً للفقراء السذج ضد الأغنياء الأذكياء . وكل هذه الآراء والمثل العليا يتوجها إيمان شبيه بالإيمان الديني في إمكان بلوغ الجنس البشري مرتبة الكمال المطلق . وهنا أيضاً إذا أصغينا جيداً لسمعنا صوت الثورة .

٢ - فلسفته :

ومثل كل الفلاسفة تقريباً يبدأ هلفشيوس بلوك . فكل الأفكار مستمدة من الإحساس ، وبلى ذلك من خبرة الفرد . فكل الحالات العقلية عبارة عن مجموعات متضامة من الأحاسيس يشعر بها الإنسان حالياً أو تنبعث من جديد من الماضي عن طريق الذاكرة ، أو يتصورها مستقبلاً عن طريق الخيال . أما إصدار الحكم أو إتخاذ القرار فهو الإحساس بالفوارق بين الأحاسيس . أما العقل فهو مجموعة من الأحكام أو القرارات .

وليس الذهن والنفس شيئاً واحداً فالذهن هو تجمع أو تعاقب للحالات العقلية . أما النفس فهي حساسية الكائن الحي أى القدرة على إستقبال

الأحاسيس وكل الإحساس مادي . وكل النفس قوة في المادة . أن كل ظواهر الطب والتاريخ الطبيعى تثبت بوضوح أن هذه القوة . . . تبدأ بتكوين أعضاء الجسم ، وتبقى ما بقيت ثم تنقضى هذه النفس بانحلال هذه الأعضاء وفنائها^(٨) . وللحيوانات أنفس . ويسموا الإنسان على الحيوان بفضل نموه واستواء قامته حيث تتحول قوائمه الأمامية تدريجاً إلى أيد قادرة على الإمساك بالأشياء ومعالجتها .

وحيث بدأ هلفشيوس بجون لوك فإنه يتابع المسيرة مع هوبز . فكل عمل رغبة تستجيب لأحاسيس حالية أو مبتعدة . والرغبة هي تذكر اللذة التي أقرنت بأحاسيس معينة ، والأنفعال رغبة ملحة ، وتختلف في شدتها تبعاً للألم أو اللذة المتذكّرة والمتوقعة . والأنفعالات تؤدي بنا غالباً إلى الخطأ ، لأنها تركز انتباهنا على ناحية معينة من شيء أو موقف بعينه ولا تهين لنا المجال لتدبره من جميع جوانبه^(٩) . والدكاء بهذا المعنى هو تأخر رد الفعل ليهيئ إدراكاً أوسع وإستجابة أوفى . وعلى الرغم من ذلك فالأنفعالات بالنسبة للخلق هي الحركة بالنسبة للمادة . وهي تزودنا بالدافع حتى الدافع إلى المعرفة . فالإنجاز العقل لأى شخص يختلف تبعاً لحدة أنفعالاته فالإنسان العبقري إنسان ذو إنفعالات قوية والإنسان الغبي مجرد منها^(١٠) . والأنفعال الأساسى هو حب القوة والسيطرة ، وهو أساسى لأنه يزيد في قدرتنا على تحقيق رغباتنا .

وعند هذا الحد إستحق عمل هلفشيوس ما وصفه به فولتير من أنه « عجة بيض » أى خليط من الأفكار التي كانت سائدة منذ عهد طويل في دنيا الفلسفة ، ولكنه إنطلق الآن إلى أكثر آرائه ومسائله إمتيازاً . فحيث أن كل الأفكار تنبع من خبرات الفرد وتجاربه فإن التباين بين أفكار الأفراد والأمم وخلقها يعتمد على الفوارق بين بيئة الفرد أو الأمة . ولدى كل الناس عند مولدهم استعداد متساو للفهم والحكم وليس ، هناك تفوق فطرى أو طبيعى في الذهن . لقد رهب الجميع قوة وقدرة على الانتباه كافيتين

للأرتفاع بهم إلى مرتبة الرجال اللامعين المرموقين إذا كانت البيئة والتعليم والظروف ملائمة لهم . وعدم المساواة في القدرة والأهلية هو دائماً نتيجة الاختلاف في الموقف الذى تصادف أن وضعوا فيه ^(١١) .

« وفي اللحظة التى يخرج فيها الطفل من بطن أمه يدخل إلى الحياة دون أفكار ودون انفعالات . وكل ما يحس به هو الجوع . إننا في المهد (أى عن طريق الوراثة) لا نتلقى انفعالات الزهو والكبرياء والجشع والطمع والرغبة في حسن التقدير والمجد والعظمة . إن هذه الانفعالات المثيرة للشقاق والشغب التى تتولد بين البدان والمدن تفترض مقدماً وجود تقاليد وقوانين قائمة بالفعل بين الناس ومثل هذه الانفعالات لا تكون معروفة لدى من تحمله ساعة مولده عاصفة إلى صحراء مقفرة يغذيه ذئب مثل روميلوس . وحسب المجد والعظمة شيء مكتسب ، ومن ثم فهو نتيجة درس وتعليم ^(١٢) » .

وحتى العبقريه نفسها نتاج البيئة ، أى الخبرة بالإضافة إلى الظروف ويضيف العبقري الخطوة الأخيرة إلى خطوات أكتشفت واتخذت تبليه . وهذه الخطوة الأخيرة تكون تبعاً للظروف . وكل فكرة جديده هى نعمة من نعم الصدفة ، أى سلسلة من النتائج والآثار لأندرك لها سبب ^(١٣) .

« ومن أين يأتى عدم المساواة التامة في الفهم والذكاء ؟ السبب في هذا هو أن أى إنسان لأندرك على وجه الدقة نفس الأشياء ، وليس هو على وجه الدقة في نفس الموقف ، ولم يتلق نفس التعليم ، كما أن الصدفة أو الحظ الذى يسمو على تعليمنا لا يودى بكل الناس إلى كنوز غنية مثمرة بقدر سراء . وإننا من أجل هذا ننسب إلى التعليم — بكل ما في هذه الكلمة من معنى . مع أخذ فكرة المصادفة والحظ في اعتبارنا — نسب عدم المساواة في الفهم والذكاء ^(١٤) .

ومن الجائز أن هذا التحليل النفسى وهو سخى بصفه خاصة من أـد أصحاب الملايين ، مشتق أو نابع من وضع سياسى . فالخفاظون يؤكدون

فوارق الوراثة وتأثيرها ، والحاجة إلى الحرص والحذر في تغيير النظم المتأصلة في عدم المساواة الطبيعية والخلقية في القدرة والخلق . أما دعاة الإصلاح فيؤكدون على فوارق البيئة وتأثيرها ، مما يجعل عدم المساواة في القدرة والقوة والثروة يبدو راجعاً إلى المصادفة والحظ ، إلى مفارقات المولد وميزات الظروف أكثر منه إلى جدارة فطرية . ومن ثم يمكن خفض عدم المساواة بالمساواة في التعليم وتحسين البيئة . ويطبق هلفشيوس نظريته في المساواة الطبيعية على الأجناس والأفراد . فكان يمكن أن تصل كل الأجناس إلى نمو متساو إذا تساو الفرص البيئية لديها . وينتج عن هذا أن الغرور القومي أو الاعتزاز بالجنس مثل الغرور الفردي أو إعزاز الفرد بنفسه ، ليس له في الواقع أى مبرر . أن الحرية التي يفاخر بها الأنجليز . . . ليست جزاء لشجاعتهم بقدر ما هي نعمة الحظ - « أعنى القنال الانجليزى والبحار التي تحميهم » الحرية الداخلية إذا تساو الأشياء الأخرى تتفاوت عكسياً مثل الخطر الخارجى) .

وواضح على هذه الأسس أن طريق التقدم يتبع تحسين التعليم والمجتمع والحكومة . « إن التعليم قادر على التأثير في كل شيء » . ألا يدرب التعليم الدب على الرقص^(١٥) ؟ أن كل التقدم ، حتى في الاخلاق يتوقف على إنتشار المعرفة وتدريب الذكاء . إقضى على الجهل وبذلك تقضى على كل بذور الشر^(١٦) ومن أجل الأقتراب من هذا المهدف يجدر أن يعاد بناء نظام التعليم في فرنسا كما ينبغي أن يحمر من ربة الكنيسة ويعهد به إلى الدولة ، كما يجب أن يكون في متناول كل الأفراد من الجنسين كليهما وفي كل الأعمار . ويجدر أن يحل تدريس العلوم والتقنيات محل تعليم اللاتينية والأغريقية ، ويجب أن يكون نمة تركيز جديد على بناء الأجسام الصحيحة « والعقول السليمة المتمسكة بالفضيلة^(١٧) » .

وعلى الرغم من أن هلفشيوس لم ينكر أية تعاليم مسيحية نراه هنا يدخل في دعوى مثيرة بقصد تقليص نفوذ الكنيسة في فرنسا . أنه بهاجم الكنيسة من

وجهة نظر اجتماعية لاهوتية ، أنه يشجب وجهة النظر الكاثوليكية في تمجيد العزوبة والفقر ، ولكنه يطرب ويتهج لأن قلة ضئيلة من المسيحيين هم الذين ينظرون إلى هذه الأفكار بعين الجاد . « أن ميلا خفياً إلى الشك وعدم التصديق يقاوم هذا الأثر الحبيث المؤذى للمبادئ الدينية^(١٨) أنه يهتم سيطرة الكاثوليك على التعليم لا بأنها تعوق التقدم الفنى والعلمى فى الأمة بتجاهل العلوم والاستخفاف بها فحسب ، بل بأنها كذلك تمكن رجال الدين من تشكيل ذهن الطفل لأخضاعه للسيطرة الكهنوتية^(١٩) .

« إن رغبة رجال الدين فى كل العصور إنصرفت إلى القوة والنفوذ والثراء . وبأية وسيلة يمكن أشباع هذه الرغبة ؟ ببيع الرجاء (فى التعليم) والخوف (من الحجميم) . إن الكهنة وهم تجار جملة فى هذه السلع كانوا يحسرون ويدركون أن هذا البيع سيكون مؤكدا راجحا^(٢٠) وتتوقف قوة الكاهن وسلطانه على الخرافات ، وعلى تصديق الناس فى غباء وحمق لهم . وليس لتعليمهم قيمة لديه . وكلما قلت المعرفة عندهم ازدادوا إمتثالا لأوامره^(٢١) إن أول هدف للكهنة فى كل ديانة هو خلق حب الاستطلاع عند الناس ، والحيلولة دون فحص أية تعاليم ومبادئ يكون سخطها ملموسا محسوسا إلى حد لا يمكن إخفاؤه^(٢٢) . . . لقد ولد الإنسان جاهلا ، ولكنه لم يولد مغفلا أبله ، وليس إلا بالجهل والمثقة ليكون كذلك ، ولا بد لذلك وليكون قادرا على أطفاء هذا النور الطبيعى فى داخله من إستخدام كثير من الخداع والحيل والأساليب ، ومن ثم يكندس التوجيه والتربية فى ذهنه أخطاء فوق أخطاء^(٢٣) وليس ثمة شىء تعجز قوة الكهنوت بمساعدة الخرافة عن تنفيذه ، لأنها تسلب الحكام والنمضاة سلطانتهم وسيادتهم ، والملوك سلطتهم الشرعية . وبذلك تخضع الناس وتحرز السيطرة عليهم . وغالبا ما تكون هذه أعلى من سيادة القوانين ، ومن ثم تفسد فى النهاية المبادئ الاخلاقية نفسها^(٢٤) .

ويضيف هلفشيوس ثمانية فصول عن التسامح .

« أنه التعصب أو عدم التسامح الديني هو ربيب الطمع الكهنوتي ومرعة الصديق الغبي الأحمق^(٢٥) . . وإذا أنا صدقت مربي أو معلمي ، إن كل ديانة أخرى باطلة زائفة ، وديانتى وحدها هي الصحيحة الحققة . ولكن هل يعترف العالم كله بهذا ؟ لا ، فإن الأرض لاتزال تئن تحت وطأة المعابد الكثيرة الموقوفة على الخطأ^(٢٦) . وماذا يعلمنا تاريخ الأديان ؟ أنها أضاعت في كل مكان مشعل التعصب وملأت السهول بالجنث وخضبت الحقول بالدماء واحرقت المدن وإقامت أمبراطوريات مهلهلة^(٢٧) . اليس الأتراك ، ودينهم دين جهاد وحرب . أكثر تسامحاً منا ؟ إننا نشهد الكنائس في القسطنطينية واكننا لأنرى مساجد في باريس^(٢٨) . أن التسامح يخضع الكاهن للأمير ولكن التعصب يخضع الأمير للكاهن^(٢٩) .

ويميل هلفشيوس إلى القول باستثناء واحد في جانب التعصب ، حيث يقول : « هناك سبب واحد يمكن أن يكون فيه التعصب ضاراً بالشعب ، حيث يكون التسامح مع عقيدة تنسم بالتعصب مثل الكاثوليكية . فإن مثل هذه العقيدة التي تصبح أقوى ما تكون في دولة ما سوف تسفك دائماً دماء حماها الأغنياء . لا تسمحوا للكاثوليك المتملقين أن يستغلوا البروتستانت . إن القساوسة الذين يعتبرون التعصب في بروسيا أمراً بغيضاً وخرقاً للقانون الطبيعي والساوى ينظرون إلى التسامح في فرنسا على أنه جريمة وهرطقة . وماذا يجعل الإنسان مختلفاً عن غيره في مختلف الأقطار ؟ ليس إلا ضعفه في بروسيا وقوته في فرنسا . وإذا تأملنا في سلوك المسيحيين الكاثوليك ، لوجدنا أنهم في البداية حين يكونون ضعافاً يبدون وكأهم حملان وديعة حتى إذا أصبحوا أقوى كانوا وحوشاً ضارية^(٣٠) »

وأدلى هلفشيوس من حين إلى حين بكلمة طيبة عن المسيحية ، وبخاصة عن البروتستانتية ولم يكن ملحداً ولكنه كره تصوير الأصفار المقدسة للإله

طاغية . . . يعاقب على الهنات الهينات بالعذاب المقيم^(٣١) . وراوده
الأمل في ديانة عالمية « تقيم تحت رقابة الدولة » أخلاقيات طبيعية » متحررة
من الثواب والعقاب بعد الموت^(٣٢) . ووضع العقل الإنسانى فوق كل دعاوى
الإنسان للوحي الإلهى . فلإن الرجل الأمين سوف يمثل دائماً لعقله مؤثراً
إياه على الوحي . لأنه سيقول بينه وبين نفسه عن يقين بالغ بأن الله هو منشئ
العقل البشرى أكثر من أنه مؤلف كتاب بعينه^(٣٣)

ولكن أليست المعتقدات الخارقة والوازع الدينى ضرورية لفاعلية القانون
الأخلاقى ؟ يقول هلفشيوس . كلا « ليس على الدين ولكن على التشريع
أو القانون وحده تتوقف رذائل الناس وفضائلهم وقوتهم وهنأهم . . .
إن كل جريمة لا يعاقب عليها القانون تقترف كل يوم فأى دليل أقوى من هذا
على عقم الدين وعدم جدواه ؟ ...

ومن أين ينشأ الأمن الحالى فى باريس ؟ هل ينشأ من تقوى أهلها وتبتلهم ؟
كلا إنما ينشأ من نظام الشرطة ويقظتهم . . . وفى أية فترة أصبحت القسطنطينية
وكر الرذائل ؟ فى نفس اللحظة التى قامت فيها المسيحية هناك ... إن أشد
الملوك تمسكاً بالمسيحية لم يكونوا أعظم الحكام . إن قليلا منهم تحلوا
بفضائل تيتس أوتراجان أو انطونينس وأى أمير تقى ورع يمكن أن يقارن
بهؤلاء ؟^(٣٤)

ومن هنا بدا لهلفشيوس أن مهمة الفلسفة أن تبتكرو وتنشر أخلاقيات مستقلة
عن العقيدة الدينية . ومن وجهة النظر هذه كتب ما أسماه أحد الباحثين « أعظم
اختيار على الأخلاق الاجتماعية خطه يراع أى فيلسوف^(٣٥) أنه عقد العزم
على ألا ينتقص من قدر الطبيعة البشرية أو يجعلها مثالية ، بل يأخذها كما وجدها
بكل ما فيها من أنانية ، ويحاول إن يبنى عليها أخلاقاً طبيعية . إن الإنسان
ليس خيراً أو شراً بالطبيعة . إنه مخلوق حاول أن يحافظ على ذاته فى عالم
يحاول كل كائن آخر فيه أن يفتك به إن عاجلاً أو آجلاً^(٣٦) . إن الصورة التى
كان قد رسمها روسو حديثاً للمجتمع البدائى بدت لهلفشيوس خيالاً تافهاً

غير ذى قيمة . وكان هوبز أقرب إلى الحقيقة حين وصف « حالة الطبيعة » بأنها صراع كل فرد ضد الجميع . إن لفظي الخير والشر في تطبيقهما على الناس ليس لهما معنى إلا في مجتمع ، وكل الطيبة فضيلة اجتماعية وهى نتاج التدريب أو التعليم الاجتماعى على الغايات والأغراض الاجتماعية . « إن الأمير الذى ينق فى استقامة الخلق الفطرى المتأصل فى النفوس شقى تعس . إن روسو يفترض وجود هذه الاستقامة ، ولكن الخبرة تذكر وجودها . وكل من يتأمل فى هذا سينتهى إلى أن الطفل يقتل الذباب ويضرب كلبه ويخنق عصفوره أى أن فى الطفل كل رذائل الرجل . إن الرجل وهو فى أوج سلطانه ، (متحرراً من كل القيود والضوابط الاجتماعية) غالباً ما يكون جائراً ظالماً . والطفل القوى مثله تماماً : فإنه إذا لم يكبح جماحه وجود رفاقه مثل الرجل فى أوج سلطانه يستحل لنفسه حلوى رفيقه وأدوات لعبه ويستولى عليها (٣٧)

ومن الواضح عندئذ أنه ليس هناك حاسة أخلاقية فطرية ، فكل الأحكام على الخطأ والصواب تنمو عن طريق خبرة الفرد نتيجة لتساليم أسرته وجماعته وحكومته وكنيستته ، وفرضها عليه قسراً . فإذا تحرر الفرد من هذا القسر . كما هو الحال فى الحكم المطلق أو الحرب أو الزحام فإنه يميل إلى العودة إلى مخالفة القانون والتمرد عليه ، وإلى عدم التسلسل بالمبادئ الأخلاقية . وهنا « لاتكون الأخلاق فى معظم الأمم آنئذ إلا مجرد مجموعة من تعاليم وقواعد سلوكية يعلما ويفرضها الأقوياء ليضمّنوا سيطرتهم وسيادتهم ، مع الاستمرار فى ظلمهم وطغيانهم ، مع الافلات من أى عقاب » ولكن الأخلاق بمعناها الصحيح هى « معرفة الوسائل التى يبتدعها الناس ليحشوا معاً وجنباً إلى جنب فى أسعد حال... وإذا كان من بيدهم الأمر والسلطة لا يعارضون تقدم المعرفة بهذه الوسائل فإنها تنهض وتقدم كلما اكتسب الناس معرفة جديدة » (٣٩) .

وهلفشيوس يعتقد صراحة مذهب المتعة (اللذة أو السعادة) . وهى الخير الرئيسى أو الأوحد فى الحياة : فالسعادة هى هدف الحياة هنا على الأرض ، والسعادة هى استمرار اللذة ودوامها ، وكل اللذة حسية أوفسيولوجية

أساساً^(٤١) » إن نشاط الذهن واكتساب المعرفة . هما أعظم اللذات إشباعاً على الدوام^(٤١) ولكنهما مادبان أيضاً بصفة جوهرية . والزهد أو التقيف ضرب من الحق . واللذة الجنسية مشروعة تماماً إذا لم تؤذ أحداً . وليست الفضيلة هى الأمثال لشرائع الله بل هى السلوك الذى يوفر أعظم اللذة لأكبر عدد من الناس . وهنا وبشكل واضح يصوغ هلفشيوس الأخلاق النفعية التى جاء بها بالفعل هتشنسون (١٧٢٥) والتى شرحها بنتام فيما بعد (١٧٨٩) . « لكى تكون فاضلاً يجب أن تجمع بين نيل النفس والعقل المستنير . وهذا الذى يجمع بين هاتين النعمتين إنما يتجه إلى المنفعة العامة . وهذه المنفعة هى قاعدة كل الفضائل الإنسانية وأساس كل تشريع . . . وكل القوانين يجب أن تتبع مبدأ أو قاعدة واحدة وهى نفع الناس جميعاً أى أكبر عدد من الناس فى ظل الحكومة نفسها . . . فهذا المبدأ يتضمن كل الأخلاقيات وكل التشريع^(٤٢) .

وعلى الرغم من ذلك فإن كل الأفعال فى رأى هلفشيوس مهما كانت أخلاقية وفاصلة أنانية . وقد لا تكون الأفعال بالضرورة أنانية ، فكثير منها يتسم بالغيرية (حب الغير) بمعنى أنه مقصود به نفع الآخرين وفى بعض الأحيان تكلف فاعليها ثمناً غالياً . ولكن حتى مثل هذه الأفعال أنانية بمعنى أن الدافع إليها هو إرضاء الذات . أننا غير يون (نحب الغير) إنما بالفطرة أو بالتعليم والمران يمكن أن نجد لذة كبيرة فى إدخال السرور على الآخرين وإسعادهم . وهكذا قد تضحي الأم من أجل طفلها أو البطل من أجل وطنه . إننا إذ نفعل الخير لغيرنا فذلك يرجع إلى أننا عن قصد أو عن غير قصد نتذكر فى لذة وسرور ما قبولت به مثل هذه الأفعال فى الماضى من حب أو تقدير اجتماعى . وهذه الطريقة قد تصبح بعض الأفعال الغيرية عادة لدينا ، وقد نشعر بالانزعاج أو الخوف إذ لم نقم بها . وقد يبدو النسك أو التبتل الدينى عملاً فاضلاً إلى درجة عالية ، ولكنه « مجرد استثمار طويل الأجل فى سندات السماء » أى مجرد محاولة طويلة الأمد لضمان حسن الجزاء فى السماء

« فإذا فرض ناسك أو راهب على نفسه قانون الصمت وجلد نفسه بالسوط في كل ليلة وعاش على الحبوب والماء وافترش الأرض على القش فإنه يظن أنه بفضل النحول والهزال سيحظى بمنزلة رفيعة في الجنة^(٤٣). وإذا لم يحكم المجتمع المحلي على أى تصرف أو فعل وحشي قاس بالإدانة ويستنكره فإن هؤلاء الرجال المقدسين سيرتكبونه دون خجل أو لجوء إلى القانون : مثال ذلك إحراقهم المهرطقين^(٤٤). إن الصداقة نفسها ضرب من الأنانية : فهي تبادل خدمات حتى ولو كانت مجرد تأييد ، وحيثما انقطع مثل هذا التبادل تقطعت أواصر هذه الصداقة ، وليس ثمة شيء إستثنائي أو غير مألوف أكثر من الصداقة التي لا تدوم طويلا^(٤٥) ، وجوهر الحقيقة إننا دائماً نحن الذين نحب أنفسنا في غيرنا^(٤٦) .

وحين هبط لاروشفوكول بالمثل بمختلف الدوافع إلى حب الذات فإنه شعر بالأسى باعتباره أن حب الذات هذا رذيلة . ولكن هلفشيوس ارتضاه على اعتباره فضيلة ، على أنه سعى للمحافظة على الذات . وعلى أية حال فتلك حقيقة عامة من حقائق الحياة « فالغضب أو الشعور بالضيق من الأفعال القائمة على حب الذات وهو مثل الشكوى من رخات المطر في الربيع أو من حر الصيف ... أو صقيع الشتاء »^(٤٧). ومن منطلق عمومية - حب الذات تماماً يقترح هلفشيوس إقامة أخلاقيات « علمية » . فالتعليم والتشريع يمكن أن يشكلوا الأخلاق والعادات إلى حد الانزعاج والشعور بالاملق والضيق بالأفعال أو التصرفات غير الاجتماعية ، والشعور باللذة والسرور في الفضيلة - أى في الأفعال التي تفيد الجماعة وتسدى إليها خيراً . ويجدر بالفيلسوف أن يدرس السلوك الإنساني والحاجة الاجتماعية بقصد اكتشاف أى أشكال السلوك أكثر نفعاً وخيراً لأكبر عدد من الناس ، ويحاول مع المعلمين والمشرعين التماس المغريات والمحاذير التي يمكن مع الاستعانة بحب الذات أن تشجع السلوك الاجتماعي ، وأية فوائد تعود على الجنس البشرى من مثل هذا الاتفاق بين

الفلاسفة والملوك ؟ » إن فضائل الشعب وسعادته لا تنبع من قدسية عقيدتهم الدينية ونقاوتها بل من حكمة قوانينهم ^(٤٨) .

وهكذا تحول هافشيوس في قمة فلسفته إلى دراسة التشريع والحكومة . أنه من الناحية السياسية أشد الفلاسفة تطرفاً . أنه لا يشارك فولتير إيمانه « بالحاكم المطلق المستنير » فان مثل هؤلاء الحكام قد ينزعون إلى إخماد أية آراء غير آرائهم هم أنفسهم ، التي قد تكون خاطئة ضارة . ويقتبس قول فردريك الأكبر لأكاديمية برلين « ليس ثمة ما هو أفضل من حكومة استبدادية يرأسها أمير عادل إنساني عطوف متمسك بالفضيلة ، وليس ثمة شيء أسوأ من حكم الملوك العاديين البسطاء » ^(٤٩) . والملكية المحددة السلطة أو الدستورية مثل إنجلترا صالحة طيبة ، والأحسن منها اتحاد من جمهوريات ديمقراطية تعاهدت على العمل المشترك ضد أي ظالم ^(٥٠) . والارستقراطية بجايزة نظرياً حيث أن المقدرة العليا نتاج الصدفة ، ولكن الديمقراطية الكاملة غير مرغوب فيها ، ما دام الفقراء غير متعلمين لا يملكون شيئاً . ومن ثم فان المشروع الحكيم يسعى إلى نشر التعليم وحسن توزيع الملكية .

إن هذا « المليونير » الخبير بشؤون المال يرثي لتركيز الثروة وتيسير هذا التركيز عن طريق الاقتصاد القائم على المال : « إن هذا الشقاء الذي يخيم على كل الناس والأمم تقريباً إنما ينشأ من قصور قوانينهم والتوزيع البعيد كل البعد عن المساواة لثرواتهم . وفي معظم الممالك توجد طبقتان فقط من المواطنين : واحدة في مسيس الحاجة إلى الضروريات والأخرى تبذر تهديراً ^(٥١) ... وإذا كان فساد السطة في الشعب أبرز ما يكون في عصور الترف والبلذخ فما ذاك إلا لأن ثروة الأمة في تلك العصور كانت مركزة في أيدي أقل نفر من الناس » ^(٥٢) .

إن الاستعاضة بالمال أو النقود عن الأرض رمزاً للسلطة والقوة ونقطة ارتكاز لهما ، ينشأ عنها سباق على الثروة ، وفيه تفويض للاستقرار الاجتماعي وتصعيد للصراع الطبقي ، كما أنه يؤدي إلى تضخم مدمر . « وفي الأمة التي

تزداد تدريجاً ثروتها ومالها — وبخاصة العملة الورقية — ترتفع أسعار الحاجيات وأجور العمال باستمرار .. وكلما أصبح العمل غالى التكلفة فى أمة غنية فإنها لا بد أن تستورد من الأمم الأخرى أكثر مما تصدر إليها . وإذا ظلت كل العوامل الأخرى على حالها ... فإن أموال الأمة الغنية سوف تنقل أو تنسرب دون أن يشعر بها أحد الى الأمة الأفقر التى ستدمر نفسها بدورها وببنفس الطريقة إذا أصبحت غنية (٥٣) .

وهل ثمة مهرب من تركيز الثروة أو الزاحم على المال ؟ « يجدر بالإنسان أن يضاعف عدد الملاك عن طريق توزيع جديد للأرض .. فإذا زادت أرض أحد الناس عن قدر معين من الأفدنة فيجب أن تفرض عليها ضرائب تفوق قيمة إيجارها . ومثل إعادة توزيع الأرض هذه قد تكون مستحيلة تقريباً فى اقتصاد يقوم على المال . ولكن إذا أمكن تداركها بحكمة فمن المستطاع تنفهاها بتغيرات دائمة غير محسوسة (٥٤) .

فلنعتمد إلى انقاص ثروة بعض الناس وزيادة ثروة آخرين ونهى الفقراء حالة من اليمس والرخاء حتى يتمكنوا بسبع أو ثمان ساعات من العمل فى اليوم أن يوفرُوا لأنفسهم ولذويهم وسائل العيش ويسدوا حاجتهم ، ومن ثم يصبح الشعب سعيداً بقدر ما تسمح به الطبيعة البشرية (٥٥) .

٣ — تأثير هلفشيوس :

وهنا فى كتابين لرجل واحد نجد كل الأفكار التى صنعت الثورة الفرنسية وكل الأفكار التى تعتلج فى صدور الأمم وتحركها اليوم . فلا عجب أن وضعت الفئات الفرنسية المتعلمة المثقفة فى الربع الثالث من القرن الثامن عشر هلفشيوس فى منزلة سواء تقريباً مع فولتير وروسو وديدرو ، ورحبت بكتابه الأول وهملت له مما كاد لا يحظى به كتاب غيره فى ذلك العصر . وقال برونييتير « إن أى كتاب غيره لم يحدث مثل هذه الضجة فى زمانه ، ولم ينشر فى الخارج أفكاراً أكثر أخذت تشق طريقها إلى العالم بأسره (٥٦) .

وذكر بريسو في ١٧٧٥ «لقي منهج هلفشيوس وآراؤه أعظم رواج وشعبية» وشكا ترجو على حين كان يعارض هذا المنهج من أن الناس امتدحوه وأثنوا عليه في شيء من الشدة والعنف : وقال آخر « إن هذا الكتاب كان يوجد على كل منضدة ^(٥٧) ». وأطرى كل النقاد وضوح أسلوبه وقوة حكمة وتصويراته البارعة والروح الإنسانية البارزة في رجل يدافع عن إعادة توزيع الثروة على حين أنه ثرى أوفى كل شيء .

ومهما يكن من شيء فإن الفلاسفة أنفسهم انتقدوا « منهج هلفشيوس » باعتباره قائما على مفاهيم خاطئة . ودافع فولتير عن دعاوى الوراثة . فكل الناس عند الميلاد ليسوا متساوين في التفوق الذهني والخلق الكامن ورأى أن العبقريات مولودة لا مصنوعة ^(٥٨) . واتفق ديدرو مع فولتير فيما ذهب إليه . وفي « تفنيد لكتاب هلفشيوس بعنوان « الإنسان » (كتب في ١٧٧٥ ، ولكن لم ينشر إلا بعد مائة عام من تأليفه) ، دفع ديدرو بأن الأحاسيس تنتقل بأشكال مختلفة إلى مختلف الأفراد بفعل الفوارق الموروثة في تركيب المخ وبنيته ^(٥٩) » لا يولد الإنسان غفلا أو خاليا من كل شيء ، حقا أنه يولد بدون أفكار أو انفعالات موجهة ، ولكنه منذ اللحظة الأولى يوهب استعدادا أو ميلا إلى التصور والمقارنة والاحتفاظ ببعض الأفكار في تلمذ واستمتاع أكثر من غيرها . وميلا ونزعات مسيطرة تنبع عنها فيما بعد الانفعالات الواقعية ^(٦٠)

وهنا نجد ديدو ، الذي كان قد بدأ بجون لوك بتحول إلى ليبنتز ويمد يده إلى كانت . أن تأثير البيئة والتعليم في نظر ديدرو ، محدود دائما بالوراثة « إننا لانستطيع أن نعطي ما رفضته الطبيعة ، وربما نقضى على ماتهيه الطبيعة .. إن التعليم يعمل على تحسين ماتهيه لنا » ^(٦١) واستاء من الهبوط بالمباهج الفكرية إلى لذة حسية ، واشترك في الاحتجاج العام على فكرة هلفشيوس التي تقول بأن كل الغيرية (حب الغير) أنانية غير محسوسة أو محتجبة .

وكانت مدام دى ديفان واحدة من النفر القليل الذين اتفقوا مع هلفشيوس فى هذه النقطة . وقالت « إن هذا الرجل كشف الغطاء عن سر كل إنسان »^(٦٢) أما آدم سميث الذى كان يتبع صديقه هيوم فإنه أصر على أن الغيرية مؤسسة على مشاعر عطف فطرية مثل الأنانية سواء بسواء ، ولكنه فى كتابه « ثروة الأمم » أسس نظريته الاقتصادية على شمولية حب الذات . وفى نشوة الثورة أثار هلفشيوس إشمئزاز مدام رولان . « لقد شعرت أنى مدفوعة بكرم لم يعترف هو به قط وواجهت نظرياته بالابطال العظام الذين خلدهم التاريخ »^(٦٣) .

ولا يمكن حل هذه المسائل بسهولة فى فقرة من الفقرات ، ويبدو واضحاً أن الاختلافات فى التكوين الوراثى أو الخلقى تؤثر تأثيراً جوهرياً فى عمل البيئة والتعلم . وكيف إذن نفسر بأى شكل آخر الخلق والنمو المتباينين كل التباين فى الإخوة على الرغم من التشابه فى النشأ والأصل والفرص ؟ ومع ذلك فإن هلفشيوس كان على حق ؟ فى نطاق الحدود التى فرضتها البيئة ، فيمكن أن تحدث تغييرات جسيمة فى سلوك الأفراد والجماعات ، بفعل الاختلافات فى البيئة والتعليم والتشريع . وإلا كيف نفسر انتقال الإنسان من الجمعية إلى المدنية ؟ وربما يجدر بنا أن نسلم لهلفشيوس بأنه ليس ثمة إنسان يعمل واعياً بطريقة أشد إيلاماً من بديلتها . ولكن بعض الغرائز الاجتماعية - حب الأم ، حب العيش مع أبناء جنسه ، حب الاستحسان - على الرغم من أنها لا تقدر على منافسة غرائز النزعة الزردية فى كمال القوة ، فإنها أى الغرائز الاجتماعية قوية إلى حد تستطيع معه توليد أفعالى إجتماعية قبل أى ترجيح واع للذة أو الألم أو النتيجة . فكل منا ذات أو « أنا » ولكن بعض الذوات أو « الأنا » تتسع لتشمل أسرتنا أو جماعتنا أو ووطنا أو الجنس البشرى بأسره . وعلى هذا الأساس تكون أوسع « أنا » هى الأفضل .

وعلى أية حال فإن كثيراً من الناس تأثروا وتحركوا للتفكير والعمل بفضل إراء هلفشيوس . ومن الجائز أنه تحت تأثير هلفشيوس بدأ لاشالوتيه

حملته لابدال مدارس كهنة القرى وكليات الجزويث بطرق تعليمية تشرف عليها الدولة . وترجع المدارس العامة في أمريكا إلى مقترحات كوندرسيه الذي سمى نفسه تلميذ هلفشيوس ومريده^(٦٤) وأكد بكاريا Beccaria إن كتابات هلفشيوس هي التي أوحى بكتابة دفاعه التاريخي عن إصلاح قانون العقوبات والسياسة . وصرح بتمام بأنه « مدين لكتاب هلفشيوس » الذكاء « بكثير من أفكاره » - بما في ذلك مبدأ المنفعة بالتماس أعظم السعادة لأكبر عدد من الناس في الأخلاق وفي التعليم^(٦٥) . وشهد « الميثاق الوطني » في ١٧٩٢ بتقدير تأثير هلفشيوس في الثورة ، بأن منح بنات هلفشيوس لقب « بنات الأمة » . وبني وليم جودون Goduin بحثه في العدل السياسي « (١٧٩٣) على تعاليم هلفشيوس . أما زوجته ماري ولستونكرافت فقد وجهها إلى حد ما إلى تأليف كتابها المؤذن بعهد جديد « حقوق المرأة » ، دعوى هلفشيوس بأن الفوارق بين الجنسين ترجع إلى حد كبير إلى التفاوت في التعليم وفي الفرص^(٦٦) .

وقابل كثير من معاصري هلفشيوس بين نظريته في شهولية الأنانية وبين كرم خلقه وحياته الموسومة بالخير والإحسان . وكتبت عنه مارمونتيل : « ليس ثمة رجل أفضل منه ، فهو متحرر كريم جواد دون تظاهر أو تصنع ، محسن من صميم قلبه^(٦٧) ووصف جريم الذي نادراً ما كان مسرفاً في مدحه ، هلفشيوس بأنه « رجل مهذب وديع حقا » منصف متسامح ، ليس سريع الغضب أبداً ، زوج صالح ووالد عطوف ، وصديق وفي وإنسان طيب^(٦٨) . وكان يصدق على شخصه ذلك الذي جاء في مؤلفه « الذكاء » « من أجل أن نحب الناس يجدر أن نتوقع القليل منهم . . . إن كل إنسان ما دامت أهواؤه وانفعالاته لا تغشى عقله سيكون أكثر تسامحاً كلما ازداد استنارة . . . فإذا كان الرجل العظيم هو دائماً أكثر تسامحاً . . . وإذا كان يقابل أخطاء الآخرين ببلم الشافق ويتمهل في الكشف عن هذه الأخطاء ، فما ذاك إلا لأن سمو عقله لا يجيز له أن

يطنب في ردائل أفراد بعينهم وحمقاتهم ، بل يحوم حول ردائل وحمقات الجنس البشرى بصفة عامة (٦٩) .

إنه في فوري وفي باريس عاش مع زوجته وأطفاله أنشودة الأخلاص والسعادة . وفي عام ١٧٦٤ تجول في إنجلترا وألمانيا . وقابل هيوم وجييون وفردريك الأكبر . وفي عام ١٧٧٠ أسهم في تكاليف التمثال الذي أقامه بيجال لفولتير . وفي ١٧٧١ فارق الحياة على فراشه مع دى هولياخ وغيره من الأصدقاء . ووفاء الذكراء رفضت أرملته كل من طلب يدها للزواج ، بما فيهم بنيامين فرنكلين . وعمرت بعد وفاة زوجها تسعاً وعشرين سنة . ومرت بعهد الثورة في سلام وأمان وقضت نحبها في عام ١٨٠٠ ، في سن الواحدة والثمانين .

٢ — فلاسفة مساعدون

في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر إنضم حشد كبير من الفلاسفة الأقل شأنًا إلى الهجوم على المسيحية . وعملوا بكل الجهد والحماسة اللتين تميز بهما المسيحيون الأوائل في نشر الإنجيل والدين الجديد ، أو المسيحيون الأسبان في طرد العرب من بلادهم ، ودبحوا فيضاً من المقالات والرسائل . ولما نضب معينهم عمدوا إلى ترجمة كل ما وصلت إليه أيديهم من الكتب المناهضة للدين ، من لوكريشيس إلى هوبز وابتدعوا تقويماً جديداً للقديسين والشهداء ، وضموا إلى قائمة القديسين جوليان المرتد وآلهوا يومه باتري وبرونو وكامبانلا وفانيني وبيل وغيرهم من ضحايا الاضطهاد وأدانوا بني إسرائيل لأنهم تقاضوا فوائد على القروض بل لأنهم أنجبوا المسيحية . وأنزلوا « يهوه » عن عرشه باعتباره أقوى رمز للقسوة والوحشية ، وإلهاً للحرب ، وأول من عمد إلى الإباداة الجماعية . وسعخوا من الخطيئة الأولى ومن « الآب » الذي كان عليه أن ينزل إلى الأرض مثل ابنه ويضرب بالسياط ويصلب لهدئ من غضبه وهو الآب « الذي أثارت امرأة

فضوله للفاكهة (التفاح) أو المعرفة . ودمغوا الحروب الصليبية بأنها حملة لاغتنصاب الأرض واحتكار التجارة ، واحتقروا العصور الوسطى باعتبارها عصوراً مظلمة ، ونظروا بازدراء إلى الكاتدرائية القوطية على أنها وحشية بشعة . ولحظ عليه دامبير « قدرا من التسامى بالأفكار وقلقا واهتياجاً وفورانا عاماً في الأذهان اكتسح منه بشيء من العنف كل ما وقف في طريقه » (٧٠).

وكان هناك جالك أندريه نجيون Noigeon الذى وصفه سانت بييف بأنه « شماس » متعصب للالحاد (٧١) أنه عاش وعمل مع دى هولباخ مترجماً وقوراً ، ونشراً معاً على مدى عشر سنين ثلاثين كتاباً صغيراً أو كبيراً أصلاً أو مستورداً ، وكلها ضد المسيحية . وقال عنها ديدرو « إنها قنابل تتساقط كالطر في بيت الرب (٧٢) . كما كان هناك نيقولا بولانجييه ، وهو أيضاً أحد أصدقاء دى هولباخ . واشترك في هذه الحملة على المسيحية حتى وفاته (١٧٥٩) وخلف وراءه مخطوطة عنوانها « إمامة اللثام عن عهد قديم » احتفظ بها دى هولباخ حتى عام ١٧٦٥ حين أصبح شوازيل على رأس الوزارة وكان صديقاً لجمعية الفلاسفة . وعندئذ دفع بها إلى المطبعة مع مقدمة مثيرة بقلم ديدرو . يقول بولانجييه : « أن الديانة نشأت من خلال مخاوف الإنسان البدائي من الفيضانات وغيرها من الكوارث الواضح أنها خارقة للطبيعة ونظمها (أى الديانة) ، أقامها قسيسون وملوك في مؤامرة لتبرير الطغيان في سبيل فرض جائر لعقيدة تقليدية ، ولن يجد الجنس البشرى مطلقاً مهرباً من هذه المؤامرة الشريرة إلا باتباع نور العقل تحديداً للقساوسة والمالوك (٧٣).

وأهم من هذا كان أندريه موريليه . وهو نتاج آخر لليسوعيين وراهب آخر تدرج في مراتب المتمردين . ولد في ١٧٢٧ وعاش طويلاً حتى وصفته مدام نكر بأنه « دب » وعلى الرغم من ذلك أوتى من الصراحة والاخلاص والاستقامة بالإضافة إلى ألف من الصفات الحسنة وقدر كاف من الدين (م ٩ — قصة الحضارة)

ما يجعله يرتاب في وجود إله . ويصرح أحيانا بذلك إلى أصدقائه اعتياداً منه على حكمتهم في أنهم لن يفضحوا سذاجته وسرعة تصديقه^(٧٤) . وكتب تحت إشراف ديدرو بعض المقالات للدائرة المعارف . وعلى مائدة العشاء لدى هولباخ كانت سخريته لأذعة حتى أن فولتير أسماه « الأب الموقر السيد عضهم لإنهشهم » ولكن قال عنه ما رمونتيل « أنه كان لديه أفكار عميقة ... وكان قويم الخلق كما كان ثابت الجنان »^(٧٥) . وفي ١٧٦٢ نشر « كتيباً عن أعضاء محاكم التفتيش » عبارة عن مختارات من « إدارة محاكم التفتيش » لنقولاً أميريكو الذي قد عمل في حماسة وغيره محققاً وعضواً هاماً في محاكم التفتيش من ١٣٥٦ إلى ١٣٩٩ . وكان الفرنسيون قد نسوا تقريباً محاكم التفتيش الأسبانية ولكن موريليه أعادها إلى ذاكرتهم بمجرد إقتباس إجراءات هذا النظام وعقوباته في أوج عظمتهم . ومنح ما لشرب موريليه ترخيصاً حكومياً بطبع الكتاب قائلاً أن قانون العقوبات الفرنسي كان لا يزال من الوجهة العملية مطابقاً لقانون محاكم التفتيش^(٧٦) . وكاد موريليه إلا يصدق هذا ، ولكن في السنة التي رأى فيها الكتاب طريقه إلى المطبعة وجد برلمان تولوز يقضى على جان كالا Calas في آلة التعذيب .

وذكر جريم الرزين الرصين عادة عن رأهب آخر هوجوبوم رينال Raynal في صحيفته « كورسبندانس » عن ١٧٧٢ « منذ صدور كتاب مونتكسكيو روح القوانين ربما لم يظهر في أدبنا كتاب أجدر بالانتقال إلى أبعاد الأعقاب والأجيال القادمة أو الرفع من شأن تقدم الاستنارة لدينا من كتاب رينال « التاريخ الفلسفي والسياسي للمستعمرات والتجارة الأوروبية في جزر الهند الشرقية والغربية »^(٧٧) » وربما كان جريم يتخذ بصفة خاصة موقفاً ودياً من المؤلف لأن رينال هو الذي أفتتح في ١٧٥٣ وأوصى في ١٧٥٥ بصحيفة الكورسبندانس الأدبية لجريم ، وعليها عاش جريم . وأكثر من هذا فإن ديدرو صديق جريم كان قد عاون في إعداد كتاب رينال الخالد الذي لا يفتح ولا يقرأ في أيامنا هذه أو يبدو أن رأى جريم أكدته ما زال

الكتاب سالف الذكر « التاريخ الفلسفى والسياسى » على الفور من شعبية فبيعت منه أربعون طبعة قبل ١٧٨٩ عدا طبعات لا تحصى مسروقة أو مترجمة وحظى الكتاب بتقدير فوانكاين وجيبون وروبرتسون . وأوحى هذا الكتاب إلى توسان لوفرتير Toussain L, Boaverturn بحملته المخلصة لتحرير العبيد (١٧٩١) ، وذهب ناقد واسع الإطلاع إلى أنه كان لهذا الكتاب تأثير على الثورة الفرنسية أعظم حتى من تأثير كتاب روسو « العقد الاجتماعى »^(٧٨) .

دخل رينال باريس قسيساً فقيراً . وتكشف أسطورة عن طبعة المرح والأبتهاج عند المتمردين ، فتنسب نجاحه من الموت جوعاً إلى أن الراهب بريفوست كان قد تلقى عشرين سو (عملة فرنسية قديمة قيمتها خمسة سنتيمات) ليقيم قداساً على روح أحد الموتى ، وأن بريفوست أعطى الراهب دى لا بورت ١٥ سو ليقيم القداس بدلا منه ، وأن هذا الراهب الأخير نفخ رينال ثمانية فقط ليقيم القداس بدلا منه^(٧٩) . وابتهج رينال بالأكل على موائد هلفشيوس ودى هو لباخ ، وأثبت أنه جليس أنيس . ويبدو أنه حظى بمعونة كثير من المؤلفين فضلا عن ديدرو فى جمع مادة كتابه . بل حتى فى تأليف بعض فصوله . أن روسو الذى تشاجر وتنازع مع كل الناس بلا استثناء وجد رينال مسالما غير مشاكس ، وقدم له الشكر فى « إعرافاته » على وفائه بحق الصداقة وتقديره للمساعدة المالية^(٨٠) .

ولابد أن رينال قد جمع مالا بطريقة ما ، حيث قيل إنه رشا الرقيب للحصول على ترخيص بأصدار كتابه^(٨١) . أنه قضى عشرين عاماً يعمل جاهداً فى إعدادده ، وفصل القول تفصيلا فى جشع الأوربيين وخيانتهم وعنفهم فى معاملة السكان الأصليين فى جزر الهند الشرقية . واستنكر هذا كله وحذر الرجل الأبيض من الانتقام الرهيب الذى قد تعمد إليه الأجناس الملونة إذا عادت إليها السلطة^(٨٢) . وكان الكتاب أول أتهم فرنسى للاستغلال الاستعمارى ، كما كان من أوائل الكتب التى أكدت على أهمية التجارة فى تحديد التاريخ الحديث ، وأسهم بطريقة عابرة فى إضفاء المثالية على المواطنين

الهنود وإعجاب المتحررين الأوربيين بحضارة الصين . وزخرت المجلدات المسهبة بالموضوعات والأفكار الرئيسية في عصر الاستنارة : مقت الخرافة وحرفة الكهانة وبغض تسلط الدولة والكنيسة على الحياة والفكر . وأيد رينال فكرة أن الكتلركة كانت خداعا أو دجلا جمع فيه الحكام والكهنة قواهم ليدعم كل فريق منهم الآخر عن طريق الأساطير والخرافات والمعجزات والدعاية والظلم والمذابح . وأهاب بحكام أوربا أن يحلوا انفسهم من أى ارتباط بالكنيسة ، ويسمحوا بحرية الكلام والنشر ، ويمهدوا الطريق للحكرمة الديمقراطية . ولم تنج البروتستانتية منه ، حيث قال أنها كذلك ارتكبت جريمة التعصب . ووصف تعصب البيوريتانيين في إنجلترا الجديدة واضطهاد السحره في سالم Salem (مدينة في ماساتشوست) .

وعلى الرغم من الوقت الطويل الذى قضاه رينال في إعداد كتابه ، فإنه قضى عليه بالأهمال في زوايا النسيان نتيجة لما ورد فيه من أخطاء . إنه لم يتحرر الحقائق فأعتبر الأساطير تاريخا ، وأهمل تواريخ الأحداث ، ولم يورد أسماء المراجع الموثوقة ، وشوش المادة وأفسدها ، واستخدم ديدرو (أو سمح لديدرو أن يشغل نفسه في كتابة الخطب المسرفة والنداءات العاطفية مما لا يكاد يليق بمؤلف في التاريخ ولكن هذه لم تكن عصور تجرد أو نزاهة ، فالكتاب كان سلاحا ، ولا يجوز أضعاف قوته بعرض الجوانب المتعارضة فإن الحرب كانت حربا وصراعا . وهكذا قدرت الحكومة الفرنسية فأصدر برلمان باريس أمرا بأحراق الكتاب ، كما صدر الأمر إلى رينال بمغادرة فرنسا ، فهوب إلى الأراضي الوطيفة ، ولكنه رأى ضمانا للأمن والسلامة أن يعود في عام ١٧٨٤ في عهد أكثر ملوك البوربون إعتدالا .

وكان رينال من الفلاسفة للقلائل الذين شهدوا الثورة الفرنسية وعمرها بعدها ، ورأى عنف الثورة واستخدامها لكل وسائل التعصب وعدم التسامح القديمة . وفي ٣١ مايو ١٧٩١ وهو في سن الثامنة والسبعين وجه إلى الجمعية التأسيسية رسالة يحذر بها من التطرف ، فكتب يقول « لقد تجرأت لأمد طويل

على تنبيه الملوك إلى واجباتهم ، فاسمحوالى اليوم أن أنبه الشعب إلى أخطائه «
فأشار إلى أن طغيان الأهالى قد يكون قاسيا وجائرا قدر طغيان الملوك
وجورهم . ودافع عن حق رجال الدين فى التبشير بعقيدتهم ، مادام
معارضوهم يتركون أحراراً فى التعبير عن آرائهم . واحتج على القوانين
التي تفرض دين دولة ما وعلى إعتداء الجماهير على القساوسة . وأغرى
رويسير الجمعية بالسماح للرجل المعجوز بتفادى المقصاة ، ولكن الحكومة
صادرت ممتلكات رينال ومات فقيراً بعدما (١٧٩٦) وسط إنتصارات
الثورة وارهابها .

٣ - دى هولباخ

١ - الملحد اللطيف :

كان أحب جماعة الفلاسفة إلى باريس ألمانى ولد (١٧٣٣) فى اديشيم
فى أمارة سبيير Speyer الأسقفية (فى بافاريا) وعمد باسم بول هنريخ
ديتريش فون هولباخ ، ونشأ كاثوليكيًا . وجمع جده ثروة من إدخال عرق
الذهب من هولند إلى فرساي . وفى ليدن درس بول العلوم وتعلم اللغة
الانجليزية . وبعد صلح أكس لأشبلى (١٧٤٨) إستقر به المقام فى باريس
وأصبح من رعايا فرنسا وتزوج من أسرة من خبراء المال ، وحصل على
النبالة بأستثماره ١١٠,٠٠٠ جنيه بفائدة ٥ ٪ فى شركة سكرتيرى الملك .
« وسماه المحيطون به « البارون » لأنه كان يمتلك فى وستفاليا ضيعة تدر عليه
ستين ألف جنيه سنوياً . وبلغت جملة دخله السنوى مائتى ألف جنيه .
ويقول موريليه أنها ثروة لم يستغلها أحد استغلالا أشرف ولا أنفع منه للعلم
والفن^(٨٣) وكان يرعى موريفو وغيره من الكتاب أحسن رعاية (مثل دور
ما سيناس بالنسبة لهم ، وهوراعى هوراس وفرجيل فى القرن الأول ق .م)
وجمع مكتبة ضخمة ولوحات ورسومات وعينات ونماذج للتاريخ الطبيعى .

وأصبحت داره كما وصفها أحد الظرفاء « مقهى أوروبا » وجعلت منه

ولائم العشاء عنده وصالونه في باريس أو في داره الريفية « جراند فال » على حد تعبير هوراس وولبول « قهرمان الفلسفة » وأعدت مدام دي هولباخ كل يوم خميس ويوم أحد المائدة لاثني عشر ضيفاً . ولم يكونوا هم أنفسهم دائماً في كل مرة ، ولكنهم كانوا على الأغلب من قادة الحرب ضد المسيحية : ديدرو ، هلفشيوس ، دالمبير ، رينال ، بولانجييه ، موريليه ، سانت لامبرت ، مارمونتيل ، وأحياناً بيغون ، ترجو ، وكنتي ، كذلك جاء روسو ولكنه كان يرتاع للححاد الذي يتدفق من حوله ، وهناك كان ديدرو في ذروة الحماسة والعنف ، أما الراهب جالباني فقد ابتعد عن الفلسفة حيث أفسد النظرية بالدعابة والسخرية . وكان عقد هذا الكنيس — كما كان البارون يسمى هذه الاجتماعات — يلتئم في الساعة الثانية يتجاذبون أطراف الحديث ويأكلون ويتحدثون حتى الساعة السابعة أو الثامنة . وتلك كانت الأيام التي كانت فيها المناقشة إدبا غير مسطور وليس ثمّة فوضى المقاطعة أو توافه الأمور . ولم يكن هناك موضوعات محظورة الخوض فيها ، أو كما قال موريليه « هذا هو المكان الذي تستمع فيه إلى أكثر المناقشة حرية وحيوية وتنويراً وتنقيفاً بالنسبة للفلسفة والدين والحكومة ، ولم يكن للهزل أو المزاح الخفيف مجال هناك . . . وهناك فوق كل شيء أثار ديدرو عقولنا وألهب نفوسنا^(٨٤) وذكر ديدرو نفسه للآنسة فوللان أنهم تحدثوا في الفن والشعر وفلسفة الحب وفكرة الخلود ، كما تحدثوا عن الإنسان والآلهة والملوك والفضاء والزمن وعن الموت والحياة^(٨٥) . وقال مارمونتيل « ظننت أحياناً أني أستمع إلى تلاميذ فيثاغورس وأفلاطون^(٨٦) . أو « إذا كان الطقمس جميلاً أستبدلنا بولائم العشاء أحياناً نزهاة فلسفية سيراً على الأقدام على ضفاف السين ، وكانت وجبة الطعام آنذاك أكلة سمك ضخمة ، وكنا نذهب كل منا بدوره إلى أشهر الأماكن بهذا السمك ، وعادة إلى سان كلو ، وكنا نقصد مبكرين في أحد القوارب لنستشق نسيم النهر ونعود في المساء عن طريق غابة بولونيا^(٨٧) .

وبلغ صالون دي هولباخ من الشهرة حداً استخدم معه بعض زوار

باريس من الأجانب نفوذهم للحصول على دعوة ليحضرُوا هذه اللقاءات . ومن ثم جاء في أوقات مختلفة هيوم وستيرن وجاريك وهوراس وولبول وفرانكلين وبريستلى وآدم سميث وبكاريا . وقد أزعجهم في بعض الأحيان وجود هذا العديد من الملحنين هناك . وكم من مرة سمعنا ديدرو يقول (لروميلي) أنه حين كان هيوم يشك في الوجود الفعلي للملحنين كان البارون يؤكد له « أنك تجلس إلى المائدة مع سبعة عشر ^(٨٨) . » وروى جيبون أن فلاسفة باريس « سخروا من تشكك هيوم الموسوم بالخذر ، وبشروا بتعاليم ومعتقدات الملحنين مع نفس التعصب الأعمى لدى الدوجماتيين (الدوجماتية أى الخزمية : تأكيد الرأى بغطرسة دون مبرر وتمحيص كافيين وصبوا اللعنات على المؤمنين في تسخيف وازدراء . ^(٨٩) » كذلك روى بريستلى أن « كل الفلاسفة الذين تعرفت بهم في باريس كانوا لا يؤمنون بالمسيحية بل صرحوا بأنهم ملحدون ^(٩٠) » ومهما يكن من أمر فإن موريلي لحظ « أن عدداً كبيراً منا كانوا ملحنين ولم ينجحوا من ذلك . ودافعنا بشدة عن أنفسنا ضد الملحنين ، على الرغم من أننا أحببناهم لحسن رفقتهم وصحبهم . ^(٩١) » ورأى وولبول أن « وكر الفلاسفة » لدى دى هولباخ يؤذى ذوقه الانجليزى . وما كان أشد امتعاضه حين رأى رينال يعرف عن تجارة انجلترا ومستعمراتها أكثر مما يعرف هو إلى حد أنه إدعى الصمم . أما بيان هيوم فكان فيه مجاملة بالغة ، أن رجال الأدب هنا (في باريس) مقبولون يرتاح المرء إلى معاشرتهم ، وكلهم رجال ذوو شهرة واسعة يعيشون في انسجام تام (أويكاد يكون تاماً) بينهم جميعاً ، ولا تشوب اخلاقهم شائبة ، وقد يكون مبعث أعظم الرضا عندك إلا يكون بينهم ربوبى وأحد . ^(٩٢) » والارجح أن هذا التصريح يدعو إلى الحيرة والأرتباك .

ولكن اتفق رأى الجميع على أن البارون وقرينته كانا مضيفين مثاليين وشخصيتين محبتين إلى النفوس . وعلى حد تعبير جريم : عاشت مدام دى هولباخ لزوجها فقط . فكانت إذا فرغت من الترحيب بضيوف

زوجها وتقديم ما لذ وطاب لهم آوت إلى ركن منزول وانصرفت إلى شغل الأبرة ، دون أن تشترك في مناقشاتهم ،^(٩٣) وماتت في عام ١٧٥٤ في ريعان شبابها وظل دى هولباخ لبعض الوقت يعاني يأسا تاما^(٩٤) وبعد عامين تزوج من اختها التي اثبتت أنها مخلصه قدر اخلاص اختها . وكان متواضعا في سلوكه وعاداته وديعا في مناقشته ، لا تعلم شماله ما فعلت يمينه من بر وإحسان ،^(٩٥) حتى لم يكذ أحد يرتاب في أنه كتب مثل هذا الدفاع القوي عن الالحاد في كتابه « نهج الطبيعة » فكتبت مدام جيوفرين منافسته في عقد الندوات وإقامة المآدب في صالونها : « لم أر قط رجلا في غاية البساطة مثله ،^(٩٦) أما روسو الذي درج على كراهية كل جماعة الفلاسفة تقريبا فإنه احتفظ باعجابه بشخصية دى هولباخ وخلقه إلى حد أنه اتخذ نموذجاً لفولمار الفاضل الذي يعتنق مذهب اللأدرية في رواية « هلمواز الجديدة » . وكتب جريم الذي حلل كل إنسان فيما عدا روسو في موضوعية رصينة :

« كان طبيعيا أن يؤمن البارون دى هولباخ بأمبراطورية العقل ، فقد كان هواه ، (ونحن دائما نحكم على غيرنا بمقدار عواطفنا) أن يضع الفضيلة والمبادئ القويمة في المقام الأول وكان من العسير عليه أن يضمير الكراهية لاي من الناس ، ومع ذلك كان لا يستطيع دون جهد جهيد أن يخفي مقتته الصريح لرجال الدين ... فكلما تحدث عنهم تخلى عنه خلقه الرضى بطبيعته »^(٩٧) .

ومن هنا ساند دى هولباخ « دائرة المعارف » أكبر مساندة وأسهم فيها بماله ومقالاته . وطمأن ديدرو وشجعه حتى حين تخلى دالمير وفولتير عن المشروع ، وكانت مقالاته في معظمها عن العلوم الطبيعية ، فإنه من الجائز أن البارون كان في هذا الحقل أوسع الفلاسفة اطلاعا . وكتب جريم في ١٧٨٩ . « لم التق قط برجل أكثر منه علما واطلاعا ، ولم أر قط رجلا أقل منه أهتما بالظاهر بالعلم في أعين الناس » .^(٩٨) وترجم عن الألمانية كثيرا من الرسائل العلمية بمساعدة نيجيون ، ومن أجل هذا عين عضواً في أكاديمية برلين وبطرسبرج ، ولم يحاول قط أن يلتحق بالأكاديمية الفرنسية .

وأفتن دى هولباخ بالعلم وتوقع من ورائه نهوضاً سريعاً بحياة الإنسان ، ومن ثم فإن البارون نظر نظرة عدائية بالغة العداء إلى الكنيسة التى بدأ أن سيطرتها على التعليم تسد الطريق أمام المعرفة العلمية ، فانتهاز كل فرصة لمهاجمة رجال الدين فكتب مقالتي « آباء الكنيسة » و « الحكومة الدينية » لدائرة المعارف . فنذ ١٧٦٦ فصاعدا نظم مع نيجبون مصنعا حقيقيا لاجراج الأدب المعادى للكنيسة . ثم ظهر فى تعاقب سريع « قائمة القديسين » ، « والوقفه المقدسة » و « آباء الكنيسة بغير قناع » و « المساواة الدينية وتحطيم الجحيم » وهنا جاء البشير بأنباء سارة - القضاء على الجحيم .

وفى ١٧٦١ صدر عن هذا الذى أطلق عليه بعضهم معمل الاتحاد كتاب عنوانه « المسيحية فى خطر » كتبه أساساً دى هولباخ ، ولكنه نسب فى صحيفة العنوان إلى بولانجييه الراحل . وبسبب بيع هذا الكتاب أتهم ووصم بالعار أحد الباعة الجائلين وعوقب بالتجديف فى السفن الشراعية لمدة خمس سنين . ولقى مثل هذا الجزاء لمدة تسع سنين غلام اشترى هذا الكتاب ليبيعه ثانية .^(٩٩) وكان الكتاب هجوما مباشراً على التحالف بين الكنيسة والدولة كما أنه استبق حقاً وصف ماركس للديانة بأنها « أفبون الشعوب » .

« إن الديانة هى فن تخدير الناس بالحماسة (وفى القرن الثامن عشر كانت هذه اللفظة تعنى الغيرة الدينية) لتحول بينهم وبين مناهضة المساوىء والمظالم التى يعانونها من حكامهم . ولم يعد فن الحكم إلا مجرد الإفادة من أخطاء وخمول الذهن والنفس . وهى ما غرقت فيه الأمم بفعل الخرافة . . . وبتهديد الناس بالقوى الخفية استطاعت الكنيسة والدولة أن تفرضوا على الناس أن يعانون ويحتملوا فى صمت ما يلقون من عنت وشقاء من القوى المريئة ، وفرض عليهم أن يأملوا فى السعادة فى الحياة الآخرة إذا وافقوا على أن يكونوا بائسين فى هذه الحياة الدنيا »^(١٠٠) .

ورأى دى هولباخ فى إتحاد الكنيسة والدولة السيئة الجوهرية أو الشر الأساسى فى فرنسا . « أنى بوصنى مواطناً أهاجم الديانة لأنها تبدولى ضارة

بسمعادة الدولة معادية للعتل البشرى ومناقضة للفضيلة الحققة أو الخلقى القويم» (١٠١) .

« إن المسيحى يلحق ، بدلا من الفضيلة والأخلاق القويمة ، الخرافات لخرافة القائمة على المعجزات والمبادئ والتعاليم البعيدة عن التصديق لديانة تنافى تماما مع العقل السليم . إن هذا المسيحى منذ أول لحظة فى دراسته يتعلم إلا يثق فيما تشهد به حواسه وإن يخضع عقله ويعتمد اعتمادا أعمى على ما يقرره أستاذه . إن أولئك الدين حرروا أنفسهم من هذه الأفكار يجدون أنهم عاجزون لأحول لهم ولا قوة أمام الأخطاء التى رضعوها مع ألبان إلهاتهم» (١٠٢) .

ودفع دى هولباخ بأن بناء الفضيلة والأخلاق على المعتقدات الدينية عمل فيه مجازفة ومخاطرة ، لأن هذه المعتقدات عرضة للتغير وقد يدمر إلهيارها القانون الأخلاقى القائم على أساسها أو المتفق معها .

« إن كل من يكتشف ضعف أوزيف البيئات التى قامت عليها ديانته ... لأبد يميل إلى الاعتقاد بأن الفضيلة والأخلاق وهمية مثل الدين الذى قامت عليه . وهذا يوضح كيف أن لفظتى « كافر وندابح » أصبحتا مترادفتين ، ولن يكون ثمة ضرر من تعليم أخلاق طبيعية بدلا من أخلاق لاهوتية ، وبدلا من تحريم الزنى والجرائم والردائل لأن الله والدين حرماها ، يجد ربنا القول بأن كل إفراط يؤذى الإنسان ويحول دون صيانتته والأبناء عليه ويجعله جديرا بالأزدراء فى أعين المجتمع وهى كذلك إفراط يحرمه العقل وتحرمه الطبيعة التى تريد للإنسان أن يعمل من أجل سعادته الدائمة» (١٠٣) .

وأنه لمن العسير أن نفهم كيف أن رجلا نعم بمثل هذا الثراء يجد فسحة من الوقت ليؤلف مثل هذا العدد الكبير من الكتب أو يبحث على تأليفها . وفى ١٧٦٧ أخرج « اللاهوت السهل الحمل Theologie portative سخر فيه سخرية بالغة من المبادئ السخيمة ، وأجمل كل اللاهوت فى رغبة الكنيسة فى التسلط والسيطرة . وفى ١٧٦٨ نشر « العدوى المقدسة أو التاريخ

الطبيعى للخرافة » متظاهرا بترجمته عن « جان ترنشارد الانجليزى » . وفى نفس العام أصدر « رسائل إلى أوجيني » أو الضيافة ضد الآراء المسبقة (دون تمحيض) والمزعوم أنه بقلم فيلسوف ابيقورى فى سكو Sceaux . وفى ١٧٦٩ صدر « بحث فى الآراء المسبقة » من تأليف مسيو دى مارسى Marsais يوضح أن العلاج الوحيد لمساوىء الدين هو نشر التعليم والفلسفة . وفى ١٧٧٠ نشر البارون النشيط تحفته الرائعة ، وهو أقوى كتاب قد صدر فى الحملة ضد المسيحية .

٢ — منهج الطبيعة :

كان المزعوم أن كتاب منهج الطبيعة أو قانون العالم المادى والعالم المعنوى طبع فى لندن . ولكنه طبع فى الواقع فى أمستردام فى مجلدين كبيرين يحمل أسم مسيوميرابو Mirabaud وكأنه المؤلف . وهذا الرجل الذى كان قد فارق الحياة منذ عشر سنوات كان سكرتير الأكاديمية الفرنسية . وجاء فى المقدمة عرض لتاريخ حياته ومؤلفاته ولم يصدق أحد أن الرجل الطبيب المثالى ميرابود ألف مثل هذا الكتاب المخزى .

وفى ١٧٧٠ بعد أن قررت جمعية رجال الدين التى تجتمع كل أربع سنوات منحة مالية للملك وأهابت به أن يمنع تداول المؤلفات المعادية للمسيحية ، والتى إنتشرت كثيراً فى فرنسا . فأصدر لويس الخامس عشر أوامره إلى النائب العام أن يتخذ الإجراءات فوراً . وشجب برلمان باريس سبعة كتب من بينها كتابا دى هولباخ « فضح أسرار المسيحية ومنهج الطبيعة » ، باعتبارها بعيدة عن التقوى ، مليئة بالتخريف ، محرضة على الفتنة ، نزاعة إلى القضاء على كل فكرة عن اللوهية ، وإلى إثارة الشعب للتمرد على دياناته وحكومته ، والقضاء على كل مبادئ الأمن العام والأخلاق . وصرف الناس عن واجب الطاعة والأذعان للمليكهم . وكان يتبعى أحراق الكتب وأعتقال موافىها وعقابهم عقاباً صارماً . ويقول موريليه أن كثيراً

من الناس عرفوا أن دى هولباخ هو المؤلف وأنهم كتبوا السر لمدة عشرين عاما . وظلت الندوة تعقد الاجتماعات . ودعت مدام دى هولباخ إلى بعضها كانون برجيه الذى كان لتوه قد تلقى معاشا من رجال الكنيسة لمقالاته الرائعة التى كتبها دفاعا عن الكنيسة الكاثوليكية . وارتاب كثير من الناس فى أن ديدرو كتب بعض أجزاء من الكتاب ولكنه فى جملته كان حسن الترتيب وحسن الأسلوب مما يستبعد أن يكون بقلم ديدرو ، ولكنه ربما أسهم فيه بالمناجاة المتألفة البليغة للطبيعة فى آخر الكتاب . وعلى أية حال لم يشعر ديدرو بالأمن والطمأنينة فى باريس ورأى من الحكمة أن يزور لانجرز .

ووصل كتاب « منهج الطبيعة » مهربا من هولنده ، وتهافت على شرائه جمهور كبير يشمل كما روى فولتير العلماء والباحثين والجهال والسيدات (١١٤) . وسر به ديدرو فقال « إن ما أحب هو فلسفة وأضحة محددة صريحة مثل تلك الموجودة فى كتاب منهج الطبيعة ، والمؤلف ليس ملحداً فى أى من الصفحات ، وهو ربوبى فى بعضها . وفلسفته تجرى على نسق واحد » (١١٥) . وهذا يختلف عن ديدرو كل الاختلاف . أن ما أحبه فى الحقيقة هو أن دى هولباخ كان ملحداً فى كل صفحات الكتاب . ومع ذلك فإن الكتاب كان مشربا بروح تقارب التفانى الشديد أو الأخلاص الدينى فى سعادة المبرر . أن دى هولباخ رأى عالما يسوده البؤس والشقاء . حيث يحكمه الملوك والقساوسة ومن ثم خلص إلى أن الناس سيكونون أسعد حالا لوأنهم ولوا ظهورهم لرجال الدين والملوك واتبعوا رجال العلم والفلاسفة . وإن العبارات الأولى فى الكتاب لتنبئ عن روحه وفكرته الرئيسية :

« إن مصدر شقاء الإنسان وبؤسه هو جهله بالطبيعة . إن إصراره على التمسك بالآراء الخاطئة العمياء التى تلقنها فى طفولته . . . وما نتج عن ذلك من تحيز وهوى ضللا عقله وأفسد ذهنه . . . يبدو أنهما قضيا عليه بالاستمرار على الخطأ . . . أنه يستمد أسلوب تفكيره من الآخرين تحت مسئوليتهم ،

ثقة منه بهم ، وهم أنفسهم مخطئون ، أو أن لهم مصلحة في تضليله وخداعه . ولازالة هذه الغشاوة وأخراجه من هذه المتاهة فإن الأمر يتطلب بدأ حانية وحباً شديداً . . . كما يقتضى أعظم الشجاعة التى لا يعترىها خوف ولا وجل وتصميماً أكيداً لا يكل ولا يمل . . . ومن ثم يكون أهم واجب علينا أن نفتش عن الوسائل التى نقضى بها على الأوهام التى تضللنا وتخدعنا . وينبغى أن نفتش عن العلاج لهذه المساوىء فى الطبيعة نفسها . فى وفرة مواردها وحدها يمكن أن نتوقع فى تعقل وجود الترياق الشافى من كل الشرور التى جلبتها علينا حماسنا الطاغية الموجهة أسوأ توجيه . لقد حان الوقت للبحث عن هذا العلاج ومواجهة هذه المساوىء فى شجاعة وفحص أسسها وتدقيق النظر فى مقوماتها . أن العقل بخبرته الهادية المخلصة ينبغى أن يقتلع من الجنود هذه الأهواء التى كان الجنس البشرى هو الفريسة الوحيدة لها لأمد طويل . ولنحاول أن نفرس فى الإنسان الشجاعة واحترام عقله مع حب لا يفتر للحقيقة ، بهدف أن يلتمس المشورة والرأى من خبرته ، فلا يعود العوبة لخيال توجهه السلطات توجيهاً مضللاً . ويتعلم أن يبنى أخلاقياته على الطبيعة وعلى حاجياته وعلى المنفعة الحقيقية للمجتمع . ويتمجرأ على أن يحب ذاته ، ويصبح كائننا فاضلاً عقلانياً . وفى هذه الحالة لأبد أن يكون سعيداً^(١٠٦) .

وبعد أن أنهى دى هواياخ من بيان برنامجه على هذا النحو تقدم فى ترتيب ونظام ليفند كل الكائنات والأعتبارات والأفكار الخارجة للطبيعة . ويحبذ الطبيعة بكل ما فيها من جمال وقسوة وتقييد وأمكانات ، وليخترل كل الحقيقة والواقع إلى مادة وحركة ، ويبنى على هذا الأساس المادى منهجاً للفضيلة والأخلاق يامل أن يكون فى مقدوره أن يحول المتوحشين إلى مواطنين ، ويشكل الخلق الفردى والنظام الاجتماعى ويضفى سعادة معقوله على حياة مقرر لها الموت المحتوم .

لأنه يبدأ ويختتم بالطبيعة ، ولكنه ينكر أية محاولات للتشخيصها أو تجسيدها .

لأنه يحددها ويعرفها بأنها الكل الأعظم الذى ينتج من اجتماع المادة فى مجموعات مختلفة . وهذا هو الاسم المحبب لدى دى هولباخ للكون ، فهو يعرف المادة فى حرص وحذر بأنها بصفة عامة ، كل ما يؤثر على حواسنا بأى شكل كان « كل شئ فى الكون فى حركة دائبة . وجوهر المادة هو أن تعمل ، وإذا تأملناها فى يقظه تامة لاكتشفنا أنه ليس ثمة جزء صغير فيها ينعم بسكون مطلق ، وكل ما يبدو لنا أنه ساكن لا يبقى ولو للحظة واحدة على نفس الحالة ، وكل الكائنات تتناسل وتتكاثر وتتناقص وتتفرق باستمرار . . . إن أشد الصخور صلابة تتصدع بدرجات متفاوتة أمام لمسات الهواء^(١٠٧) .

إن هذا الكل لا يقدم لجال تأملنا وتفكيرنا « إلا مجرد تعاقب ضخم متصل غير متقطع لأسباب ونتائج »^(١٠٨) . وكلما ازدادت معرفتنا وجدنا أبلغ دليل على أن الكون يعمل من خلال الأسباب الطبيعية وحدها . وقد يكون من العسير أن ندرك كيف « أن المادة الجامدة يمكن أن تكون فيها حياة » ولكن يكون من الأصعب أن تصدق أن الحياة خلق أو نتاج خاص لوجود خفى خارج عن الكون المادى . ومن العسير معرفة كيف يمكن أن تحس المادة أو تشعر ولكن سائر خواص المادة مثل « الجاذبية والمغناطيسية والمرونة والكهربية ، ليست ، أقل صعوبة فى إدراكها وفهمها من الشعور أو الأحساس »^(١٠٩) .

والإنسان كذلك « كائن مادى صرف خاضع لنفس القوانين التى تحكم سائر العالم . وكيف يتسنى لجسم مادى وذهن غير مادى أن يتفاعل كل منهما مع الآخر ؟ أن « الروح » هى مجرد تنظيم الجسم ونشاطه ولا يمكن أن يكون له وجود مستقل . أن القول بأن الروح ستحس وتفكر وتنعم وتعانى بعد فناء الجسم مثل الزعم بأن الساعة التى تنقسم إلى ألف قطعة تستمر فى دقاتها ساعة بعد ساعة ! . . . وتبين مرور الوقت^(١١٠) . إن مفهوم الذهن والجسم على أنهما وجودان غير ماديين عوق معالجتنا للأدراض

العقلية . وإذا اعتبرنا الذهن وظيفة من وظائف الجسم فاننا بذلك ممكن علم الطب من شفاء كثير من الاضطرابات العقلية بالقضاء على أسبابها الجثمانية^(١١١) (*) .

ومن حيث أن الذهن وظيفة من وظائف الجسم فإنه أى الذهن خاضع للقاعدة الكونية ، قاعدة الأسباب والنتائج الطبيعية . والفصل الحادى عشر من كتاب « منهج الطبيعة » أفصح وأبلغ دفاع عن مذهب الحتمية (الإيمان بالقضاء والقدر) فى مجال الفلسفة الفرنسية بأسرها .

« إن حياة الإنسان خط قضت عليه الطبيعة برسمه على سطح الأرض دون أن يكون لديه القدره على الانحراف عنه قيد أنملة . أنه ولد دون رضاه . أن كيانه أو تنظيمة لايتوقف البتة على نفسه . إن الأفكار التى تخالجه تأتى قسراً لا طوعاً ، وعاداته واقفه تحت سيطرة الدين يحملونه على التعلى عنها . ويتعدل الإنسان ويتغير بلا انقطاع نتيجة أسباب وعمل مرئية أوخفية ليس له سلطان عليها ولا تحكم فيها . وهى بالضرورة تنظم أسلوب وجوده وتصيغ تفكيره بصيغة معينة ، وتقرر طريقة تصرفه وأفعاله ، فهو طيب أو ردىء ، سعيد أو تعس ، عاقل أو أحمق ، متعقل أو غير متعقل دون أن يكون لإرادته دخل فى أى من هذه الحالات المختلفة^(١١٢) .

ويبدو أن هذه الحتمية تنطوى على الجبرية وعلى النقيض من معظم الفلاسفة يرتضى دى هولباخ هذا التضمين . . . إن حالة الكون فى أية لحظة تحددها حالته فى اللحظة السابقة ، وهذه حددتها سابقتها ، وهكذا دواليك فى الماضى ،

(*) يقول جون مورلى « إنها لحقيقة تاريخية أكيدة أن العلاج العقلانى للمجانين والنظرية العقلانية لنوع معين من الاجرام ترجعان إلى رجال مثل بينل Pinel الذى درج على تعاليم مدرسة المذهب المادى فى القرن الثامن عشر . وكان من المتعذر بشكل واضح أن تتم الاصلاحات العظيمة الانسانية فى هذا المجال قبل لإضمحلالات اللاهوت بشكل حاسم^(١١٣) .

ومن ثم فإن أية لحظة في تاريخ الكون تعتبر محددة لأية لحظة في المستقبل .
أنى شئت أن الأخضاع الواضح للإنسان المتميز بكل العبقريّة أو القديس بأى
مفهوم أو بكل التضرع والصلوات — لغاز بدائى ، لا يفت فى عضد دى
هولباخ فإنه يتقبل مصيره فى كبرياء ابيقورية :

« إن الإنسان من عمل الطبيعة ، وهو يوجد فى الطبيعة ، خاضع
لقوانينها ، ولا يملك تحليل نفسه من هذه القوانين ، ولا يمكنه أن يخطو فيها
وراءها خطوة واحدة حتى فى فكره . ولذلك فإنه بدلا من البحث خارج
العالم . . . عن كائنات توفر له السعادة التى تنكرها عليه الطبيعة يحمل به
أن يدرس هذه الطبيعة ويعرف قوانينها ويتأمل فى قواها ويراعى القواعد
الثابتة التى تعمل بمقتضاها . فليطبق الإنسان كل ما يصل إليه على هئاعته
هو ويخضع فى صمت لما تفرضه عليه من الحماية أو الوصاية التى ليس
فى مقدور أحد تبديلها أو تغييرها ، ويرضى مبتهجا أن يتجاهل الأسباب
والعلل التى يحول بينه وبينها حجاب كثيف لا يمكن أختراقه ، ويستسلم دون
تذمر لقوانين الضرورة الكونية التى يستحيل عليه ادراكها إطلاقا . ولا تحرره
أبدا من تلك القوانين التى فرضت عليه بحكم ما هيته أو جوهره^(١١٤) .

وهل تبرر لنا هذه « الجبرية (أى الايمان بالقضاء والقدر) أن نخلص
إلى أنه لافائدة ترجى من وراء محاولتنا تفادى الشرور أو السيئات والأعمال
الخزئية أو المرض ، وأن نكف عن بذل أية جهود ، أو عن الطموح
أو التطلع ، وأن ندع الأمور تجري فى أعنتها ؟ ويجب دى هولباخ بأنه
حتى هنا ليس لنا الخيرة من أمرنا ، فان الوراثة والبيئة هما اللتان قررتا
بالفعل أن نستسلم للدعة وعدم المبالاة ، أو أن نستجيب فى جد ونشاط
لمتطلبات الحياة وتحدياتها ، ويسبق دى هولباخ إلى الاعتراض على أن هذه
الجبرية — وهى تبدو كأنها تتغاضى عن الجريمة وتغتفرها — قد تزيد منها .
أن الجبرية لا توحى بعدم معاقبة الجريمة بل لأنها على النقيض من ذلك ستؤدى
بالشرع والمعلم والرأى العام أن يصنعوا بمقتضى القوانين أو الأخلاق عوائق

أفضل في سبيل إرتكاب الجرائم ، ويوفروا الدوافع والمغريات بالسلوك الاجتماعي القويم ، وهذه العوائق والدوافع والمغريات ستندمج إلى العوامل البيئية التي تشكل سلوك الإنسان . ولكن الجبرية لا تسوغ لنا إعتبار الجرائم وكل السلوك غير الاجتماعي اختلال توازن عقلياً يرجع إلى الوراثة والبيئة والظروف . ولذلك يجدر بنا أن نعالج مثل هذا السلوك كما نعالج المرض . وأن نتخلى عن التعذيب والعقوبات البالغة الصرامة لأنها تزيد الهوة بين الفرد والمجتمع . وتعود الناس على العنف والتمسوة . أكثر مما تصرفهم عن إرتكاب الجرائم .

وليس في هذه الفلسفة بطبيعة الحال مكان للاله . إن مفت دى هولباخ الشديد للمذهب التوحيد (الإيمان بالله الواحد) وحده . بل للمذهب الربوبية ومذهب وحدة الوجود كذلك دعا معاصريه إلى أن يطلقوا عليه « العدو الشخصي لله سبحانه وتعالى »^(١١٥) . وإذا عدنا إلى الوراثة إلى البداية فإننا نجد دائماً إن الجهل والخوف خلقا الآلهة وزينهم الخيال أو الحماسة أو الخداع أو شهوهم وعيدهم الضعف ، وأبقت عليهم السداجة أحياء ، وأجلهم واحترمهم العرف والعادة . وناصرهم الطغيان ليخدم أغراضه^(١١٦) ويثير ضدهم كل الحجج القديمة . ويتحمس بعنف كما فعل هلفشيوس ضد مفهوم الأسفار المقدسة عن الإله^(١١٧) ولا يوحى إليه النظام والتناسق الرائع للكون بأى « عقل أسمى » فإن هذا النظام وهذا التناسق يرجعان إلى أسباب طبيعية تعمل بطريقة ميكانيكية . ولا يتطلب الأمر أن نعزوها إلى أى إله يمكن أن يكون هو أدق على الفهم والتوضيح أكثر من العالم . والنظام والاختلال مثل الخير والشر والجمال والقبح كلها مفاهيم ذاتية (غير موضوعية) مستمدة من اللذة أو الألم الذى توفره لنا مدركاتنا الحسية . ولكن الإنسان ليس « مقياس كل شئ » وليس إشباع رغباته أو رضاؤه معياراً موضوعياً يمكن تطبيقه على الكون . إن الطبيعة تسير قدما دون إعتبار لما نراه نحن من أصغر نقطة فى الفضاء حسنا أو سيئا ، قبيحا أو جميلا . ومن وجهة نظر الكل (م ١٠ - قصة الحضارة)

« ليس هناك ما يمكن أن يكون سيئا حقا ، فان الحشرة تأوى إلى ملجأ آمن في أطلال القصر الذى يسحق الناس عند سقوطه »^(١١٨) وينبغي أن نتعلم أن نعتبر الطبيعة فى سموها وكوارثها محايـدة بقدر سواء حياداً يتسم برباط الجأش :

« إن كل ما قيل فى سياق هذا الكتاب يثبت بوضوح أن كل شيء قريب متناسب مع الطبيعة . حيث لاتعمل فيها كل الكائنات إلا أن تتبع القوانين التى فرضت عليها كل حسب درجته أو طبيعته . إن الطبيعة توزع بنفس اليد ما يسمى نظاما وما يسمى اختلالا ، وما يسمى لذة وما يسمى ألما ، وقبحا ترى القول أنها بمقتضى ضرورة وجودها تنشر الخير والشر . . . ولذلك يجدر بالإنسان ألا يمتدح سخاءها أو يصب عليها جام غضبه وحقده ، أو يتصور أن ضيقه وضيقه أو تضرعاته وابتهاالاته يمكن أن تغنى عنه من شيء أو تكبح جماح قوة الطبيعة الهائلة أو سلطانها العظيم وهى تعمل دوماً وفق قوانين ثابتة . . . فاذا عانى الإنسان شيئا فلا يجوز له أن يلتمس علاجاً فى الأوهام التى يصدرها له خياله المستقيم ، بل يستمد من مخازن الطبيعة العلاجات التى تقدمها للشرور والمساوىء التى تبثليه بها ، ويفتش بين أحضانها عن المنتجات التى أرتجتها الطبيعة نفسها^(١١٩) .

ويقترّب هولباخ من تقديم الإلهة ثانية فى شكل « الطبيعة » ، وبعد أن يأخذ على نفسه ألا يشخصها أو يجسدها نراه يميل إلى تأليهها، ويتحدث عن قدرتها وإرادتها وخطتها وسخائها ، ويرى فيها أفضل هاد ومرشد للإنسان، ويجيز لديدرو (٩) أن يكتب لها مناجاة عزيزة وكأنها الفقرة الختامية لكتاب ضخّم « أيتها الطبيعة ، ياسيدة كل الكائنات !! إن بناتك الفائنات الجديرات بالتوقير والعبادة — الفضيلة والعقل والحقيقة — يبقين إلى لأيد معبوداتنا الوحيدات . إن إلهيك تتجه كل تسابح الجنس البشرى وينصب عليك ثناؤه . وإلهيك يقدم كل ولائه وإجلاله ، وهكذا . ومثل هذه التقوى الموسومة بمذهب وحدة الوجود (القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد وأن

الكون المادى والانسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية . هذه التقوى لاتتكاد تنسق مع نظرة دى هولباخ إلى الطبيعة على أنها تنزل الخير والشر دون تحيز ، « إن الرياح والعواصف والزوابع والبراكين والحروب والطاعون والمرض والموت كلها ضرورية لمسيرتها الأبدية (وليس فى كل مكان) مثل حرارة الشمس الصحية المفيدة^(١٢٠) وهذا يذكرنا بإله كلفن الضنين بالجنة المسرف فى عذاب النار » .

إن دى هولباخ فى حالته النفسية المميزة ينكر لا مجرد فكرة الله . بل نفس لفظته إن لفظتى الإله ويخلق ... ينبغي أن تحتفيا من لغة أولئك الذين يريدون التحدث بلغة مفهومة . إن هاتين لفظتان مجردتان ابتدعهما الجهل . إنهما متعبدتان لإرضاء من تعوزهم الخبرة ، الحاملين والجنباء إلى الحد الذى لا يدرسون معه الطبيعة وأساليبها^(١٢١) . وأنه ليرفض الربوبية التى تنسجم مع الخرافة^(١٢٢) وتصنع من الاتحاد ديناً حقيقياً .

« إن صديق الجنس البشرى لا يمكن أن يكون صديقاً للإله الذى كان فى كل الأوقات سوطاً مصلتنا على الأرض . إن رسول الطبيعة لن يكون أداة الأوهام المضللة التى تجعل الدنيا مقراً للخداع . إن من يقدر الحقيقة لن ينسجم مع الزيف والباطل . إنه يعلم أن سعادته الجنس البشرى تقتضى بشكل لارجعة فيه ، تقويض صرح الخرافة المظلم المقلقل من أساسه . ليكن يقيم على أطلاله معبداً للطبيعة ملائماً للسلام — هيكل مقدس للفضيلة . . . فإذا ذهبت جهوده أدراج الرياح وإذا لم يستطع أن يثبت الشجاعة فى الكائنات التى اعتادت أن ترتعد فرائصها جبناً . فإن له على الأقل أن يفاخر بتمجاسره على أن يقوم بالمحاولة . وعلى الرغم من ذلك فانه يحكم على جهوده بأنها تقيمة إذا استطاع أن يجعل إنساناً واحداً سعيداً أو يهدىء من إضطرابات ذهن مستقيم واحد ، وأقل ما يقال أنه سوف يفيد من تحرير ذهنه هو من إرهاب الخرافة المزعج . . . ومن أنه وطىء تحت قدميه الأوهام التى تقض مضاجع المنكودى الحظ وتعذبهم . وإذا نجا على هذا النحو من خطر العاصفة استطاع

أن يتأمل في هدوء من قمة صخرته في تلك الأعاصير المروعة التي أثارها الخرافة . ويمد يد العون إلى أولئك الذين يتقبلونها^(١٢٣).

٣ — الأخلاق والدولة :

ولكن هل ينسجم الاتحاد مع الأخلاق الشعبية العامة ؟ وهل يمكن ضبط الدوافع القوية الأنانية لدى عامة الناس بقانون أخلاقي مجرد من الإخلاص للدين ومن تأييده ؟ أن دى هولباخ واجه هذه المشكلة في كتابه « منهج الطبيعة » ثم عاد إليها في ١٧٧٦ في كتاب ذى ثلاثة مجلدات « الأخلاق العامة » وأنه يرتاب بادىء ذى بدء في أن الديانة سعت إلى الفضيلة والأخلاق القويمة .

« على الرغم من الجحيم المروعة البغيضة حتى في مجرد وصفها . فأى حشد من المجرمين المهتكين يملأ مدننا . . . وهل اللصوص أو القتلة المعاقبون ملحدون أو متشككون ؟ إن هؤلاء البائسين يؤمنون بالله . وهل يتحدث أكثر الآباء تمسكا بالدين وهو ينصح ابنه عن إله محب للانتقام ؟ إن انهيار صحته من أثر الزنى وضياح ثروته في المسير ، وازدراء المجتمع له — هى الدوافع التي دعت الولد إلى النصيح^(١٢٤) .

وحتى مع إفتراض أن الدين في بعض الأحيان يساعد الأخلاق ، فهل يتوازن هذا مع الضرر الذى يلحقه الدين بالإنسان ؟

في مقابل إنسان جبان واحد تكبح فكرة الجحيم جماعه هناك آلاف من الناس لا تؤثر فيهم هذه الفكرة مطلقا . وهناك ملايين منهم تجعلهم هذه الفكرة غير عقلانيين . يعوزهم التفكير السليم . وتحولهم إلى أدوات لإضطهاد وتعذيب وحشين . وتحولهم إلى خبثاء أشرار . . . متعصبين . كما أن هناك ملايين تفسد عقولهم وتصرفهم عن واجبهم نحو المجتمع^(١٢٥) .

وتأمل في النفاق الذى يفرضه الضغط الاجتماعى للدين على المتشككين .
أولئك الذين يريدون أن يكونوا فكرة عن القيود التى فرضها اللاهوت
على عقول وتفكير الفلاسفة الذين ولدوا فى ظل « الديانة المسيحية » فليقرأوا
الرومانسيات (القصص الخيالية) الميتافيزيقية التى كتبها لينتز وديكارت
ومالبرانش وكدورث وغيرهم ويفحصوا فى هدوء النظم والترتيبات البارعة
واسكن الحماسية المسماة « التناسق المقرر مقدما للأسباب العرضية » (١٢٦) .

وفوق ذلك فإن المسيحية بتركيزها فكر الانسان على الخلاص الفردى
فى الدار الآخرة ، أماتت الشعور الانسانى والاجتماعى فى مثل هذا الفرد .
وتركت الناس غير شاعرين بيؤس رفاقهم ، وبالجزور والاجحاف اللذين
يتعرضون لهما من قبل الجماعات والحكومات الظالمة .

ويرفض دى هولباخ الفكرة المسيحية الفولثيرية التى تقول بأن الانسان
يولد ولديه حاسة الصواب والخطأ . إن الضمير ليس صوت الله بل صوت
رجل الشرطة . إنه رواسب وتراكم آلاف من التحذيرات والأوامر
والتأنيبات تلقاها الفرد منذ نشأته « ويمكن تعريف الضمير بأنه معرفتنا بآثار
أفعالنا على رفاقنا ثم انعكاسها أو رد فعلها على أنفسنا » (١٢٧) . ويمكن أن يكون
هذا الضمير موجهاً أو مرشداً زائفاً . فاربما تشكل هذا الضمير نتيجة تعليم
منحرف أو خبرة أسىء فهمها . أو تفكير خاطئ ، أو رأى عام فاسد .
وليس ثمة رذيلة أو جريمة لا يمكن إظهارها فى ثوب الفضيلة عن طريق التعليم
أو القدوة السيئة ومن ثم فإن الزنى مهما يكن من أسر تحریم الدين له عمل
يبعث على الفخر . والتلق الذليل مستساغ فى البلاط واغتصاب النساء والسلب
والنهب بين الجنود مكافآت مشروعة للمخاطرة بالحياة وتقطيع الأوصال .
« أنا لرى رجالاً أغنياء لا يعانون من وخر الضمير لما جمعوا من ثروة على
حساب مواطنيهم » و « وطنيين متحمسين متعصبين لوطنهم أعمت ضمائرهم
الأفكار الزائفة الباطلة فأغرقتهم بآبادة من يخالفونهم فى رأى دون شعور
بالندم أو تأنيب الضمير » وخير ما نأمل فيه هو ضمير تشكل عن طريق تعليم

أفضل، واكتساب عادة التطوع إلى آثار أفعالنا على غيرنا وعلى أنفسنا. وعن طريق رأى عام أسلم وأصح بتردد أى فرد عاقل فى الاساءة إليه^(١٢٨).

ويتفق دى هولباخ مع المسيحية في أن الإنسان بطبيعته نزاع إلى «الام» أى إلى السلوك الضار بالجماعة . ولكنه يرفض فكرة أن هذه الطبيعة النزاع للام «موروثة عن خطيئة آباءنا الأولين . باعتبارها فكرة سخيفة . وقبل الأنانية باعتبارها جوهرية في سلوك البشر ، ويرى مثل هلفشيوس أن يبنى عليها قانونه الأخلاقى ، بأن يجعل السلوك الاجتماعى مفيداً للفرد .

« فالأخلاق تصبح علماً عقيماً إذا لم تثبت للانسان بما لايقبل الجدل أن مصلحته تكمن في تمسكه بالفضيلة^(١٢٩) ويمكن أن يتحقق لنا شيء من تعليم يوضح اعتماد مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة . ويمكن بث درجة معقولة من الغيرية — حب الغير » باستثارة الرغبة الطبيعية في كسب الاستحسان الاجتماعي العام والتفوق والامتياز والمكافآت . وهكذا يصوغ دى هولباخ علم الأخلاق عنده قانوناً للطبيعة : « عش لنفسك ولرفيقك فاني (أى الطبيعة) أقر ملذاتك مادامت لا تؤذيك ولا تؤذي الآخرين الذين جعلتهم ضروريين من أجل سعادتك . . . وكن عادلاً لأن العدل يعزز الجنس البشرى ويدعمه . . . وكن طيباً لأن طيبتك ستجذب كل قلب إليك ، وكن متسامحاً حيث أنك تعيش بين كائنات ضعيفة مثلك . وكن متواضعاً لأن كبرياءك تجرح حب الذات عند كل من حولك . واعف عن الإساءة والأذى وأحسن إلى من أساء إليك . . . حتى تكسب صداقته . وكن معتدلاً بمقتصداً في شهواتك عفيفاً فإن الانغماس في الشهوات والاسراف والافراط سرف يدمرك ويقضي عليك ويجعلك مدعاة للاحتقار^(١٣٠) . »

إن الحكومة إذا أولت عناية أكبر وأكثر جدية لصحة الشعب وحمانيته وتعليمه فقد تخف معدلات الجريمة إلى حد كبير^(١٣١) . وإذا كان الإنسان ينحسر كثيراً في عدم الالتزام بالسلوك الاجتماعي السليم فإنه لن يكون على

استعداد للمغامرة بمثل هذه الخسارة في مثل هذا السبيل . وإذا تدرب التلاميذ على التأمل والتعقل بدلا من غرس الخوف فيهم وإرهابهم بالمعتقدات غير العقلانية التي سرعان ما تفقد قوتها ، فإن أخلاق الرجال لابد أن تتحسن بتزايد قدرتهم على تطبيق خبرتهم على أفعالهم وتصرفاتهم حيث يتنبأون على ضوء الماضي بما سيكون في المستقبل لأعمالهم الراهنة من نتائج .

وعلى المدى الطويل يكون العقل والذكاء أسمى فضيلة ، ومثل هذه الفضيلة هي السبيل الأمثل للسعادة .

وفي « منهج الطبيعة » و« المنهج الاجتماعي » (٣ مجلدات ، ١٧٧٢) ، و« السياسة الطبيعية » (١٧٧٢ ، مجلدان) و« روح الشعب » (١٧٧٦) عالج المليونير الذي لا يكل ولا يمل مشاكل المجتمع والحكومة . وفي هذه الكتب تنتقل الهجمات من الكنيسة إلى الدولة . ويتفق دى هولباخ مع لوك وماركس في أن العمل هو مصدر الثروة ولكنه مثل لوك يبرر الملكية الخاصة على أنها حق للإنسان ناتجا لعمله وحده . إنه نبيل وقد يتخلص من الارستقراطية الوراثة .

قد يدعى نفر من الناس حقاً في الثروة ومراتب الشرف فحسب . ولو أن حق المولد واللقب لابد بالضرورة أن يوهن عزيمة الطبقات الأخرى من المواطنين أو يشبطهمهم . إن الذين لا يملكون إلا عراقة الحسب والنسب أو كرم المحتد ليس لهم الحق في الثراء والشرف . . . ولا يمكن أن نعتبر النبالة الوراثة إلا مجرد سوء استعمال أو تعسف مصطنع لا يصلح إلا ليدارى خمول ... وعجز طبقة بعينها على حساب الأضرار بالمجموع ... (١٣٢) وهل أعمال النبلاء القدامى والوثائق القديمة المحفوظة في قصور العصور الوسطى تعطى لورثتها الحق في تولى أرفع المناصب في الكنيسة والدولة وفي دور القضاء أو في الجيش دون اعتبار لما ينبغي أن يتحلى به هؤلاء الورثة من قدرات ومواهب لازمة لحسن القيام بهذه المهام (١٣٣) ؟

أما بالنسبة لرجال الدين فلنتركهم يدبرون أسورهم بأنفسهم ، ويجدر أن تنفصل الكنيسة والدولة كل منهما عن الأخرى تمام الانفصال . ويجب أن تعامل الجماعات الدينية على أنها هيئات متطوعة تتمتع بالتسامح ولكن لا تحظى بأى دعم أو تأييد من الدولة . وينبغى على كل حكومة ملتزمة جانب الحكمة والعقل أن تسد الطريق أمام أية ديانة أو مذهب للجوء إلى التعصب أو الاضطهاد (١٣٤) .

ودى هولباخ رجل دخل من الأرض وغير الأرض ، وهو ينتقد أصحاب الدخول الخاملين من أفراد الطبقة الوسطى . وبوصفه بارونا فإنه يحتقر رجال الأعمال . « ليس ثمة مخلوق حى أشد خطراً من رجل الأعمال الذى يفتش عن فريسته (١٣٥) . أن جشع التجارة يحل الآن محل طموح الأسرة سبباً للحروب : « إن الدول مستعدة لافناء بعضها بعضاً من أجل أكوام من الرجال . إن أمماً بأسرها أصبحت نسخاً طبق الأصل لرجال الأعمال الجشعين الذين يزينون لهم الأمل فى الثروة التى يجنون هم أنفسهم ثمارها ، ومن هنا يتناقص عدد سكان البلاد وتفرض عليهم أبهظ الضرائب ويعانون الفقر والعوز لإشباع فهم فئة قليلة . ويسدد طعنة عابرة إلى بريطانيا التى التهمت الهند وكندا . « هناك شعب يبدو أنه فى نشوة جشعة أعد مشروعاً متطرفاً لاغتصاب تجارة العالم وتملك البحار — وهو مشروع جائز جنونى يؤدى تنفيذه إلى نوع من الخرافات يصيب الأمم التى تسير وراء هذا الخبل . . . وسيأتى اليوم الذى يقذف الهنود هولاء الأوروبيين من شواطئهم حين يتعلمون منهم فن الحرب (١٣٦) .

ويميل دى هولباخ إلى الأخذ بسياسة الفيزيوقراطيين فى عدم التدخل (حرية التجارة والصناعة) . « لا يجوز للحكومة أن تعمل للتاجر شيئاً إلا أن تركه وشأنه . وليس ثمة تعاليم أو تنظيمات يمكن أن توجهه فى مشروعات أفضل من مصلحته هو . . . وليس على الدولة إلا أن تحمى التجارة . إن الأمم التجارية التى تهىء لرعاياها أكبر قدر من حرية التجارة لابد أن تثق

في أنها ستفوق غيرها من الأمم سريعا (١٣٧).

ولكنه عندئذ كذلك ينصح الحكومات بالحيولة دون تركيز خطير للثروة . ويقتبس عن طيب خاطر عبارة سانت جيروم الرشيق اللاذعة « الرجل الغني إما وغد أو وريث أحد الأوغاد (١٣٨) » . في كل الأمم تقريبا لا يملك ثلاثة أرباع الرعايا شيئا . . . وإذا استنزف نفر قليل من الناس الممتلكات والثروة في الدولة ، لأصبحوا سادة هذه الدولة المتحكمين فيها . ويبدو أن الحكومات أهملت هذه الحقيقة الهامة إهمالا تاما (١٣٩) . . . وإذا توقفت إرادة الشعب أو القانون عن حفظ التوازن حتى بين مختلف أعضاء المجتمع ، فإن خمول بعض الناس مع الاستعانة بالقوة والخداع والاغراء ينجح (أى الخمرل) في الاستيلاء على ثمار جهود الآخرين وعملهم (١٤٠) .

وفي رأى دى هولباخ أن كل الملوك يتحالفون مع الأقلية الباردة الذكية لاستغلال أغلبية الشعب — ويبدو أنه كان يفكر في لويس الخامس عشر . « إنا لانرى على وجه هذه البسيطة إلا ملوكا جائرين ظالمين ، أوهمهم البذخ والترف وأفسدهم الرياء والملق ، كما لو ث الفجور والفسق أخلاقهم ، ودفعهم الدنس والرجس إلى الشر والخبث ، لايتحلون بأية مواهب أوقدرات أو بمكارم الأخلاق ، عاجزين عن بذل أى جهد لخير الدول التي يحكمونها . ومن ثم فإنهم لا يهتمون إلا قليلا بمصلحة شعوبهم ، مستهترون بواجباتهم التي غالبا ما يجهلون في الواقع . إنهم إنما تتمسكهم الرغبة في تحقيق أطماعهم التي لا حد لها ، ولذلك يشغلون أنفسهم بحروب عقيمة فيها فناء السكان ، ولا يشغلون أذهانهم أبدا بهؤلاء الرعايا ، وهم أهم شيء من أجل سعادة أمتهم (١٤١) .

وواضح أن تفكير دى هولباخ إتجه إلى الحكومة الفرنسية ، فاندفع ينتقد بشدة تكليف رجال المال بمهمة جمع الضرائب ، أى تعيينهم ملتزمين عامين . ويهجو هؤلاء الملتزمين : « إن الحاكم المستبد الطاغية يلجأ إلى

طائفة من المواطنين الذين يهثبون له وسائل تحقيق جشعه في مقابل منحهم الحق في إبتزاز أموال الآخرين دون عقاب . . . أنه بسبب غفلته وعماه لا يدرك أن الضرائب المفروضة على رعاياه تتضاعف وإن المبالغ التي تذهب إلى جيوب هؤلاء المبتزين وتزيد ثراءهم تضيق عليه هو نفسه ، وأن جمهور العامة الدليل الخاضع قد يرثى في غمار الحيرة ليشن حرباً على الأمة . . . إن هؤلاء اللصوص (الملتزمون العامون) إذ ترداد ثرواتهم يثيرون حقد النبلاء وحسد مواطنيهم . . . وتصيح الثروة هي الدافع الوحيد . . . والظماً إلى الذهب يملك كل القلوب (١٤٢) .

إن الأرستقراطية الرخى البال يتحدث أحياناً كما يتحدث أشد الشبان القلقين المغموين غضباً ، هل ينبغي على الأمم أن تعمل دون كلل ولا ملل لأرضاء غرور حفنة عقيمة من مصاصي الدماء ، وتوفير أسباب البذخ والترف لهم وأشباع نههم (١٤٣) ؟ . أنه في هذه الحالة النسبة يردد صدى كلمات صديقه السابق روسو في كتابة (العقد الاجتماعي) :

« أن الإنسان شرير لا لأنه ولد كذلك بل لأنهم صيروه شريراً . أن العظماء وذوى السيطرة والقوة يسحقون الفقراء المعوزين والبؤساء دون عقاب . إن هؤلاء يغامرون بحياتهم في سبيل الثأر لما لحق بهم من أذى وشر . إنهم يهاجمون جهرًا أو سرا البلد الذي هو بالنسبة لهم زوجة أب تعطى لبعض أبنائها كل شيء وتحرم الآخرين من أى شيء . . . والإنسان في كل مكان تقريباً عبد رقيق . ويتبع هذا بالضرورة أن يكون حقيراً أناثياً مرائياً منافقاً بلا شرف ، وباختصار يتصف بكل رذائل الدولة التي هو فرد فيها . أن هذا الإنسان في كل مكان مخدوع مضلل يشجع على الجهل ، محروم من استخدام عقله ، فلا بد أن يكون بطبيعة الحال في كل مكان غيبياً غير متعقل شريراً ، وهو في كل مكان يرى إمتداح الرذيلة والجريمة وتكريمها . ويستخلص من هذا أن الرذيلة حسنة ، وأن الفضيلة تضحية لأغناء فيها . . . وإذا كانت الحكومات مستنيرة مشغولة جداً بتربية الشعوب

وتعليمها ومصلحتها وإذا كانت القوانين عادلة ، فلن يكون من الضروري التماس أحلام وأوهام مالية في حياة أخرى يثبت دائما أنها ناقصة غير وافية أمام لإنفعالات الإنسان الخائفة وحاجاته الحقيقية^(١٤٤) .

وكيف يتسنى إيقاف هذا الاستغلال ؟ إن أول خطوة في هذا السبيل هى الغاء الحكم الاستبدادى المطلق . « إن الحكم المطلق لأبد أن يفسد بالضرورة قلب من يتولاه وعقله^(١٤٥) . . . ويجب دائما أن تخضع سلطة الملوك لمثل الشعب ، كما يجدر أن يعتمد هؤلاء الممثلون باستمرار على إرادة ناخبهم^(١٤٦) » وهنا مناداة بدعوة مجلس الطبقات المشثوم ١٧٨٩ . « ومن حيث أن أية حكومة تستمد سلطتها من رضا المحكومين » فإن أى مجتمع يمكنه فى أى وقت أن يسحب هذه السلطات إذا لم تعد الحكومة تمثل الإرادة العامة^(١٤٧) » . وهنا يتمثل صوت روسو والثورة .

ولكن الثورة ، بثمن غال أحيانا ، تهدم الماضى وتقضى عليه لى تقيم من جديد تحت شعار آخر وبصيغة أخرى : « لا يمكن شفاء جراح الأمة عن طريق الاضطرابات العنيفة والصراعات وقتل الملوك والجرائم العقيمة . إن هذه العلاجات العنيفة هى دائما أشد قسوة من المساوىء المقصود القضاء عليها أو التخلص منها . . أن صوت العقل ليس مثيرا للفتنة وليس متعطشا للدماء . ويمكن أن تكون الإصلاحات التى يهدف إليها متأنية ولكنها لذلك تتوخى خير تخطيط^(١٤٨) » .

إن الناس بعيدون عن الكمال وليس فى مقدورهم أن يصنعوا دولا بالغة حد الكمال . والبيوتوبيا (المدينة الفاضلة) ضرب من الأوهام « تتعارض مع طبيعة الكائن « بآله » الواهنة المعرضة للخلل وخياله المتوقد الذى لا يصغى دائما لهدى العقل . . أن الوصول بالسياسة إلى مرتبة الكمال لن يكون إلا الثمرة البطيئة لخبرة قرون^(١٤٩) . وليس التقدم خطا مستقيما بل هو خط طويل ونحن نحتاج إلى أجيال كثيرة من التعاليم والخبرة لتبيان أسباب العلل أو الأمراض الاجتماعية ووسائل البرء منها . والديمقراطية مثل أعلى

وهى ممكنة فى الدول الصغيرة وحدها ، مع إزدياد وعى الشعب وعقله
وذكائه . وقد لا يكون من الحكمة إقامة ديمقراطية فى فرنسا فى عهد لويس
السادس عشر . وقد يستخدم هذا الملك الجديد الطيب ذو المتناصد الحسنة
أناسا ذوى قدرات ومواهب عظيمة لأصلاح الدولة . وهكذا يرتضى دى
هولباخ ، آخر الأمر ملكية دستورية ويهذى كتابة الأخير روح الشعب
« لى لويس » الملك العادل الإنسانى المحب للخير أبى الشعب وحامى الفقراء^(١٥٠)
وتعلق الفيلسوف المعجوز بهذا الأمل المستميت .

٤ - دى هولباخ ونقاده :

إن « منهج الطبيعة » هو أشمل وأكمل وأصرح عرض للمادية والاحاد
فى تاريخ الفلسفة بأسره . أن نردد فولتير وتناقضه ودقته التى لا نهاية لها ،
وحماسة ديدرو الغامضة وكتابات المتعارضة ، ورفض روسو المشوش المربك
لما يكتبه جان جاك روسو نفسه ، كل أولئك حل محله هنا تماسك دقيق
وإتساق شديد بين الأفكار ، وتعبير قوى فى أسلوب عميق أحيانا ، مشرق
أحيانا ، فصيح غالبا ، ولكنه دائما أسلوب مباشر وأضح . ومع ذلك
فقد أدرك أن سبعمائة صحيفة من هذا النوع قد لا يستوعبها عامة القراء .
وتلطف دى هولباخ على أن يقبل على قراءة الكتاب أكبر عدد من الناس ،
ومن ثم فإنه شرح آراءه . ووجهات نظره مرة أخرى فى شكل أبسط فى
حسن الإدراك ، أو « أفكار فى مواجهة الأفكار الخارقة للطبيعة » (١٧٧٢) .
وقلما تميز كاتب بمثل هذه المثابرة والجد فى نشر مثل هذه الآراء غير
المألوفة التى يريد أن يقنع الناس بها .

وأنه لما يدل على سعة إنتشار آراء دى هولباخ رد فعل « منهج الطبيعة »
على فردريك الأكبر ، إن هذا الملك الذى كان يخطب ودالفلاسفة ، والذى
مجدوه وأمتدحوه على أنه راعيهم ومثلهم الأعلى ، أنقلب عليهم حين رأى
أحد قادتهم يهاجم الملكية المطلقة والمسيحية بقدر سواء . لقد كان من

مصلحته أضعاف الوحدة الداخلية بين الدول الكاثوليكية نتيجة للحملة ضد الكنيسة ، ولـسكن أثار إستيائه وربما أثار مخاوفه أن يبلغ التمرد حداً يتجاسر معه الآن على تحقير الملوك والنيل من الأله . أن نفس القلم الذى دبح يوماً ضد المكيافيلية ، يكتب الآن تنفيذ منهج الطبيعة ، أن هذا الرجل دى هولباخ قد ركب متن الشطط : يقول فردريك « إذا تحدث إنسان إلى عامة الناس علانية فيجدر به أن يأخذ في إعتباره رقعة الآذان الخرافية ، ويجدر به إلا يصعق أحداً ، ويدبغى عليه أن يترث حتى تبلغ الأستنارة حداً يسمح له بالجهر بأفكاره (١٥١) .

ووأضح أنه بناء على إيناء فردريك ، ولكن من الجائز أكثر من ذلك أنه نتيجة الخوف من أن تؤدى شدة تطرف دى هولباخ إلى انفضاض الناس من حبل الفلسفة . اللهم إلا الملحدين والثوريين ، نجد فولتير وكأنما هو قائد جيش يؤنب ضابطاً (ملازماً أول) وقفاً — خصص فى مقاله « عن الله » فى « قاموسه الفاسفى » عدة صفحات ينتقد فيها رائعة دى هولباخ ، فهو يقول فى بداية كلامه :

« أن المؤلف أفاد من أن الجميع يقبلون على قراءته : العلماء والجهلة والنساء على حد سواء . إن لاسلوبه مزايا نفتقدها عند سبينوزا . وهو فى الغالب وأضح وأحياناً فصيح ، على الرغم من أنه مثل الباقيين قد يؤخذ عليه التكرار والأسلوب الخطائى والتناقض الذاتى . أما من حيث عمق التفكير فالغالب أنه لا يوثق به فى الفيزياء وفى الاخلاق كليهما . وهنا تكمن مصلحة الجنس البشرى ومن ثم يجدر أن نتبين هل نظريته صحيحة ومفيدة » .

ولا يوافق فولتير على أن النظام الذى ننسبه إلى الكون . والحلل الذى نظن أننا قد نجده فيه ، هما أفكار أو أهواء ذاتية . وحاول أن يبرهن على أن النظام بارز إلى ابعد الحدود وأن الحلل أحياناً وأضح إلى حد مؤلم :

« ماذا ! أليس الطفل الذى يولد أعمى أو بلا رجلين أو غير سوى بشع إلى حد بعيد يتعارض مع طبيعة الجنس البشرى ؟ أليس الأطراد المعتاد فى

الطبيعة هو الذى يصنع النظام والشذوذ هو الذى يشكل الخلل ؟ أليست فوضى صارخة وخللا رهيبا أن تعتمد الطبيعة إلى تجويع طفل وتخلق له مريثا محدودا ؟ إن الأخراج بكل أنواعه ضرورى ، ولكن قنوات الإفراز كثيرا ما تكون بلا فتحات ، مما يتطلب العلاج ، ويبقى منشأ الخلل عرضة للكشف عنه ولكن الخلل حقيقة واقعة .

ومن حيث كون المادة لها قوة توليد الحياة والذهن فإن فولتير على الرغم من أنه كان يوما ميالا إلى الأخذ بوجهة النظر هذه ، آثر « لا أدري » متواضعة على إفتراضات دى هولباخ الواقعة :

« إن الخبرة (وهو هنا ينقل من كتاب منهج الطبيعة) تثبت لنا أن المادة التى نعتبرها جامدة ميتة ، تدعى الفعل والحياة والعقل إذا إتحدت وتجمعت بطريقة معينة » وتلك هى المشكلة بعينها ، كيف تنشأ جرثومة حية ؟ أن المؤلف والقارئ كليهما يجهلان هذا على حد سواء ، ومن ثم ألا يكون منهج الطبيعة وكل المناهج الفلسفية فى العالم بأسره مجرد أحلام ؟ يقول دى هولباخ : « من الضرورى أن نعرف المبدأ الحيوى الأساسى ، وأحسب أن التعريف متعذر » . أليس هذا التعريف ميسورا جداً اليس تنظيم الحياة بالشعور ؟ ولكن من المستحيل أثبات أن هاتين الخاصيتين تنشآن فقط من المادة وهى فى حركة . وإذا كان من المستحيل أثبات هذا فقيم توكيده ؟ . . . أن كثيراً من القراء يشعرون بالسخط والاستياء لاتخاذ هذا الأسلوب الحاسم فى الوقت الذى لم يتم فيه تفسير أى شئ . . . فإذا تجاسرت على تأكيد أنه لا يوجد إله أو أن المادة تعمل بنفسها بمقتضى ضرورة أبدية ، فيجدر أن تشرح هذا وتقيم عليه الدليل ، مثل قضيه من قضايا إقليدس وإلا أقمت منهجك على « ربما » ، أى مجرد الاحتمال . وأى أساس هذا لمعتقد على أعظم جانب من الأهمية للجنس البشرى .

وكان دى هولباخ قد أيد التوالد التلقائى بأشارته إلى تجارب اليسوعى الانجليزى نيدهام (١٧٤٨) الذى لمعتقد بأنه كان قد أنتج كائنات جديدة

من مادة ليس فيها حياة . وكان فولتير يقظا لآخر تطورات العلم ، فأشار إلى تجارب سبيلانزانى (١٧٦٥) الذى أوضح خطأ إجراءات نيدهام وما انتهى إليه من نتائج . ولم يكن دى هولباخ قد رأى فى الطبيعة أى تصحيح أو تخطيط ، ولكن فولتير يرى الكثير ، ويحاول أن يبرهن على أن نمو العقل وتطوره فى الإنسان يدل على عقل فى الكون أو فيما وراءه ، ويعود آخر الأمر إلى قضيته المشهورة « إذا لم يوجد إله فمن الضروري أن نصطنعه ، وأنه بدون إيمان بكائن أسمى فى عقله وعدله ، فإن الحياة بكل ما فيها من أسرار وبؤس وشقاء تكون غير محتملة ، وينضم إلى دى هولباخ فى إزدراء الخرافة ، ولكنه يدافع عن الدين باعتباره مجرد عبادة بسيطة لاله . ويختتم فى رفق فيقول : « إننى ميال إلى القول بأنك وقعت فى خطأ جسيم ولكنى بنفس القدر مقتنع بأنك صادق أمين فى أنك مخدوع خداعا ذاتيا . يمكن أن تجد أناساً فضلاء دون وجود إله . ولو أنك من سؤ الحظ قلت « سرعان ما تجعل الرذيلة الإنسان سعيدا حتى يحب الرذيلة » . وتلك قضية مزعجة كان يجدر بأصد قائلك أن يقنعوك بمحوها . أنك فى كل مكان آخر توحى بالاستقامة والأمانة . إن هذا الصراع الفلسفى سيكون فقط بينك وبين نفر قليل من الفلاسفة منتشرين فى أوروبا . ومن يسمع عنه سائر العالم شيئا . إن الناس لا يقرأوننا . . . أنت مخطىء . ولكننا نقدر ونجل عبقريتك وفضائلك (١٥٢) » .

ولسنا ندرى إذا كان فولتير راضيا كل الرضا عن هذا التنفيذ من كل قلبه . وأنا لناحظ ملاحظته البسيطة العابرة عندما سمع أن فردريك كان قد كتب كذلك ضد « منهج الطبيعة » « إن الله كان فى صفه إثنان على الأقل من أبعد الناس عن التمسك بالخرافات فى أوروبا — مما لايد أن يكون قد إثليج صدره كغيره (١٥٣) وطلب إلى الدوق دى ريشيليو أن يحيط لويس الخامس عشر علما بأن المغترب العنيد فى فرنى كان قد كتب ردا على الكتاب الجرىء المتهور الذى كان حديث الناس فى باريس .

ونشر أصدقاء دى هولباخ نقد فولتير وسيلة للاعلان عن أفكار البارون.
ولتخذ شباب المتمردين المادية سمة للبهالة والشجاعة في الحرب ضد الكاثوليكية
ودخلت فلسفة دى هولباخ إلى روح الثورة الفرنسية قبل روبسبير وبعده —
وكان يؤثر روسو . وانا لنسمع أصداء كتاب « منهج الطبيعة » في كامى ديمولان
وماراه ودانتون^(١٥٤) قال فاجيه « إن دى هولباخ أكثر من فولتير وأكثر
من ديدرو ، هو أبو الفلسفة والهجوم العنيف على الدين في أواخر القرن
الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر^(١٥٥) وفي عهد حكومة
الإدارة أرسل أحد الوزراء نسخا من أحد كتب دى هولباخ إلى رؤساء
المصالح والهيئات في محافظته للحيلولة دون بعث الكاثوليكية من جديد^(١٥٦) .
وأنا لنحس تأثير دى هولباخ في إنجلترا في مادية بريستلى (١٧٧٧) ونبع
كتاب جودوين « بحث في العدالة السياسية » من دى هولباخ وهلفشيوس
وروسو بهذا الترتيب في التأثير^(١٥٧) . وبدأ الاتحاد المتحمس عند شللى صهر
جودوين ، بقراءة « منهج الطبيعة » الذى شرع في ترجمته كوسيلة لا شراك
أساتذة أكسفورد في الحملة ضد الدين^(١٥٨) . أما في ألمانيا فلإن مادية دى هولباخ
وتشكك هيوم هما اللذان أيقظا كانت من « سباته العقائدى » وربما ورث
ماركس بطرق غير مباشرة تعاليمه المادية عن دى هولباخ .

وقبل أن يكتب البارون بزن طويل كان بيركل قد آذى المادية أكبر
ابناء . فالذهن هو الحقيقة الواقعة الوحيدة المعروفة مباشرة . والمادة (منذ
عرفها دى هولباخ بأنها كل ما يؤثر في حواسنا) معروفة بطريق غير مباشر ،
عن طريق الذهن . ويبدو أنه غير معقول أن نهبط بالمعروف مباشرة إلى
ما هو معروف بطريق غير مباشر . وليست المادة واضحة لدينا كما تعودنا
أن تكون . إن الذرة تحيرنا كما يحيرنا الذهن سواء بسواء . فكلاهما يحلل إلى
أشكال من الطاقة لا يتيسر لنا فهمها . وأنه لم العسير الآن . كما كان عسيراً
في أيام لوك وفولتير . أن نتصور كيف يمكن أن تصبح المادة فكرة أقل
وعيا بكثير . أن التفسير الميكانيكى للحياة أثبت أنه محبذ في الفسيولوجيا ،

ولكن يبقى الاحتمال قائما . وهو أن الأعضاء (المادة) يمكن أن تكون نتاجا وأدوات للرجبة (الدهن) مثل عضلات اللاعب الرياضى . إن الميكانيكية (الآلية) والحتمية بل حتى القانون الطبيعى « قد تكون تيسيرات وأيضاحات عاجلة لا تقبل الجدل من الناحية المنطقية ، لأنها أدوات إصطعقها الدهن لتناول الظاهرات والأحداث والأشياء تناولا ملائما ، وأصبحت هذه الأدوات عناصر لا مفر منها فى الفكر العلمى ، ولكنها غير مرضية إذا طبقت على الدهن الذى شكلها . إننا لا نعرف أن العالم منطوق .



الفصل الثاني والعشرون

فولتير والمسيحية

١٧٣٤ - ١٧٧٨

١ - فولتير والله

قد ندرس فيما بعد الأنشطة والآراء والاهتمامات غير الدينية في تلك النار المدمرة التي يقال لها فولتير ، والتي تتأجج بين الحين والحين في فرني Ferne ونكتفي هنا بتأخير آرائه في الدين وحربه ضد المسيحية . ولن نذكر هنا شيئاً لم يذكره مائة مرة من قبل . كما أنه لم يقل عن المسيحية شيئاً لم يسبق قوله . وكل ما في الأمر أنه حين تكلم انطلقت كلماته مثل اللهب سرى في أوروبا ، وأصبحت قوة شكلت عصره وعصرنا .

وكان طبعياً أن يرتاب في العقيدة المسيحية ، لأن الدين قصد به تهدة الفكر لا إثارةه . وكان فولتير هو الفكر مجسداً فهو قلق مضطرب لا يهدأ ولا يسكن . ورأيناه في سيرة حياته ينضم إلى ذوى العقول المتشككة في The Tempole يغذى شكوكه بين الربوبيين في إنجلترا ساعياً وراء العلم في سيرة ، متبادلاً رسائل الاتحاد مع فردريك في ألمانيا . ومع ذلك فإنه حتى بلغ السادسة بعد الخمسين احتفظ بالحاده أو كفره مظهراً عارضاً أو لعبة أو تسلية خاصة . ولم يشن على الكنيسة الحرب علانية . بل على التقيض من ذلك دافع علناً وتكراراً عن أساسيات العقيدة المسيحية : إله عادل وإرادة حرة والخلود . وإذا لم نعهده كذوباً (وغالباً ما كان كذلك) فإنه احتفظ حتى وفاته بإيمانه بالله وبقيمة الدين . ويمكن أن نقبس عنه لأي غرض تقريباً ، لأنه مثل أى شيء حى ، نما وتغير واضمححل . ومن منا

احتفظ في سن الخمسين بما اعتنق من آراء في سن العشرين ، أو في سن السبعين ، بآرائه حين كان في الخمسين ؟ إن فولتير ناقض نفسه إلى أبعد الحدود ، لأنه عمر طويلا وكتب كثيراً ، فكانت آراؤه من فيض رؤيته كلما تقدمت به السنون ^(١)

وفي سيري حوالى ١٧٣٤ حاول أن يصوغ أفكاره حول الأشياء الأولى والأخيرة في « رسالة في الميتافيزيقا » وقبل أن يجعل بالى المقارنة مألوفة لدى الإنجليز بعدة سنين ذكر فولتير أنه من المنطق التسليم بذهن ذكى عاقل في الكون مثلما هو منطقي افتراض أن الساعاتى قد صنع ساعة . ففى كلتا الحالتين رأى دليلا على التصميم والتخطيط في تهيئة وسائل معينة لغايات بعينها . ولكن كما أن الساعة ولو أنها من تصميم العقل تعمل وفق قوانين ثابتة ، فكذلك الكون . وليس ثمة معجزات . ولكنه إلى حد ما لم يستطع أن يطرح جانبها الشعور بأن الإرادة الإنسانية ، بطريقة خفية وللدرجة بسيطة حرة . على الرغم من أنه عرف تمام المعرفة أن الاختيار الحر المطلق حين يتصرف فى عالم ميكانيكى لا بد أن يفسد آليته أو طبيعة تركيب اجزائه . والذهن شكل من أشكال المادة ووظيفة من وظائفها . ويقول فولتير متبعاً في ذلك لوك . « ينبغي أن نقرر أنه من اليسير جدا على الله أن يضيف إلى المادة فكرا . ^(٢) وقدرة المادة على التفكير ليست معجزة أكبر من إمكان تأثير الذهن غير المادى على الجسم المادى . والنفس ليست إلا حياة الجسم ونفنى بفنائه ، وليس ثمة وحى مقدس سوى الطبيعة نفسها ، وهذا كاف ، وهو معين لا ينضب . وقد يكون ثمة بعض النفع فى الدين ولكن الرجل الأريب لا يحتاج إليه تعزيزا للفضيلة . وغالبا ما استخدمه رجال الدين على مدى التاريخ لإرباك أذهان الناس ، على حين ابتز الملوك أموالهم . وينبغي تعريف الفضيلة على أساس الخير الاجتماعى لا على أساس طاعة الله ، ويجب ألا نتوقف على الثراب والعقاب بعد الموت .

وقرأ فولتير هذه الصفحات الخمس والسبعين على مدام دى شاتيلية

الى يبدو واضحاً إنها لم تشجعه على نشرها . ويبدو أنه أقرها على ذلك وطرح المخطوطة جانبا ، فلم تنشر قط طيلة حياته . وفوق هذا أصبح مقتنعا بأن أية ميتافيزيقا عقلانية وأية محاولة لتفسير أصل العالم والإنسان وطبيعتهما ومصيرهما عن طريق العقل ستكون إلى الأبد فوق طاقة البشر . وقرأ الفلاسفة ولكن لم ترقه مناهجهم ، وذهب إلى أن « الأقدمين قالوا كل شيء في الميتا فيزيقا وفي الأخلاق ، وأنا دائماً نعارضهم أو نكررهم . وكل الكتب الحديثة من هذا النوع هي مجرد تكرار معاد (٢) » ولا بد أنه تأثر بمنهج سبينوزا لأنه أجهد نفسه في دحضه وتفنيده .

وعلى الرغم من تنصله وإنكاره لم يستطع أن يتغلب على ولعه بالخوض في المسائل العويصة المستعصية . وبين الحين والحين فيما بين عامي ١٧٣٤-١٧٥٦ أخذ ينقب في الميتافيزيقا واللاهوت . وظل حتى آخر حياته يؤسس إيمانه بالله على حجة التخطيط أو التدبير منذ البداية ، ولو أنه عمد إلى تسفيه التطرف في الغائية (الاعتقاد بأن كل شيء في الطبيعة مقصود به تحقيق غاية معينة) . « قد لا أومن بأن الأنوف قد صنعت لتكون جسرا مريحا للنظارات ، ولكي مقتنع بأنها صنعت لنشم بها (٤) » . « وأليس من أوسع السخف والحماقة أن نؤكد أن العين لم تصنع لتبصر والإذن لتسمع والمعدة لتضم ؟ (٥) وعندما طرق مؤلف شاب الباب في Les Delices (١٧٥٧) وقدم نفسه إلى فولتير على أنه « ملحد شاب مستعد لخدمته ، أجاب فولتير لي الشرف أن أستخدم ربوبيا ، وعلى الرغم من تعارض آرائنا سأقدم لك طعام العشاء الليلة ، وأقدم لك العمل غدا ، سأستفيد من ذراعيك وعضلاتك لا من رأسك وذهنك . (٦) أنه سمى نفسه ربوبيا ولكنه كان مؤمنا ، أي أن الله لم يكن قوة غير مجسمة تماثل الطبيعة بشكل أو بآخر ، ولكنه عقل واع يصمم العالم ويحكمه . وبعد ١٧٥٠ بصفة عامة أطلق على نفسه أنه مؤمن بوجود إله . (٧) وفي القاموس الفلسفي في مقال « الإيمان بوجود الله

« كتب على أساس يمكن أن يبرر وصف كوندرسية لفولتير بأنه رجل شديد التمسك بالدين :

« إن المؤمن الموحد بالله رجل مقتنع كل الاقتناع بوجود كائن أسمى فاضل قوى معا ، خلق كل الموجودات يعاقب على الخطايا دون قسوة ، ويشيب على صالح الأعمال في رفق وحنان . إن المؤمن لا يعرف كيف يعاقب الله وكيف يثيب ، وكيف يعفو ، ويغفر لأنه لم تبلغ به الجرأة حدا ينجذع معه نفسه بأنه يدرك كيف يتصرف الله ، ولكنه يعلم أن الله يفعل وإن الله عادل . إن العقبات التي تواجه العناية الإلهية لا تززع إيمانه لأنها مجرد عقبات ضخمة وليست اختبارات إنه يخضع نفسه لتلك العناية الإلهية ، ولو أنه لم يدرك منها إلا بعض آثارها وبعض المظاهر . إنه يحكم على الأشياء التي لا يراها بالأشياء التي يراها . ومن ثم فانه يرى أن هذه العناية الإلهية تحيط بكل مكان وبكل زمان . وقد اتحد في هذا المبدأ مع سار الكون . فانه لا ينضم إلى أى من الشيع أو الطوائف التي تناقض نفسها . إن ديانته هي أقدم الديانات وأوسعها انتشاراً ، لأن العبادة البسيطة لله سبقت كل الأساليب والطرق في العالم . . . أنه يؤمن بأن الديانة لا تقوم على آراء الميتافيزيقا المبهمة التي يصعب سبر غورها ، ولا على الزخارف العقيمة ، بل تقوم على العبادة والتقديس والعدالة . إن عمل الخير عبادته والخضوع لله مذهبه . . . إنه يسخر من لوريتو ومكة ولكنه يغيث الملهوف ويدافع عن المظلوم ^(٨) .

فهل كان فولتير مخلصاً في هذه الاعترافات ؟ إن بعض الباحثين ينسبها إلى الحيلة والحدس ، أو إلى الرغبة في التحول إلى الاتحاد خطوة خطوة ، ^(٩) أو إلى أمل في أن يقلل غرس الإيمان الديني في خدمه من السرقة والاختلاس . وهناك في كتابات فولتير قطع يبدو أنها تبرر هذا التفسير (إذا كان لديك قرية واحدة لتحكمها ، فينبغي أن يكون لها دين) ^(١٠) . إن أكثر الملاحظات اقتباساً عنه يبدو أنها تهبط بالديانة إلى مجرد منفعة عامة ، ولكن سياق الكلام يلقي على هذا البيت ضوء أكثر إشراقاً وإيضاحاً . أنه يوجد في

رسالة إلى مؤلف الدجالين الثلاثة » إذا لم يكن الإله موجودا فيجب أن نبتدعه ، ولكن الطبيعة بأسرها تصبح فينا أنه موجود فعلا .^(١١) والقصيدة كلها دعوة إلى الإيمان . إن فولتير يعود إلى قضية الإيمان بوجود اله واحد المرة بعد المرة ، وكأنما يرد على شكوكه . وفي السنوات العشر الأخيرة من حياته كتب ضد الاتحاد قدر ما كتب ضد الديانة التقليدية وفي نفس الوقت شن حربا ضد المفهوم المألوف للرب بأنه إله الانتقام الذى قدر على معظم الناس الخلود في عذاب الجحيم : « سيكون الجنس البشرى تعساً بائساً إلى أبعد حد إذا أُلِف ارتكاب الفظائع قدر ما يألِف التصديق بها ^(١٢) وإذا كان الرب قد خلق الإنسان على صورته فقد جازيناه على ذلك خير الجزاء ^(١٣) بتصويره على صورتنا . ولا شيء يوضح مفهوم الإنسان عن نفسه أكثر من فكرته عن الله » .

وحاول فولتير جاهدا أن يوفق بين إيمانه بإله واحد وبين وجود الشر ، وفي محاولاته لتبرير العدل الإلهي لوجود الشر اقترَب من تفاؤل لينتِز (الذى عمد إلى تسفيهه في كانديد) إن الشر من وجهة نظر الجزء قد يكون خيرا ، وعلى الأقل ليس شرا في منظور الكل . إن هذا ليس أحسن عالم يمكن تصوره بل أكثر ما يحتمل وجوده .^(١٤) وكتب فولتير إلى فردريك ١٧٣٨ يقول : « إذا حسب كل شيء وقدر أحسن تقدير فإن في هذه الحياة متع لا تعد ولا تحصى أكثر مما فيها من مرارة .^(١٥) » ولكن هذا كتب في سنوات صحته وعافيته في أواسط عمره . ولم يؤمن بأن الإنسان شرير بالطبيعة بل على النقيض من ذلك اعتقد أن في الإنسان إحساساً فطرياً بالعدالة وشعوراً طيباً بالود نحو الآخرين ^(١٦) وهنا فوارق وتناقضات لا حصر لها في الأفكار الأخلاقية لدى الجنس البشرى وفي عاداته . ولكن الشعوب تستنكر قتل الوالدين وقتل الإخوة والأخوات ^(١٧) .

وفي بوتسدام ١٧٥٢ نظم قصيدة « القانون الطبيعي » (نشرت في ١٧٥٦) التى لخصت ديانته الطبيعية . « وحيث اتخذت القصيدة شكل رسالة إلى فردريك

الثاني المتشكك فإنه كان من الصعب أن تكون محاولة لإرضاء الأنقياء ، ولكنها تقرب من التقوى والعقيدة القويمة أكثر من أى شيء آخر طبعه فولتير . إنها لم تؤكد الإيمان بالله الخالق فحسب ولكنها كذلك تصف الإحساس الخلقى عند الإنسان بأنه من غرس الرب ^(١٨) . إنه هنا يتحدث كما يتحدث روسو ويستبق حماسة كانت للسلطان المطلق للضمير . أنه يحدد ديانته في سطر واحد : « أعبد الله وكن عادلا وأحب وطنك » ^(١٩) . ويعرض تنوع العقيدة الدينية ويرثى للكراهية والتعصب ويدعو إلى تسامح متبادل بين مختلف المذاهب والشيع ، ويختتم بدعاء كان يمكن أن يقره أى قديس . وفي ٢٣ يناير ١٧٥٩ أمر برلمان باريس باحراق القصيدة علنا . ويحتمل أن يكون هذا بسبب أن بعض أبياتها استنكرت الجانسية .

وقد تخلص إلى القول بأنه حتى عام ١٧٥١ - إلى أن بلغ فولتير السابعة والخمسين تورع عن أى هجوم مباشر صريح على المسيحية أو الكنيسة الكاثوليكية . فماذا أثاره وحفزه لشن الحرب في نفس الوقت الذى جنح فيه معظم الثائرين إلى السلم؟ أنه كان وقت صدور دائرة المعارف ، والتفسيرات الدينية التقليدية لزلزال لشبونة ، والإعدام الوحشى لكل من جان كالا Calas وشيفالييه دى لا بار De La Barre .

٢ - فولتير ودائرة المعارف

كان فولتير في بوتسدام حين نشر المجلد الأول من دائرة المعارف (١٧٥١) . ولا بد أنه قرأ وهو مغتبط أمد الاعتباط السطور التى كتبها دامبير تقديرآ لفولتير وثناء عليه في « . . . » حيث قال « قد لا أوفى هذه العبقرية الفذة حقها من الاجلال والمديح مما لقيه كثيرا من مواطنيه ومن الأجانب ومن أعدائه ، ومما ستضيف إليه الأجيال المقبلة كثيرا حين يعود غير قادر على الاستمتاع بالإطراء والثناء » . ورد فولتير على هذه التحية في رسالة مؤرخة ٥ سبتمبر ١٧٥٢ إلى دامبير قال فيها « إنك وديدرو وتقومان بعمل

سيكون فيه فخار فرنسا ومجدها ، وعار وخزي لهؤلاء الذين يضطهدونكما أو يقفون في طريقكما . أنا لا أعترف من بين الفلاسفة البالغاء الأبله وبه » وعاهد نفسه على مساندته وتأييده ، ولم يضيع أى فرصة لجذب الأنظار إلى المشروع باعتباره « عملا ضخما خالدا يهتم قصر الحياة الإنسانية ويندد به ^(٢١) » .

ومهما يكن من أمر انشغال فولتير بأعماله الكبرى - قرن لويس الرابع عشر ، ورسالة في الأعراف والعادات ، وتورطه مع هرشك وموبرتوى وفردريك فانه وجد فسحة من الوقت ليرسل إلى دالمبير (١٧٥٣) بمقالات موجزة : « مجرد مادة يمكنك تبويبها كيف تشاء وضمتها إلى الصرح الخالد الذى تقيمه . إلى أمدك ببعض لبنات تضعها في أية زاوية في البناء » ^(٢١) . وتوسل إلى الأصدقاء ذوى النفوذ أن يعملوا على حماية المحررين . وفي ١٧٥٥ كتب إلى دالمبير « ما دام في عرق ينبض بالحياة سأكون في خدمة مؤلفي الموسوعة اللامعين ، وإلى لاعتبره شرفا كبيرا إلى أن أسهم ولو بقدر ضئيل في أعظم وأجمل أثر باق للأمة وللأدب » ^(٢٢) وأرفق بهذه الرسالة مقالات عن النار والقوة والفسوق والعبقريّة الفرنسيّة والذوق الفرنسي . وأطلع على المجلدات الخمسة الأولى مدققا فاحصا ، فوجد أجزاء كثيرة جديدة بالثناء ، كما حزن ورثى لبعض الأجزاء الأخرى ، وطلب إلى المحررين أن يطالبوا كل الكتاب بالوضوح والإيجاز ، وحذر دالمبير (الذى ظنه خطأ رئيس التحرير) بقوله « إن معاونيك ضعاف فهناك جنود غير صالحين في جيش القائد العظيم . . يؤسفني أن أجد في مقال « الجحيم » أن الكاتب يعلن أن الجحيم واردة في شريعة موسى ، وأقسم لك الآن بكل الشياطين أن هذا غير صحيح » ^(٢٣) .

وسرعان ما بعث بعدة مقالات صغيرة وبحث ضخمة في التاريخ . وحرص قسيسا عالما من لوزان هو أنطوان نوى دى بوليه Noe de Polies على أن يكتب الدائرة المعارف مقالات عن « الماجين والسحر والسحرة وعن الخلف

المنتظر» . وكلها تعج بالهرطقة في هدوء وقد رأينا كيف أن فولتير كان مشغولاً إلى حد ما عن مقال دامبير عن جنيف ١٧٥٧ . وخفف من هذه العاصفة التي ثارت بسبب هذه المقالات بدعوة الكاهن المخدوع إلى العشاء . وحين أوشكت الكارثة أن تنزل بمشروع دائرة المعارف وتهدد بتوقفها عن الظهور ، كتب إلى ديدرو :

« أي ديدرو الشجاع ودامبير الجسور : امضيا في طريقكما . . هاجما الأوغاد . واقضيا على تخريصاتهم الجوفاء وسفسطتهم الحقيرة وأكاذيبهم التاريخية وتناقضاتهم وسخافاتهم التي لا حصر لها ... لا تدعوا رجال الفكر أرقاء مستعبدين لمن لا يتحملون بشيء من الفكر والذكاء . إن الجيل القادم سيكون مدينا لكما بالعقل والحرية » (٢٤) .

ولم يجب ديدرو على هذه الرسالة ، وأصر دامبير على الانسحاب من المشروع . أما فولتير فخانتته شجاعته وساءه صمت ديدرو ، ومن ثم قرر أن ينفذ يديه من العمل . وفي ٦ أو ٧ فبراير كتب ثانية إلى ديدرو يطلب إليه إعادة المقالات التي لم تنشر ، فأجاب ديدرو بأن المخطوطات عند دامبير ولكن إذا كرر فولتير طلب إعادة نشرها إليه فإنه لن ينسى هذه الإساءة . وفي ٢٦ فبراير كتب فولتير إلى دارجننال يقول : « إنني أحب ديدرو واحترمه ولكنني غاضب » . ولكنه كتب إليه مرة أخرى في ١٢ مارس : « إذا التقيت بهذا الرجل الطيب ديدرو ، فأبلغ هذا العبد المسكين أنني أغفر له قدر ما أشفق عليه من كل قلبي » (٢٥) وفي مايو أرسل دامبير المقالات المطلوبة إلى فولتير . ولكن دامبير استأنف العمل في دائرة المعارف في شهر يونيو ، فأرسل فولتير المقالات إليه ثانية . ولكنه طلب عدم ذكر اسمه إذا نشرت . واقترح نقل المشروع إلى بلد آخر لا يتعرض فيه لعنت الرقابة فعلاً أو توجساً . ورأى ديدرو أن هذا الاقتراح غير عملي . وفقد فولتير ثقته في قيمة موسوعة ضخمة باهظة التكاليف وسيلة لنشر الفكر المتحرر . وفي ٢٦ يونيو ١٧٥٨

أبلغ ديدرو أن مشاغله الأخرى قد تجعل من المتعذر عليه أن يسهم في الموسوعة فضلاً عن أن تأزم الأمور بين المحررين والحكومة والكنيسة « قد يضطر الإنسان إلى الكذب ، وأنا لنلقى الاضطهاد والتعذيب إذا لم نمض في الكذب » ^(٢٦) إن الضجة التي أحدثها كتاب هلفشيوس « الذكاء » (في يولييه) أزعجت الناثر العجوز ، فكتب رداً على ذلك الكتاب . وفي ١٦ نوفمبر أبلغ ديدرو أنه ابتاع داراً في فرني واعتزم أن يقيم هناك ويحيا حياة ريفية هادئة .

فهل كان يخدع نفسه ، أو أنه كان يدبر استئثار القتال بوسائل أخرى؟

٣ - لاهوت الزلازل

بيما كانت الموسوعة تكبو وتفتق وتختفى وتنبعث من جديد ارتعدت فرائص الفلسفة الأوروبية نتيجة لزلازل لشبونه ففي الساعة التاسعة وأربعين دقيقة من صباح أول نوفمبر ١٧٥٥ - يوم عيد كل القديسين - هزت الأرض كتفها في البرتغال وشمال أفريقية . وفي ست دقائق تهدمت ثلاثون كنيسة وألف منزل ، ومات خمسة عشر ألف رجل ، وأصيب مثلهم باصابات خطيرة ، في واحدة من أجمل العوصم في العالم . ولم يكن ثمة شيء جديد لم يسبق له مثيل في هذه المذبحة الرهيبة التي حدث فيها الموت بالجملة . ولكن كانت هناك بعض ملابسات وظروف محيطة حيرت رجال اللاهوت ، وأقلقته بالهم . لماذا اختار هذا اللغز المحير مثل هذه المدينة الكاثوليكية ، ومثل هذا الاحتفال المقدس ، في مثل هذه الساعة التي اجتمع فيها كل المواطنين الاتقياء تقريباً لحضور القداس ؟ ولماذا أبقى وسط هذا الدمار الشامل على دارسيا ستودى كارفالو ميللو مركز بومبال فيما بعد - الوزير الأمر الناهي الذي كان ألد أعداء اليسوعيين في أوروبا بأسرها ؟

وأوضح مالا جريدا أحد اليسوعيين البرتغاليين أن الزلازل وما أعقبه من أمواج عاتية مدمرة كانا عقاباً من الله على الرذيلة التي استشرت في

لشبونة.^(٢٧) ولكن هل كان الآثمون هم وحدهم الذين ذهبوا للصلاة في الكنائس في هذا الصباح الرهيب ؟ ولماذا هلك كثير من القساوسة المتبتلين والراهبات المتفانيات في الاخلاص للدين في الزلزال والحريق ؟ وربما هلك المسلمون للكارثة باعتبارها إنتقاماً إلهياً من محاكم التفتيش في البرتغال ، ولكن الزلزال دمر المسجد الكبير الذى يحمل لاسم المنصور في الرباط . وعزا بعض الكهنة البروتستانت في لندن هذه الكارثة لاستنكار السماء لجرائم الكاثوليك ضد الانسانية . ولكن في ١٩ نوفمبر من نفس العام دمر الزلزال خمسة عشر ألف منزل في بوسطن مساشوست موطن الحجاج والبيوريتانيين . وأعلن ولیم ووربرتون أن مذبحة لشبونة « أبرزت عظمة الله في أبهى صورها^(٢٨) » وألقى جون ويزلى موعظة عن أسباب الزلازل وعلاجها قال فيها « إن الخطيئة هى السبب المعنوى للزلازل مهما كان سببها الطبيعى . . . إن الزلازل هى نتيجة اللعنة التى صبها على الأرض خطيئة آدم وحواء الأولى^(٢٩) » .

واستشاط فولتير غضباً لهذه التفسيرات ، ولكنه هو نفسه لم يجد شيئاً يوفق به بين الحادث وبين إيمانه بإله عادل « أين الآن قول لينتز » أحسن العوالم الممكنة « أو قول بوب « كل ما هو موجود هو حسن » ؟^(٣٠) ونظم فولتير كرد فعل غاضب لتفاؤله السابق أعظم قصيدة له « كارثة لشبونة اختبار للحقيقة المقررة « كل شئ حسن » وهنا نغتنم الفرصة لنقطف نموذجاً من فكرة شعره :

« آه أيتها المخلوقات الفانية التعسة . أيها الأرض الحزنة ، أيها الجميع الرهيب من بنى البشر . أيها المستقر الخالد لكل البلايا العقيمة الفاجعة ، أيها الحكماء الحمقى الذين ينادون بأعلى صوت كل شئ حسن ، تعالوا وتأملوا هذه الخرائب والأطلال الرهيبة ، وهذا الحطام وأشلاء ورماد جثث بنى جنسكم ، وأنظروا إلى النساء والأطفال الذين حصدهم الموت بالجملة ، إلى الأعضاء المتناثرة تحت الأعمدة المحطمة . لقد التهمت الأرض مائة ألف حالفهم النحس ، لقد سالت دماؤهم وتمزقت أوصالهم ، واندفنوا وهم أحياء

تحت السقوف التي لإنهارت عليهم ، فأنهوا دون أية مساعدة أيامهم التي تبعث على الأسى في عذاب كريحه . هل تواجهون صيحاتهم الضعيفة التي تؤذن بالفناء ، والدخان المتصاعد في هذا المنظر البشع بقولكم هذا جرى وفق قوانين أبدية طبقا لمشيئة الله المطلقة الخيرة ؟ وهل تقولون أمام هذه الأكذاس من الضحايا لقد إنتقم الله منهم لأن موتهم جزاء جرائمهم ؟ .

ولكن أية جريمة وأى خطأ ارتكب هؤلاء الأطفال الذين اغتالهم الزلزال وسالت دماؤهم وهم في أحضان أمهاتهم ؟ وهل كانت رذائل لندن أو باريس أقل من رذائل لشبونة ؟ ومع ذلك دمرت اشبونة وباريس ترقص ؟ ألم يكن في مقدور الله العليم الخبير أن يصنع عالما ليس فيه هذا الشقاء الذى لا معنى له ؟ إلى أجل إلهى ولكنى أحب الجنس البشرى .

إن الشاعر يتأمل في عالم الحياة فيرى في كل مكان وعلى ألف صورة متباينة تنازعا على البقاء يلقي فيه كل كائن حثفه إن عاجلا أو آجلا . إن هذه الخلاصة المريرة لعلم الحياة (للبيولوجيا) تتطلب أن نورد النص :

« إن الصقر الضارى ينقض على فريسته المخلوعة الفؤاد ويتلذذ مبتهجا بالتهام أوصالها الدامية ، وكل شيء يبدو في نظره على ما يرام ، ولكن سرعان ما يأتى نسركاسر ويلتهم بمنقاره الحاد الصقر بدوره ، ثم يعاجل الإنسان هذا النسر المتكبر بطلقة تصيب منه مقتلا . ويتوسد الإنسان التراب على أرض المعركة ينزف الدم وقد أثنخته ضربات وسط كومة من الموتى . وهناك يكون غداء رهيباً للطيور النهمة . وهكذا تثن الدنيا بكل من فيها حبث ولدت كلها لتشفى وتعانى ، ويكون مصيرها الموت المتبادل . وفي هذه الفوضى القاتلة تبنى على تعاسة البعض سعادة المجموع ، أية سعادة هذه ؟ أيها المخلوق الفانى الضعيف البائس ، أنك تصبح في نعمة حزينة « إن كل شيء حسن على ما يرام » إن الكون يقدم لك الكلبة ، وقلبك يفند مائة مرة خطأ ذهنك . إن العناصر والحيوان والإنسان كلها في صراع . فلنعترف بأن الشر ملاء الأرض واستشرى فيها .

وكيف يتفق هذا الصراع الكوفى الشامل وهذا الموت المذل المؤلم مع الإيمان بإله خير طيب ؟ إن الله موجود ، ولكنه لغز محير . إنه يبحث بآبائه ليخلص الجنس البشرى ، ولكن الأرض والانسان بقيا على ما هما عليه على الرغم من تصحيته .

ماذا يمكن أن يقول أوسع العقول مدى فى هذا ؟ لاشئ فان كتاب القدر محبوب عن أبصارنا . فالإنسان وهو الغريب الأجنبى بالنسبة لنفسه ، مجهول لدى الإنسان . من أنا ؟ وأين أكون ؟ إلى أين أنا ذاهب ؟ ومن أين أتيت ؟ ان الذرات تتعذب على هذه الكرومة من الطين ، ويحصدها الموت ويلعب بها القدر . ومع ذلك فانها الذرات المفكرة التى قاست أعينها ورصدت ما فى السموات بهدى من الفكر . إننا نحترق بأذهاننا وعقولنا هذا الكون اللانهائى ، ولكننا لانستطيع للحظة واحدة أن نرى أو نعرف أنفسنا .

وتلك بطبيعة الحال هى النعمة التى ضرب عليها بسكال قبل مائة عام فى نثر أروع من شعر فولتير . وكان فولتير قد نبذ يوماً بسكال واستهجنه ، ولكنه الآن يردد تشاؤمه . وعلى أساس هذا التشاؤم نفسه خلص بسكال إلى قوله : فلنركن إلى العقيدة السبحية ونتعلق بالأمل . وختم فولتير قصيدته فى الأصل بيتين كثيبين رواقين : ماذا يجب علينا أن نفعل أيها القانون ؟ يجب علينا أن نقاسى ونخضع فى صمت ونعبد ونموت » . واحتج أصدقاؤه بأن هذه الخاتمة البائسة غير محتملة فغير السطر الأخير إلى اخضعوا واعبدوا وأملوا وموتوا ولم يشعر أحد بالرضا فاستسلم وأضاف ٢٩ بيتاً ، وأسلم نفسه للعناية الإلهية مؤمناً بأن « الله وحده على حق » .

وعلى الرغم من ذلك فان القصيدة لم تذهل المتدينين فقط ، بل أذهلت الفلاسفة كذلك . فان مثل هذه النعمة الكثيرة الجزوعة يبدو أنها أخرجت الفلاسفة وأرسل روسو إلى فولتير رسالة طويلة بليغة يوضح فيها إن كل ما تعانيه الانسانية من علل وشور ، إن هو الا نتيجة لأخطاء البشر ، وأن زلزال لشبونه هو عقاب عادل للإنسان لتخلبه عن الحياة الطبيعية

وإقامته في المدن ، ولو أن الناس التزموا الحياة البسيطة في القرى المتفرقة في دور متواضعة فلربما كانت الضحايا قليلة نسبياً ، وينبغي أن نؤمن بأن الله طيب خير ، لأن هذا كما قال جان جاك هو البديل الوحيد للتشاؤم القاتل ، وأن نستمر مع ليبنتز ، على الإيمان بأنه حيث إن الله خلق هذا العالم ، فلا بد أن يكون كل شيء فيه على المدى الطويل وبالنظرة البعيدة حقاً وصدقاً . وحصل أحد أصحاب المطابع على هذه الرسالة ونشرها فلقيت أكبر الترحيب على أوسع نطاق ، ردأ بارعاً على قصيدة فولتير ، ولزم فولتير الصمت لمدة أطول مما كان مألوفاً . ولما عاد للخوض ثانية في موضوع التفاؤل خرج على الناس بأروع أعماله وهو كتاب ظل حديث العالم لمدة جيل ، وهو الآن أعظم وأبقى أثر ورمز لفولتير .

٤ — كانديد

نشر هذا الكتاب في أوائل عام ١٧٥٩ تحت أسم Candide أو التفاؤل ، مع الأيهام بأنه مترجم عن الألمانية عن كتاب دكتور رالف ، مع اضافات وجدت في جيب الدكتور عند وفاته في ميندن Minden . وأمر المجلس الكبير بأحراق الكتاب فور صدوره تقريباً (٥ مارس) وأنكر فولتير بطبيعة الحال أنه مؤلفه . وكتب إلى قسيس صديق له في جنيف « لأبد أن الناس فقدوا عقولهم لينسبوا إلى هذه المجموعة من الهراء . إن عندي ولله الحمد والشكر ما شغلني خيراً منه ^(٣١) ولكن فرنسا أجمعت على أنه ما كان في مقدور أحد غير فولتير أن يكتب « كانديد » . فهنا كان النشر البسيط بشكل خداع الذي يتدفق برفق والذي يتميز بمرح خفيف وتهكم لاذع شيطاني مما يستطيع هو وحده أن يكتبه . وهتا وهناك في الكتاب قليل من الفحش والبذاءة وقليل من الأدب الداعر ، وفي كل مكان عبارات هازلة غاضبة مهلكة تم على عدم التوقير . فإذا كان الأسلوب هو الرجل فلا بد أن يكون هذا فولتير .

أنه يبدأ بربنا ، ولكنه سرعان ما ينم على العين النافذة البراقة :

« في إقليم وستفاليا في قصر أنبل البارونات ثندر - تن - ترونخ Thunder-ten-Tronckh ، عاش شاب حبه الطبيعة أحلى مزاج وأكرم خلق . . . وكان شديد الرأى صائب الحكم ، إلى جانب ما تحلى به من بساطة بعيدة عن التكلف كل البعد ، ولهذا السبب فيما أعتقد سمى « كانديد » . أن الخدام القدامى في القصر أرتابوا في أن يكون ابن أخت البارون من رجل طيب شريف من الجيران رفضت تلك الأنسة أن تزوج منه لأنه لم يكن يستطيع أن يصل بنسبه إلى أكثر من واحد وسبعين شريفا . وكان غير أهل للزواج ، ولكنه واف بالمراد في الفراش ، وكان يتولى تربية الولد الوسيم غير الشرعى وتعليمه الأستاذ بانجلوس Pangloss (الكثير الكلام) الذى يستطيع أن يثبت إلى حد الأعجاب أنه ليس ثمة نتيجة دون علة أو سبب ، وأنه فى أحسن هذه العوالم الممكنة ، فإن قصر البارون هو أفخم القصور ، وأن ميلادى أحسن بارونه يمكن وجودها (على الرغم من أنها تزن ٣٥٠ رطلا) وقال أنه يمكن إقامة الدليل على أنه لا يمكن أن تكون الأشياء على غير ما عليه لأن كل الأشياء خلقت لبعض الغايات ، فلا بد أنها بالضرورة خلقت لا حسن الغايات . لا حظ مثلا أن الأنف شكلت للنظارة ولهذا نلبس النظارات ، وواضح أن الأرجل صممت للجوارب ولهذا نلبس الجوارب ... أن هؤلاء الذين يؤكدون أن كل شيء صحيح حق ، يخطئون التعبير ، وجدبر بهم أن يقولوا أن كل شيء هو أفضل شيء » .

أن كانديد « أنصت فى أنتباه شديد وآمن ضمنا » لأن الأنسة كونييجوند أبنة البارون كان وأضحى أنها أحسن وأجمل مخلوقة يمكن وجودها . وتجذبه إلى حبها ويقع فى شرك غرامها ، ويوسعه البارون ضربا ويطرده من القصر . ويجوب كانديد الآفاق ، ويأسره ضباط التجنيد ، ويرغمونه على اللحاق بالجيش البلغارى (هنا يعود فولتير بذاكرته إلى الجيش الروسى) « وهنا جعلوه ينعطف يمينا ويسارا وينزع بندقيته ثم يعيدها ويصوبها ويطلق

النار ويسير. وجلدوه ثلاثين ضربة بالعصا » أنه يشهد المعركة ثم يتمخلى عنها ، ويلتقى بالأستاذ بانجلوس الذى كاد أن يفقد آخر جزء فى أنفه ، وعمما قريب سيفقد إحدى عينيه راحدى أذنيه لا فراطه فى الأقتراب من البنى الجميلة « باكت » التى أصابها داء عضال عن طويق العدوى من أحد الأخوة الفرنسيسكان العلماء كورد ليه ، وكان قد انتقل إليه هذا المرض عن طريق العدوى من كونتيسة عجوز كانت قد أصيبت به من أحد قواد الفرسان الذى نقله عن مركيزة نسبه إلى أحد الغلمان كان قد أصيب به بالعدوى من أحد اليسوعين . وكان المرض قد انتقل إلى هذا الأخير من أحد رفاق كرسطوفر كولمبس (٣٢) .

وتحطمت سفينة كانديد وبانجلوس بالقرب من لشبونه ، ووصلا إلى الشاطئ ساعة حدوث الزلزال ، وكتب لهما البقاء على قيد الحياة ، ولكن محكمة التفتيش تقبض عليهما بتهمة الهرطقة ، ويعدم بانجلوس شتقا . أما كانديد فيتمكن من الهرب بمعونة كونيجوند التى كان الجنود قد اختطفوها ثم بيعت لأحد اليهود ، ثم بيعت مؤخراً لأحد رؤساء محكمة التفتيش . وتمكن كانديد وكونيجوند من الهرب بمساعدة سيدة عجوز أخرست شكواهما بقولها أنها كانت على وشك أن يلتمها الأتراك الذين كانوا يتضورون جوعا فى حصار آزور . وكانت قد وقعت أسيرة فى أيديهم ، ولكن برحمة من القدر نصف الأعمى بدأوا بقطع أحد ردفى كل امرأة يمكن العثور عليها . وانتهى الحصار قبل المضى فى التجربة . وتختتم السيدة العجوز كلامها بقولها « كفا الآن عن النوح والتوجع لبؤسكما وتعاستكما ، وابتهجا لأنكما تستطيعان الجلوس على رد فيكما كليهما » .

ويعبران المحيط الأطلس على أمل أن تكون الدنيا الجديدة أقل قساوة من القديمة . وفى يونس أيرس يستولى قائد الموقع على كونيجوند ويختص بها نفسه ويأمر بإبعاد كانديد ، فيدخل المستعمرة اليسوعية فى باراجوى ويجد هناك شقيق كونيجوند الذى يهاجمه لجرد تجاسره على التفكير فى الزواج

منها ، فإريد به كانديد قتيلا ، ويستأنف تجواله وحيدا بائسا : حتى يصل فجأة في واد منعزل في بىرو إلى « الدرادو » حيث يكثر الذهب إلى درجة لا يقدر فيها أحد قيمته . وهى أرض لا يوجد فيها مال ولا سجون ولا محامون ولا كهنة ولا أى صراع اقتصادى . ويعمر أهلها السعداء لماثى عام ، وليس لهم ديانة الاعباداة بسيطة لإله واحد . ويحمل كانديد بعض الذهب ويغادر المكان ، ولا يزال قلبه يهفو إلى كونيجوند . ويبحر عائداً إلى أوربا ويصل إلى بور تسموث ليجد من فوره أن أمير البحرين Byng قد أعدم رميا بالرصاص لأنه خسر معركة . ويقول مارتن صديق كانديد الجديد أنهم يعتبرون من الحكمة فى هذه البلاد أن يقتلوا أحد أمراء البحر بين الحين والحين ليستحثوا هم الآخرين ويشجعوهم^(٣٣) .

وعلم كانديد أن كوييجوند فى البندقية فيستقل السفينة إلى إيطاليا ويكتب ويحس بالضيق والحزن حين يسمع عما تعانيه البغايا . ويستمتع إلى غناء أصحاب الزوارق فى فينيسيا ويخلص إلى أنه قد وجد بعض أناس سعداء . ولكن مارتن ينهر بقوله « أنت لا تراهم فى بيوتهم بين زوجاتهم وأطفالهم . أن للأزواج ما يشغل بهم ويحزنهم ، ولأصحاب الجندولات (الزوارق) ما يقلقهم كذلك . حقاً أن صاحب الزورق فى الجملة أسعد حظاً من الدوج ، ولكنى أعتقد أن الفرق بينهما طفيف لا يستحق التفكير فيه^(٣٤) .

إن كونيجوند ليست فى البندقية . إنها فى الأستانة ويهرع إليها كانديد ليجد أنها باتت الآن أمة عجوزا شوهاء . ومع ذلك يحررها ويتزوجها . ويلحق بالجلوس الذى لم تقض عليه محكمة التفتيش تماماً بتلميذه . ويستأنف دفاعه عن التفاؤل ، ويلتقون برجل سعيد تقريباً فيرحب بهم ويقدم لهم فاكهة وجوزا من غرس البيت . ويسأله كانديد « لأبد أن لك ضيعة كبيرة » فيجيب الرجل التركى ليس عندي إلا ٢٠ فدانا أفلحها مع أولادى . وإن عملنا ليعاد بيننا وبين ثلاث مساوى جسيمة : السأم والرديلة والحاجة^(٣٥) . ويقرر كانديد أن يخلدوا هذا الرجل التركى « ويعمد

هو وكوينجوند وأصدقاؤهما إلى فلاح قطعة من الأرض يزرعون فيها غذاءهم وتقوم المرأة ذات الردف الواحد وبغى صلح شأنها وصديقها الأخ الراهب بمهام كثيرة . إنهم يجدون في العمل ويلقون في عملهم نصيباً ، ويأكلون ، ويتولاهم بعض الضجر ولكنهم إلى حد ما راضون قانعون . ويحاول بانجلوس أن يثبت أن هذا أفضل العوالم الممكنة ، حيث أن معاناتهم أدت بهم إلى هذا الهدوء والسلام . فيجيب كانديد بأن هذا كلام جميل ولكن علينا أن نزرع جنتنا . وتنتهى القصة القصيرة .

وكان فولتير قد حاول تضمين قصة المغامرة والحب شيئاً من الهجاء اللاذع لما ذهب إليه لينتز من تبرير العدالة الإلهية في وجود الشر ، ولتفاوت بوب ، ولمساوى الدين ، وحوادث العشق والغرام في الأدبار . والصراع الطبقي والفساد السياسى ، والحيل الشرعية والرشاوى القضائية ، ووحشية قانون العقوبات ، وجور الاسترقاق . وما تجره الحرب من خراب ودمار . وكانت قصة كانديد قد ألفت حين كانت حرب السنين السبع دائرة سجالاً بين النصر والخراب والدمار والموت . وأطلق فلوبرت على تحفة فولتير خلاصة أعماله^(٣٦) . ولم تحل كانديد من عيب معظم الهجاء وهو المبالغة السخيفة ، ولكن فولتير كان يعلم تمام العلم أن قليلاً من الرجال يواجهون هذه السلسلة المريرة من الكوارث مثلما واجهها كانديد . ولا بد أنه عرف كذلك أنه على الرغم من أنه حسن أن يزرع الإنسان حديقته وأن يتقن المرء عمله الفردى المباشر . فانه من الخير كذلك ألا تقتصر أرباحه على ما يعود عليه من حقله . أنه فلاح حديقته في فرنى على أحسن وجه . ولكنه ملأ أوربا صراخاً واحتجاجاً على إعدام كالاس .

٥ - ضمير أوروبا

كان جان كالاس أحد أفراد جماعة صغيرة من الهييجونوت - البروتستانت الكافنيين تركت في تولوز بعد قرن من الاضطهاد ومصادرة الأملاك والتحول الجبرى إلى الكاثوليكية . ولم يستبعد القانون الفرنسى البروتستانت من الوظائف

العامّة فحسب ، بل أعلن كذلك أنه لا يسوغ لهم أن يشتغلوا محامين أو أطباء أو صيادلة أو قابلات أو باعة كتب أو صانعين أو بقالين . وإذا لم يكن قد سبق تعميدهم فليس لهم أية حقوق مدنية أيا كانت . وإذا لم يكن قد تم زواجهن على يد قسبس كاثوليكي كان زواجهن باطلا ، وكأنما يعيشون مع خليلات لاحليلات ، واعتبر أبناؤهم غير شرعيين^(٣٧) والخدمات والقداسات البروتستانتية محظورة . وكان الرجال الذين يحضرونها يعاقبون بارسالهم للتجديف مدى الحياة . أما النساء فكان عقابهن السجن مدى الحياة . وعقاب الكهنة الذين يقيمون مثل هذه القداسات الاعدام . ولم تكن هذه القوانين مطبقة تطبيقاً صارماً في باريس أو قريباً منها ، وتفاوتت صرامة هذه التوانين تبعاً للبعد عن العاصمة .

وكانت الاحقاد الدينية حادة بصفة خاصة في جنوب فرنسا . وكان الصراع بين الكاثوليك والهييجونوت عنيفاً لا هوادة ولا رحمة فيه . وكانت الفظائع التي ارتكبها الطرفان لاتزال حية في الأذهان . وكان الكاثوليك المنتصرون قد قتلوا في تولوز في ١٥٦٢ ثلاثة آلاف من الهييجونوت ، كما حكم برلمان تولوز على مائتين آخرين بالتعذيب حتى الموت^(٣٨) . وأحيا كاثوليك تولوز في كل عام ذكرى هذه المذبحة في احتفالات شاكرة ومواكب دينية مهيبّة . وطافت نقابات المهنيين ومختلف طبقات النبلاء ورجال الدين وجماعات « النادمين البيض والسود والرماديين » بشوارع المدينة في هيبة وجلال حاملين مخلفات رهيبة : جمجمة رئيس أساقفة تولوز الأول ، قطعة من ثوب العذراء . وعظام أطفال قتلوا بمناسبة أسطورة هيرود « قتل الأبرياء » . وكان من سوء حظ كالاس أن تكون السنة القادمة هي ذكرى مرور مائتي عام على أحداث ١٥٦٢ .

إن برلمان تولوز الذي كان قوياً مسيطراً في لنجدوك كما كان برلمان باريس في وسط فرنسا . كان يتحكم فيه الجانيسنيون - أي أنه برلمان كاثوليكي مع نزعة قوية إلى صرامة الكلفنيه وتزمتها وكآبتها . ولم يدخر وسعاً في إثبات أنه أشد تمسكاً بالكتلكه من اليسوعيين أنفسهم . وفي ٢ مارس

١٧٦٦ حكم بالاعدام على الراعى الهيجونوتى روشيت لإقامته قداساً بروتستانتيًا ، كما حكم بالاعدام على ثلاثة رجال من كومت دى فوا حاولوا تخليص روشيت من أيدي الشرطة^(٣٩) . وفى ٢٢ مارس أمر بتعذيب واعدام صاحب متجر بتهمة قتله لابناً له عرض أن يعتنق المذهب الكاثوليكي .

وإنصافاً للمتعبين ينبغى القول بأن نظم العقيدة المسيحية عند الكلفنيين وضعت أساساً لاعتقادهم بأنه من المرخص للوالد أن يقتل الابن العاق : وفى الأوقات التى كان القانون لا يزال فيها ضعيفاً . والأسرة فيها هى المصدر الرئيسى أو الوحيد تقريباً للنظام والانضباط . منحت معظم المجتمعات الآباء حق إعدام أبنائهم أو الإبقاء عليهم . ولابد أن شيئاً من هذا القانون الأبوى كان يعمل فى ذهن كلفن حين كتب « إن الرب يأمر بقتل الأبناء العاقين لأبائهم^(٤٠) . وأشار كلفن إلى سفر التثنية (الاصحاح ٢١ : الآيات ١٧ — ٢١) وإلى إنجيل متى (الاصحاح ١٥ : الآيات ٤ — ٦) إن هذه الآيات على أية حال تبيح للآباء أن يتهموا الابن المعاند أمام شيوخ مدينته ، الذين يمكنهم حينئذ أن يحكموا باعدامه (يرجمونه بالحجارة حتى يموت) . ولكن الكاثوليك المهتاجين فى جنوب فرنسا إرتابوا فى قدرة الهيجونوت على اللجوء إلى شيوخ المدينة ومن ثم يأخذون تطبيق هذا القانون القديم على عاتقهم هم أنفسهم .

ويجدر بنا أن ننظر من خلال هذه الخلفية الكثيرة القائمة إلى قضية جان كالاس .

أنه كان تاجر ملابس كتانية . وكان له مخزن فى الشارع الرئيسى فى تولوز حيث أقام لمدة أربعين عاماً . وكان له ولزوجته أربعة أبناء وبنات واحفظوا طيلة ثلاثين عاماً بمرية كاثوليكية لاولادهم ، هى جين فنيير حتى بعد أن حرلت أحد الأبناء : لويس إلى الكثلركة . وأقام لويس آنذاك فى شارع آخر تلميذاً صناعياً يتقاضى من أبيه راتباً بانتظام . واشتغل الابن

الأصغر ، دونات ، تلميذا صناعياً في نيم وعاش الابنان الآخران ، بيير ومارك أنطوان مع والديهما . وكان مارك أنطوان ، وهو أكبرهما سنّاً ، قد درس القانون ، ولكنه حين تهيأ للاشتغال به وجد أن كل الأبواب موصدة إلا أمام الكاثوليك . وحاول أن يخفى مذهبه البروتستانتي ، وأن يحصل على شهادة بأنه كاثوليكي ولكن كشف أمره . وما كان له إلا أن يختار بين أمرين أحلاهما مر : إما أن يتخلى عن مذهبه البروتستانتي أو يضيع دراسة القانون هباء . واستبد به التفكير وعراه الاكتئاب ، وانغمس في لعب الميسر والشراب وكان يجب أن يعيد عن مسامع الناس مناجاة هملت للانتحار^(٤١) .

وفي ١٣ أكتوبر ١٧٦١ اجتمعت أسرة كالاس في دارها فوق الخزن . وكان جوبير لافاييس . وهو أحد أصدقاء مارك أنطوان ، قد حضر لتوه من بوردو وقبل دعوة الوالد لتناول العشاء . ونزل مارك أنطوان إلى المتجر وتساءل بيير ولافاييس عن السبب في عدم عودته ، فنزلاً يستطلعان الأمر فوجداه متدلياً من قضيب كان قد وضعه بين عضادتي الباب . فأنزلاه وناديا على الوالد واستدعيا طبيباً وحاول الجميع إنقاذه ولكن الطبيب أكد وفاته . وهنا ارتكب الوالد خطأ جسيماً . لقد عرف إن هناك قانوناً نافذ المفعول يقضى بأن يجر المنتحر عارياً في شوارع المدينة . وأن يرجه الأهالي بالطين والحجارة ثم يشنق وتصادر أملاكه للدولة . وتوسل الوالد إلى أسرته وحاول إقناعها بالقول بأن الوفاة طبيعية^(٤٢) وفي نفس الوقت كانت صيحات بيير واستدعاء الطبيب قد أدت إلى احتشاد جمع من الناس أمام باب الخانوت . وجاء الضابط واستمع إلى القصة التي رويت له . ورأى الحبل وشاهد الأثر الذي تركه في عنق الرجل الميت . وأمر الأسرة ولافاييس وجين فنين بالمشي إلى دار البلدية . وهناك احتجزوا في زنانات مستقلة . وفي اليوم التالي سئل كل منهم فأقروا جميعاً أن الوفاة غير طبيعية وأكدوا أنه إنتحار . ولكن مدير الشرطة أبي أن يصدقهم ، وأتهمهم بقتل مارك أنطوان حتى

تحولوا بينه وبين الارتداد إلى الكثلركة . وأقر الاتهام الأهالي وكثير من أعضاء برلمان تولوز ، وأعمت حتى الانتقام بصائر الناس .

قد يكون من الصعب الآن أن يصدق أحدا أن يعهد والد إلى قتل ابنه ليحول دون تغيير مذهبه الديني ، وقد يكون مرجع ذلك إلى أننا نفكر تفكيراً تغلب عليه النزعة الفردية . وبعد قرنين من الزمان تدهورت فيهما العقيدة الدينية . وفكر أهل تولوز مجتمعين كجمهور ، والجماهير قد تشعر ولكن لا تفكر ، واشتدت صورة الغضب وحى الانتقام نتيجة احتفال أقامه « النادمون البيض » في كنيستهم ، وعلقوا فوق نعش خال هيكلا عظيما يحمل في إحدى يديه نقشاً يدل على « تجنب الهرطقة » وفي الأخرى سعفاً يرمز إلى الاستشهاد ، وتحت هذا اسم « مارك » انطوان كالاس » « واقترضوا أن الشاب لم ينتخر فدفنوا الجثة باحتفال مهيب في كنيسة سان ستيفن . وعبثا احتج بعض رجال الدين على أن هذا استباق للحكم في قضية القتل^(١٣) .

وجرت محاكمة آل كالاس أمام الاثنى عشر قاضيا في محكمة تولوز البلدية . وصدرت مذكرة تحذير تتلى في ثلاثة أيام أحد متواليه في كل كنيسة تدعو للأدلاء بالشهادة كل من يعرف شيئا عن ظروف الوفاة . وتقدم للشهادة عدة أشخاص وشهد أحد الحلاقين بأنه سمع في تلك الليلة المشثومة صراخا من بيت أسرة كالاس : آه يالهي أنهم شنفونني » وادعى آخرون أنهم سمعوا مثل هذه الصيحات . وفي ١٠ نوفمبر ١٧٦١ إدانت محكمة تولوز البلدية جان كالاس وزوجته وأبنة بيير ، وأصدرت حكما بأعدامهم شنقا ، وحكمت على لافاييس بالتجديف في المراكب الشراعية ، كما حكمت على جين فنيير بالسجن لمدة خمسة أعوام . وكانت المربية الكاثوليكية قد أقسمت اليمين على براءة مخلومها البروتستانت .

واستؤنف الحكم أمام برلمان تولوز الذي عين هيئة من ثلاثة عشر قاضيا استمعوا إلى ثلاثة وستين شاهداً آخرين . وإستند كل الشهود إلى الشائعات واستمرت المحاكمة ثلاثة أشهر لإحتجزت فيها أسرة كالاس ولا فاييس منفردين

وأدان الحكم النهائي الوالد فقط . ولم يستطع أحد أن يوضح كيف تسنى لرجل في الرابعة والستين أن يتغلب دون مساعدة على أبنه الناضج المكتمل النمو ويشنقه . وأملت المحكمة أن يعترف كالاس تحت ضغط التعذيب ، ولكم من مرة نصحوه بالاعتراف . وكم من مرة أكد أن مارك أنطوان إنتحرق . وبعد راحة مدتها نصف ساعة خضع للتعذيب الشديد الاستثنائي حيث صبوا في حلقه نحو « جالونين » من الماء ولكنه أصر على أنه يرى . ثم صبوا في حلقه عنوه جالونين آخرين حتى انتفخ جسمه إلى ضعف حجمه الطبيعي . ولكنه ظل مصرا على براءته فسمح له بالتخلص من الماء ، فأخذوه إلى ميدان عام أمام الكاتدرائية ووضع على صليب وبأحدى عشرة ضربة من قضيب حديدى هشم الجلاد أطرافه في موضعين وأعلن الرجل براءته ، وهو يهيب بيسوع المسيح لنجدته : وبعد ساعتين من الآلام المبرحة شق ثم شدوا جثمانه إلى خازوق وأحرق (١٠ مارس ١٧٦٢)^(٤٤) .

وأطلق سراح المسجونين الآخرين . ولكن الدولة صادرت ممتلكات كالاس . وأسرعت الأرملة وبيير إلى مأوى خفى في مونتويان وأرسلت البنات إلى ديرين مختلفين . ولما رأى دونات أنه مهدد بالخطر في نيم هرب إلى جنيف . وإذا سمع فولتير بالمأساة دعا دونات إلى ملاقاته في لى دليس في ٢٢ مارس وكتب فولتير إلى داميلافيل « سألت دونات إذا كان أبوه وأمه من ذوى الطبع الحاد ، فأجاب أنهما لم يضربا أحدا من أبنائهما قط . وأنه ليس ثمة آباء أشد منهما حناناً وتسامحاً^(٤٥) . واستشار فولتير تاجرين من جنيف كانوا قد أقاما مع كالاس في تولوز ، فأكدوا صدق ما قال دونات . وكتب إلى بعض الأصدقاء في لنجدوك فأجاب الكاثوليك والبروتستانت جميعهم بأن جريمة الأسرة كانت فوق أى شك معقول^(٤٦) وأنصل فولتير بالأرملة فبعثت إليه برد واضح فيه صدقها وإخلاصها كل الوضوح ، إلى حد أنه حفزه إلى العمل والتصرف . فأهاب بالكاردينال دى برينس . ودارجتال ودوقه دى أنفيل ومركيزة دى نيقولاى والدوق دى قبلار والدوق دى ريشيليو ليتوسلوا

إلى وزيرى الملك شوازيل وسانت فلورين ليأمرأ باعادة النظر فى المحاكمة .
والحق دونات بأسرته وأحضر بيير كالاس إلى جنيف وأقنع مدام كالاس
بالأقامة فى باريس حتى يكون من الميسور سؤالها والرجوع إليها . واستخدم
محامين ليشرحوا عليه بما يجب إتخاذه من إجراءات فنية قانونية فى القضية .
ونشر كتيباً تحت عنوان « الوثائق الأصلية فى وفاة السيد كالاس^(٤٧) » ، وابعه
بنشرات أخرى . وأهاب بسائر الكتاب أن يسخروا لإقلامهم لابقاظ ضمير
أوروبا وأثارة الشعور فيها . وكتب إلى داميلافيل « أحتج ودع الآخرين
يحتجون على قضية أسرة كالاس ، أرفعوا عقيريتكم بالاحتجاج على
التعصب^(٤٨) » كما كتب إلى دالمير « أرفع صوتك فى كل مكان ، إستحلفك
بالله من أجل آل كالاس ضد التعصب . إنهم فقدوا اعتبارهم نتيجة أتهمهم
بهذا الجرم الشائن . وهذا هو سبب شقايم وتعاستهم ، وحث على التبرع
بالأموال لسد نفقات هذه الحملة التى تحمل الجزء الأكبر منها حتى هذه اللحظة .
وأنهالت عليه التبرعات من كل جانب ، ومن ملكة انجلترا وإمبراطورة
روسيا وملك بولنده . ووافق محام لامع من باريس على إعداد القضية لرفعها
إلى مجلس الدولة دون أن يتقاضى أجراً . وقصدت بنات كالاس إلى باريس
للحاق بوالدتهن . وحصلت أحدهن على رسالة من راهبة كاثوليكية تستدر
العطف على آل كالاس^(٥٠) وفى ٧ مارس ١٧٦٣ أستقبل وزراء الملك الأم
وبناتها . واجتمع الرأى على ضرورة نظر القضية من جديد . وصدر الأمر
باحضار كل الوثائق والمستندات المتعلقة بالموضوع من تولوز .

ولكن قضاة تولوز لجأوا إلى مائة حيلة للإبطاء فى جمع الوثائق واحالتها .
وفى أثناء ذلك الصيف كتب فولتير ونشر بحثه الهام « رسالة عن التسامح »
ورغبة منه فى إزدياد أقبال الناس عليها وأفتتنهم بها كتبها بأسلوب يتسم
باعتنال يثير الدهشة والعجب . أنه أخفى أنه المؤلف ، وتحدث حديث رجل
مسيحى تقى متمسك بالدين مؤمن بالخلود ، وامتح أساقفة فرنسا على أنهم
سادة مهذبون ويفكرون ويعملون بشكل نبيل يتناسب مع شرف محتدم^(٥١) .

وزعم أو تظاهر بأنه يرتضى المبدأ الذى يقول بأنه « لاخلاص بغير الكنيسة »^(٥٢). ولم تكن الرسالة موجة إلى الفلاسفة بل إلى رجال الدين الكاثوليك أنفسهم ، ومع ذلك لم تخل من الجرأة والتهور لأنه كثيراً ما نسى قراءه .

وبدأ فولتير رسالته بالحديث عن محاكمة كالاس وإعدامه وعرض تاريخ التسامح وبالغ فى الكلام عنه فى حالة اليونان ورومه . واستبق جييون فى محاولة إقامة الدليل على أن اضطهاد المسيحيين للهراطقة فاق بمالا يقاس اضطهاد الرومان للمسيحيين حيث كان الهراطقة « يشنقون أو يغرقون أو تحطم أجسامهم فى عجلة التعذيب أو يحرقون بسبب حب الله »^(٥٣) ودافع عن الإصلاح الدينى باعتباره ثورة لها ما يبررها ضد بيع البابوية لصكوك الغفران ، وهى البابوية التى حط من قدرها حوادث غرام البابا الأسكندر السادس وحوادث القتل التى أرتكبها قيصر بورجيا ابن البابا . وأبدى دهشته وشدة أستيائه عندما اطلع على محاولة حديثة لتبرير مابشة سانت برثلميوس (*) وسلم بأن البروتستانت كانوا كذلك غير متسامحين (**) وعلى الرغم من ذلك أوصى بإباحة العبادة البروتستانتية فى فرنسا وعودة الهيجونوت المنفيين إليها . « أنهم لا يطلبون الا حماية القانون الطبيعى لهم ، وإقرار صحة زواجهم ، والأطمئنان على أحوال أبنائهم وحقهم فى الوراثة عن آبائهم . » وتحرير

(*) كان هذا فى « اعتذار لويس الرابع عشر » ١٧٦٢ بقلم القسيس كافيراك وقد استنكر كثير من رجال الدين الكاثوليك هذا الكتاب^(٥٤) .

(**) وبما كان الوعاظ اللوثريون والكالفينيون قليلي الإنجاء إلى الشفقة والرحمة قساه القلوب غير متسامحين كذلك حين ينتقدون مخالفيهم بقسوة . إن القانون الوحشى الذى يحظر على أى كاثوليكى روماني الإقامة فى بلاد معينة لأكثر من ثلاثة أيام لم يبلغ بعد — رسالة عن التسامح المطلق فى أعمال فولتير ٢١ أ ص ٢٥٧ أنظر شجب فولتير لقانون الهيجونوت المتعصب البعيد عن التسامح فى مقالة « داود » فى القاموس الفلسفى .

أشخاصهم ، ولا يطالبون بكنائس عامة ولا بأى حق فى الوظائف البلدية ولا فى المناصب الرفيعة^(٥٥) .

وعلى الرغم من هذا التحديد البارع عرف فولتير التسامح بقوله :

« هل لى إذن أن اقترح أن يكون كل إنسان حراً فى أتباع ما يملكه عليه عقله هو ، ويؤمن بما يوحى به إليه عقله المستنير أو المخدوع أيا كان ؟ وحقا شريطة ألا يعكر صفو النظام العام . . . وإذا كنت تصر على القول بأن عدم الإيمان بالديانة السائدة جريمة فانك بذلك تهتم المسيحيين الاولين وأبائك الاقدمين وتبرر عمل من تلومهم على اضطهادهم وتعذيبهم وإذا كان ينبغي أن يكون للحكومة الحق فى معاقبة الناس على أخطائهم فمن الضروري أن تتخذ هذه الأخطاء شكل الجرائم . ولن تتخذ الأخطاء شكل الجرائم إلا إذا ازعجت المجتمع وعكرت صفوه . وهى تقلق بال المجتمع إذا ولدت التعصب . ومن ثم يجدر بالناس أن يتفادوا التعصب ليكونوا جديرين بالتسامح »^(٥٦) .

وختم فولتير حديثه بالتوجه إلى الإله « أنك لم تخلق لنا القلوب ليكره بعضنا بعضا ، ولا الأيدي ليقتل الواحد منا الآخر . فلنسلم بأن الواحد منا قد يعين الآخر على احتمال عبء الحياة المؤلمة الزائلة . نرجو الايستخدم الناس هذه الفروق الطفيفة فى الملابس التى تستر أجسامنا الضعيفة ، وفى الطرق التى نعبئها عن أفكارنا وفى عادتنا السخيفة وقوانيننا القاصرة . . . وباختصار هذه الاختلافات اليسيرة الموجودة بين الذرات المسماة بالناس . . . تقول نرجو ألا يستخدمها الناس علامات على الكراهية والاضطهاد المتبادلين ونرجو أن يتذكر الناس جميعا أنهم أخوة »^(٥٧) .

ولسنا ندرى أى نصيب أسهم به هذا النداء فى مرسوم التسامح الذى أصدره لويس السادس عشر فى ١٧٨٧ . وهل وصل إلى أستماع وزراء لويس الخامس عشر وحرك مشاعرهم . وعلى أية حال وبعد معوقات جمّة

امتنحن الله بها قلوب آل كالاس أعلن مجلس الملك في ٩ مارس ١٧٦٥ أن أتهام جان كالاس بأطل ونطق ببراءته وحصل شوازيل من الملك على منحه قدرها ثلاثون ألفا من الجنيهات تعويضا للأرملة وأبنائها عن فقد ممتلكاتهم. ولما وصلت أنباء هذا الحكم إلى فرنى بكى فولتير فرحا .

وفي الوقت نفسه (١٩ مارس ١٧٦٤) أمرت المحكمة البلدية في Mazamet في جنوب وسط فرنسا بأعدام بيير بول سيرفن Sirven وزوجته بتهمة قتل أبنتهما اليزابث للحيلولة بينها وبين التحول إلى الكاثوليكية . وقضى الحكم بأن تشهد البنتان الباقيتان على قيد الحياة إعدام والديهما^(٥٨) وكان ينبغي أن يتم هذا الاجراء بصورة رمزية لأن الأسرة كانت قد هربت إلى جنيف (١ إبريل) وكانت قد أبلغت فولتير بقصتها .

وكان سيرفن بروتستانتيا يقيم في كاستر Castre على بعد نحو أربعين ميلا إلى الشرق من تولوز . وفي ٦ مارس ١٧٦٠ اختفت الأبنة الصغرى اليزابث وعبثا حاول والداها البحث عنها . واستدعاهما أسقف كاستر وأبلغهما أنه كان قد أرسل الفتاة إلى أحد الأديار ، بعد أن أفضت إليه برغبتها في أن تصبح كاثوليكية . وسمح القانون الفرنسي الذي سن في عهد لويس الرابع عشر للسلطات الكاثوليكية بانتزاع الولد فوق سن السابعة من بين أحضان والديه ، ولو بالقوة عند الاقتضاء . إذا طلب التحول إلى المذهب الكاثوليكي . وأستبدت الأوهام باليزابث في الدير وتحدثت إلى الملائكة ومزقت ملابسها عن جسمها وتوسلت أن تضرب بالسياط . وبأنت الراهبات في حيرة من أمر اليزابث ، وكيف يتصرفن معها ، فابلغن الأسقف بنجبرها ، فأمر باعادتها إلى والديها .

وفي يولية ١٧٦١ أنتقلت الأسرة إلى سانت آبي St. Abby على بعد ٥٠ ميلا من كاستر . وهناك في إحدى ليالى ديسمبر غادرت اليزابث غرفتها - ولم تعد . وفي ٣ يناير وجد جثمانها في بئر . ولم يكن أهالي سانت آبي ميالين إلى أتهام أسرة سيرفن بقتلها ومثل ٤٥ شأهدا أمام المحكمة المحلية . فعبروا

جميعا بلا استثناء عن رأيهم في أن الفتاة إنتحرت أو أنها سقطت في البئر بمحض الصدفة . وأرسل المدعى المحلى ترنكييه Trinquier مذكرة بالحادث إلى المدعى العام في تولوز فأصدر إليه تعليماته بمواصلة السير في القضية مع إفتراض أن سيرفن مذنب : وبدا هذا غير جائز لأن سيرفن كان متغيبا عن البلدة ليلة اختفاء اليزابث . كما كانت زوجته عجوزا واهنة . وكانت إحدى البنات حبلى . وكاد يكون من غير المعقول أن تكون إحدى هاتيك السيدات قد دفعت بالبنث إلى البئر دون أن يسمع لها صراخ . ومع ذلك فأن ترنكييه أصدر في ٢٠ يناير أمرا بالقبض على سيرفن .

وعلم سيرفن أنه قبل ذلك ينحو شهرين كانت محكمة تولوز قد أصدرت حكما بأعدام جان كالاس بتهمة مماثلة بناء على: أدلة مشتببه فيها غير قاطعة . وإذا أستسلم للأعتقال والتحقيق والمحاكمة فإن قضيته ستعرض في النهاية على برلمان تولوز ، ولما لم يكن يثق في هذه المحاكم فإنه حمل زوجته وبناته في أو اسط الشتاء عبر فرنسا وفوق جبال السفن Sevennes إلى جنيف على أمل أن يهب المدافع عن كالاس لمعاونته .

وكان فولتير لايزال منهمكا في حملته من أجل كالاس فرأى من سداد الرأي ألا يشغل الذهن الفرنسي بقضيتين في وقت معاً . وأسهم في الأخذ بيد الأسرة التي كانت أملاكها قد صودرت ، ولكن عندما أقحمتها سلطات تولوز في الموضوع استجابة لطلب وثائق مستندات قضية كالاس ، استأنفه فولتير الهجوم بالبده في شن حملة من أجل سيرفن ، وعادود الكرة في طلب المعونة والتبرعات التي جاءت من فردريك الثاني ملك بروسيا وكريستيان السابع ملك الدنمرك وكترين الثانية قيصرية روسيا وستانسلاس بونيا توسكى ملك بولنده . ورفضت محكمة مازامى طلب نسخة من أوراق التحقيق .

ويجدر بنا ألا نسهب في إيراد تفاصيل الصراع في هذه القضية فقد ظلت منظورة حتى نقض برلمان تولوز آخر الأمر في ١٧٧١ حكم محكمة أول.

درجة وقضى ببراءة أسرة سيرفن وأعاد إليها أملاكها . وقال فولتير :

« لقد استغرق صدور الحكم باعدام هذا الرجل ساعتين واستغرق النطق ببراءته تسع سنوات (٥٩) .

وروع فولتير حين علم وسط هذا الجهد الكبير والشغل الشاغل أنه هو نفسه متورط في قضية برزت فجأة في آيفيل على شاطئ المانش . ذلك أنه في ليلة ٨ - ٩ أغسطس شوه صليب خشبي (تمثال يمثل المسيح مصلوباً) على جسر بونت نيف على نهر السوم كما لطخ صليب آخر في مقبرة سانت كاترين بالأوساخ والأقذار . وفزع رجال الدين والأهالي حين ما اكتشفوا تنديس المقدسات على هذا النحو وقصد أسقف أميان إلى آيفيل وقاد وهو حافي القدمين موكباً اشترك فيه كل السكان تقريباً يلتمسون المغفرة من الرب . وقرئ في كل الكنائس تحذير ينذر بتوقيع العقوبة الصارمة على كل من كان في مفرده أن يلقي شيئاً من الضوء على هذا السر ولم يتقدم اللأدلاء بما يعلم . واستمع القاضي دوفال إلى ٧٧ شاهداً وذكر بعضهم أنهم لاحظوا ثلاثة شبان يعمرون بموكب عيد الجسد دون أن يركعوا أو يخضعوا لقباعته . وزعم آخرون إن عصابة من شبان آيفيل ، من بينهم ابن دوفال ، درجوا على السخرية من المواكب والاحتفالات الدينية والتغنى بأغان ماجنة (٦١) . وفي ٢٦ أغسطس صدرت مذكرات إلى جيار أتالونند وشيفالييه جان فرنسوا ليفيردى لآبار وإلى شاب في السابعة عشرة يعرفه التاريخ باسم موازنل فقط . وهرب أتالونند إلى بروسيا . وقبض على موازنل Moisel ودعى لآبار . وحصل موازنل على عفو جزئي باعترافه بأنه هو والآخرون ارتكبوا هذه الأعمال المزعومة . واتهم دى لآبار بأنه بصق على صور القديسين وبأنه أنشد ابتهالاً بذيئاً اسمه «لامادلين» وبأنه أعاره القاموس الفلسفي «رسالة إلى فراشه لفولتير» ، وزعم أنه رأى أتالونند يضرب الصليب فوق القنطرة ويلطخ الصليب بالأقذار في المقبرة .

وكان لآبارحفيد قائد أخنى عليه الدهر واعترف بأنه مهرطق . وروى أحد الشهود أن لآبار عندما سئل لماذا لم يخلع قبعته أمام موكب عيد القربان أجاب بأنه « اعتبر القربان قطعة من الشمع ولم يستطع أن يفهم كيف يقدم أى إنسان على عبادة إله من العجيين . وأقر لآبار بأنه ربما قال شيئاً من هذا القبيل وأضاف إنه كان قد سمع شباناً آخرين يبدون شيئاً من مثل هذه المشاعر والآراء وإنه لاضير عليه من مثلها . كذلك وفشت مكتبته فوجد فيها قاموس فولتير وكتاب هلفشيوس « الذكاء وكتب أخرى تهاجم الدين وفى أول الأمر نفي علمه بانتهاك أثالوند للحرمات المقدسة فلما علم باعتراف موازنل بذلك عاد فأكد صحته . وكانت الجريمة النهائية التى اتهم بها دى لآبار هى التجديف على الله والقربان المقدس والعذراء المقدسة والدين والوصايا الالهية وتعاليم الكنيسة والتغنى بأغنيات مجاؤتين بالتجديف اللعين البغيض ووضع علامات التقديس والاجلال على بعض الكتب السيئة السمعة وانتهاك حرمة علامة الصليب وسر تقديس النيذ والبركات التى تمنحها الكنيسة وآتى يقرها المسيحيون^(٦١) .

وفى ٢٨ فبراير ١٨٦٦ أصدرت محكمة آيفيل حكماً . وهو يقضى بتعذيب لآبار واثا لوند عند اعتقالهما حتى يوبحا بأسماء شركائهما . كما يقضى عليهما بالكفر علناً أمام الكنيسة الرئيسية فى المدينة ويقطع لسانهما من الجذور وضرب عنقهما ثم إحراق جثثهما حتى تصيرا رمادا . كما يجب إلقاء قاموس فولتير الفلسفى فى نفس النار . واستؤنف الحكم أمام برلمان باريس . وطالب بعض الأعضاء بتخفيفه . فرد العضو باسكويه بأن الأمر يحتاج إلى إنذار وعقوبة رادعة لاستئصال شأفة الكفر الذى يهدد الاستقرار الاجتماعى والأخلاق . وحاول التذليل على أن المحرم الحقيقى هو فولتير ، ولكن حيث أنه لاسبيل أمام البرلمان للوصول إلى أس البلاء فيجب أن ينال تلميذه جزاءه بدلا منه . وصوت عضوان على إبدال الحكم وتخفيفه وصوت خمسة عشر عضوا على تنفيذه برمته . وفى أول يولية ١٧٦٦ نفذ

الحكم باستثناء قطع اللسان . ولقى لآبار مصيره دون توريط أحد من أصدقائه .
وفصل الجلاد الرأس عن الجسد بضربه مسددة تسديداً محكما مما نال إعجاب
الجمهور واستحسانه^(٦٢) .

وصنع فونتير لصرامه العقوبة وأحس بأنها وحشية خليقة بمحكمة التفتيش
الإسبانية في أسوأ أحوالها ، وكتب أسقف أنسى Anncey إلى المحكمة الفرنسية
يطلب تطبيق العقوبات الواردة في إلغاء مرسوم نانت على يد فولتير الذي
كتب إلى دالمبير يقول إن هذا الأسقف الوغد لا يزال يقسم أنه سيرانى أحرق
في هذه الدار الدنيا أو في الدار الآخرة . . . وتجنباً للاحتراق فاني أرقد
في مقدار من الماء المقدس^(٦٣) . وخشية إستدعائه للمثول أمام برلمان ديجون
لأنه الفرصة لتجربة المياه المعدنية في رول بسويسرا . ثم عاد إلى فرني
ليستأنف جهوده من أجل سيرفن .

واقترح آنذاك على دالمبير وديدرو أن يبرحاهم وسائر الفلاسفة فرنسا
تحت جناح الليل : ويقيموا في كليفرز تحت حماية فردريك الأكبر . ولم يتحمسا
كما لم يتحمس فردريك لهذه الخطة . وأقر الملك بأن عقوبة دى لآبار كانت
متطرفة في صرامتها أما هو فكان يرى من جانبه الحكم على الشاب بقراءة
« خلاصة اللاهوت » لتوماس أكويناس ، فهذا في نظره . مصير أسوأ من
الموت ، ثم استطرد فردريك ليزود فولتير بشيء من النصيحة :

« أن ما حدث في آبفيل كان مأساة ولكن ألم يخطيء أولئك الذين
عوقبوا ؟ هل لنا أن نهاجم مباشرة الحزازات والاحقاد التي غرسها الزمن
في أذهان الأمم ؟ وهل يجوز لنا إذا إردنا أن ننعّم بحرية الفكر أن نحرق
الديانة السائدة . أن الإنسان الذي لا يهدف إلى تعكير الصفو وأثارة القاق
نادراً ما يضطهد . وتذكر قول فونتيل « إذا كانت يدي مملوءة بالحقائق
فينبغي على أن أفكر أكثر من مرة قبل أن أفتحها »^(٦٤) .

أما فيما يتعلق بمستعمرة الفلاسفة المقترحة في كليفرز فإن فردريك عرض
أن يبسط عليهم حمايته شريطة أن يحافظوا على السلام ويحترموا عقيدة الشعب .

وأضاف « أن الرجل المتوسط لا ينبغي له أن يتنور . . . وإذا كان للفلاسفة أن يشكّلوا حكومة فإن الناس بعد ١٥٠ عاماً سيصطنعون خرافات جديدة ، فيصاؤون لأصنام صغيرة أو للأجداث التي دفنت فيها رفات عظماء الرجال ، أو يتضرعون إلى الشمس أو يعمدون إلى شيء من مثل هذا الهراء . إن الخرافة موطن ضعف في ذهن الإنسان وجزء لا يتجزأ منه ولا ينفصل عنه ، إن هذا الضعف كان موجوداً وسيظل موجوداً دائماً ^(٦٥) »

وتابع فولتير حملته وأخرج « موجز عن موت شيفاليه دي لا بار . وأرسل إلى أصدقائه المالكين يطلب إليهم التوسط لدى لويس الخامس عشر ليرد إلى الشاب المييت اعتباره بشكل أو بآخره . ولما أخفقت هذه المساعي أرسل إلى لويس السادس عشر (١٧٧٥) رسالة عنوانها « صرخة الدم البريء » . ولم ينقض الحكم على لا بار قط ولكن رضيت نفس فولتير حين رأى ترجو يعيد النظر في قانون العقوبات الذي أجاز إعدام شاب نتيجة أخطاء يبدو أنها تستحق عقوبة أقل من ضرب العنق . وتابع فولتير بنشاط يستحق التنويه به في مثل سنه ، قيادة هذه الحملة الصليبية حتى آخر حياته ضد أفراط الكنبسة والدولة .

وفي ١٧٦٤ ظفر بإطلاق سراح كلود شومونت الذي كان قد حكم عليه بالتجديف في السفن الشراعية لحضوره صلاة بروتستانتية . ولما أطاحوا برأس كونت توماس دي لالى (١٧٦٦ في باريس) القائد الفرنسي الذي هزم أمام الإنجليز في الهند بتهمة الخيانة والجبن فإن فولتير تلبية لنداء ابن لالى ، كتب مجلداً من ٣٠٠ صحيفة تحت عنوان شذرات تاريخية عن الهند يرى فيه الكونت ، واستحث مدام دي بارى للتوسط لدى لويس الخامس عشر وألقى الحكم ١٧٧٨ قبل وفاة فولتير بزمان قصير .

إن هذه الجهود الشاقة أرهقت المناضل الذي بلغ الثمانين . ولكنّها جعلت منه بطل فرنسا المتحررة . وأورد ديدرو في كتابه (ابن أخى رامو) أن فولتير بلغ الذروة في كتابه محمد ، ولكنى كنت أفضل أن أدافع عن كلاس . ^(٦٦)

وقال بوماريه وهو قسيس بروتستانتي في جنيف لفولتير — يبدو كأنك تهجم المسيحية ولكنك تؤدي عمل الرجل المسيحي^(٦٧) وأسهم فردريك على الرغم من كل حرصه وحذره في تقدير وإجلال الرجل الذي جعل من نفسه « ضمير أوروبا » ، حيث يقول « كم هو جميل أن يسمع فيلسوف صوته لكل الناس من ميكنه . وأن يجبر الجنس البشري الذي يتكلم هذا الفيلسوف باسمه القضاة على إعادة النظر في الأحكام الجائرة وإذا لم يكن ثمة شيء آخر يتهجد بفضل فولتير ، فإن هذا وحده كاف ليحظى بمكان بين من أحسنوا إلى الجنس البشري وأدوا له أجل الخدمات^(٦٨) »

٦ — أقضوا على الرجس

في غمرة هذا الصراع انقلبت مناهضة فولتير للمسيحية إلى بغض استمر عشر سنين من حياته (١٧٥٩ — ١٧٦٩) وكان قد بدأ باحتقار شباني للمعجزات والأسرار والأساطير التي واجهت الناس ، ثم انتقل إلى تشكك ساخر في المبادئ المسيحية مثل الثبات وتبسط المسيح (اتحاد الألوهية والانسوتية فيه) وآلام المسيح وموته (تكفيراً عن خطايا البشر) ، عما اعترف توماس أكويناس صراحة بأنه ليس في متناول العقل ، وأنه يشق على الفهم . ولكن حالات التمرد والثورة هذه طبيعية في ذهن نشيط يحس بالنمو يسرى في العروق وربما مرفولتير بهذه الحالات حتى أصبح رجلاً يتغاضى كما يتغاضى العالم تغاضياً لطيفاً عن المعتقدات العزيزة على جماهير الناس المفيدة بوصفها عاملاً مساعداً على النظام الاجتماعي والانضباط الخلقي . وفي النصف الأول من القرن الثامن عشر كان رجال الدين الفرنسيون متسامحين نسبياً ، وأسهموا في تقدم الامتنارة ولكن اتساع نطاق الكفر والترحيب الذي قوبلت به دائرة المعارف أزعج رجال الكنيسة وانتهزوا فرصة ما داخل الملك من رعب بمحاولة داميين Damiens قتله (١٧٥٧) ليخرجوا من الدولة بمرسوم (١٧٥٩) ينص على أن مهاجمة الكنيسة جريمة عقوبتها الإعدام . ورأى الفلاسفة في هذا إعلاناً للحرب ، واحسوا بأنهم ليسوا منذ الآن في حاجة إلى أن يدنوا أية مشاعر أو أية تقاليد في شن الهجوم على ما بدا لهم أنه حماقة (م ١٣ — قصة الحضارة)

قائلة . ورأوا خلف جمال الديانة وشعرها دعاية تسخر الفن وتصادره ، وخلف مساندة المسيحية للفضيلة والأخلاق القويمة ألف مهرطق يحرقون وهم مشدودون إلى الخازوق ، كما رأوا أهل مدينة ألبى Albi (في جنوب فرنسا) يسحقون في حرب صليبية طاحنة ، ورأوا أسبانيا والبرتغال تجللهما الكتابة والقتام بسبب محاكم التفتيش ، وفرنسا ممزقة منعزلة بما فيها من أساطير متنافسة ، ورأوا مستقبل الروح البشرية في كل مكان خاضعاً للتجديد أو البعث المتكرر للخرافه ولأساليب الكهنة والاضطهاد والتعذيب ، وعليهم أن يكافحوا نكسة العصور الوسطى هذه في أواخر سنى حياتهم .

وثمة ثلاثة أحداث جعلت من عام ١٧٦٢ نقطة تحول في هذا الصراع المتعذر كبح جماحه . فبدأ اعدام كالاس في مارس وكأنه لإعلان عن انتكاس فرنسا إلى العصور الوسطى ومحاكم التفتيش . إن السلطة المدنية هى التى تولت المحاكمة والتعذيب والقتل ، ولكن وراء خلفية من تعصب شعبي عام ولدته التعاليم والطقوس والكراهية الدينية . وفي مايو زود كتاب روسو « اميل القرن الثامن عشر » بإعلان قسيس سافوى لعقيدة الإيمان ، وهو ولو أن مؤلفه خصيم للفلاسفة جرد المسيحية من كل شيء تقريباً فيما عدا الإيمان بالله وبأخلاق المسيح . وبدأ أن احراق الكتاب في ١١ يونية في باريس و ١٩ يونية في جنيف وحد بين الكاثوليكية والكلفنية في مؤامرة ضد العقل البشرى . وكان واضحاً أن استنكار برلمان باريس للسوعيين في أغسطس نصر للفلاسفة ، كما كان أيضاً نصراً للجانسينيين الذين سيطروا على برلمانات باريس وتولوز وروان ، وإن تصرفات البرلمانات في قضيتى كالاس ولا بار لتوضح أن الجانسينيين كانوا أعداء ألداء لحرية الفكر ، قدر عداوة غيرهم في تاريخ فرنسا بأسره . وفي نفس الوقت نجد أن العداء بين البرلمانات والحاشية الملكية ونمو سلطان شوازيل في الحكومة (١٧٥٨ - ١٧٧٠) . وهو من مشايعى فولتير - مهذا للفلاسفة الفرصة للمضى في النضال مع التعرض لخطر أقل مما هو مألوف من جانب رقباء الدولة والشرطة ، ومن ثم أعدت الساحة لذروة الهجوم على المسيحية .

والآن يطلق فولتير النذير ويصيح بأعلى صوته غاضباً في « إقضوا على الرجس ». وكان قد بدأ باستخدام هذه العبارة في ١٧٥٩ ، واستخدمها منذ تلك اللحظة مئة مرة في عدة صيغ مختلفة ، كما استخدمها أحياناً بمثابة توقيع^(٦٩). لقد اكتسب فولتير ابن الثمانية والستين عاماً حيوية جديدة ونشاطاً حديداً حين شبه نفسه بكاتو سنكس القنصل حين ختم خطابه أمام مجلس السناتو الروماني بصيحته « حذار من قرطاجه » وكتب فولتير يقول « إني مصاب بالمغص ، وأنا أعانى كثيراً ، ولكن تخف ألامى حين أهاجم الخزى والعار »^(٧٠). وفي حماسة شابة وثقة بالغة المدى نصب نفسه ونفرا من المعاونين المترددين لشن الحملة على أقوى نظام في تاريخ البشرية .

وماذا كان يقصد بالرجس؟ هل كان يريد القضاء على الخرافة والتعصب والظلامية (الزعه إلى تعويق التقدم وانتشار المعرفة) والاضطهاد ؟ أو أنه أخذ على عاتقه هدم الكنيسة الكاثوليكية ، أو كل مذاهب المسيحية ، أو الدين أى دين ؟ أغلب الظن ألا يكون هذا الأخير لأننا نراه مرة بعد أخرى وسط الحملة يعلن إيمانه بالتوحيد ، وفي بعض الأحيان في لغة عامرة يتقوى فولتير . وفي القاموس الفلسفى عرف الديانة بطريق غير مباشر بقوله « إن كل شئ تقريباً يتجاوز حدود عبادة كائن أسمى وإخضاع القلب لأوامره الأبدية هو خرافة »^(٧١) وقد يبدو أن هذا يرفض كل أشكال المسيحية فيما عدا مذهب الموحدين . إن فولتير نبذ تقريباً كل المبادئ المميزة في المسيحية التقليدية — الخطيئة الأولى ، التثليث ، التجسد ، تكفير المسيح عن خطايا البشر ، والقربان ، وسفه « التضحية » من الله على الصليب أو من الكاهن في القداس ، ومن ثم نبذ معظم أشكال البروتستانتية أيضاً ، واعتبر الكلفنية عائقاً في سبيل التقدم ونشر المعرفة ، مثل الكاثوليكية . وصبق كهنة جنيف حين قال بأن كلفن مراوغ فظيع « ورأى أن في مقدوره أن يعيش راضياً قانعاً في ظل الكنيسة الرسمية كما كان قد رآها في إنجلترا ، وكتب إلى دالمير : « أأمل أن تقضى على الرجس ، تلك هى النقطة الهامة . ويجدر أن نهبط بها

إلى ما هي عليه في إنجلترا . وستصل إلى هذه الغاية إذا أردت ، أو تلك هي أجل خدمة يمكن أن تؤديها للجنس البشرى » (٧٢) وقد نخلص من هذا إلى أنه قصد بالرجس الدين عامة ، بل الدين الذى قصد به نشر الخرافة والأساطير والتحكم فى التعليم والسيطرة عليه ، ومناهضة الانتقاص على الرقابة ، والأعراض على الاضطهاد . وتلك هي المسيحية التى رآها فولتير فى التاريخ وفى فرنسا .

وهكذا أحرق كل الجسور من خلفه ، ودعا كل أفراد عصبته للحرب . « وكان المطلوب لك الحصون خمسة أو ستة من الفلاسفة يفهم الواحد منهم الآخر ... لقد غرس دالمبير وديدرو وآل بولينجاروك وهيوم وأمثالهم بذور الحقيقة » (٧٣) ولكن بشكل مشئت تعوزه الخطة المتناسكة ، وعليهم الآن أن يتحدوا ، وسيكون هو على رأسهم ، وتلك قضية يسلم هو بها ، ويشير عليهم بخطة العمل فيقول : « اضرب وأخف يدك ... إلى أمل أن يستطيع كل من الإخوة أن يسدد بعض السهام إلى هذا المسخ دون أن يعلم أية يد صوبتها إليه » (٧٤) إلى لأرجو أن يتسلل الإخوان إلى الأكاديميات ومراكز النفوذ وإلى الوزارة إذا أمكن ، إنهم ليسوا فى حاجة إلى تحويل الجماهير بل إلى تحويل الرجال ذوى السلطة الذين يمكنهم أن يأخذوا بزمام المبادرة . إن بطرس الأكبر غير روح روسيا ووجهها . وكذلك حاول فولتير إدخال فردريك فى هذه الزمرة (٥ يناير ١٧٦٧) « مولاي إنك على حق تماما أن الأمير القوى الشجاع يستطيع بالمال والجنود والقوانين أن يحكم الناس دون عون من الدين الذى ما أقيم إلا ليضللهم ويخدعهم . إن جلالتم تؤدون إلى الجنس البشرى أجل خدمة خالدة باقتلاع جذور هذه الخرافة المخزية ، ولا أقول من الرعاع غير الجدير بن بالتنوير ، الذين يتبعون أول ناعق ، وهم أهل للخضوع لأي ساطان ، ولكن أقول بين الناس المخلصين الأمناء ، بين الذين يفكرون والذين يريدون أن يعملوا فكرهم ..

وعليك أن تختبر عقولهم .. ولست آسف على شيء حين تدهمني المنون لإعلى
أنى لن أتمكن من معاونتك فى هذه المهمة النبيلة ، (٧٥) .

ومخر فرديك من سداجة هذا الشيخ الهرم ، ولكن فولتير أصروثابر ،
بما كان له كما سئى فيما بعد ، بعض الأثر على وزراء فرنسا والبرتغال
وأسبانيا .

ورحب بأهوان أقل شأننا وكتب نصائح رسولية إلى بورد فى ليون ،
وسرفان فى جرينوبل ، وبير روسوفى بويون ، وأودير فى مرسيليا ،
وريبوت فى مونتوبان ، ومركيزدار جنس فى شارنت ، وإلى الراهب أودرا
فى تولوز . وأطلق على هؤلاء جميعا وغيرهم اسم « الإخوة » ، وأرسل
إليهم بالمسادة والنداءات يستحثهم ويحفزهم حتى لا يغلب عليهم النعاس :
« شنوا الحرب أيها الإخوة جميعا ببراءة على الرجس . إن كل ما يهمنى
هو نشر الإيمان والحقيقة والنهوض بالفلسفة ، والقضاء عن الخزى والعار .
اشربوا معى نخب أفلاطون (ديدرو) واحموا الرجس . إنى أعانقكم أيها
الإخوة جميعا .. إن صحتى تدعو إلى الإشفاق .. احموا الرجس . إنى أحتضن
اخوتى فى كنفوشيوس .. فى لوكر يشس ، فى شيشرون ، فى سقراط ،
فى ماركوس أوريليوس ، فى جوليان ، وفى شيوخنا الإجلاء جميعا . إنى
أمنح بركتى للإخوة جميعا . صلوا وارقبوا أيها الإخوة ، اقضوا على
الرجس » (٧٦) .

وباتت الكتب الآن أسلحة وبات الأدب حربا . ولم تقتصر الأمور على
دخول ديدرو ودالمبير وهلفشيوس ورينال وموريلليه وكثير وغيرهم بأقلامهم
فى المعركة . ولكن فولتير الذى كان يحتضر دائما أصبح مستودعا حقيقيا
للقدائف ضد رجال الدين ، وأخرج على مدى عشرين نحو ثلاثين كتابا .
ولم يكن يؤمن بفعالية المجلدات الضخمة فهو يقول : « أى أذى ينجم عن
كتاب (الموسوعة مثلا) يكلف مائة كروان .. إن عشرين مجلدا من القطع
الكبير لن يفجروا ثورة أبدا . إنها المجلدات الصغيرة السهلة الحمل القليلة

الثنى (من ذات الثلاثين سو) هى التى يخشى جانبها . ولو كان الأنجيل
غالى الثمن (ثمنه ١٢٠٠ سسترس عملة رومانية قديمة) لما قامت الديانة
المسيحية^(٧٧) .

ومن ثم لم يخرج مجرد تواريخ وروايات ، بل نشرات وحكايات وعظات
وتوجيهات وتعاليم دينية مفرغة فى قالب أسئلة وأجوبة ، وخطبا لأذعة
ومحاورات ورسائل ونقدا موجزا للكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة ، مما يسهل
تداوله وانتشاره ويصيب الرجز بجراح ، وكان فردربك قد كتب إليه منذ
زمن طويل :

« أنى لأتصور أنه فى مكان ما فى فرنسا نخبة منتقاة من ذوى العبقرية
الرفيعة المتساوية ، ممن يكتبون معا وينشرون كتاباتهم تحت أسم فولتير . . .
فإذا كان هذا الافتراض صحيحاً فلسوف أصبح مؤمناً بالثنائى وابدأ فى رؤية
ضوء النهار فى هذا السر الذى آمن به المسيحيون حتى الآن دون أن
يفهموه^(٧٨) .

ولكن فولتير لم يكن يكتب الآن تحت أسم فولتير ، بل استخدم أكثر
من مائة من مختلف الأسماء المستعارة ، بل أحيانا ، فى مرح شيطانى ، نسب
هجماته العنيفة إلى رئيس أساقفة كنتربرى ، أو رئيس أساقفة باريس ،
أو إلى قسيس أو كاهن أو راهب ، ورغبة فى أبعاد كلاب السماء عن طريقه
خص نفسه بأحدى قذائفه . وكان يعرف أصحاب مطابع باريس وأمستردام
ولأهاى ولندن وبرلين ، فاستخدمهم فى حملته . وعن طريق داملافيل وغيره ،
وكان يزود باعة الكتب مجانا بهذه النشرات ، وكانوا يبيعونها بأثمان رخيصة .
وهم بذلك يغامرون . وأشدت العود ونما الغرم .

ونشر آنذاك فى ١٧٦٢ « عظة الخمسين » التى كان قد ألفها قبل ذلك
بعشر سنين على الأقل ، وقرأها على فردريك الأكبر فى بوتسدام ، وكانت
أول هجوم مباشر على المسيحية . وبدأت بداية بريئة كل البراءة : « اجتمع
كل يوم أحد فى مدينة تجارية آهلة بالسكان ، خمسون شخصا متعلما تديبا

متعقلا (الكويكرز فى لندن) فأدوا الصلاة وألقى أحدهم بحثا ثم تناولوا طعامهم ، وأخذوا قدرا منه للفقراء ، وتناوب كل منهم الرئاسة ، وأم الصلوات « وألقى الموعظة وهذه هى إحدى الصلوات وأحدى العظات : « يا إلهنا ، يارب السموات ورب النجوم ، احفظنا بمنأى عن الخرافة . وإذا أسأنا إليك بتضحيات لا تليق بك فامح اللهم هذه الأسرار المخزية ، وإذا إنتقصنا من قدرك بهذه الخرافات الحمقاء ، فلتهلك الخرافات إلى الأبد . . . فليعيش الناس ويموتوا فى عبادة إله واحد ، إله لم يكن ليولد أوليفنى (٧٩) » .

وحاولت العظة التدليل على أن الرب الذى ورد ذكره فى التوراة رب فخور حقوق غضوب قاس قاتل ، لا يمكن لإنسان عاقل أن يعبد ، وأن داود كان وغدا منغمسا فى الشهوات سفاحا . فكيف يتسنى لأحد أن يصدق بأن هذا الكتاب تنزيل من عند الله ؟ وكيف تسنى أن يأتى من الأناجيل اللاهوت المسيحى الذى لا يصدق ، والعمل الفذ السهل اليومى الذى يحول الرقاقة إلى جسد المسيح ودمه والبقايا التى لا تحصى ، وبيع الغفران والعداوات والبغضاء والحريق فى الحروب الدينية ؟

« لقد قيل لنا إن الناس بحاجة إلى الأسرار ومن الواجب خداعهم وتضليلهم . أيها الأخوة ، هل يجرؤ أحد على العدوان على الإنسانية بهذا الشكل ؟ ألم يخلص آباؤنا (المصلحون) الناس من إحالة الخبز والنبيد إلى جسد المسيح ودمه ، ومن الاعتراف المهموس به ، ومن صكوك الغفران ، ومن الرقى والتعاويد ومن المعجزات الزائفة والتمائيل السخيفة ؟ ألم يعود الناس الآن الاستغناء عن هذه الخرافات ؟ يجب أن تكون لدينا الشجاعة لنخطو بعض خطوات أبعد من ذلك . فالتناس ليسوا ضعاف العقول كما هو مظنون ، أنهم يستطيعون فى سهولة ويسر أن يقرأوا عبادة حكيمة بسيطة لاله واحد أننا لانعمل على سلب رجال الدين ما وفرلهم سخاء أتباعهم ، بل أن كل ما نريده - حيث أن معظمهم يسخرون من الأباطيل التى يعلمونها - هو أن ينضموا إلينا فى التبشير بالحقيقة وأى خير عيم لا يحصى يمكن أن يتأتى بسبب هذا التغيير الميمون (٨٠) !

أن هذا يرهقنا اليوم كل الأرهاق ، ولكنه كان مادة ثورية في فرنسا القرن الثامن عشر . فلا عجب إذن أن يصدره فولتير على زعم أن لا مثرى كان قد دبحه من قبل ، ولا مثرى في عداد الأموات الآمين . وفي سنة ١٧٦٣ تحول المناضل إلى الدراما (المسرحيات) ، قصة قصيرة تافهة تحت عنوان « أبيض وأسود » ، وكتيب « أسئلة وأجوبة عن الرجل الأمين » يسرد فيه « ديانتة الطبيعية » ولكن عام ١٧٦٤ كان عاما بارزا ، فقد شغل فيه فولتير أصحاب المطابع « بأنجيل العقل » و « أختيار الديانة » (وهو طبعة منقحة من كتاب جان مسلييه الملتب) (العهد الجديد) ثم أحد أهم منشوراته وهو موجز القاموس الفلسفى (السهل الحمل) ولم يكن المجاهد الضخم ذا الثمانمائة وأربع وعشرين صفحة ذات نهريين الموجود الآن ، أو الخمسة أو الثمانية مجلدات التى تملؤها « مجموعة أعماله » بل كان كتابا صغيراً يسهل الأمساك به أو أخفاؤه . إن إنجاز مقالاته وبساطة أسلوبه ووضوحه ، كل أولئك جعله فى متناول مليون قارئ فى كثير من البلاد .

وهذا إنتاج ضخم جدير بالتنويه لرجل واحد . وربما كان به ألف من الأخطاء ، ولكن المادة التى جمعت فيه ، والمعلومات التى تناولت كل فروع المعرفة تقريباً ، جعلت الكتاب واحدة من المعجزات فى تاريخ الأدب . وأى جد ومثابرة وأى هذر وأى إصرار وعناد فى هذا الكتاب : أن فولتير منهمك فى القيل والقال ، أن لديه ما يقوله فى كل شىء تقريباً ، ولديه دائماً شىء لا يفقد أهميته وتشويقه أبداً تقريباً . وهنا كثير من العبث والتفاهة والسفاسف أو السطحية ، وهناك بعض ملاحظات حمقاء (إن عقل أوروبا أحرز تقدماً فى المائة سنة الأخيرة أكثر مما أحرز العالم كله من قبل منذ أيام براهما وزرادشت) (٨١) . ولكن لن يتسنى لأحد أن يلتزم جانب العقل والحكمة فى ألف صحيفة ، ولم يكن أى إنسان بارعاً متألقاً دائماً وهو يكتب هذا القدر الكبير من الصفحات . أنه أورد فيه دراسة أصول الألفاظ وتاريخها ، لأن فولتير مثل كل قارئ محب للاستطلاع ، وكانت تجذب

نظاره المحن التي قاستها الألفاظ والكلمات في ترحالها عبر الزمان . وهنا في مقال « سوء استخدام الكلمات » ثم في مقال « المعجزات » نجد قاعدة فولتير الشهيرة « حدد ألفاظك » .

وقصد بالكتاب أساساً أن يكون مصنعاً لإخراج الحجج ضد المسيحية كما عرفها فولتير ، وهنا نجد مرة أخرى الأشياء التي لا يمكن تصديقها في الكتاب المقدس ومافيه من سخافات وحماقات ومخازلا في مقال « المتناقضات » وحده ، بل في كل صحيفة تقريبا . من خول الكنيسة سلطة الحكم بأن أربعة فقط من الخمسين انجيلا التي دونت في القرن الذي تلا موت المسيح ، هي وحدها - أى الأنجيل الأربعة - معتمدة موحي بها من عند الله ؟ وأي سهو فاضح أن يتحدث الكتاب عن مولد المسيح من مريم العذراء ثم يتعقب نسبه إلى داود الوغد عن طريق يوسف المزعوم الخامل . ولماذا نبذت المسيحية شريعة موسى على الرغم من تكرار توكيد المسيح عليها ؟ وهل كان بولص الذي نبذ هذه الشريعة (من أجل قطعة صغيرة من الجلد) سلطة أو مرجعاً أقوى من المسيح ؟

ولم يرق القاموس الفلسفي للآباء الروحانيين في مدينة جنيف . وفي ٢٤ سبتمبر ١٧٦٣ أمر مجلس الخمسة والعشرين النائب العام بأحراق أية نسخة يجدها منه . وفي ١٧٦٥ أصدر برلمان باريس أمراً شبيها بهذا ، وقد رأينا مصير الكتاب في آبنيل (١٧٦٦) وأكد فولتير لسلطات جنيف أن القاموس من عمل مجموعة من الكتاب مجهولة تماماً لديه . وفي الوقت نفسه أعد مقالات إضافية لتلحق بالطبعات الأربع الأخرى التي طبعت سراً قبل نهاية ١٧٦٥ كما أدخل مادة جديدة إلى الطبقات الخمس الإضافية التي ظهرت قبل وفاته في ١٧٧٨ . ورتب الأمور مع باعة كتب جنيف المستترين ليمدهم مجاناً بأكبر عدد ممكن من النسخ يمكن توزيعه ، ومع الباعة على أن يتركوا نسخاً من هذا القاموس في الدور الخاصة (٨٢) :

وتابع فولتير الحرب بلا هوادة في ١٧٦٥ - ١٧٦٧ . وفي ١٧٦٤ كان

قد ترك نهائيا داره في لى دليس في مدينة جنيف التي باتت غير ملائمة لمرطقاته وضاق بها ذرعا ، وكان لمدة نحو ثلاث سنوات لم يكد يبرح مكانه في فرنى ، وكان في كل شهر تقريبا يرسل إلى إحدى المطابع نشرة جديدة ضد « العار » وزعم كتيب Questions de zopata (مارس ١٧٦٧) أنه مجموعة أسئلة طرحها أمام لجنة من اللاهوتيين أستاذ اللاهوت في جامعة سالامانكا في ١٦٢٩ . وأعلن زاباتا عن شكوكه في « نجم بيت لحم » وفي الإحصاء المزعوم « لكل الأرض » الذي أجراه أغسطس ، وفي قتل الأبرياء « وإغراء الشيطان ليسوع فوق جبل يستطيع الإنسان منه أن يرى كل ممالك الأرض . وأين كان يقع هذا التل العجيب ؟ ولم لم يف المسيح بوعده في الحضور على متن سحابة في قوة ومجد عظيم ، ليؤسس « مملكة الله » قبل أن ينقرض هذا الجليل ؟ ^(٨٣) ما لدى عوقه ؟ هل كان الضباب كثيفا إلى حد كبير ؟ ^(٨٤) ماذا أفعل مع أولئك الذين يتجرأون على الشك ؟ .. هل ألقا من أجل تنويرهم وتهذيبهم ، إلى تعذيبهم العذاب العادي وغير العادي ؟ أو ألا يكون من الأفضل أن أتجنب هذه المثاهات ، وأحض على الفضيلة ببساطة فقط ؟ ^(٨٥) والخاتمة .

« حيث أن زاباتا لم يتلق جوابا ، فإنه لجأ إلى التبشير بالله بكل بساطة . وأعلن إلى الناس أنه « أى الرب » هو والد الجميع ، وأنه هو الذى يثيب ويعاقب وهو الغفور . واستخلص الحقيقة من الأكاذيب ، وفصل الديانة عن التعصب . وعلم الفضيلة ومارسها ، وكان وديعا عطوفا متواضعا وأحرق في بلد الوليد (في أسبانيا) في عام البركة ١٦٣١ ^(٨٦) » .

وفي مايو ١٧٦٧ عاد فولتير إلى الهجوم في نشاط أكبر في كتاب من مائة وخمسين صفحة « اختبار هام للورد بولنجيروك » . وهنا وضع حججه على لسان الرجل الإنجليزى المتوفى . ولكنه كان من المحتمل أن يرتضى بولنجيروك هذا العبء الثقيل . وفي نفس العام نشر فولتير « الساذج » ، وهي قصة لطيفة تقع في مائة صفحة عن أمريكي فاضل بشكل لا يصدق

أحضروه إلى فرنسا من أمريكا، حيرته العادات الأوروبية واللاهوت المسيحي .
وفي ١٧٦٩ خرج كتيب « صبيحة الأمم » وهو نداء إلى أوروبا الكاثوليكية
لتخلع نير سلطان البابوات المزعوم على الملوك والدول . وتابع الحملة في
نفس العام بكتاب جاد مدروس ولكنه مثير هو « تاريخ البرلمان » متهما
هذه الهيئة بأنها مؤامرة من جانب الجانسينيين الرجعيين . وفي ١٧٧٠ —
١٧٧٢ أصدر تسعة مجلدات تحت عنوان أسئلة عن الموسوعة « وهي خليط
من مقالات تشكل موسوعة رجل واحد . وهو أشد عداء للكاثوليكية
وأقصى في هجومه عليها من موجز القاموس الذي أسلفنا ذكره .

إن فولتير أخفى منشوراته عادة تحت أسماء أو عناوانات خداعة مضللة :
« محاضرات في تفسير العهد القديم » رسالة إلى الرومان ، عظات الأب
الجليل جاك روست ، محاضرات وعظات الكاهن بورن ، نصائح لأرباب
الأسر . وساورت جمهور فرنسا المتعلم الظنون بأن فولتير هو المؤلف ،
لأنه لم يكن يستطيع أن يخفى أسلوبه ، ولكن لم يثبت أحد ذلك ، وباتت
هذه اللعبة المثيرة حديث باريس وجنيف ، وتردد صداها في لندن وأمستردام
وبرلين : بل وفي فيينا ، ولم يحدث في التاريخ أن لعب كاتب لعبة التضمية
(أو الاختفاء) مع أعداء أقوياء مثل هؤلاء ، وبمثل هذا النجاح . وحاول
مائة من الخصوم أن يردوا عليه ولكنه قارعهم الحججة بالحجة جميعاً ،
وحارب في قسوة ، وأحياناً في خشونة وغلظة ، كما كان أحياناً محمفاً
غير منصف ، وتلك هي الحرب . وكان مستمتعا فرحاً بها ، وحمى وطيس
المحركة فنسى أن يموت .

والحق أن تفاؤلاً غريباً غلب على فولتير ، الذي بدأ بعد « زلزال
لشبونة » و « كانديد » وكأنه ينصح بالاستسلام لشروور الحياة التي لا سبيل
لقهرها أو التغلب عليها . وراوده حلم فلسفة متصورة على كنيسة متغلغلة في
حاجيات الناس . وإذا كان اثنا عشر من صيادی السمك الأميين قد أقاموا
المسيحية ، فلم لا يستطيع اثنا عشر فيلسوفاً أن يقضوا على تعاليمها وعلى محاكم

التفتيش فيها . وكتب إلى أحد الإخوة « عش سعيدا واقض على الرجس » وأكد أنهم سيقضون عليه ^(٨٧) . ألم يكن إلى جانب ملك وامبراطورة وعشيقه ملكية وكثير من الشخصيات اللامعة ؟ أنه تملق الحاشية وتودد إليها علنا أو سرا بمهاجمة برلمان باريس ، ونعم بعطف مدام دى بمبادور ومام دى بارى فيما بعد ، بل إنه كان يأمل فى إغضاء لويس الخامس عشر عنه . وكتب إلى دالمبير فى ١٧٦٧ « فلنبارك هذه الثورة السعيدة التى نشأت فى عقول كل المخلصين والأمناء من الرجال فى الخمسة عشر أو العشرين عاما الأخيرة ، لأنها فاقت كل ما كنت أؤمل فيه » ^(٨٨) ألم يتنبأ بها ؟ ألم يكتب إلى هلفشيوس فى ١٧٦٠ (إن هذا القرن بدأ يشهد انتصار العقل) ^(٨٩) .

٧ - الدين والعقل

إن فولتير لم يكن من الساذجة بحيث يتصور أن الدين اخترعه القساوسة والكهنة ، بل على النقيض من ذلك كتب فى القاموس الفلسفى : (إن فكرة الإله مستمد من الشعور ، وذاك المنطلق الطبيعى الذى يتكشف بتقدم العمر ، حتى فى أغلظ البشر قلبا . وشوهدت أكثر آثار الطبيعة ادهاشا - وفرة الحصول والجذب والأحمال والجو المعتدل والعواصف ، المزايا والبلايا - كما كان الإحساس بيد سيد خارق للطبيعة ... إن الملوك القدامى استخدموا فى زمانهم هذه الأفكار ليدعموا سلطانهم ^(٩٠) . وأفردت كل جماعة لإحدى القوى الخارقة لتكون لها حارسا لها ، وأضفت عليه حالة من التقديس وعبدته وقدمت له القرايين ، على أمل أن يتولى حمايتها من سطو الجماعات الأخرى وآلهتها ، وأوجدت هذه المعتقدات الكهنة ، ولكن التفسير والتأويلات والطقوس كانت من عمل الكهنة . وبمرور الزمن لعب الكهنة على خوف الناس واستغلوه ليبسطوا سلطانهم وقوتهم . واقترفوا كل ضروب الخداع واللؤم ، حتى إلى حد إعدام (المهرطقين) وقتل جماعات بأسرها ، والقضاء على الأمم تقريبا . وانتهى فولتير إلى القول : « لقد

كرهت الكهنة ، وأنا الآن أبغضهم ، وسأظل أبغضهم إلى يوم الحساب^(٩١).
أن فولتير وجد كثيراً مما يمكن قبوله في الديانات غير المسيحية ، وبخاصة
في الكونفوشية (وهى ليست ديانة) ، ولكن لم يسره إلا النزر اليسير في
اللاهوت المسيحى . « أن لدى مائتى مجلد في هذا الموضوع ، والأدهى من
ذلك أنى قرأتها وكأنى أقوم بجولة في مستشفى للأمراض العقلية^(٩٢) . » ولم
يضيف إلا القليل لما سبق أن ظهر من نقد للكتاب المقدس . وإنما كانت
مهمته أن ينشر هذا النقد على نطاق واسع . ولا يزال أثر هذا علينا واضحاً .
وفى جراحة وإندفاع أكثر ممن جاءوا بعده ، أكد مرارا سخط طوفان
نوح وعبور البحر الأحمر ، وذبح الأبرياء وغير ذلك . ولم يكل ولم يمل
قط من شجب قصة « الخطيئة الأولى » ونظريتها . وأقتبس فى سخط
وغضب قول سانت أوغسطين « أن المذهب الكاثوليكي يعلمنا أن كل الناس
يولدون مذنبين إلى حد أن الأطفال أنفسهم ملعونون بالتأكيد إذا ماتوا دون
أن ينفخ فيهم المسيح روحاً جديدة أفضل^(٩٣) » . (ويقال إن مثل هؤلاء
الأطفال يذهبون إلى مكان جميل بجوار الجحيم اسمه الأعراف) !!

أما بالنسبة للسيد المسيح فإن فولتير كان مذبذباً . وأنتقل من الورع الطبيعي
في الطفولة إلى عدم التوقير الذى يغلب فى الشباب ، إلى حد قبول قصة مارى
مع الجندى الرومانى ، وفكر فى وقت ما أن يسوع متعصب مخدوع « أحمق » ،
ولما نضج تعلم كيف يبدى أعجابه بتعاليم يسوع الأخلاقية وقال : « سيكون
خلاصنا بفضل ممارسة هذه المبادئ الأخلاقية ، لانتيجة أيماننا بأن المسيح
هو الله » . وسخر كثيراً من « التثليث » فى كتابه الملحد والحكيم . ويسأل
الملحد « هل تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة وشخصاً واحداً وأرادة واحدة ،
أو أن له طبيعتين وشخصيتين وأرادتين ، أم أن له إرادة واحدة وطبيعة
واحدة وشخصيتين ، أو إرادتين وشخصيتين وطبيعة واحدة ؟ » ولكن
الحكيم يأمره أن ينسى هذه الألغاز ويكون مسيحياً طيباً^(٩٤) . ويشير فولتير
إلى أن المسيح ، بخلاف القديس بولص والمسيحيين اللاحقين ، ظل مخلصاً

للإله الخالد ، بعد أن جعل نفسه يهوديا ، يتمسك بالديانة اليهودية طيلة حياته ويؤدى شعائرها ويتردد على المعبد اليهودى ولا ينطق بشيء يخالف الشريعة اليهودية . وكل التلاميذ يهود وهم يؤدون الشعائر اليهودية . يقينا إنه ليس هو الذى أسس الديانة المسيحية . . . أن يسوع المسيح لم يبشر بأية خصيصة واحدة من خصائص المسيحية^(٩٦) .

أن يسوع فى رأى فولتير ، قبل معتقد كثير من اليهود الأتقياء قبله ، بأن العالم كما عرفوا يسير إلى نهايته ، وسرعان ما تحل محله « مملكة الرب » أى الحكم المباشر لله على الأرض . (والنقد الحديث يقبل وجهة النظر هذه) .

وتجواب فولتير فى سنواته الأخيرة ، أكثر فأكثر ، مع قصة المسيح وبدأ يسميه « أخى » « مولاي »^(٩٧) وصور نفسه وكأنما أنتقل فى حلم إلى صحراء مغطاة بأكوام من العظام ، فهنا أشلاء ٣٠٠ ألف من اليهود المذبوحين ، وهناك أربعة تلال من المسيحيين شنقوا بسبب الخلافات الميتافيزيقية ، وأكوام من ذهب وفضة تعلوها صولجانات وتيجان الأساقفة والملوك المنحلين ، ثم حملة ملاكه المرشد إلى واد أخضر حيث أقام الحكماء العظام ، وهناك رأى نوما ويومبليوس وفيثاغورس وزردشت وطاليس وسقراط . . . وأخيرا « تقدمت مع دليل إلى أيكة أعلى من تلك التى أخلد فيها الحكماء القدامى إلى راحة بهيجة ، ورأيت رجلا يتسم بالبساطة وحسن المنظر ، بدا لى أنه فى الخامسة والثلاثين من العمر ، وكانت قدماه ويداه منتفختين دامتين ، وكان مطعونا فى جنبه وكان لحمه ممزقا بضربات من سوط . ولم يكن ثمة وجه للمقارنة بين آلام هذا الحكيم وآلام سقراط » .

وسأله فولتير عن سبب موته ، فأجابه يسوع « الكهنة والقضاة » . هل قصد أن يؤسس ديناً جديداً ؟ كلا . هل كان مشغولا عن هذه الأكفاد من العظام وهذه المقادير الضخمة من الذهب الملكى أو الكهنوتى ؟ كلا . لقد عشت وصحى فى أشد الفقر « إذن مم تتألف الديانة الحقّة ؟ » ألم أقل

لكم من قبل ؟ أحب الله وأحب جيرانك كما تحب نفسك » فقال فولتير « إذا كان الأمر كذلك فأنت مولاى الوحيد ، ورسم لى علامة نزلت على قلبى بردا وسلاما . وأختنى الطيف وتركتنى وقد إرتاح ضميرى وشاع فى نفسى السلام والطمأنينة^(٩٨) .

ولكن تلك كانت حالة نفسية لاحقة . فإن فولتير فى سنى حربه ضد المسيحية رأى فى تاريخها شقاء بالغاً للجنس البشرى . أن صوفية بولص وخرافات الأناجيل المعترف بها أو المشكوك فى صحتها وأساطير الشهداء والمعجزات وبراعة الكهنة فى التخطيط والتدبير ، تضافرت كلها مع السذاجة المتعلقة بأهداب الأمل عند الفقراء لخلق الكنيسة المسيحية ، ثم أن آباء الكنيسة صاغوا العقيدة بفصاحة تكفل ارضاء عقول الطبقة الوسطى . وخبأ شيئا فشيئا نور الثقافة الكلاسيكية بانتشار الأخيلة الصيبانية والاحتياالات والخدع الورعة . حتى خيم الظلام لعدة قرون على عقل أوروبا . وزحف المتأملون من الناس والحاملون منهم ، كما زحف المتقاعدون عن مواجهة تحديات الحياة ومسئولياتها ، إلى الأديار . وأصاب بعضهم بعضا بعدوى أحلام النساء والشياطين والآلهة . واجتمعت مجالس العلماء والمتفقيين لتنظر أى الحماقات والسخافات تصلح لتكون جزءا من العقيدة المعصومة . وباتت الكنيسة ، بعد أن أسست قوتها وسلطانها على فكرة أشباع رغبة الناس فى الأساطير والخرافات التى تبعث على السلوى والعزاء ، نقول باتت الكنيسة بعد ذلك أقوى من الدولة التى تؤسس سلطانها على القوات النظامية . وأصبحت قوة السيف تعتمد على قوة الكلمة وثل البابوات عروش الملوك ، وأحلوا الأمم من وأجب الولاء للملوك .

ومن رأى فولتير أن الإصلاح البروتستانتى كان مجرد خطوة متعثرة نحو العقل وأمتدح الثورة ضد الرهبان الذين يعيشون على الصدقات فى الأديار ، وضد بائعى صوبك الغفران ، وضد رجال الدين الساعين إلى جمع الثروة ، الذين « استنزفوا فى بعض الحالات دخل أقليم بأسره » وفى شمال أوروبا

أختار الناس دينا أرخص وأقل تكلفة^(٩٩). « ولكن أثاره توكيد اللوثرين والكلفين على القضاء والقدر^(١٠٠). تخيل حاكما أو ملكا يحكم على ثلثي رعاياه بالخلود في النار ! أو تأمل في مختلف التأويلات المسيحية للقربان المقدس ، فالكاثوليك يصرحون بأنهم يأكلون الرب لا الخبز ، واللوثريون يلتمحون الرب والخبز كليهما ، والكلفينيون يأكلون الخبز ، لا الرب . وإذا روى لنا أحد شيئا من مثل هذا الأسفاف والجنون بين الهوتنتوت والكفار لقلنا إنه يخذعنا ويلعب على عقولنا^(١٠١). » لقد ولى تقدم العقل لمثل هذه الخلافات ظهره ، وتركها بعيدا إلى الوراء « وإذا قدر للوثر وكلفن أن يعود إلى الحياة الدنيا فلن يثيرا ضجة أكثر مما فعل أتباع جون دنز سكوتس وتوماس أكويناس^(١٠٢) » .

وإذا أستمروا البروتستانت على التبشير بمثل هذا اللاهوت فلسوف تتخلى عنهم الطبقات المتعلمة ، على حين تؤثر الجمهاير مذهب رومه المعطر النابض بالحياة . وبالفعل كان فولتير يظن « أن الكلفنية واللوثرية معرضان للخطر في ألمانيا ، فإن تلك البلاد مملوءة بالأسقفيات العظيمة والأديان المسيطرة والشرائع والمذاهب الكثيرة ، وكلها ملائمة لعمل أية ردة^(١٠٣) » .

إذن هل يجدر بالناس المتعقلين أن يتخلوا عن الدين تماما ؟ كلا ، فإن دينا يدعو إلى الله وإلى الفضيلة دون أية تعاليم أو مبادئ أخرى ، لأبد أن يكون ذا نفع حقيقى للجنس البشرى . . . وفي سنيه الأولى كان فولتير يظن « أن أولئك الذين يحتاجون إلى مساعدة الدين ليكونوا طيبين صالحين ، هم أحق بالثناء والأشفاق » وأن أى مجتمع يمكن أن يعيش بالأخلاق الطبيعية غير معتمد على المعتقدات الخارقة^(١٠٤) . « ولكن لما اتسعت خبرته بالأهواء البشرية بدأ يسلم بأنه ليس ثمة قانون أخلاقى يمكن أن يقاوم بنجاح القوة البدائية في الغرائز الفردية ، إلا إذا دعمه أيمان شعبى عام بأن هذا القانون الأخلاقى صادر عن إله بصير ، إله يثيب ويعاقب ، وهو الذى يتولى السهر عليه . وبعد أن إتفق مع لوك عن أنه ليست هناك أفكار فطرية ، عاد فأنحاز

إلى رأى لينتز في أن الحس الخلقي فطري ، وعرفه بأنه شعور بالعدل أودعه الله فينا « أن القوانين تراقب الجرائم المعروفة ولكن الدين يراقب الجرائم الخفية »^(١٠٥) . وفي كتاب « الملحد والحكيم » يقول الحكيم :

سأفترض (لا قدر الله) أن كل الانجليز ملحدون ، وأذهب إلى أن هناك بعض مواطنين مسلمين ، هادئين بطبيعتهم أثرياء إلى حد يمكن أن يكونوا معه أمناء يلتزمون مبادئ الشرف . ويراعون قواعد السلوك إلى حد أنهم يسعون جهدهم ليعيشوا معا في المجتمع ولكن الملحد الفقير المعوز سيكون غيبا إذا هو لم يقتل أو يسرق ليحصل على المال . فهل تنقسم إذن كل عرى المجتمع وروابطه وتطنى كل الجرائم الخفية على العالم وتنتشر مثل الجراد فوق الأرض ، ولو أنها في أول الأمر تكون ضئيلة لاتدرك . . . من ذا الذى يكبح جماح الملوك العظام ؟ أن الملك الملحد أشد خطرا من الكاهن المتعصب . . . وتفاهم الاتحاد في أيطاليا في القرن الخامس عشر . فماذا كانت النتيجة ؟ وكان من الأمور الشائعة أن تسم إنسانا وكأنك تدعوه إلى العشاء . إذن يكون الإيمان بآله يثيب على صالح الأعمال ويعاقب على الشرور . ويغتفر مادون ذلك من الأخطاء اليسيرة ، من أنفع الأشياء للإنسان^(١٠٦) » .

ولتجبه فولتير آخر الأمر إلى أن يرى بعض المعنى في نظرية الجحيم :

« إلى أولئك الفلاسفة الذين ينكرون الجحيم في كتاباتهم أسوق الحديث : أيها السادة ، أنا لانقضى أيا منا مع شيشرون وأتيكوس وماركوس وأوريليوس وابتقور ولا مع الفاضل المبالغ في التدقيق والشك . سبينوزا الذى رد - رغم كدحه تحت وطأة الفقر والعوز - إلى أطفال المتقاعد الكبير دى ويت ، راتبا قدره ٣٠٠ فلورين ، كان قد منحه أياه رجل الدولة العظيم ، الذى قد يذكر أن الهولنديين قد حطموا قلبه . وصفوة القول ، أيها السادة ، أن الناس ليسوا جميعا فلاسفة . أننا مضطرون إلى عقد الاتصالات والقيام بمختلف الأعمال ، والاختلاط في غمار الحياة بالأوغاد الذين لا يفكرون إلا قليلا ، أو أنهم لا يفكرون أبدا . وبعدد لا يحصى من (م ١٤ - قصه الحضارة)

التاس الذين لاهم لهم إلا الوحشية والسكر والسلب والنهب ، ويمكنكم إذا أردتم أن تعظوهم بأن نفس الإنسان فانية . أما أنا فسوف أصرخ في آذانهم بأنهم إذا سلبوني فسيكونون مذنبين لا محالة » (١٠٧) .

ونختتم بأن في مقدور الشيطان أن يقتبس من فولتير ما يحقق أغراضه أى ما يؤيد الشيطان نفسه . وبعد المناادة بديانته متحررة من الخرافات (١٠٨) ، أنهى المتشكك الكبير اسوأ الخرافات ، إنه قد طالب بديانة تقتصر على غرس الفضائل والاخلاق القويمة (١٠٩) . أما الآن فهو يسلم بأن الناس العاديين لا يمكن أن يكونوا بمنأى عن ارتكاب الجرائم إلا عن طريق دين فيه جنة ونار أو نعيم وجحيم . وللكنيسة أن تقول إنه تاب وأتاب .

وفى سن الثانية والسبعين أعاد فولتير صياغة معتقده تحت العنوان المذهب « الفيلسوف الجاهل » (١٧٦٦) إنه فى البداية يعترف بأنه لا يعرف ماهى المادة وما هو الذهن ، ولا يعرف كيف يفكر ولا يعرف كيف يحرك فكره ذراعه (١١٠) . إنه يسأل نفسه سؤالاً من الواضح أنه لم يدر بخلده من قبل : أمن الضرورة لى أن أعرف ؟ ولكنه يضيف « أنا لا أستطيع أن أجرد نفس من الرغبة فى التعليم والمعرفة . أن حب الاستطلاع الذى يبعث على الحيرة والارتباك عندى ، لا يشبع ولا يقف عند حد مطلقاً » (١١١) وهو الآن مقتنع بأن الإرادة غير حرة : « أن الجهول الذى يرى هذا لم يفكر دائماً هكذا . ولكنه فى النهاية مضطر إلى الاستسلام » (١١٢) . هل يوجد هناك إله ؟ نعم . وهو العقل وراء « النظام والفن المذهل والقوانين الميكانيكية والهندسية التى تحكم الكون » (١١٣) . ولكن هذا العقل الأسمى معروف لدينا فقط بوجوده لابطيعته . « أيها الإنسان الفانى البائس . إذا كنت لا ادرك عقلى ، وإذا كنت لا أعرف ماذا ينفخ فى الحياة ، فكيف تكون لى أية دراية بهذا العقل الذى يجل عن الوصف والذى من الواضح أنه يتحكم فى الكون ؟ . . . ولكننا من صنعه وتدبيره » (١١٤) .

ويعمل فولتير إلى الاعتقاد بأنه لم يكن ثمة خلق فى وقت معين . وأن الدنيا

قد وجدت دائماً . « تنبعت دائماً من هذه العلة البدائية الأساسية ، كما ينبعث الضوء عن الشمس » وأن الطبيعة كانت تنبعت فيها الحياة دائماً^(١١٥) . ولا يزال يؤمن بأن هناك تدبيراً مقصوداً في الكون ، أى « العناية الإلهية » التى توحيه الجميع ، ولكنها تسمح للجزء — بما فى ذلك كل إنسان بمفره — أن يتدبر أمر نفسه^(١١٦) . وينتهى إلى القول « إن قلت لى لى لم أعلمك شيئاً ، فتذكر أنى إبتدرك بأنى جاهل^(١١٧) .

وبدأ الفيلسوف المتحير يحسد أولئك الذين لم يفكروا قط . ولكنهم آمنوا ، وراودهم الأمل فحسب . ومع ذلك رجع إلى رأى سقراط وهو أن الحياة بدون تفكير غير جديرة بالإنسان وعبر عن تردد بين هذه الآراء فى الحياة فى كتاب « تاريخ برهمى طيب » (١٧٦١) :

(اتفق لى أن التقيت فى رحلاتى برهمى عجوز . وكان الرجل ذا عقل راجح وعلم واسع وثرء عريض .. وقال لى الرجل ذات يوم : وددت لو أنى لم أولد قط ، فسألت : ولم هذا ، فقال : لأنى كنت أدرس طيلة تلك السنوات الأربعين ، ووجدت أنى قد ضيعت وقتاً طويلاً . وأنى لا أعرف شيئاً على الرغم من أنى أعلم الآخرين .. أنا موجود فى الزمن دون أن أعرف ما هو الزمن ، أنا موضوع ، كما يقال حكماؤنا ، فى التخوم بين عالمين لانهايين ، ومع ذلك ليس عندى أية فكرة عن الأبدية أو الخلود . وأنا مكون من مادة فيما أظن . ولكنى لم أستطيع قط أن أقنع نفسى بهذا الذى ينتج التفكير ولا أدرى لماذا أنا موجود ، ومع ذلك فأنا مكب كل يوم على حل اللغز ، ويجب أن أرد جواباً ، ولكنى لا أستطيع أن أقول شيئاً مرضياً فى هذا الموضوع . لى أنكلم كثيراً ، وعندما انتهى من الكلام أظل متحيراً مرتبكاً شاعراً بالحجل مما قلت ..)

وأهمتنى كثيراً الحالة التى رأيت عليها هذا الرجل حقاً .

وفى اليوم نفسه كان لى حديث مع سيدة عجوز هى جارتة . وسألته أكانت يوماً قد شعرت بعدم السعادة لأنها لم تعرف كيف صنعت نفسها .

ولم تفهم سؤالى . انها لم تفكر ولو لبرهة قصيرة فى حياتها . وفى هذه الموضوعات التى عذب البرهمى الطيب نفسه بالتفكير فيها . وآمنت من أعماق قلبها بتحول إلهها فشنو Vishnu وكانت ترى أنها أسعد النساء شريطة أن يتاح لها الحصول على شىء من الماء المقدس من نهر الكنج لتغتسل به . وأثارتنى سعادة هذه المخلوقة المسكينة ، فعدت إلى فيلسوفى وابتدرته بقولى : ألا تخجل من بؤسك وتعاستك . على حين أنه على بعد ٥٠ ياردة منك يوجد مخاوق آلى (أوتوماتيكى) لا يفكر فى شىء ويعيش هائثاً راضياً فرد على بقوله « أنت على حق . لقد قلت فى نفسى ألف مرة إنى سأكون سعيداً لو أنى كنت جاهلاً مثل جيرانى العجائز . ومع ذلك فذلك سعادة لا أرغب فيها . وكان أثر رد البرهمى فى نفسى أعظم من أى شىء مضى . وخلصت إلى أننا على الرغم من أننا قد نضنى على السعادة قيمة عظيمة ، فإننا لانزال نقدر للعقل قيمة أعظم .

ولكن بعد تأمل ناضج . . . لأزال أرى أن هناك قدراً كبيراً من الجنون فى إثثار العقل على السعادة (١١٨)

٨ - فولتير متعصب

وفى حالة نفسية مماثلة لهذه كان بسكال قد اختار أن يخضع تفكيره الذى غلب عليه المنطق للكنيسة الكاثوليكية باعتبارها تنظيمًا كان قد وجده بعد طول التجربة مزيحاً من التعليم والطقوس تساعد على الفضيلة والأخلاق القويمة وتخفف من أوعية التساؤل والحزن . ولم يذهب فولتير فى سن السبعينات بعيداً إلى هذا الحد ، ولكنه سار مضطرباً مشوش الذهن فى هذا الاتجاه .

وبدأ بأن وطن النفس على قبول فكرة أن الدين ، أى دين ، أمر مرغوب فيه بصفة عامة . وحين سأله بوزول (٢٩ ديسمبر ١٧٦٤) ألا نرى أن تكون هناك عبادة عامة ؟ أجاب فولتير « نعم . من كل قلبى . فلنجتمع أربع

مرات في كل عام في معبد كبير ، تصدح فيه الموسيقى ، لنقدم الشكر لله على كل نعمائه . فهناك شمس واحدة ، وهناك إله واحد . ولتكن لنا ديانة واحدة . ومن ثم يكون بنو البشر إخوة (١١٩) . أن الشمس - كما يقولون مهدت له نصف الطريق إلى الله . وفي مايو ١٧٧٤ وهو في سن الثمانين ، صحا من نومه قبل الفجر ، وصعد مع أحد أصدقائه ليشهد بشرق الشمس من تل قريب . وربما كان يقرأ روسو . وبلغ القمة وقد نال منه التعب ، وأربكه جلال الشمس المنتصرة وعظمتها ، فركع وصاح : يا الله العلي العظيم ، أنى أؤمن ! لكن ثابت نفس فولتير إليه فقال وهو ينهض على قدميه أما بالنسبة للسيد الإبن والسيدة أمه ، فتلك مسألة أخرى (١٢٠) .

وذهب شيئاً فشيئاً إلى أبعد من ذلك فارتضى وجود رجال دين يعلمون الناس الفضيلة ويقدمون الصلوات لله (١٢١) . واعترف بأن الأساقفة في فرنسا وانجلترا أسهموا في إقرار النظام الإجتماعي ، ولكن الكاردينالات كانوا باهظي النفقة ويجب الاستغناء عنهم . وكان ينظر بعين الإجلال والإكبار إلى راعي الأبرشية البسيط الذي حفظ سجل القرية وساعد الفقراء وأصلح بين الأسرات المتنازعة ، فهؤلاء الكهنة رعاة الأبرشيات يجب أن يكون احترامهم أكبر وأن تزداد مخصصاتهم ، وألا يستغلهم رؤساء الكنيسة (١٢٢) . وفي ساعات التجلي كان التائب العجوز يريد زيادة الاجتماعات الدينية لتكون مرة في كل شهر ، بل حتى في كل أسبوع (١٢٣) . ويجب أن يكون هناك صلوات وتكبير لله ، وعبادات ودروس في الأخلاق . ولكن لأقربان ولا ذبائح ولا توسلات ، ولتكن العظات قصيرة . وإذا كان لابد من صور وتمائيل دينية فلتكن لتخليد ذكرى أبطال الإنسانية ، لا ذكرى القديسين المشكوك في أمرهم ، مثل هنري الرابع (لاختليلاته) . وينبغي ألا يكون هناك تعاليم خارقة للطبيعة ، اللهم إلا وجود إله عادل . ويجدر أن نخضع هيئة الكنيسة للدولة . وأن تتولى الحكومة تدريب رجال الدين ودفع أجورهم .

ويمكن أن تبقى الأديار والرهبنات على أن تكون ملاجئ للعجزة والمرضى .
ومثل كثير من المتشككين نظر فولتير بعين الأكبار والإجلال إلى الراهبات
اللاتي خرجن من أديارهن لمساعدة المرضى والفقراء منذ رأى « إخوات
البر والإحسان » فى مستشفيات باريس . وكان قد كتب فى رسالة العادات
والأعراف : ليس فى العالم كله ما يضارع التضحية بالجمال والشباب وغالباً
بكرم المحتد وعراقة الأهل ، تلك التضحية التى يقدمها الجنس اللطيف
عن طيب خاطر للتخفيف من ويلات الإنسانية فى المستشفيات . إن الأمم
التي انفصلت عن العقيدة الكاثوليكية قلدت بشكل منقوص ، أعمال البر
والإحسان الحلييلة هذه . (١٢٤)

وكما يعرف العالم بأسره شيد فولتير بالقرب من قصره فى فرنى كنيسة
صغيرة نقش على مدخلها باعتزاز عبارة « يارب إذكر عبدك فولتير » وادعى
أنها الكنيسة الوحيدة المخصصة لله وحده على هذه الأرض . أما الكنائس
الآخرى فهى مخصصة للقديسين (١٢٥) .

وطلب إلى رومه أن تزوده ببعض الخلفات المقدسة ليضعها فى كنيسته ،
فأرسل البابا ثوبا من وبر الحمل للقديس فرانسيس أوف أسيسى ، ووضع
فولتير على المذبح تمثالا بالحجم الطبيعى من المعدن المذهب للمسيح لا وهو
مصلوب بل باعتباره حكيم . وهناك ابتداء من ١٧٦٠ فصاعدا ، حضر فولتير
القداس فى كل يوم أحد ، وكان يقوم هو نفسه بعملية البخور باعتباره سيد
القرية . وفى عيد الفصح ١٧٦٨ تناول العشاء الربانى (١٢٦) وكان يرسل خدمه
إلى الكنيسة بانتظام ودفع أجور تعليم أبنائهم قواعد الديانة (١٢٧) .

وربما قصد بجزء كبير من هذه التقوى والورع أن يكون قدوة حسنة
لأهل قريته ، ويشجعهم على إيمان قد يجد من جرائمهم ويصون ممتلكاته .
وكان وإثقا أن الحاشية الملكية فى فرساي سوف يترامى إليها أبناء سلوكه المثالى ،
وربما راوده الأمل فى أن هذا قد ييسر مهمته فى شن الحملات من أجل
كالاس وآل سيرفن ودى لأبار ، ويشفع فى عودته إلى باريس . والحق أن

الملك والمملكة قد سرهما ماسمعا من أنباء إصلاحه . ووافق الكاهن دى لاباترى على أن يتناول فولتير الأسرار المقدسة ، ولكنه عندما رأى هزال المبلغ أبدى ملاحظة فحواها أن فولتير نسي أن يدفن نفسه ، فأجاب فولتير بانحناء واحترام « يعذك ياسيدى » .^(١٢٨) وفى ٣١ مارس سنة ١٧٦٩ إستدعى موثقا . ووقع أمام عدة شهود وثيقة تؤكد رغبته فى الموت على العقيدة الكاثوليكية^(١٢٩) . وسخر منه الأخوة فى باريس ، وتقبل هو سخرتهم بصدر رحب .

وبعد ١٧٦٨ اعتاد كما هو الحال فى الأديار ، أن تقرأ عليه بعض الكتب التعبدية أثناء تناول الطعام . وكان لهذا الغرض يؤثر « عظات ماسيون » لأنه إستطاع أن يقدر قيمة الأدب حتى ولو بقلم كاهن . وكان قد اشترك فى الحملة ضد اليسوعيين ، ولكن فى ١٧٧٠ انضم إلى رابطة علمانية للأخوة الكبوشيين . وحصل من رئيس هذه الطائفة على لقب « الأب الدنيوى لطائفة الكبوشية فى جكس » . وهى القرية التى كان فيها سيدا اقطاعيا . وكان فخورا جداً بهذا التشريف ، وكتب عنه عدة رسائل وقع على بعضها باسم « الأخ فولتير الكبوشى » . وحياه فردريك قديسا جديدا فى الكنيسة . ولكنه أبلغه أن السلطات الكنسية فى رومه كانت قد أحرقت فى نفس العام بعض أعمال الكبوشيين الحقيرة^(١٣٠) . وليس من اليسير أن نتبين أن تودده إلى الكنيسة كان مخلصا أو أنه كان ترضية لقصر فرساي ، أو أنه كان بدافع الخوف من الحيلولة دون دفن رفاته فى الأرض المخصصة لهذا الغرض . وهى تشمل كل مقابر فرنسا . وربما لعبت هذه العوامل الثلاثة دورا فى الكوميديا المقدسة .

وفى تلك الأعوام الأخيرة ١٧٧٠ - ١٧٧٨ وقف قلمه على تنفيذ الالحاد لامهاجمة المسيحية . وأضاف إلى مقال « الله » فى القاموس الفلسفى فقرتين دحض فيهما « نظام الطبيعة » لدى هولباخ . وفى ١٧٧٢ دبح مقالا رائعا تحت عنوان « يجب أن نؤيد » وفيه دافع عن « الله والتسامح » . واعترف لمدام تكرر والدوقة دى شوازيل ، وللامير البروسى فردريك وليم . بخوفه

على حركة التسامح الديني من أن يهزمها تأييد الاتحاد والدفاع عنه . وأسف لأن نقده لدى هولباخ قد يهدد تضامن « الأخوة » ولكنه أصر في عناد : « لأشك عندى فى أن المؤلف وثلاثة من مؤيدى هذا الكتاب سيكونون من الد أعدائى لأنهم تحدّثوا بأفكارى . وقد أعلنت لهم أنى سأتكلم طالما كان فى عرق ينبض أو طالما ترددت أنفاسى دون أن أخشى المتعصبين للاتحاد ولا المتعصبين للخرافة^(١٣١) . ورد أنصار دى هولباخ على هذا بقولهم إن السيد الثرى يشتغل بالسياسة مع فرساي ويستخدم الله ليحافظ على النظام بين خدومه وفلاحيه فى فرنى .

وفى السنوات العشر الأخيرة من حياته ، نظر إليه الرجال الذى هتف لهم يوما ، وحفزهم وشجعهم على الانضمام إلى الحملة ضد « الرجس » باعتبارهم أخوة ، نظروا إليه وكأنه قائد مضيع . أن ديدرو ما أحبه قط ، وما ألفت تبادل الرسائل معه ، وكره منه زعمه الواضح بأن الدالمير هو رأس الموسوعة المفكر وروحها المدبر . لقد استحسن دفاع فولتير عن آل كالوس . ولكن افلئت منه عبارة تم على الحقد يقول فيها « أن هذا الرجل لا يعدو أن يكون الثانى فى كل الأحوال^(١٣٢) » . أن فولتير لم يشارك ديدرو سياسته الثورية ولا حبه لمسرحية البرجوازية العاطفية . أن البرجوازية حين تصبح ارسقراطية لا تسبغ قناعة البرجوازية . ولم يقم ديدرو ولادى هولباخ بحج الاخلاص والولاء إلى فرنى . وعلق جيم فى صرامة غير معهودة على نقد فولتير لهوبز وسينوزا بقوله : « أن الفيلسوف الجاهل لمس بصعوبة سطح هذه الموضوعات ولم يتعمق فى فهمها^(١٣٣) » . إن الملحدىن فى باريس ، وقد زاد عددهم وإعزازهم بأنفسهم ، واوا الآن ظهورهم لفولتير وانصرفوا عنه . وفى أوائل ١٧٦٥ ، وحتى وسط المعركة ضد « الرجس » نبذه أحداهم فى إحتقار قائلا « إنه متعصب إنه ريبونى^(١٣٤) » .

وبدأ الشيخ الجليل الواهن حوالى ١٧٧٠ . بعد أن تحلى عنه الجانبان وقاوموه . بدأ يفقد ثقته فى إمكانات الفوز ، وأطلق على نفسه « المدمر

الكبير « الذى لم يبن شيئا ^(١٣٥) ونخشى من أن دينه الجديد — وهو دين « الله والتسامح » لن يتأقلا إذا قبل الحكام نصيحة القديس بطرس « أعملوا من أجل السلام الدائم » أى أنه لن يأتى أبدا . أنه أرتاب طويلا فى وهن الفلسفة وانعدام الفتنة والجاهلية العقل . إن أى فليسوف لم يؤثر فى عادات الناس حتى فى الشارح الذى يقطنه ، وأسلم الجماهير للخرافة أو الأساطير . وراوده الأمل فى أن يحظى بنحو أربعين حكما فى فرنسا وبالفئات المتعلمة فى الطبقة الوسطى ، ولكن هذا الأمل نفسه بدأ يزوى ويذبل حين آذنت شمس حياته بمغيب . وكل الحلم الذى كان يراوده وهو يستعد فى سن الرابعة والثمانين ليرى باريس قبل أن يموت ، هو حلم « تنوير الشباب شيئا فشيئا » . فربما يعود إليه فى نعمة الترحيب الشديد به هناك ، لإيمانه بالإنسان وأمله فيه .

وهل كان فولتير فيلسوفا ؟ نعم . أنه كان كذلك على الرغم من أنه لم يصطنع مذهباً . وأنه تردد وتذبذب فى كل شىء . وغالبا ما بقى فوق سطح الأشياء ولم يتعمق فيها . ولم يكن فيلسوفا إذا كانت هذه الكلمة تعنى صانع مذهب قائم على فكر موحد متماسك عن العالم والإنسان . إنه انصرف عن المذاهب باعتبارها هجمات وقحة على « المطلق غير المحدود » ولكنه كان فيلسوفا إذا كان المقصود بالفلسفة انشغال الذهن بشكل جدى بالمشاكل الأساسية للطبيعة والاخلاق والحكومة والحياة والقضاء والقدر . ولم يعتبر فولتير عميقا . وربما كان السبب فى هذا أنه كان غير متأكد . وكان واضحا وقل أن كانت أفكاره أصيلة . ولكن كل الأفكار الأصيلة تقريبا فى الفلسفة سميخة . وانعدام الأصالة علامة الحكمة . يقينا كان الشكل الذى صاغ فيه أفكاره أصيلا . وفولتير بلا نزاع ألمع كاتب ظهر ، وهل كان الرجل الثانى . لا الرائد الأول . فى كل مجال كما اتهمه ديرو ؟ كان الثانى فى الفلسفة بعد ديرو . نعم . وفى المسرحية بعد كورنى ورابين ولكنه كان الأول والأفضل فى زمانه فى فهمه وكتابته للتاريخ وفى رقة شعره . وفى

سحر نثره وظرفه . وفى مدى تفكيره وتأثيره . ورفرفت روحه مثل اللهب فوق القارة وفوق القرن . كما أنها تثير وتهز مليون نفس فى كل بجيل .

وربما أسرف فى كراهيته ، ولكن علينا أن نتذكر الاستفزاز والإثارة ، ونتصور أنفسنا عائدین إلى الورااء فى عصر كان الناس يحرقون فيه على الخازوق ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف بسبب الارتداد عن الديانة التقليدية . وقد نرى المسيحية الآن أفضل مما كانت عليه أو مما رآها هو آنذاك ، لأنه ناضل وأصاب بعض النجاح للتخفيف من تعاليمها وحدتها . ويمكن أن نحس بقوة وروعة العهد القديم وجمال العهد الجديد وسموه ، لأننا أحرار فى أن نفكر فيهما باعتبارهما من عمل وإيحاء رجال غير معصومين من الخطأ . ويمكن أن نكون شاكرين ومقدرين لاختلاق المسيح لأنه لم يعد يهددنا بالجحيم ، أو يصب اللعنة على الناس والمدن التى لانستمع إليه (١٣٧) .

ويمكن أن نحس نبل القديس فرانسيس الأسيسى لأنه لم يعد يطلب منا أن نصدق أن القديس فرانسيس أكسافير كان يسمع فى عدة لغات على حين كان يتحدث بلغة واحدة ، ويمكن أن نحس بشعر الطقوس الدينية وبالمسرحية فى هذه الطقوس ، حيث تركنا الانتصار العابر للتسامح أحرارا فى أن نتعبد أو نمتنع عن العبادة . ويمكن أن نتقبل مائة أسطورة باعتبارها رموز عميقة أو مجازات منيرة موضحة ، لأننا لم نعد يطلب منا أن نتقبل خفيقتها الحرفية . وتعلمنا أن نتعاطف مع ما كنا يوما نحبه . وكان علينا أن نتخلى عنه ، عندما نستعيد أجمل الذكريات لما كنا نحب فى شبابنا . ولن ، أكثر من أى رجل واحد آخر ، ندين بفضل هسنا التحرر العزيز علينا والذي يعتبر فاتحة عصر جديد ؟ أننا ندين لهذا الفضل لفولتير .

الفصل الثالث والعشرون

انتصار الفلاسفة

١٧١٥ - ١٧٨٩

١ - رجال الدين يصدون الهجوم

كان هناك الكثير مما يقال من أجل المسيحية . مما قاله المدافعون عنها في قوة وحيوية ، أحيانا مع سسؤ تقدير أعمى للعصر ، وأحيانا في رقة ووضوح توقعتهما فرنسا حتى من اللاهوت . وهناك من رجال الكنيسة من ظل يصر على أن أى انحراف عن المذهب الكاثوليكي المحدد يجب أن تعاقب عليه الدولة ، وأن مذنبه سانت برثلميو عملية مشروعة مثلها في ذلك مثل أية عملية جراحية^(١) . ولكن كان هناك من قبلوا التحدى وأخلوه مأخذ الرجال الكرام الشرفاء وأجازوا للأعداء أن يختاروا السلاح . وهو العقل . وكانت لفظة كريمة . فأن الدين إذا أرتضى العقل كان في هذا بداية موته وفنائه .

ونشرت فرنسا فيما بين عامى ١٧٠٥ و ١٧٨٩ نحو تسعمائة كتاب دفاعا عن المسيحية ، منها تسعون في سنة ١٧٧٠ وحدها^(٢) . أن كتاب ديدرو « أفكار فلسفية » ، وكتاب هلفشيوس « الذكاء » ، وكتاب روسو « أميل القرن الثامن عشر » ، استلزم كل منها نشر عشرة كتب لتفنيده والرد عليه . أن الراهب هوتفيل في كتابه « الديانة المسيحية كما تثبتها الأعمال » (١٧٢٢) أكد (مثل رئيس الأساقفة ويتلى Whately بعد ذلك بقرن من الزمان) أن المعجزات التى تثبت قدسية المسيحية ثابتة بشكل موثوق قدر ثبوت الأحداث المقبولة في التاريخ العلمانى . وفي مجلدين اثنين نشر الكاهن

جويون Guyonh كتابه « مهبط الوحي عند الفلاسفة الجدد » (١٧٥٩ - ١٧٦٠) وهو كتاب هجاء ونقد . ونشر الكاهن بلوش Pluche كتابه « مشهد الطبيعة » في ثمانية مجلدات (١٧٣٩ - ١٧٤٦) . وظهرت منه ثمانى عشرة طبعة غالية الثمن ، عرض فيه عجائب العلم وأدلة التدبير المقصود فى الطبيعة ليثبت وجود إله أسمى فى العقل والقوة . وإذا وجد العقل البشرى بعض الالغاز فى المشهد الضخم ، فيمكن متواضعا . ولا ينبغي لنا أن ننبذ الإله لأننا لا نستطيع فهمه وأدراكه ، ولنقدم له فى نفس الوقت الشكر على بديع صنعه . أما الأب جوشا Gauchat فإنه فى ١٥ مجلدا بعنوان « رسائل نقدية » (١٧٥٥ - ١٧٦٣) هاجم فرضية التطور عند بيفون وديندرو وغيرهما ببرهان طائش « إذا كان الناس يوما أسماكا فأن هذا استتبع واحدا من اثنين ، فلما أنه ليس للإنسان نفس روحية خالدة ، أو أن للاسماك مثل هذه النفس ، وكلماتها فرضية تنافى التقوى والدين »^(٣) . ووافق الفلاسفة فرحين مهللين . وأكد الأب سيجورن Sigorgne فى كتابه « الفاسفة المسيحية » على لزوم الدين دعامة للاخلاق ، فأن القيود العلمانية الخالصة تؤدى فقط إلى شحذ إذهان المهرمين الذين لا يعودون يؤمنون بالله البصير بكل شىء . وفى ١٧٦٧ نشر الأب شانندن Mayeul Chandon القاموس المضاد للفلسفة ، وقد ظهرت منه سبع طبعات . أما الأب نونوت Nonotte وهو يسوعى سابق تحلى بسعة الاطلاع والثقافة مثل أعضاء طائفته^(٤) ، فإنه أخرج فى ١٧٧٠ كتابه الضخم « أخطاء فولتير » وقد بيع من هذا الكتاب أربع طبعات فى عامه الأول ، وست طبعات فى ثمانية أعوام . وفى ١٨٥٧ عد فلوبير هذا الكتاب من بين ما تقرأ إما بوفارى . ودافع الأب جوينى Guenee عن الكتاب المقدس بروح وذوق وكياسة وتفقه فى كتابه « رسائل بعض اليهود » (١٧٧٦) . وهى رسائل توهم بأنهم صادرة من بعض علماء اليهود . وسلم فولتير بأن نقد جوينى « لا ذع إلى حد بالغ »^(٥) . ووجه المدافعون الكاثوليك وابلا من النيران فى كل شهر

ضد الفلاسفة في نشرة « الدين المنتقم » . وفي ١٧٧١ بدأوا يصدرون « موسوعة منهجية » ، أوسع حتى من موسوعة ديدرو ، تهاجم كل نقاط الضعف في قلعة الشك هذه .

وواجه الماديون (أنصار المذهب المادى) خصما عنيدا في شخص نقولا سلفستر برجيه وهو راعى أبرشية في أسقفية بيزانسون . أن كتابه « الربوبية تفند نفسها » (١٧٦٥) كان « رد كاهن حقيقى على قسيس سافوى الذى إبتدعه خيال روسو^(٦) » ومن أجل كتابه « صدق براهين المسيحية » (١٧٦٧) تلقى رسالة ثناء ومديح من البابا . وفي سن الواحدة والخمسين (١٧٦٩) رفع إلى مرتبة كاهن في كاتدرائية نوتردام في باريس ، وأصبح كاهن الاعتراف لبنات الملك لويس الخامس عشر . وفي نفس العام نشر كتاب « دفاع عن المسيحية ضد مؤلف فضح المسيحية » — وهو ضربة موجهة إلى دى هولباخ . ومرت جمعية رجال الدين بهذا الكتاب فقررت له في ١٧٧٠ معاشا سنويا قدره ألفان من الجنيهات ليتفرغ للدفاع عن العقيدة . وفي بحر سنة أخرج كتابا في مجلدين تحت عنوان « اختبار المادية » وهو رد على كتاب دى هولباخ « منهج الطبيعة » وأوضح مرة أخرى أن الذهن هو الحقيقة الوحيدة المعروفة لنا بطريق مباشر ، فلم نهبط به إلى شئ آخر معروف لدينا عن طريق الذهن فقط^(٧) . وأتهم دى هولباخ بعدة تناقضات : ١ — أعلن البارون أنه لا سبيل إلى معرفة الله ، ولكنه طبق بعد ذلك على المادة كل صفات اللاتناهي والأبدية ٢ — أنه قبل مذهب الحتمية ومع ذلك حض الناس على إصلاح سلوكهم . ٣ — نسب الديانة إلى :

(أ) إلى جهل الإنسان البدائى . (ب) وحيل الكهنة ومغالطتهم .

(ج) وإلى مكر صانعى القانون وبراعتهم . — فلنتركه يقرر . وطرح الكاهن نقد العهد القديم جانبا بايضاحه أن ناسخى كلام الله من البشر كانوا قد استخدموا المخازات والاستعارات الشرقية . ولذلك ينبغي ألا يؤخذ الكتاب المقدس دائما بحروفه . والعهد الجديد هو جوهر المسيحية ، وحياة المسيح

من معجزاته تثبت قداسة الدين . ومهما يكن من أمر فإن سلطة الكنيسة لا تركز على الكتاب المقدس وحده ، بل على التسلسل أو التعاقب الرسولى لاساقفتها ، وتقاليدهم التى وضعوها للدين . وفى كتاب اختبار الدين المسيحى (١٧٧١) أكد برجيه الحجة القائلة بأن الإلحاد ، على الرغم من الشخصيات الفردية الاستثنائية التى أبرزها بيل ، قد يدمر الفضيلة والأخلاق .

وأرق شخصية فى المدافعين عن الكاثوليكية من رجال الدين فى القرن الثامن عشر فى فرنسا هو غيلوم فرنسوا برتية (٨) . فى سنة ١٧١٤ وهو فى سن الثانية عشرة التحق بالكلية اليسوعية فى بوج ، وهناك اشتهر بحدة ذهن لم تسيء إلى تقواه إساءة ظاهرة . وفى سن السابعة عشرة أبدى لوالديه رغبته فى الانضمام إلى « جمعية يسوع » فطلبوا إليه أن يفكر فى الأمر لمدة عام . ففعل وأصر على رغبته . وفى الفترة التى سبقت تثبيته راهباً فى باريس أكب على القراءة والدرس والصلاة حتى إنه نادراً ما يخصص للنوم أكثر من خمس ساعات فى اليوم . وتقدم ونما بسرعة حتى أنه عين فى سن التاسعة عشرة لتدريس العاوم الإنسانية فى كلية دى بلوا ، وبعد سبع سنين قضاهها هناك ، وسنة أخرى فى الرهبة ، أرسل إلى رن ثم إلى روان استاذاً للفلسفة . وفى ١٧٤٥ عينه اليسوعيون محرراً لصحيفتهم « جورنال دى تريفو » التى كانت تصدر فى باريس آنذاك . وأصبحت هذه النشرة الدورية على عهده من أكثر الأصوات احتراماً فى فرنسا المتعلمة .

وكتب برتية معظم الصحيفة بنفسه . وعاش فى صومعة صغيرة لم تجر تدفئتها قط ، واشتغل كل ساعات النهار ، وكان بابه مفتوحاً أمام كل من قصده ، وكان ذهنه مفتوحاً لكل موضوع ، اللهم إلا العقيدة التى كانت تعمربها حياته وتغمرها بالدفء . إن لاهارب La Harpe أحد تلاميذ فولتير ، وصف برتية بأنه الرجل الذى نال إعجاب العلماء والباحثين جميعاً : لغزارة علمه وسعة اطلاعه ، كما نال إعجاب أوروبا افضائاه الموسومة بالتواضع (٩) . وامتاز بسحر الكياسة الفرنسية حتى عند الاختلاف فى رأى . فهاجم

الأفكار لا الشخصيات وامتدح مواهب خصومه أو معارضيهِ^(١١). ومع ذلك فإنه دافع عن عدم التسامح الدينى . واعتقاداً منه بأن المسيح ابن الله هو الذى أسس الكنيسة الكاثوليكية ، رأى أنه من واجب المسيح أن يحول بكل الوسائل السلمية دون انتشار الخطأ الدينى .. ويجب حظر الدعاية المعادية للمسيحية فى أية أمة مسيحية ، لأنها تغرى بالسلوك غير الأخلاقى ، وتسئ إلى استقرار الدولة . ورأى أنه من الخطأ أن نخلط بين التعصب للكاثوليكية وبين التحمس للاضطهاد^(١٢) ، ولكنه لم يعد بعدم مواصلة الاضطهاد . وفى سنة ١٧٥٩ رد الاتهام بالتعصب وعدم التسامح إلى الفلاسفة فقال : أيها الكفار ، أنتم تهموننا بالتعصب الذى لا أثر له لدينا ، على حين أن ما تضمرون من كراهية لديننا يبعث فيكم تعصباً لا يمكن تخيل أفراطكم الواضح فيه^(١٣) .

ولم يسلم برتييه بالحقيقة المطلقة للعقل وحتى على الاسس الحسية عند لوك ، لا يستطيع العقل أن يصل إلا إلى الحواس ، أما فيما وراء هذه الحدود ، فهناك حقائق واقعة ينبغي أن تظل إلى الأبد أسراراً خفية فى الأذهان المحدودة ، ومن ثم فإن الفيلسوف الحق يجد من بحثه حين لا يمكنه تحظى هذه الحدود بشكل معقول^(١٤) . أن السعى لإخضاع الكون أو معتقدات الناس التقليدية والعامة لاختبار عقل فردى ، ضرب من الغرور العقلى . والرجل المتواضع يقبل عقيدة بنى جلدته إذا لم يستطع فهمها . وذهب برتييه فى بعض الأحيان إلى أن الكفار ينبذون الدين لأنه يتدخل فى ملذاتهم ، وتنبأ بأنه إذا سادت مثل هذه الأباحية ، فلا بد أن ينهار القانون الأخلاقى ، ويطلق العنان للأهواء ، وتختفى المدنية فى خماة الأنانية والشهوة والحداع والجريمة . وإذا لم توجد الإرادة الحرة ، فلا وجود للمسئولية الأخلاقية . وحيث أن الحتمية لاتسلم بأى قانون يلزم الضمير ، فإن الشخص المذنب الوحيد هو الشخص الذى لا ينبجج^(١٥) . ومن ثم تكون الفضيلة أو الأخلاق القويمة حينئذ مجرد حساب المنفعة ، ولن يكون إحساس بالعدالة ليكبح

جماع الأقلية الذكية الماهرة في سوء استغلال سداجة الأغلبية ، ولن يشعر أى حاكم بأى التزام نحو شعبه ، اللهم إلا المبادعة بينهم وبين الثورة بسبب استغلاله لهم .^(١٥)

أن برتية كان كما رأينا قد رحب بالمجلد الأول من الموسوعة وقرظة ، وعرض ما فيه من أخطاء وانتحالات في دقة بالغة ثم على ثقافة واسعة ، ومن ثم أظهر أن مقالة العمل للأب ييفون Yvon التي شغلت ثلاثة أعمدة كاماة ، أخذت بنصها كلمة بكلمة من كتاب الأب بوفيه « بحث في الحقائق الأولية »^(١٦) . وامتدح مثال « الفلسفة العربية » ولكنه أبدى فرعاً حين وجد أن مقالة الإلحاد قد أوردت الحجج التي تساند الإلحاد على نفس مستوى الاسهاب والقوة الذي أوردت به الحجج ضد الإلحاد ، تاركة فكرة وجود الله في شك رهيب . وعندما أصبحت النزعة المعادية للمسيحية أكثر وضوحاً في المجلد الثاني هاجمها في قوة وبراعة . وأوضح إن الموسوعة استمدت سيادة الحكومة من رضا المحكومين ، وفي هذا ، في نظر برتية ، خطر على الملكية الوراثية . وربما كان له أثر في وقف الموسوعة عن الظهور^(١٧) .

وفي عدد أبريل من صحيفة دى تريفيو عرض لكتاب فولتير « بحث في العادات » فقال : إنه ليحزننا أن نرى مؤلفاً حياً نقدر مواهبه ونعجب بها ولكنه يسعى استغلالها في أكبر الأمور الأسامية . لقد رأى في كتاب فولتير محاولة لهدم الكنيسة والدين ليشيد على إطلاهما كياناً فلسفياً ، أو معيداً مخصصاً لإباحية الفكر ، نذره للاستقلال عن كل سلطة ، والهبوط بالعبادة والأخلاق والفضيلة إلى مجرد فلسفة علمانية بحثة بشرية . واتهم فولتير بتعزيز أخزى المؤرخ . حيث عمى عمى يكاد يكون تاماً عن فضائل المسيحية وخدماتها ، وصمم تصميمها طائشاً على أن يلتمس لها الأخطاء في منجزاتها وأعمالها . وقال : إن فولتير ادعى أنه يؤمن بالله ، ولكن من آثار كتاباته دعم الإلحاد . وفي نفس العدد من الصحيفة تحول برتية إلى كتاب فولتير « العذراء — جان دارك » فنقد صبره . وصاح : إن

البحيم لم يلفظ قط مثل هذا الطاعون الفتاك : . . . إن الشهوانية تعرض هنا بكل وقاحة أبشع الصور بذاعة ودعارة . إن الفحش والبذاءة تستعيران لغة السوق . . . إنه أخطأ المزل الماخن يلفظ الكفر والبعد عن التقوى . . . إن الرائحة المنبعثة من هذه الأشعار كفضيلة بافساد ونقل العدوى إلى كل عصر وكل حالة في المجتمع^(١٨)

ولم يسارع فولتير إلى الرد ، إنه مازال يحتفظ بذكرات طبية لمعلميه اليسوعيين ، ولا يزال على جدران مكتبه في فرني صورة الرجل الطيب المعطوف المتدين آلاب بورى Poree^(١٩) . ولكن عندما أوقفت الحكومة الفرنسية صدور الموسوعة استجاب لتحريض دامبير وأنبرى لقتال برتية . فاتهمه بمناهضة الموسوعة لأنها نافست قاموس تريفو الذى زعم أنه إنتاج يسوعى (كان كذلك بشكل جزئى وبصفة غير رسمية) ، ودعا بمجتمع يسوع إلى فصل محرري تريفو . أى عمل هذا الذى يشتغل به كاهن ... أنه يبيع فى كل شهر من مخزن للكتب مقتطفات من آراء طائشة مفتراه .^(٢٠) فرد برتية (يوليو ١٧٥٩) بأن محررى صحيفة تريفو لاعلاقة لهم بمحررى قاموس تريفو واعترف بأن كونه محرراً ليس عملاً جميلاً ولا مناسباً ، ولكنه تمسك بحق الكاهن فى استخدام صحيفة دورية للإشادة بالكتب القيمة واستهجان المؤلفات الغثثة . وأسف لأن فولتير انزلق إلى المسائل الشخصية والاثام بالفساد والرشوة وختم كلامه بالأمل فى أن يعود هذا الرجل ذو المواهب العظيمة فيما تبقى له من عمر تفضلت به عليه العناية الإلهية ، يعود إلى الديانة المقدسة لا الدين الطبيعى ، بل إلى المسيحية الكاثوليكية التى ولد فيها^(٢١) . وفى نوفمبر أصدر فولتير (وكان لاشك يتذكر الدفن الوهمى لجون بارتريدج تأليف سويفت) ، رسالة مهمة تحت عنوان « العلاقة بين المرض والاعتراف والموت وشبح برتية اليسوعى » ذاكر كيف أن المحرر مات فى نوبة من التثاؤب فوق صحيفة تريفو ، واعتذر عن أسلوبه فى الجدل فى خطاب إلى مدام ابيناى : لا بد من تسفيه الرجس والمدافعين عنه^(٢٢) .

(م ١٥ - قصة الحضارة)

وفي ١٧٦٢ أمرت برلمانات فرنسا بقمع حركة اليسوعيين ، وصر برتنيه حين إنتهى عمله في تحرير الصحيفة ، وآوى إلى دير للترايستيين ليحيا حياة الصمت والتأمل ، وطلب السماح له بالانضمام إلى هذه الطائفة (التي يقوم مذهبها على دوام الصمت والتقشف والزهد) ولكن رئيس اليسوعيين أبي عليه ذلك ، وعينه لويس الخامس عشر معلما لأبناء الأسرة المالكة . ولما وقع الملك مرسوم طرد اليسوعيين من كل أنحاء فرنسا (١٧٦٤) هاجر برتنيه إلى ألمانيا . وفي ١٧٧٦ سمح له بالعودة ، فاعتزل كل نشاط ، وأقام مع أخيه في بروج . ومات هناك في سن الثامنة والسبعين (١٧٨٢) وكان رجلا طيبا .

٢ - خصوم الفلاسفة

حمى وطيس الحرب حين نبذت أردية الكهنة ونبذت المحاملات ، وركز الصحفيون أنظارهم على الفلاسفة ، وسخر كل ذكاء باريس وكل مفردات لغتها للشد والجذب والطعن . ولقد رأينا كيف أن فولتير تعرض ١٧٢٥ لبعض المتاعب لانقاذ بيير ديفونتين من العقوبة القانونية للواط وهى الإعدام . ولم يغفر له ديفونتين هذا قط . وفي ١٧٣٥ شرع في إصدار نشرة دورية تحت عنوان « ملاحظات على الكتابات الحديثة » استمرت حتى عام ١٧٤٣ وعلى صفحاتها نصب نفسه مدافعا عن المضائل وعن العفة بصفة خاصة . وهاجم ، في زراية واحتقار ، كل مظاهر انحلال الخلق أو الخروج على التقاليد السليمة ، باغة الأدب في ذاك العصر . ومات الد إعداء فولتير . ولما مات في ١٧٤٥ أوصى بزاية الجهاد لصديقه فريرون .

كان أبلي كاترين فريرون أقدر خصوم الفلاسفة وأشجعهم وأغزرهم علما وثقافة . وكان عالما بجائنة إلى حد أنه كتب « تاريخ ماري ستوارت » (١٧٤٢) وسبعة مجلدات في « تاريخ الامبراطورية الألمانية » (١٧٧١) . كما كان شاعرا إلى حد أنه نظم قصيدة « عن معركة فونتنوى » (١٧٤٥) ولأبد أن فولتير رأى فيها منافسة وقحة لقصيدته باعتباره المؤرخ الملكي . وفي ١٧٤٥

أصدر نشرة دورية تحت عنوان : « رسائل عن بعض كتاب هذا العصر » وتناول فيها فولتير بالنقد والتجريح أكثر من مرة . وقضى فريرون سنى فقره سائقا لعربة تجرها أربعة جياد . . وزج به فى سجن الباستيل ذات مرة لمدة ستة أسابيع لنقده راهبا من ذوى النفوذ . ولكنه حارب لمدة ثلاثين عاماً معركة الجبارة من الماضى . وإستاء استياءً واضحاً من فولتير لأنه نصح فرديريك بالمدول عن استخدامهم مراسلا له فى باريس^(٢٣) . وفى ١٧٥٤ أصدر مجلة جديدة تحت أسم « السنة الأدبية » التى حررها وكتب معظمها ، ونشرها مرة كل عشرة أيام حتى ١٧٧٤ .

وأعجب فريرون بتمسك بوسويه بالدين وبالطرق الفخمة والأسلوب الفخم فى القرن السابع عشر ، وأحس بأن فهم الفلاسفة للتنظيم الاجتماعى ودعائهم الفضيلة والأخلاق وركائز الإيمان فهم سطحي إلى حد معيب . « لم ينبج عصر مثل عصرنا هذا قط مثل هذا العدد الكبير من الكتاب المغوين مثيرى الفتن الذين يركزون قواهم فى التهجم على مقام إله ، أنهم يسمون أنفسهم رسل الإنسانية ، دون أن يدركوا أنه لا يلائم أى مواطن وأنه يسىء إلى الجنس البشرى أبغ اساءة أن يسلبوهم الآمال الوحيدة التى تهىء لهم بعض التخفيف من متاعب الحياة . أنهم لا يدركون أنهم يقبلون النظام الاجتماعى ، ويحرضون الفقراء على الأغنياء والضعفاء على الأقوياء ، ويضعون الأسلحة فى يد ملايين الناس الذين منعهم حتى الآن الوازع الأخلاقى والدينى من اللجوء إلى العنف ، قدر ما يمنعهم القانون »^(٢٤) .

وتنبأ فريرون بأن هذا الهجوم على الدين سوف يقوض أركان الدولة ، واستبق بحيل واحد تحذيرات ادموند بيرك : « أليس التعصب للكفر وهدم الدين أشد سخفاً وخطراً من التعصب للخرافة ؟ أبداً بالتسامح مسع عقيدة آبائك . أنكم لا تتحدثون إلا عن التسامح ، ولكنكم أبعد الناس عن التسامح .. أنا لا أنتمى إلى عصبة الروح الجميلة ، ولا أنتمى إلى حزب الدين والفضيلة والشرف »^(٢٥) .

وكان فريرون ناقدًا لاذعًا ، ولم يدخر وسعًا في تحطيم غرور الفلاسفة الحساس وجرح كبريائهم . وسخر من شدة تعنتهم وتعصبهم لآرائهم ، ومن مزاعم سيادة فولتير الأقطعية باعتباره « كونت دى تورناى » . ولما ردوا عليه فأسموه « وغدا متعصبا » ، أنتقم هو منهم فقال إن ديدرو منافق وإن جريم متناق الوجهاء الأجانب ، وأطلق على جماعة الكفار بأسرها أسم عصابة « الاوغاد المحتالين والوضعاء الحمقى »^(٢٦) . وأتهم الموسوعيين بسرقة الرسوم الأيضاحية من كتاب Reaumur عن « النمل » . وأنكروا هم هذه التهمة وأيدت أكاديمية العلوم هذا الإنكار ، ولكن الحقائق أيدت الاتهام فيما بعد^(٢٧) . ولم يتصرف فريرون تصرفا حسنا في « عودة إلى كالاس » لأنه ذهب إلى أن الدولة أثبتت أن كالاس مذنب . وكتب أن فولتير لم يكن مدفوعا في دفاعه عن كالاس بأى شعور إنسانى قدر رغبته في لفت أنظار الرأى العام إلى وجوده هو — أى فولتير ، وفى أن يجعل الناس يتحدثون عنه^(٢٨) . وأحبت الأنسة كلبيرون ، وهى كاتبة مسرحية كبيرة ، فواتير وزارته ، ودأب فريرون على إمتداح منافستها ، وأبدى بعض ملاحظات على الحياة الخاصة غير الأخلاقية لمثلة بعينها . واستاء الممثلون من مزاعمه باعتبارها تدخلا غير كريم فى أمورهم الشخصية . وحرص دوق ريشيليو ، وهو الذى يغتفر الزنى ، لويس الخامس عشر على إعادة فريرون إلى الباستيل ثانية ولكن الملكة حصصت على عفو عنه « من أجل تقواه وبلائه الحسن فى مناهضة الفلاسفة »^(٢٩) . ولما قبض ترجو صديق الفلاسفة على زمام الأمور سحب رخصة مجلة السنة الأدبية (١٧٧٤) وتعزى فريرون بتناول الطعام الجليد ، ومات بسبب أكلة شمية ، وطلبت أرماته إلى فولتير أن يتبنى أبلته ، ولكن فولتير رأى أن هذا اسراف فى الشهامة .

وبقدر ما أساءت مجلدات فريرون الثلاثون إلى الفلاسفة ، أساءت لفظة واحدة هى اللفظة الأخيرة . فى عنوان كتاب هجاء جاكوب نقولا مور « مذكرات جديدة لايضاح تاريخ الكاكواك Cacouacs » . ويقول مورو

إن هؤلاء « الكاكوواك » جنس يكاد يكون من الحيوانات البشرية تحمل تحت الستها أكياسا من السم ، فإذا تكلمت إمتزج السم بالكلمات ولوث كل الهواء المحيط بها . واقتبس المؤلف الجاذق مقتطفات من ديدرو ، ودالمير وفولتير وروسو ، وحاول أن يبرهن على أن هؤلاء الرجال كانوا حقاً يسمون أنفاس الحياة ، وأتهمهم بأنهم يرتكبون السيئات والشرور « لمجرد حبهم للشر وفرحهم بارتكابه »^(٣٠) وسماهم ملحدين ، فوضويين ، لاخلق لهم ، أنانيين . ولكن لفظة الكاكوواك هي التي آلمتهم أشد الأيلام . إن هذا اللفظ أوحى بتنافر النغمات في صوت البط ، وتهريج الثرائين الجانين ، وأحياناً (كما قصد بالكلمة) رائحة المراحيض . وكافح فولتير ليرد ، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يفند الرائحة ؟

وتشجع المحافظون وشددوا من ضرباتهم . وفي ١٧٥٧ كسبوا جندياً جديداً طموحاً نشيطاً . فإن شارل باليسودى مونتيني كان قد زار فولتير في لي دليس (١٧٥٤) مع تقديم من تييرو على أنه « تلميذ صنعتته مؤلفاتك »^(٣١) وبعد ذلك بعام واحد مثل في نانسي ملهاة (كوميديا) تنتقد روسو بشكل لطيف ، وفي باريس رعى وشجع الأميرة الشابة الورعة Robecq التي كانت على الأقل صديقة الدوق دى شوازيل . وكان ديدرو الخبير في سوء السلوك قد عاب عليها خلقها في مقدمة كتابه « الأبن الطبيعي » وربما نشر باليسو (١٧٥٧) ، استرضاء لها ، كتاب « رسائل صغيرة عن كبار الفلاسفة » انتقد فيه ديدرو بشدة ، ولكنه إمتدح فولتير . وفي ٢ مايو ١٧٦٠ قدم تحت رعاية الآنسة دى روبيك على المسرح الفرنسى الملهاة الرائعة في الموسم وأسمها « الفلاسفة » . وكانت هذه بالنسبة لهلفشيوس وديدرو وروسو ما كانت مسرحية أرسطوفان « السحب » بالنسبة لسقراط قبل ذلك بنحو ٢١٨٣ عاماً . صور فيها هلفشيوس في صورة الفيلسوف المتحذلق فالير Valere الذي يشرح حب الغير في الأنانية للسيدة المثقفة ذات الاهتمامات الأدبية والفكرية سيد اليز Cidalise . وعرف جمهور المتفرجين

لأول مرة أن هذه السيدة تمثل مدام جيوفرين التي كان صالونها يتردد عليه الفلاسفة وصور ديدرو وكأنه دورتيديوس . وفي الخادم كرسبين Crispin الذي كان يحب على أربع عبر المسرح وهو يمزج الخس ، رأى الباريسيون صورة ساخرة (كاريكاتورية) لجسان جاك روسو الذي كان في ١٧٥٠ قد استنكر المدنية وأضفى صورة مثالية على « حالة الطبيعة » ومجدها . وكان هجاء جافا غير مصقول ، ولكنه مشروع . وأستمتع به كل من شاهده ، اللهم إلا الضحايا الذين قصدت المسرحية السخرية منهم . ومألت الأنسة دى روبك المسرح بأصدقائها وغيرهم من أتباعها ، وعدة أفراد من مختلف الرتب الكنسية . وأصرت الأميرة على الرغم من السل الذي كان يهدد كيانها ، على تشريف العرض الأول بجملها المحموم . وفي نهاية المشهد الثاني دعى باليسو إلى مقصورتها ، وعانقته على مرأى من الناس ، ثم حملوها إلى دارها (٣٢) لأنها كانت تسعل دما . ومثلت مسرحية الفلاسفة أربع عشرة مرة في تسعة وعشرين يوما .

وفي الوقت نفسه أنضم إلى الحملة على الكفار شخصية كبرى . فلإن جان جاك لي فرانك مركزى بومبينان ، أحد حكام الإقليم ، كتب قصائد وروايات ممتازة إلى حد فاز معه في الانتخابات للأكاديمية الفرنسية . وفي الخطاب الذى ألقاه بمناسبة قبوله عضوا فيها ، قال جان مستنكرا : « هذه الفلسفة المضللة الخداعة التى تقول عن نفسها إنها لسان حال الحق ، وماهى إلا أداة للافتراء وتشويه السمعة ، إنها تبجح بالاعتدال والتواضع ، ولكن تذبذب أوداجها زهوا وكبرياء . أن أتباعها الذين يتجرأون ويتعالون ويتبهون عجباً بأقلامهم يرتعدون فرقا في حطة في حياتهم ، وليس ثمة شئ يقينى في مبادئهم ، وليس ثمة غناء في أخلاقهم . ولا قاعدة للحاضر ولا هدف للمستقبل » (٣٣) .

وإمتدح لويس الخامس عشر هذا الخطاب . وسخر منه فولتير في نشرة من سبع صفحات لا تحمل اسم الكاتب ، عنوانها « عندما » لأن كل فقرة

فيها بدأت بكلمة « عندما » وعلى سبيل المثال . « عندما يحظى إنسان بشرف الاستقبال في جمعية كريمة من رجال الأدب . فليس من الضروري أن يكون خطاب الاستقبال هجاء لرجال الأدب ، لأن في هذا اساءة للجمعية وللجمهور . وعندما لا يكاد الإنسان يكون أدبيا إلا بشق النفس ، ولا يكون على الأقل فيلسوفا ، فلا يجمل به أن يقول إن أدب امتنا زائف وفلسفتها عقيمة . . . »

وهكذا في أسلوب غير رائع . ولكن موريليه أتبع هذه النشرة بنشرة أخرى كبيرة تكرر فيها لفظ « إذا » وسرعان ما صدرت بعد ذلك نشرة أمتلات بلفظة « لماذا » ثم أصدر فولتير بعد ذلك نشرات متوالية زاحرة بالألفاظ : « من ، الذى ، نعم ، لا لماذا » ، وهرب بومبينان من هذه العاصفة إلى بلدته مونتويان ، ولم يظهر قط في الأكاديمية ثانية . ولكنه عاد إلى الصراع في ١٧٧٢ بكتاب أسماه « الدين يثار من الشكوكية بالشكوكية نفسها » وبسط وجهة نظره في أب المذهب المادى (المادية) لم يترك أى وازع للاخلاق والفضيلة ، وإذا لم يكن هناك إله فكل شىء جائز أو مريض به ، وكل ما نحتاجه هو أن نتملص من الشرطة . وتساءل المركز : إذا لم يكن هناك إله فكيف تقنع الناس بأن يرضوا بوضع التبعية والخضوع الذى وضعهم الجمهورية فيه (٣٤) ؟

وقال الكاهن جاليانى ، الذى جاء من نابلى إلى باريس ١٧٦١ ، وتألق في الصالونات لمدة ثمانى سنوات ، للفلاسفة — الذين أحبه — إن دعوة بعضهم إلى « اتباع الطبيعة » نصيحة مجنونة تهبط بالإنسان المتحضر إلى الوحشية والهمجية (٣٥) وإن شواهد التدبير الألهى المقصود فى الكون بارزة جليلة (٣٦) وإن التشكك أدى إلى الفراغ العقلى واليأس الروحى :

« يسبب تنوير أنفسنا وجدنا فراغا أكثر مما وجدنا أمتلاء . . . وهذا الفراغ الذى ألع على نفوسنا وعلى خيالنا هو السبب الحقيقى فى كآبتنا (٣٧) . . وبعد كل ما قيل وما عمل فالتشكك هو أعظم محاولة تبذلها روح الإنسان

ضد غرائزه وفطرته وأذواقه . . . إن الناس في حاجة إلى التيقن . . . أن الغالبية من الناس وبخاصة النساء (وخیالهن ضعف خیالنا) لا يمكن أن يكونوا « لا أدريين » ، وإن هؤلاء القادرين على اعتناق مذهب اللادرية (الذين يعتقدون أن وجود الله وطبيعته وأصل المكون أمور لا سبيل إلى معرفتها) ، لا يستطيعون أن يبقوا على مذهبهم إلا بسمو شباب نفوسهم وقوتها ، فإذا هرمت النفس وولى شبابها يعود بعض الإيمان إلى الظهور ثانية^(٣٨) . . . إن اللادرية يأس له ما يبرره^(٣٩) .

و ضد جالياني الالامع ، وبرجيه العالم الفقيه وبرتييه الدمث ، وفريريون المحمد المكافح وبومينان النبيل ذى اللقب ، وبالييسو المرهق . ومورو الثرثار ، استخدم الفلاسفة ضد هؤلاء جميعا كل أسلحة الحرب الفكرية ، من العقل والسخرية إلى الرقابة والقدح والذم . ونحلى فولتير عن هدوئه وغامر بأمنه وطمأنينته ليرد في شيء من الدعاية أكثر منه بالحاجة والجلد غالبا ، على كل من يهاجم الفلاسفة والعقل ، فكتب إلى ديدرو « أرسل إلى إسماء هؤلاء الرفاق التعساء ، وسأعاملهم بما يستحقون »^(٤٠) .

وكان من الصعب التعرض لمورو لأنه كان أمين المكتبة ، وكان مؤرخ المملكة . وكان من الممكن التشهير ببومينان بالتفاصيل الصغيرة ، والنيل من بالبسو بالتورية والتلاعب بالألفاظ ، وهكذا كتب مارمونتل قطعة من المتعذر ترجمتها « هذا الرجل كان اسمه ذات يوم بالى ، وفي البداية أسموه بالى الغبى ، ثم بالى المنحط وبالى الأحق ، وبالى العقيم وبالى البارد . وتويجا لهذا التفرع المطول العنيف وختاما لهذه المقطوعة الهجائية ، جاءت الكلمة المناسبة على الفور . فأسموه بالى المغفل ، وهبوطا إلى مستواك يجب علينا ، أنا واللفظة أن نمزح مرحا صاخبا ، تأمل وفكر إذا استطعت أن تستخدم تلك الآلة ولكن لا تكتب ، بل اقرأ « أيها الأحق » . وأجل ديدرو الانتقام حتى يسرد فجور بالبسو وفسقه في كتابه « أين أخى رامو »^(٤١) وكاد ألا يكون جديرا بفيلسوف ، ولكنه تورع عن

نشرة ، ولم يدفع به إلى المطبعة الفرنسية إلا بعد وفاة فريسته أو غريمه .
على أن موريليه أخرج على الفور كتابا لا يهزأ فيه من باليسو وحده بل
كذلك من « حاميته » الآنسة دى روبيك — وإستصدر أحد إصدقاتها في
البلاط الملكي أمرا بإبداع موريليه سجن الباستيل (١١ يونيو ١٧٦٠) وحصل
روسو على أمر بإطلاق سراحه ، ولكنه تقطع علاقته بالفلاسفة منذ ذلك
الوقت . ولطاع باليسو إنتصاره بالأنغماس في اللهو والشراب . وفي
١٧٧٨ إنحاز إلى جانب أنصار فولتير ، وانضم ثانية إلى الفلاسفة :

ووقعت أشد ضرباتهم على رأس فريرون . ووصفه ديدرو في ابن أخى
رامو^(٢٢) بأنه « واحد من جماعة الأدباء المأجورين المبتدلين الذين عاشوا
على مائدة الثرى (المليونير) برنان » . ونخصص فولتير إحدى مقطوعاته
الساخرة لفريرون ، حيث يقول « بالأمس القريب ، في أحد الأودية لدغ
ثعبان جون فريرون ، فإذا نظن قد حدث آنذاك ؟ لقد مات الثعبان .

ومن أمثلة البذاءة التي أساءت إلى سمعة فولتير والقرن الثامن عشر
وصفه لفريرون بأنه « الدودة التي خرجت من إست ديفونتين »^(٢٣)
ولكن الهجوم الأكبر ورد في رواية فولتير « المرأة الاسكتلندية » التي
بدأ تمثيلها على المسرح الفرنسى في ٢٦ يوليو ١٧٦٠ حيث كانت محاكاة
ساخرة لرواية باليسو « الفلاسفة » مع مبالغات واضحة في أنها نسبت
إلى ضحاياهم مسؤولية هزائم الجيوش الفرنسية في الحروب وأهيار مالية
الدولة . وصور فريرون على أنه كاتب مأجور مبتذل تافه في شارع جرب
Grub street (شارع اشتهر بهذا الاسم سابقا) ، جاء بالرجس والعار في كل
فقرة كتبها نظير يستول واحد (عملة أسبانية أوروبية) . ومن بين النوعات التي
أطلقت عليه في رواية فولتير : وغد ، ضئدع الطين (شخص تافه) ،
كلب ، جاسوس ، محلية ، ثعبان ، موطن التجسس والقدارة^(٢٤) . واتبع
فولتير نفس العادة المألوفة قملًا المسرح بأصدقائه أو « بالأخوة » وناقص

هذه الرواية رواية باليسو في شعبيها واقبال الجمهور على مشاهدتها ، ومثلت ست عشرة مرة في خمسة أسابيع . وخرج فريزون من العاصفة سالماً بحضوره العرض الأول مع زوجته الجميلة ، وواضح أنه كان أول المصنفين . وتبين فولتير مزاج غريمه . فأذا سأل زائر عن يؤخذ رأيه في قيمة السكتب الجديدة أو مزاياها ، أجب فولتير بقوله « أرجعوا إلى هذا الوغد فيرون . . . إنه الرجل الوحيد الذى له ذوق . لنى مضطر إلى الاعتراف بهذا على الرغم من أننى لا أحبه »^(١٥) .

٣ — سقوط اليسوعيين

كشف الأنبيار السريع « لجمعية يسوع » عن روح العصر ومزاجه ، ولو أن هذا السقوط نتيجة لتصرف برلمان باريس أكثر منه نتيجة لعمل الفلاسفة . أن مؤسسها أطلق عليها اسم « عصبة (شركة) يسوع » وأقرها البابا بول الثالث ١٥٤٠ تحت اسم مجتمع يسوع — أى هيئة دينية تتبع قاعدة محددة ، تعيش على الصدقات . وقد أصبح هؤلاء « اليسوعيين » كما سماهم النقاد — على مدى قرن من الزمان أقوى جماعة من رجال الدين في الكنيسة الكاثوليكية . وما وافى عام ١٥٧٥ حتى كانوا قد أسسوا في فرنسا وحدها اثنتى عشر كلية ، وسرعان ما سيطروا على تعليم الشباب في فرنسا . ولمدة مائتى عام اختار ملوك فرنسا كهنة لإعترافهم من بينهم ، وحذا سائر الحكام الكاثوليك حذوهم . وبهذه الوسيلة وغيرها من الوسائل بات هؤلاء اليسوعيين أو « جماعة يسوع » أبلغ الأثر في تاريخ أوروبا بأسرها .

ومنذ بداية عهد اليسوعيين في باريس تقريباً كان البرلمان والسوربون يقاومانهم . وفي ١٥٩٤ اتهمهم برلمان باريس بأنهم كانوا وراء محاولة جان شاتيل الاعتداء على حياة هنرى الرابع . وفي ١٦١٠ اتهمهم البرلمان بتحريض رافياك على قتل الملك ، وأيد البرلمان هذه الاتهامات بالإشارة إلى بحث اليسوعى الأسباني ماريانا الذى دافع فيه عن مشروعية قتل الملوك في

ظروف معينة . ولكن جماعة يسوع إزدادت عدداً وقوة وسلطاناً وسيطرت على سياسات لويس الرابع عشر الدينية ، وأدت به إلى مهاجمة الجانسينيين في بورت رويال ، على أنهم كلفنيون تحت شعار أنهم كاثوليك ، ولاتزال الإقلية المتعلمة تذكر « الرسائل الإقليمية » التي كتبها يسكال ١٦٥٦ ، ومع ذلك فإنه في ١٧٤٩ كانت جماعة يسوع تضم ٣٣٥٠ عضواً في فرنسا من بينهم ١٧٦٣ كاهناً . وبرزوا بين رجال الدين في فرنسا بوصفهم أحسن العلماء والباحثين وأبرع اللاهوتيين وأفصح الوعاظ ، وأتقن المدافعين عن الكنيسة ، وأنشطهم وأنجحهم ، وأسهموا في كثير من العلوم ، وأثروا في تطوير الفنون ، وكانوا باجماع الآراء أفضل المعلمين في أوروبا . وكانوا يتميزون بصرامة أخلاقهم ، ومع ذلك لجأوا إلى كل ألوان التحايل للتخفيف من متطلبات الاخلاق المسيحية عند الرجل العادي ، وحتى مع هذا لم يتغاضوا قط عن فسق النبلاء والملوك وفجورهم ، وبفضل إعدادهم أو تربيتهم الشاقة ومثابرتهم الصابرة ، جعلوا من أنفسهم قوة تسيطر على سياسات الملوك وعقول الناس . وبدأ في بعض الأحيان أن أوروبا بأسرها قد تدعن لصلابة ارادتهم المتحدة المتميزة بالنظام والانضباط .

أن قوة اليسوعيين هي تقريباً التي قضت عليهم . وبدأ واضحاً كل الوضوح لدى الملوك أن تأييد اليسوعيين لسلطة البابا المطلقة في مسائل الإيمان والاخلاق وغيرها ، إذا لم يوضع له حد سيجعل من كل الحكام المدنيين أتباعاً للبابوات ، ويعيد سلطان رومه الامبراطورية . أنهم ولو أنهم كانوا أقرب للجماعات إلى آذان الملوك ، دافعوا عن حق الشعب في خلع الملك . أنهم ولو أنهم كانوا متحررين نسبياً في اللاهوت والاخلاق ، وسعوا إلى التوفيق بين العلم والكنيسة ، فأنهم شجعوا ورع الناس بتأييدهم دعوى مرجريت ماري الاكوك بأن المسيح كشف لها عن « قلبه المقدس » الذي يتعرق حباً للبشر . إنهم أنشأوا وبنوا عقول ديكارت وموليير وفولتير

وديدرو ، لجرد أن يروا هؤلاء الرجال اللامعين ينقلبون عليهم وعلى نظام التعليم اليسوعي .

وأهم منهج المدارس اليسوعية بتعلقه الشديد وحرصه البالغ على اللغة اللاتينية ، إلى حد أنه -وقد نمو المعرفة باستبعاد كل شيء اللهم إلا الأفكار التقليدية . لأنهم اعتمدوا أكثر مما ينبغي على الذاكرة ، وعلى الطاعة العمياء السلبية . ومن ثم فإن قيمة الدراسة فقدت كثيراً بسبب حاجة العصر إلى قدر أكبر من الاستفادة بالعلوم ، وإلى نظرة أكثر واقعية إلى الحياة البشرية . وعلى ذلك فإن دالمبير في مقاله عن « السككية » في الموسوعة رفعه للسنوات الست التي قضاها الطلبة في المدارس اليسوعية في دراسة لغة ميتة ، وأوصى بمزيد من الاهتمام باللغتين الانجليزية والايطالية والتاريخ والعلوم والفلسفة الحديثة . وأهاب بالحكومة أن تسيطر على التعليم ، وتدخل منهجاً جديداً للدراسة في مدارس جديدة . وفي ١٧٦٢ نشر روسو كتابه « إميل » أعلن فيه ثورة على التعليم .

ومهما يكن من أمر فإن الفلاسفة كانوا عاملاً أقل شأنًا في سقوط اليسوعيين في فرنسا . إن نوعاً من الهدنة المتبادلة خيم على العداء المتبادل ، ذلك أن الكفار احترموا علم اليسوعيين وخلقهم ، وهؤلاء من جانبهم كانوا يأملون بالأناة والصبر في معالجة الأمور في أن يعيدوا هؤلاء المتشككين الخطائين إلى حظيرة الدين القويم . ووجد فولتير أنه من العسير عليه أن يشن الحرب على معلميه السابقين . وكان قد أرسل روايته « هنرياد » إلى الأب بوري راجيا أياه أن يصحح ما قد يكون فيها من فقرات تسمى « إلى الدين »^(٦٦) . وفي كتابه « معبد الذوق » كان قد إمتدح في اليسوعيين تقاديرهم لقيمة الأدب وكثرة استخدامهم للرياضيات في تعليم الشباب . وتجاوبت معه صحيفة تريفو بنشر تقريره لرواية هنرياد ، وكتابت « شارل الثاني » و « فلسفة نيوتن » . وانتهى هذا الاتفاق شبه الودي حين لحق فولتير بفردريك في بوتسدام ، فتحلى عنه زعماء اليسوعيين عند ذلك باعتباره نفساً ضائعة . ولكن

في أواخر ١٧٥٧ حاول بعضهم التوفيق بين فولتير وجماعة يسوع^(٤٧). وفي فرنى (في ١٧٥٨ وما بعدها) احتفظ فولتير بعلاقات ودية مع اليسوعيين المحليين واستمتع نفر منهم بكرم وفادته . وكان في نفس الوقت قد هاجم الكنيسة في مائة صحيفة في كتابه « رسالة في العادات والاعراف » . كما كان يكتب مقالات ضد المسيحية للقاموس الفلسفي . وعندما سمع نبأ مهاجمة رئيس الوزراء كارفالو لليسوعيين في البرنغال (١٧٥٧) وأحراق مالا جريدا اليسوعي (١٧٦٤) شجب اتهامات كارفالو بأنها غير عادلة وإعدامه بأنه قسوة غاشمة^(٤٨) . ولكنه طوال تلك السنوات كان هو نفسه في حرب مع الكنيسة ، وكانت كتابات « أخوته » ديلرو ودالمير وموريليه تسهم في إضعاف اليسوعيين في نرنسا .

وربما أسهمت المحافل الماسونية ، المخصصة بصفة عامة للمذهب اليوبية في عملية تقويض أركان اليسوعيين وأضعافهم . ولكن أقوى التأثيرات في المأساة كانت شخصية متعلقة بصراعات طبقية . ولم تستطع مدام دى بمبادور أن تنسى أن اليسوعيين قاوموا كل خطوة في سبيل تسنمها مراق العظمة والسلطان ، وأنكروا الغفران للملك مدام يحتفظ بها ، ورفضوا أن ينظروا بعين الجدل إلى عودتها المفاجئة إلى التقوى والتمسك بأهداب الدين . وأعلن الكاردينال برنيس وكان لأمد طريل ذا حظوة لدى المركزية ، أن قمع حركة اليسوعيين في فرنسا يرجع أساساً إلى إمتناع كهنة الاعتراف اليسوعيين عن منح الغفران لمدام دى بمبادور على الرغم من توكيداتها بأن علاقاتها بلويس الخامس عشر لم تعد جسدية^(٤٩) . وردد الملك صدى استيائها : لماذا كان هؤلاء الكهنة متساهلين مع الآخرين ، قساة متشددون مع المرأة التي أضاعت جوانب حياته المرهقة الموحشة ؟ لماذا كانت تزداد ثروتهم المشتركة على حين كان هو يكافح من أجل الحصول على الإعتمادات اللازمة لجيشه وبحريته في حرب « شتومة تنذر بكارثة ، ومن أجل ملابس عشيقته وأجور تلميذها وإعدادها في « منتدى

الظباء » وكان داميين قد حاول قتل الملك ، ولم يكن لليسوعيين علاقة ظاهرة بهذه المحلولة ولكن كان لداميين كاهن لإعتراف يسوعى . ألم يدافع أحد اليسوعيين المتوفين عن فكرة قتل الماوكة ؟ وبدأ الملك يصغى إلى شوازيل وإلى بعض شبه إنصار فولتير فى وزاويته « ممن قالوا بأن الوقت قد حان لتخليص الدولة من ربقة وصاية الكنيسة ، وإقامة نظام اجتماعى إجماعى مستقل عن رجال الدين النزاعيين إلى تعويق إنتشار المعرفة ، وعن لاهوت العصور الوسطى . وإذا كانت دولة البرتغال الصغيرة الغارقة فى الخرافة قد تجاسرت على طرد اليسوعيين فلم لا تقدم فرنسا المستنيرة على مثل هذا ؟

وتأثر اليسوعيون بهذه العداوات المختلفة وأشدت الارتباب فى أنهم ربطوا بين فرنسا والنمسا فى حرب السنين السبع ، ومن ثم فأنهم تعرضوا لسكراهية مفاجئة بشكل غريب . وبعد هزيمة الفرنسيين على يد فردريك فى روسباخ ، وبعد أن وصلت أقدار فرنسا إلى الحضيض وأصبح منظر الجنود المقعدين المشلولين مألوفاً فى باريس ، بات اليسوعيين هدفاً للذكاك والشائعات والأفتراءات المشوهة للسمعة حتى إلى حد الاتهام باللاواط^(٥١) . واتهموا بالأنهماك فى متاع الدنيا وبالهرطقة وبجمع الثروة وبأنهم عملاء لدولة أجنبية . ولانتقد كثير من رجال الدين غير المنتسبين إلى طوائف لاهوتهم بأنه متحرر أكثر مما ينبغى ، وإفتاءهم فى قضايا الضمير والسلوك والأخلاق بأنه مفسدة للأخلاق ، وسياستهم بأنها تقوم على إرتماء فرنسا فى أحضان رومه . وفى ١٧٥٩ كتب دالمير إلى فولتير « إن الأخ برتبيه والمتواطئين معه لا يجرؤون على الظهور فى الشوارع فى هذه الأيام خشية أن يلقي الشعب بالبرتقال البرتغالى على رؤوسهم »^(٥١)

وكان برلمان باريس أعظم القوى التى إنقلبت على اليسوعيين عداً ، وكانت هذه الجماعة تتألف من محامين وقضاة يتدثرون فى أردية كثيفة رهيبة مثل الملابس الكهنوتية ، وينتمون إلى طبقة « نبلاء الرداء » .

إن هذه الأرستقراطية الثانية المنظمة تنظيمًا جيدًا ، الذرية اللسان كانت ترقى مدارج السلطة والسطوة بسرعة ، وكانت متلهفة على تحدى سلطان رجال الدين . وفوق هذا كانت غالبية برلمان باريس من الجانسنيين . وعلى الرغم من كل القمع عاناه الجانسنيون فإن هذا المذهب المتشدد ، وهو نتاج تشدد القديس بولص في مسيحية المسيح وهى أيسر وأخف ، اجتذب قطاعات كبيرة من الطبقة الوسطى فى فرنسا ، وعلى الأخص تلك العقول القانونية التى أحست منطقها ، ورأت فيه وقفة قوية ضد اليسوعيين . واتضح الآن بما لا يدع مجالاً للشك أن اليسوعيين هم الذين ألحوا على لويس الرابع عشر لتعقب الجانسنيين إلى حد تدمير بورت رويال تدميرًا تامًا ، وإكراههم الشديد على قبول المرسوم البابوى البغيض الذى جعل من الجانسنية هرطقة أنكى من الاتحاد . فهل تحين الفرصة للرد على هذا الإيذاء بمثله والأنتقام لمثل هذا الأضطهاد !

وهيأ اليسوعيون لبرلمان باريس هذه الفرصة . لإنهم لعدة أجيال مضت قد إشتغلوا بالتجارة والصناعة ، وسيلة لتمويل معاهدهم اللاهوتية وكنياتهم وبعثاتهم التبشيرية وسياستهم . لإنهم فى رومهم احتكروا كثيرًا من نواحي الإنتاج والحرف والصناعات . وفى آنجرز بفرنسا أسسوا مصنعًا لتكرير السكر^(٥٢) ، واحتفظوا بمراكز تجارية فى كثير من الأراضي الأجنبية مثل جوا . وكانوا من أغنى المقاولين فى مستعمرات إسبانيا والبرتغال فى أمريكا^(٥٣) . وجأرت المشروعات الخاصة بالشكوى من هذه المنافسة . حتى أن الكاثوليك الأفاضل تعجبوا كيف أن طائفة نذرت نفسها للنقش مثل اليسوعيين تجمع مثل هذه الثروة . وكان من أنشط رجال الأعمال عندهم الأب إنطوان دى لافالت Valette الرئيس الأعلى لليسوعيين فى جزر الأنتيل الذى أدار باسم الجماعة مزارع وأسعة فى جزر الهند الغربية واستخدم آلافا من المواطنين السود^(٥٤) وصدر السكر والبن إلى أوروبا . وفى ١٧٥٥ إقترض مبالغ ضخمة من مصارف مرسلينا ، ولسداد هذا القرض

أرسل فرنسا سفنا محملة بالبضائع التي تقدر قيمتها بمليوني فرنك (٥ ملايين من الدولارات) ، ولكن البوارج الانجليزية استولت عليها سنة ١٧٥٥ في مقدمات حرب السنين السبع . وأملاني تعويض هذه الخسائر اقترضت فالت مبالغ أكبر ، ولكنه أخفق وأعلن افلاسه ، وهو مدين بمبلغ ٢,٤٠٠,٠٠٠ فرنك . وطالب الدائنون بالدفع ، وطلبوا إلى جماعة اليسوعيين الاعتراف بمسئولياتها عن ديون لا قالت . ورفض زعماء اليسوعيين زاعمين أنه تصرف بصفة فردية ، لأباسم الطائفة ، وأقام أصحاب المصارف دعوى على الجماعة فنصحهم الأب فرى Frey الخبير السياسى لها في فرنسا بعرض الأمر على البرلمان . وتم هذا في مارس ١٧٦١ ، وتعلق مصير الطائفة بأيدي أقوى أعدائها . وفي الوقت نفسه أرسل أحد اليسوعيين رسالة سرية إلى الملك يوصى فيها بطرد شوازيل من الوزارة بوصفه عدوا للجماعة والدين ، ودافع شوازيل عن نفسه بنجاح .

وانتهز البرلمان الفرصة ليقوم بفحص دستور الجماعة وقوانينها ومستنداتها التي تكشف عن تنظيم الجماعة وأنشطتها . وفي ٨ مايو أصدر حكما في مصلحة الشاكين ، وأمر الجماعة بتسوية كل ديون لا قالت . فشرع اليسوعيين في عمل بعض التسويات مع الدائنين الأصليين^(٥٥) . ولكن في ٨ يوليو قدم الراهب Terray إلى البرلمان تقريرا عن « المذهب الخلقى والعمل للجماعة اليسوعيين » . وعلى أساس هذا التقرير أصدر البرلمان في ٦ أغسطس قراراتين قضى أحدهما بأحراق عدد كبير من مطبوعات اليسوعيين في القرنين السابقين لأنها تعلم مبادئ « بغیضة تدعو إلى سفك الدماء » وتهدد أمن المواطنين والملوك ، كما حرم الانضمام إلى عضوية الجماعة بعد الآن في فرنسا . كما قضى بأنه حتى أول أبريل ١٧٦٢ ، يجب إغلاق كل مدارس اليسوعيين ، اللهم إلا تلك التي تحصل على ترخيص من البرلمان باستمرار الدراسة فيها . أما القرار الثانى فأباح تقديم الشكاوى ضد سوء استخدام السلطة في الجماعة أو بواسطتها . وفي ٢٩ أغسطس أوقف الملك تنفيذ هذين القرارين ، ووافق

البرلمان على تعطيلهما مؤقتاً حتى أول إبريل . وحاول الملك المنزعج الوصول إلى تسوية وسط . وفي يناير ١٧٦٢ أرسل إلى كليمنت الثالث عشر وإلى لورنزو ريتشى رئيس اليسوعيين اقتراحاً بأن تفوض منذ الآن فصاعد كل سلطاته في فرنسا إلى خمسة من القساوسة الإقليميين يتسمون بالدين على طاعة القانون الفرنسى ، ومواد قانون ١٦٨٢ التى أحلت الكنيسة الفرنسية في الواقع من الخضوع للبابا . وفوق ذلك يجب أن تكون المدارس اليسوعية خاضعة لتفتيش البرلمانات . ولكن البابا وريتشى رفضا الاقتراح في شيء من التحدى « فليبق اليسوعيون كما هم أو لا يبقون مطلقاً »^(٥٦) . ولمصلحة جماعة اليسوعيين أهاب كليمنت برجال الدين الفرنسيين مباشرة . وفي هذا خرق لقانون الفرنسى . ورفض رجال الدين الفرنسيون رسالة البابا وأحيلت إلى الملك الذى أعادها إلى البابا .

ودخلت البرلمانات الإقليمية الآن حلبة النزاع وأضافت بعض التقارير التى تلقىها مزيداً من الاتهامات الموجهة إلى اليسوعيين . وأثر برلمان رن Rennes في بريتانى بالتقرير الذى قدمه النائب العام لويس رينيه دى لاشالوتيه في ١٧٦١ - ١٧٦٢ عن « نظام اليسوعيين » الذى اتهم فيه الجماعة بالهرطقة والوثنية والأعمال غير المشروعة والدعوة إلى قتل الملوك ، وأكد أنه لزام على كل يسوعى أن يقسم بيمين الطاعة المطلقة للبابا ورئيس الطائفة الذى كان يقيم في رومه . وأنه بناء على ذلك تكون الجماعة بمقتضى دستورها خطراً يهدد فرنسا ومليكها ، ومن ثم ألح التقرير على أن يكون تعليم الأطفال حقاً مطلقاً للدولة لامراء فيه . وفي ١٥ فبراير ١٧٦٢ أمر برلمان روان كل اليسوعيين في نورماندى بإخلاء دورهم ووكلياتهم وعزل كل المديرين الأجانب ، وقبول القانون الفرنسى . وصدرت قرارات مماثلة من البرلمانات في رن ، اكس أن بروفانس ، بو ، برينان ، تولوز ، وبوردو . وفي أول أبريل أمر برلمان باريس بتنفيذ قراراته ونقل إدارة المدارس اليسوعية في دائرة اختصاصه إلى مديرين آخرين .

(م ١٦ - قصة الحضارة)

وحاول رجال الدين الذين لا ينتمون إلى طوائف على الرغم من أنهم من الناحية التقليدية يحقدون على اليسوعيين ، نقول حاولوا إنقاذهم ، ووجهت جمعية من الأساقفة الفرنسيين في أول مايو نداء إلى الملك من أجل هذه الطائفة : التي هي نظام مفيد للدولة ٠٠٠ وهم جماعة من المتمسكين بالدين الجديرين بالثناء ، لنزاهة أخلاقهم وشدة انضباطهم ، واتساع نطاق نشاطهم وعملهم وسعة إطلاعهم وعلمهم ، والخدمات التي لا تحصى التي قدموها للكنيسة ٠٠٠ إن كل شيء يا صاحب الجلالة يناشدك العطف على اليسوعيين . إن الدين يرى فيهم المدافعين عنه ، وترى فيهم الكنيسة خدامها ، كما يرى فيهم المسيحيون حراساً على ضمائرهم ، إن عدداً كبيراً ممن كانوا تلاميذهم يتشفعون لديك من أجل معلمهم القدامى . وإن كل شباب مملكتك يدعون ويصلون من أجل أولئك اليسوعيين الذين يشكلون عقولهم وقلوبهم . نرجو يا مولاي أن تعبر أذنأ صاغية إلى توسلاتنا التي أجمعنا على تقديمها إلى جلالته (٥٧) .

وأضافت الملكة وبناتها والدوفين وغيرهم من حزب المتدينين في الحاشية تضرعاتهم من أجل اليسوعيين . ولكن شوازيل ومبادور نصحا الملك آنذاك قطعاً بالأذعان للبرلمان وإغلاق المدارس اليسوعية . وذكر لويس بأن عليه أن يفرض ضرائب جديدة ، وأن هذا يتطلب موافقة البرلمان وعلى حين كان الملك متردداً بين هذه النصائح المتضاربة ، اتخذ البرلمان خطوات حاسمة . وفي ٦ أغسطس ١٧٦٢ أعلن أن جماعة يسوع لا تلتزم مع قوانين فرنسا ، وأن الإيمان التي أقسمها الأعضاء ، طغت على ولائهم للملك ، وأن خضوع الجماعة لسلطة أجنبية جعل منها هيئة أجنبية داخل دولة مفروض أنها ذات سيادة . وبناء على ذلك أصدر البرلمان أمراً بحل الجماعة في فرنسا ، وبتخلي كل الجزويت في بحر ثمانية أيام عن كل ممتلكاتهم في فرنسا ، فأعلن أنها صودرت بجانب الملك .

وأخر الملك تنفيذ هذا القرار تنفيذاً كاملاً لمدة ثمانية شهور . ورفض

برلمانا بيزانسون ودواى الامتثال لهذه القرارات ، على حين أطلال ثلاثة برلمانات ديجون وجرينوبل ومتر الحدل والمناقشة كسباً للوقت . ولكن برلمان باريس أصر . وأخيراً فى نوفمبر ١٧٦٤ أمر لويس بوقف نشاط جماعة اليسوعيين وقفاً تاماً فى فرنسا . وبلغت قيمة الممتلكات المصادرة نحو ٥٨ مليوناً من الفرنكات ^(٥٨) ، وربما ساعد هذا على موافقة الملك على حل هذه الطائفة . وخصص معاش ضئيل لليسوعيين السابقين ، وسمح لهم بالبقاء فى فرنسا لبعض الوقت . ولكن فى ١٧٦٧ قرر البرلمان وجوب مغادرة كل اليسوعيين السابقين أرض فرنسا . وتبرأ قليل منهم من الطائفة وبقوا فى فرنسا .

وكان رحيلهم موافقاً للنبل والطبقة الرسطى والمثقفين ورجال الأدب والجانسينيين ، ولكن لم يرق فى أعين بقية الأهالى . واستنكر كريستوف دى بومونت رئيس أساقفة باريس تصرفات البرلمان بشدة ، وعبرت مجموعة رجال الدين الفرنسيين (١٧٦٥) بالاجماع عن حزنهم وأسفهم لحل الجماعة ودعت إلى إعادتها . وأعلن البابا كليمنت الثالث عشر فى مرسومه الرسولى براءة اليسوعيين ، فأحرق المدعى العام المرسوم فى شوارع عدة مدن ، على أساس إن البابوات ليس لهم حق مشروع فى التدخل فى شئون فرنسا ^(٥٩) . ورحب الفلاسفة فى أول الأمر بطرد اليسوعيين باعتباره إنتصاراً مشجعاً للفكر الحر . وأورد دالمبير فى سرور تعليق جان أستروس العالم الباحث فى الأسفار المقدسة ، والذى قال فيه « إن الموسوعة ، لا الجانسينيين ، هى التى قضت على اليسوعيين ^(٦٠) . وزادت الآن بسرعة مطبوعات الفكر الحر . وفى عقد السنين التى تلت عملية الطرد ، قارب دى هولباخ ومعاونيه حد الإلحاد .

ومهما يكن من أمر فثمة تفكير ثان ، وهو أن الفلاسفة أدركوا أن الانتصار يرجع إليهم أقل مما يرجع إلى الجانسينيين والبرلمانات ، وأن الفكر الحر ترك ليواجهه عدواً أشد تعصبا من اليسوعيين بكثير ^(٦١) . وعبر دالمبير فى كتابه « تاريخ القضاء على اليسوعيين » عن إبتهاج يسير بمصيرهم :

يقينا إن العدد الأكبر منهم ، الذين لم يكن لهم صوت في إدارة الأمور كان يجدر ألا يتحملوا وزر أخطاء رؤسائهم ، إذا كان هذا التفريق بين هؤلاء جائزا من الوجهة العملية . وهناك آلاف من الأبرياء خلطنا مع الأسف بينهم وبين عشرين شخصا مذنبين إن القضاء على جماعة يسوع سيعود بأكبر النفع على العقل ، شريطة ألا يرق تعصب الجانسينيين إلى مستوى تعصب اليسوعيين .

وإذا كان لنا أن نختار بين هاتين الطائفتين ، فإننا نؤثر جماعة يسوع التي هي أقل طغيانا وجورا . فإن الجزويت الذين يخدمون الناس ويتكيفون معهم ، شريطة ألا يعلن المرء عداؤه لهم أجازوا للمرء أن يفكر كيفما شاء . أما الجانسينيون فإنهم يفرضون على كل الناس أن يفكروا كما يفكرون هم . وإذا قدر لهم أن يسودوا لفرضوا على الناس تحكما شديدا في الأذهان والكلام والاخلاق^(٦٢) .

وكأنما أراد برلمان باريس الذي سيطر عليه الجانسينيون أن يضرب أمثلة توضح وجهة النظر هذه فأصدر في نفس عام ١٧٦٢ الذي أمر فيه بحل جماعة يسوع أمرا باحراق كتاب روسو « أميل القرن الثامن عشر » ، وهو كتاب لا يتعارض مع الدين نسبيا . وفي تلك السنة أعدم برلمان تولوز الذي تحكم فيه الجانسينيون كذلك ، جان كالاس ، وأحرق برلمان باريس في ١٧٦٥ قاموس فولتير الفلسفي . وبعد ذلك بعام وأحد ثبت حكم التعذيب والإعدام الصادر على الشاب شيفالييه دي لا بار من محكمة آبقيل .

وفي ٢٥ سبتمبر ١٧٦٢ كان دالمبير قد كتب إلى فولتير : « هل تعلم ماذا سمعت عنك بالأمس ؟ سمعت أنك بدأت تترئ لحال اليسوعيين ، وأنت واقع تحت إغراء الكتابة في مصلحتهم »^(٦٣) لقد كان في قلب فولتير دائما رصيد من الشفقة والعطف ، والآن وقد بدا أن المعركة ضد جماعة يسوع قد كسبت تماما فإنه كان يسمع أصواتا من اللوم والعتاب من معلميه الذين قضوا نحبهم . وأخذ إلى داره في فرني أحد اليسوعيين السابقين ،

هو الأب آدم الذى تسلم صدقاته ، وغلبه دائما فى الشطرنج . وحذر فولتير شالوتييه بقوله « لا يوقع الجانسنيون يوما من الضرر والأذى قدر ما أحدث اليسوعيون وماذا يفيدنى أن أتخلص من الثعالب إذا أسلمونى للذئاب »^(٦٤) . أنه خشى أن يعمد الجانسنيون مثل البيوريتانيين فى القرن السابع عشر فى إنجلترا إلى إغلاق المسارح ، والمسرح كل هوى نفسه الأثير لديه تقريبا ، ومن ثم كتب إلى دالمبير « كان اليسوعيون ضروريين ، وكانوا ضربا من التسلية ، وكنا نسخر منهم ، أما الآن فسوف يسحقنا المتحد لقون »^(٦٥) . وكان على استعداد للصفح عن اليسوعيين لمجرد أنهم أحبوا الآداب القديمة والمسرحية^(٦٦) .

وشاركه صديقه وعدوه فردريك الأكبر فى هذه المشاعر . وسأل الأميردى لين ١٧٦٤ : « لماذا قضوا على مستودع نفائس أثينا ورومه ، معلمى الإنسانيات وربما الإنسانية الممتازين ، وهم اليسوعيون ؟ أن التعليم سيعانى من القضاء عليهم ولكن حيث أن الأخوة الملوك الأكثر كثلكة ومسيحية وإخلاصا وإيمانا ورسولية قد طردوهم ، فأنى وأنا الأكثر هرطقة سأجمع أكبر عدد منهم وأحافظ عليهم »^(٦٧) .

وعندما أُنذر دالمبير بأنه سوف يأسف لهذا الود واللفظ وذكره بأن اليسوعيين كانوا يعارضون غزوه لسيايزيا أنب الملك الفيلسوف بقوله :

« لا تنزعج من أجل سلامتى . أنى ليس لدى ما أخشاه من اليسوعيين ، لأنهم يستطيعون تعليم شباب البلاد وهم أقدر على ذلك من غيرهم — حقا لأنهم كانوا يعارضونى أثناء الحرب ، ولكنك بصفتك فيلسوفا يجدر بك إلا تلوم أحدا لكونه عطوفا رحما مشربا بالروح الإنسانية تجاه أى فرد من الجنس البشرى مهما كان من أمر دينه أو الجماعة التى ينتمى إليها . حاول أن تكون فيلسوفا أكثر منك ميتافيزيقيا »^(٦٨) .

وعندما حل البابا كليمنت الرابع عشر جماعة يسوع بأسرها ١٧٧٣ أبى فردريك السماح بنشر المرسوم البابوى فى مملكته وظل اليسوعيون يحتفظون بممتلكاتهم وأعمالهم فى بروسيا وسيليزيا .

ولم تعكر كاترين الثمانية صفو اليسوعيين الذين وجدتهم في الجزء الذى استولت عليه من بولندة ١٧٧٢ ، وبسطت حمايتها على اليسوعيين الذين دخلو إلى روسيا فيما بعد . وثابروا وصبروا في جسد متواصل حتى عودتهم (١٨١٤) .

٤ - التعليم والتقدم

ولم يكن من ذا الذى يتولى الآن تعليم شباب فرنسا بعد أن ذهب اليسوعيون ؟ هنا حدثت فوضى ، ولم يكن حدث كذلك ثورة وإنقلاب في عالم التربية والتعليم .

إن شالوتيه وهو بعد متحمس لآتهامه لليسوعيين ، إنتهز الفرصة وقدم لفرنسا رسالة عن التعليم القومى « (١٧٦٣) » هال لها الفلاسفة مرجحين بها . والآن كانت دعواه تقوم على أساس أنه لا يجدر بالمدارس الفرنسية أن تنتقل من أخوة دينية (طائفة) إلى أخرى — على سبيل المثال من طائفة « الأخوة المسيحيين » إلى « طائفة الأوراثوريين » . أنه لم يكن ملحدًا ، إنه على الأقل رحب بتدعيم الدين للفضيلة والاخلاق القويمة ، إنه يود تلقينها واحلاها محل اللائق بها ، ولكنه لا يرضى بسيطرة رجال الدين على التعليم . وسلم بأن كثيرين منهم كانوا معلمين ممتازين لا ينافسهم أحد في صبرهم وجلدهم وأخلاصهم ، ولكنه إحتج بأن تحكمهم في فصول الدراسة بغلق الأذهان أن عاجلا أو آجلا دون الفكر الأصيل ، يغرس في نفوس التلاميذ الولاء لدولة أجنبية ، ويجب أن تلقن مبادئ الاخلاق مستقلة عن أى مذهب دينى « يجب أن يكون لقوانين الأخلاق الأسبقية على كل القوانين سماوية كانت أو بشرية ، وينبغى أن تستمر ولو لم تعلن هذه القوانين الأخيرة مطلقا » (٦٩) . إن شالوتيه كذلك رغب في غرس المبادئ ، ولكن كذلك أراد تلقين المثل العليا الوطنية (٧٠) « إني أطالب الأمة بتعليم يعتمد على الدولة وحدها » (٧١) . ويجب أن يكون المعلمون علمانيين ، وإذا كانوا كهنة فيجدر ألا يكونوا من المنتمين لطائفة دينية . ويجب أن يكون الغرض من التعليم هو إعداد الفرد

لا للسماء بل للحياة ، ولا للطاعة العمياء بل للخدمة الممتازة في مجالات المهن والإدارة وفنون الصناعة . ويجب أن تكون الفرنسية لا اللاتينية لغة التعليم ، ويجب أن يخصص اللغة اللاتينية وقت أقل وللانجليزية والإلمانية زمن أكبر . ويجب أن يشتمل المنهج على قدر كبير من العلوم . ومن أدنى المراحل حتى الأطفال بين سن الخامسة والعاشرة يمكن استيعاب مبادئ الجغرافيا والفيزياء والتاريخ الطبيعي . كذلك التاريخ ينبغي أن يكون له مكان أكبر في التعليم المدرسى . « ولكن الذى يعوز في العادة من يكتبون التاريخ ومن يقرأون التاريخ على حد سواء هو الذهن الفلسفى »^(٧٢) . وهنا قلد شالوتيه فولتير أكلييل النار وشهد له بالسبق في هذا المضمار . وفي المراحل المتأخرة يجب أن يكون ثمة تعليم الفن وتربية الذوق . ويجب توفير الوسائل لتعليم الأناث ، ولكن ليس من الضروري تعليم الفقراء ، فإن ابن الزارع لن يتعلم في المدرسة خيرا مما قد يتعلم في الحقل ، وإن تعليمه شيئا غير هذا سيجعله غير راض عن طبقته .

وصعق هلفشيوس وترجو وكوندورسيه لهذا رأى الأخير ، ولكن فولتير استحسنه وكتب إلى شالوتيه « أشكرك على تحريم التعليم على العمال . وأنا الذى أزرع الأرض إحتاج إلى عمال يدويين لا إلى رجال دين حلقى الرؤوس ، أرسل إلى أخوة جهلة حقاً ليقودوا مركباتى أو يهيشوها للاستخدام »^(٧٣) . وكتب إلى داميلافيل الذى كان قد اقترح التعليم للجميع « أشك في أن أولئك الذين يكسبون قوتهم باستخدام عضلاتهم يكون لديهم فسحة من الوقت ليتعلموا ، وسيموتون جوعا قبل أن يصبخوا فلاسفة ٠٠٠ وليس العامل اليدوى هو الذى يجب أن نعلمه بل البرجوازى ساكن المدينة »^(٧٤) . وفي مواضع أخرى تنازل فأيد تعليم الجميع التعليم الابتدائى ، ولكنه كان يأمل في تقييد التعليم الثانوى إلى حد يسمح بترك فئة كبيرة من العمال اليدويين ليقوموا بالأعمال البدنية في المجتمع^(٧٥) . إن أول مهمة للتعليم في رأى فولتير هى وضع حد للتعليم للسكنسى الذى رأى أنه مسئول عن الخرافات التى أمتلأت بها عقول الجماهير وعن تعصب الناس .

وبناء على طلب كاترين الثانية ١٧٧٣ رسم ديدرو « خطة لجامعة لحكومة روسيا ». واستنكر مثل شالوتيه المنهج التقليدى فى عبارات نسمعها نحن اليوم :

« لا يزال يدرس فى كلية الآداب لغتان ميثتان لا يستخدمهما إلا نفر قليل من المواطنين ، وهاتان اللغتان تدرسان لمدة ست أو سبع سنوات دون أن يحفظا . وتحت اسم البلاغة يدرس فن الكلام قبل فن التفكير ، وتحت اسم المنطق يملا الرأس بتفاصيل دقيقة من أرسطو وتحت أسم الميتافيزيقيا تبحث نقاط تافهة معقدة تضع أساس التشكك والتعصب كليهما . وهناك تحت اسم الفيزياء نزاع لا حذله حول المادة ونظام العالم دون كلمة واحدة عن التاريخ الطبيعى (الجيولوجيا والميبولوجيا) . أو عن الكيمياء وعن حركات الأجسام وجاذبيتها . وهناك تجارب قليلة جداً . ولا تزال الدراسة التشريحية قليلة وليس هناك جغرافيا^(٧٦) .

ونادى ديدرو بسيطرة الدولة على التعليم وبمعلمين مدنيين ، ومزيد من العلوم . فينبغى أن يكون التعليم عمليا يخرج الزراعين والفنيين المتخصصين والأفراد العلميين والمديرين . ويجب ألا تدرس اللغة اللاتينية إلا بعد سن السابعة عشرة ، ويمكن حذفها كلية إذا لم يتطلع الطالب إلى استخدامها . ولكن لا يمكن أن يكون الإنسان أديبا دون معرفة باليونانية وللاتينية^(٧٧) . وحيث أن العبقريّة قد تظهر فى أية طبقة فينبغى أن تكون المدارس مفتوحة أمام الجميع دون أجر ، ويجب أن يقدم الطعام للفقراء ويزودوا بالكتب بالمجان^(٧٨) .

وإذ هوجمت الحكومة الفرنسية على هذا النحو فأنها جاهدت لتفادى توقف التعليم نتيجة طرد اليسوعيين ، وخصصت الممتلكات المصادرة من الطائفة إلى حد كبير لإعادة تنظيم المدارس الخمسمائة فى فرنسا . وجعلت هذه المدارس جزء من جامعة باريس . وحولت كلية لويس الأكبر إلى مدرسة للمعلمين لتدريب المدرسين ، وحددت الرواتب على أساس بدا معقولا .

وأعفى المدرسون من الضرائب البلدية ووعدهم بمعاش تقاعد عند إنتهاء الخدمة . وقبل البندكتيون والأوراتوريون والأخوة المسيحيون الانخراط في سلك المعلمين ، ولكن الفلاسفة شنوا حملة ضدهم احدثت أثرا يذكر . وظل المذهب الكاثوليكي جزءا هاما في المنهج ولكن العلوم والفلسفة الحديثة بدأت تحتل مكان أرسطو والاسكولاسيين (الفلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى) ، وحاول بعض المدرسين المدنيين أن ينقلوا أفكار الفلاسفة^(٧٩) . وأنشئت المعامل في السكليات مع أساتذة للفيزياء التجريبية ، وفتحت المدارس الفنية والحربية في باريس والأقاليم . وكانت ثمة تحذيرات كثيرة بأن خطة الدراسة الجديدة ستعمل على تحسين العقول لا الأخلاق . وقد تضعف الفضيلة والانضباط وتؤدي إلى الثورة^(٨٠) .

ومهما يكن من أمر فإن الفلاسفة بنوا آمالهم للمستقبل على اصلاح التعليم . إنهم بصفة عامة إعتقدوا بأن الإنسان خير طيب بالطبيعة ، وأن بعض انحرافات زائفة أو شريرة كهنوتية أو سياسية هي التي أفسدته ، وكل ما ينبغي عليه أن يفعله هو أن يظهر نفسه من الخداع والبدع ويعود إلى « الطبيعة » التي لم يحددها أحد بعد تحديدا مرضيا . وهذا كما سرى كان لب الموضوع عند روسو . وقد لحظنا إيمان هلفشيوس « بأن التعليم يمكن أن يغير كل شيء »^(٨١) . وحتى فولتير المتشكك نفسه ذهب في بعض الحالات إلى أننا جنس من القردة يمكن أن يتعلم أن يتصرف تصرفا عقلانيا أو غير عقلاني^(٨٢) . وأصبح الإيمان بإمكانات التقدم التي لا حدود لها عن طريق تحسين التعليم والتوسع فيه أحد التعاليم الهامة في الديانة الجديدة . إن السماء واليوتوبيا هما اللونان المتنافسان اللذان يحومان حول بئر المصير والقدر فإذا هبط أحدهما صعد الآخر ، والأمل يرفع الواحد منهما أو الآخر إلى أعلى كل بدوره . وربما إذا صعد كلا الدولين خاليا وهنت المدنية وبدأت تفنى .

وفي ١١ ديسمبر ١٧٥٠ صاغ ترجو العقيدة الجديدة في محاضرة في السوربون بعنوان « الخطوات المتعاقبة إلى الأمام في الذهن البشرى » :

« إن الجنس البشرى إذا تأملناه من القدم يبدو لعين الفيلسوف كلا متراى الأطراف ، له مثل الكائن الفرد مرحلة طفولته وتقدمه . . . فتصبح آداب السلوك أكثر رقة وتهذيبا والذهن أكثر تنورا ، وتتقارب بعضها من بعض الأمم التى كانت آنذاك منعزلة ، وترتبط التجارة والعلاقات السياسية أركان الكرة الأرضية بعضها ببعض ، ويستمر الجنس البشرى بأسره فيما بين تقلبات الهدوء والعاصفة وتقلبات الأيام حلوها ومرها فى مسيرته قدما ، ولو بخطى وثيدة نحو كمال يقترب منه دوما^(٨٣) . ووافق فولتير على هذا متردداً ، قهوا يقول :

« قد نؤمن بأن العقل والصناعة سوف تتقدمان أكثر فأكثر ، وتحسن الفنون الناقصة . وأنه من بين الشرور والمساوىء التى تنتاب بنى الإنسان ستختفى شيئا فشيئا الخزازات بين من يحكمون الأمم ، ولو أن تلك الخزازات ليست أقل المكارث ، وأن الفلسفة بانتشارها على أوسع نطاق سيكون فيها عزاء لأرواح البشر عن المصائب التى يتعرضون لها فى كل العصور^(٨٤) . »

ورحب الفيلسوف المحتضر بتولى ترجو زمام السلطة فى ١٧٧٤ لأنه ليس لديه ثقة بالجماهير . وتعلقت آماله باستنارة الملوك . إننا لانستطيع تعليم الرعاع والغوغاء — كما كان يسمى عامة الناس — لأنهم منهوكون بالسكد والسكدح قبل أن يتعلموا التفكير . ولكن فى مقدورنا أن نعلم قلة تقترب من الدروة فيعلمون الحاكم أو الملك . أن حلم « المستبدين المستنيرين » هذا بأعتبارهم قادة مسيرة الجنس البشرى ، كان الرسالة الملكية « المحفوفة بالمخاطر التى بنى عليها معظم الفلاسفة رؤيتهم للتقدم ، وكان لديهم هواجس كثيرة تنذر بالثورة ، ولكنهم أوجسوا منها خيفة أكثر مما رغبوا فيها . ووثقوا أن العقل قد يكسب الطبقة الحاكمة إلى جانبه ، وأن الوزراء والحكام قد يستمعون إلى صوته الفلاسفة وينفذون الإصلاحات التى تحول دون الثورة ، ونسير بالجنس البشرى على طريق السعادة ومن ثم رحبوا بإصلاحات فردريك الثانى ، وإغتفروا آثام كاترين الثانية . ولو أنهم عاشوا لا تهجوا

يجوزيف الثاني في النمسا . وما ثقتنا في الحكومة إلا أنها ذاك الأمل يبتعث من جديد ؟

٥ - الأخلاقيات الجديدة

بقيت مشكلة معلقة مرهقة . يكتب البقاء لدولة دون ديانة تدعم النظام الاجتماعي بالأمال والخاوف الخارقة للطبيعة (الجنة والنار) ؟ هل يمكن الاحتفاظ بأخلاق شعبية عامة دون إيمان شعبي عام في أصل سماوى للقانون الأخلاقي ، وإيمان باله بصير بكل شيء ، إله يثيب ويعاقب ؟ إن الفلاسفة (فيما خلا فولتير) زعموا أن هذه الدوافع ليست مطلوبة للأخلاق . ومع التسليم بأن هذا قد يصدق بالنسبة للقلة المثقفة ، فهل يصدق بالنسبة للباقيين ؟ وهل كانت أخلاق القلة المثقفة صدى أخلاقيا للإيمان الذى فقدوه ، ولاتربية الدينية التى تلقوها ؟ وقامر الفلاسفة بفعالية الأخلاق الطبيعية . وكانت الشكوك تخامر فولتير فيها ، ولمكن ديدرو ود المير وهلفشيوش ودى هولباخ ومايلى ، وترجو ، وغيرهم دافعوا عن أخلاق يمكن أن تكون مستقلة عن اللاهوت ، أخلاق قوية إلى حد الصمود أمام تقلبات العقيدة أو الإيمان . وكان بيل قد مهد الطريق بمحاولته التدليل على أن الملحد قد يكونون على خلق مثل المؤمنين تماما ، ولمكنه كان قد عرف الأخلاق بأنها عادة الانسجام مع العقل ، وافترض أن الإنسان حيوان عقلاى ، كما أنه كان قد ترك العقل دون تعريف . وهل يكون المجتمع أو الفرد حكما على ما هو معقول ؟ وإذا اختلف المجتمع والفرد ، فإذا غير القوة يكون لها القول الفصل بينهما ؟ وهل يكون النظام الاجتماعى مجرد صراع بين تنفيذ القانون والتملص منه ؟ وهل تخصى الفضيلة أو الأخلاق القويمة فرص الكشف فحسب ؟ أن ف . ف . توسان F. V. Toussin كان قد شرح الأخلاق الطبيعية في كتابه « العادات والاعراف » (١٧٤٨) ، وكان أيضا قد عرف الفضيلة بأنها « الدقة والأمانة في الوفاء بالالتزامات التى يفرضها العقل »^(٨٥) ، ولمكن كم من الناس يستطيعون التفكير ، أو كم من الناس فمكر بالفعل إذا كان هذا فى قدرته ؟ ألم يتشكل

الخلق (الذى يحدد الفعل) قبل أن ينمو العقل ؟ ألم يكن العقل مطية أقوى
الرغبات ؟ تلك كانت بعض المشاكل التى واجهت الأخلاق الطبيعية .

وقبل معظم الفلاسفة شمولية حب الذات مصدرا أساسيا لكل الأفعال
الإرادية أو الواعية ، ولكنهم آمنوا بأن التعليم والتشريع والعقل قد تعمل
كلها على تحويل حب الذات إلى تعاون متبادل ونظام إجتماعى . إن دامبير يبنى
فى ثقة الأخلاق الطبيعية على :

« حقيقة واحدة لا تقبل الجدل هى حاجة الناس بعضهم إلى بعض ،
والالتزامات المتبادلة التى تفرضها تلك الحاجة وإذ نسلم بهذا إلى حد كبير ،
فإن كل القوانين الأخلاقية تستتبعه فى تسلسل منتظم لا مناص منه ولا يمكن
تفسيره . ولكل المشاكل المتعلقة بالأخلاق حل فوري فى قلب كل منا ،
وهو حل قد تروغ منه أو تتحايل عليه أحيانا أهواؤنا وعواطفنا ، ولكنها
لا تقضى عليه مطلقا . وحل كل مسألة بعينها يؤدي . . . إلى الجذر
الأساسى وهذا بطبيعة الحال هو مصلحتنا الذاتية وهى المبدأ الأساسى فى كل
الالتزامات الأخلاقية^(٨٦) .

وتبين لبعض الفلاسفة أن هذا يتطلب هيمنة العقل بصفه عامة فى الناس
عموما — أى مصلحة ذاتية « مستنيرة » إلى حد كاف لترى اختيار النفس
(الاختيار الذاتى) فى صورة كبيرة إلى حد يسمح بالتوفيق بين أنانية الفرد
وخير الجماعة . ولم يشارك فولتير فى هذه الثقة فى ذكاء الأنانية وبدأ له
التعقل عملية إستثنائية ، وآثر أن يؤسس الأخلاق على وجود غيرية (حب
الغير) مستقلة عن حب الذات ، واستمد هذه الغيرية من شعور بالعدالة
بشئ الله فى الناس . واهمه الأخوة بأنه يسلم القضية للدين .

ومنذ افترض الفلاسفة شمولية حب الذات فإنهم بصفة عامة خلصوا إلى
أن السعادة هى الخير الأسمى ، وأن كل اللذات مجازة مسموح بها إذا كانت
لا تؤذى الجماعة أو الفرد نفسه .

وجريا على أساليب الكنيسة دبح جريم ودى هولباخ ومابلى وسانت

لامبير كتيبات تفسر الأخلاقيات الجديدة . ووجه سانت لامبير كتيبه « التعاليم الشاملة » إلى الأطفال في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة :

س - ما هو الإنسان ؟

ج - كائن له شعور وعقل .

س - إذا كان هذا الكائن على ما تصف ، فإذا يجب عليه أن يفعل ؟

ج - يسعى وراء اللذة ويتجنب الألم .

س - أليس هذا هو حب الذات ؟

ج - أنه النتيجة اللازمة له .

س - هل يوجد حب الذات في كل الناس بقدر سواء ؟

ج - نعم ، لأن كل الناس يهدفون إلى حفظ الذات وإلى تحقيق السعادة .

س - ماذا تفهم من السعادة ؟

ج - حالة مستمرة نجد فيها لذة أكثر مما نعانى ألما .

س - ماذا يجب علينا أن نفعل لنبلغ هذه الغاية (الحالة) ؟

ج - يجب أن نهذب عقولنا ونفعل ما يمليه علينا العقل .

س - ما هو العقل ؟

ح - معرفة الحقائق التي تنفضى إلى سعادتنا ورفاهيتنا .

س - إلا يقودنا حب الذات دائما إلى كشف تلك الحقائق والعمل بمقتضاها؟

ج - كلا ، فليس كل الناس يعرفون كيف يمارسون حب الذات .

س - ماذا تعنى بهذا ؟

ج - أعنى أن بعض الناس يمارسه نه ممارسة حقبة وبعضهم يمارسونه ممارسة خاطئة .

س - من هم هؤلاء الذين يمارسون حب الذات ممارسة صائبة ؟

ج - هم الذين يحاولون أن يعرف بعضهم بعضا ولا يفصلون سعادتهم عن سعادة الآخرين^(٨٧).

وركز الفلاسفة في أخلاقهم العملية على ذكرياتهم عن الأخلاقيات المسيحية . فاحلوا محل عبادة الله ومريم والقديسين - وهى العبادة التى عاونت بطريق غير مباشر على الفضيلة - لإخلاصا مباشراً للجنس البشرى ؛ أن الراهب سان بيير اقترح لفظة جديدة لفضيلة قديمة - البر والاحسان التى نترجمها ترجمة ضعيفة - وقصد بها العون الجاد المتبادل والتعاون مع الآخرين فى أعمال الخير والبر المشتركة . ومع هذه أكد الفلاسفة كذلك على الإنسانية ، أى التحلى بالروح الإنسانية وحب الخير العام ، ولهذا جدورها وأصولها فى ثمانية الوصايا التى أعلنها السيد المسيح . ولابد أن رينال حين دمج قسوة الأوربين مع السود والهنود (فى الشرق والغرب) بأنها عمل غير إنسانى ، عرف أن أسقفا أسبانياً هو لاس كاساس قد سبقه إلى هذا الأتهام فى عام ١٥٣٩ . ولكن التحمس الجديد لمساعدة الفقراء والمساكين والمرضى والمظلومين كان يرجع أساسا إلى الفلاسفة . وفوق كل شىء إلى فولتير . أن اصلاح القانون فى فرنسا يرجع إلى حملاته المتواصلة . وأشهر رجال الدين الفرنسيون بالصدقات ولكنهم آنذاك مارسوا رؤية الأخلاق العملية فى المسيحية يبدى بها الفلاسفة ويدعون إليها بنجاح يذكر . ونمت الأخلاقيات أكثر استقلالا وإنفصالا عن الدين ، وفى مجالات الروح الإنسانية والعطف والتسامح وحب البشر والعمل على تعزيز السعادة الإنسانية والسلام انتقل الأمر من أساس لا هوى إلى أساس علمانى أو دنيوى ، وأثرت على المجتمع بشكل لم يعهد له مثيل من قبل .

وحين واجه الفلاسفة المشكلات الأخلاقية التى ولدتها الحرب ، تحاشوا التهاذلة على حين كانوا ينصحون بالسلام ، وأقر فولتير الحروب الدفاعية ولكنه دلل على أن الحروب عملية سلب ونهب ، وأنها تؤدى إلى ضعف وفقر المنتصر والمهزم على حد سواء ، وأنها تجلب الغنى والثراء إلى نفر قليل

من الأمراء ومقاولى الحرب والعشيقات المملكات ، واحتج على غزو فردريك لسيليزيا ، وربما كان يعيه في ذاكرته حين شرح في مقال غاضب عن « الحرب » في القاموس الفلسفى كيف يرتضى الضمير المملكى العدوان : « إن أحد علماء الأنساب يثبت لأحد الأمراء أنه ينحدر مباشرة من سلالة كونت عقد أبواه ميثاقا عائليا منذ ثلاثة أو أربعة قرون مع بيت لم تبق منه حتى الذكرى ، وكان لهذا البيت بعض الحقوق المزعومة في الأقليم . . . إن الأمير ومجلسه يلمسون حقه على الفور . وهذا الأقليم الذى يبعد عنه بعدة مئات من الفراسخ ، يحتاج عبثا بأنه لا يعرفه (أى الأمير) وأنه لا يرغب فى أن يكون تحت حكمه وأنه لمكى يسن القوانين لشعب هذا الأقليم يجب على الأقل الحصول على موافقتهم ورضاهم . إن الأمير يحشد على الفور عددا كبيرا من الرجال الذين لن يخسروا شيئا ، ويزودهم بالملابس الزرقاء الخشنه . . . ويأمرهم بالالتفاف يمنة ويسرة ويتقدم إلى ساحة المجد » .

وعلى الرغم من ذلك نصح فولتير كاترين الثانية بامتناع الحسام لطرده الأتراك من أوروبا ، وكتب مرثية وطنية للضباط الذين ماتوا من أجل فرنسا فى ١٧٤١ ، وبارك إنتصار الجيش الفرنسى فى فونتنوى .

ونبه الفلاسفة القومية والوطنية على أساس أن هذه الأحاسيس والعواطف تعمل على تضيق مفهوم الإنسانية والالتزامات الخلقية ، وأنها جعلت من السهل على الملوك أن يقودوا شعوبهم إلى الحرب . وشجبت مقالة « الوطنية » فى القاموس الفلسفى « الوطنية » باعتبارها أنانية ضيقة الأفق . إن فولتير توسل إلى الفرنسيين إن يخففوا من تفاخرهم بسمو اللغة والأدب والفن والحرب ، وذكرهم بأخطائهم وجرائمهم ونفائصهم^(٨٨) . وكان مونتسكيو وفولتير وديدرو ودالمير فى فرنسا كما كان لسنج وكانت وهردر وجيته وشيار فى ألمانيا ، أوريين طيبين ثم بعد ذلك فرنسيين أو ألمان . وكان أن ديانة واحدة ولغة واحدة كانتا قد أنشأتا « العالمية » فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى ، فكذلك نمت العالمية فى القارة نتيجة لانتشار اللغة والثقافة الفرنسيين .

وتحدث روسو في ١٧٥٥ عن تلك « الأذهان العالمية التي تهمل الحواجز التي أقيمت لتفصل بين الأمم بعضها عن بعض ، والذين مثل الذات العلية التي خلقتهم يحتضنون الجنس البشري بأسره في نطاق النزعة إلى عمل البر والخير ^(٩٩) . وفي مكان آخر كتب في مبالغه ملحوظة « لم يعد هناك فرنسي ولا ألماني . . . هناك فقط أورييون » ^(١٠٠) ولم يصدق هذا إلا على النبلاء ورجال الفكر ، ولكن في هذه الطبقات امتدت الروح العالمية من باريس إلى نابلي وبطرسبرج . وحتى في زمن الحرب اختلط رجال الأدب بأضرابهم ممن هم في طبقتهم عبر الحدود ، فقد رحب المجتمع الباريسي بهيوم وهرراس وولبول وجييون وآدم سميث ، بينما كانت فرنسا مشتبكة في حرب مع إنجلترا . وأحس الأمير دى لين أنه في وطنه بين أهله وعشيرته في كل عاصمة أوربية تقريبا . والجنود أنفسهم كان لديهم شيء من هذه النزعة العالمية . قال فرديناند دوق بنزويك « أنه لما يشرف كس ضابط ألماني أن يخدم تحت لواء فرنسا » ^(١٠١) وكانت في الجيش الفرنسي كتيبة بأكملها « السكتية الملكية الألمانية » مكونة من الألمان . ووضعت الثورة الفرنسية حداً لهذه النزعة العالمية في التوافق الشديد في العادات والعقول ، وتضاءلت هيمنة فرنسا ، ولزددات الروح القومية .

وهكذا نجد الثورة العسكرية التي كانت إلى حد ما نتيجة رد فعل أخلاقي ضد قساوات الألهة والكهنة قد انتقلت من نبذ اللاهوت القديم إلى أخلاق قائمة على أخوة عالمية اشتقت من أجمل جوانب العقيدة التي طرحت جانباً . ولكن المشكلة هي هل يمكن لقانون أخلاقي لايساندة ويدعمه الدين أن يحتفظ بنظام اجتماعي ؟ وهي مشكلة باقية دون حل ، وهي لا تزال تواجهنا . أننا نعيش هذه التجربة الحرجة الدقيقة . -

٦ - تراجع الديانة

وفي الوقت نفسه ، حتى الآن ، بدا الفلاسفة وكأنهم كسبوا المعركة ضد المسيحية . أن المؤرخ النزيه إلى حد الأعجاب هنرى مارتن وصف شعب فرنسا في ١٧٦٢ بأنه جيل ليس لديه أي إيمان بالمسيحية ^(١٠٢) . وفي ١٧٧٠ قال المحامى العام سيجويه Siguier في تقرير له :

« سعى الفلاسفة بأحدى اليدين أن يشلوا العرش ، وبأليد الأخرى أن يقلبوا المذابح (أن يهدموا الكنائس) . وكان غرضهم أن يثيروا الرأى العام ضد النظم المدنية والدينية . وهذا الانقلاب على حد قولهم قد بدأ بالفعل . فإن التاريخ والشعر والقصص بل حتى القواميس قد تسربت إليها عدوى التسمم بالتشكك وعدم التصديق . ولاتكاد كتاباتهم تنشر قبل أن تطغى على الإقليم مثل السيل الجارف ، وإمتدت العدوى إلى المصانع والأكواخ»^(٩٣) .

وكأنما كان أيضاً لهذا التقرير أن يجمع سيلفان ماريشال في ١٧٧١ « قاموس المالمدين » الذى توسع فيه بتضمينه ايلار وبوكاشيو والأسقف بيركلى^(٩٤) . وفي ١٧٧٥ أعان رئيس أساقفة تولوز أن « الإلحاد الرهيب البشع أصبح الرأى السائد »^(٩٥) . وذهبت مدام دى ديفان إلى أن الإيمان بالمعجزات المسيحية أصبح خامدا مثله فى ذلك مثل التصديق بالأساطير اليونانية^(٩٦) ، وبقي الشيطان ضربا من لغو الكلام ، والحجيم أضحوكة^(٩٧) . وأزعج علم الفلك الجديد رب اللاهوت فى الفضاء وكأنما يراجع عن الفضاء مع ارتياد الكواكب فى زماننا هذا . وفى ١٨٥٦ تحدث توكفيل عن ضعف الثقة فى الإيمان الدينى الذى أنتاب الناس فى أو آخر القرن الثامن عشر^(٩٨) .

لقد بولغ فى كل هذه التصريحات والبيانات ، وربما قيلت وباريس والطبقات العليا والمتنفة ماثلة فى أذهان ناشريها . إن حكم لى Lecky أكثر تميزاً وتحديداً حيث يقول : إن الكتب والنشرات المعادية للمسيحية عبرت عن الآراء وأثبتت المطالب عند جمهور الطبقات المتعلمة . وتغاضى كل موظفى الإدارة فى مصالح الحكومة جميعها عن انتشارها وتداولها ، أو قل أنهم رحبوا بهذا وذلك^(٩٩) . وظل عامة الفرنسيين متعلقين بعقيدة العصور الوسطى سلوى وعزاء لحياتهم الكادحة المرهقة ، فلم يقبلوا المعجزات القديمة فحسب بل الجديدة كذلك ووجد الباعة المتجولون سوقاً رائجة للتأثيل الصغيرة التى تمثل معجزات العذراء^(١٠٠) . وكانت التأثيل والمخلفات تحمل فى المواكب بغية تفادى الكوارث العامة أو وضع حد لها وزوالها . واذحت الكنائس حتى

في باريس بالناس أيام الأعياد الكبرى في السنة الدينية ، ودوت أجراس الكنائس بالترانيم في المدينة تدعو الناس إليها . وكانت « الأخوات » الدينية تضم أعضاء كثيرين وبخاصة في مدن الأقاليم على الأقل . وأكد سيرفان لدى لمبير حين كتب إليه من جرينوبل (١٧٦٧) : « قد تدهش أيها الأخ لتقدم الفلسفة في هذه المناطق الهمجية غير المتمدنية » . وفي ديجون كان هناك ستون مجموعة من الموسوعة ، ولكن تلك كانت حالات استثنائية ، وبقيت البرجوازية الإقليمية في جملتها مخرصة للكنيسة .

وفي باريس وصلت الحركة الجديدة إلى كل طبقة . وكان العمال يزداد عدداً وهم للكنيسة ، وكانت المقاهي قد طردت الرب منذ زمن بعيد .

وروى أحد النبلاء كيف أن حلاقه قال له وهو يصنف شعره « أنت ترى ياسيدي أنني شخص مسكين تافه ، ولكني مع ذلك لم يعد لي دين مثل أي إنسان آخر »^(١٠١) . وواصل نساء الطقة الكادحة عبادتهن القديمة واستخدمن مساحون في شغف زائد . أما السيدات العصريات الأنبيات فقد اتبعن أسلوب الفلاسفة على أية حال ، واستغنين عن الدين إلى حد كبير ، وأرسلت كل منهن تقريباً في طلب القسيس حين تأكدن من دنو الأجل . وكانت معظم الصالونات الكبرى تتبع الفلاسفة . واحتقرت مدام دي ديفان هؤلاء الرجال ، ولكن مدام جيوفرين رحبت بهم في أمسياتها ، حتى أكتظت بهم مائدتها . وتسكاثروا حول الآنسة لسبناس وتصدر جريم صالون مدام ابيناي ، ووصف هوراس وولبول الجو الفكري للصالونات في ١٧٦٥ فقال :

« هناك إله وهناك ملك يجب القضاء عليهما . والرجال والنساء جادون في تدميرهما . أنهم يظنونني دنسا لأن لدى بنية من إيمان »^(١٠٢) . . . والفلاسفة لا يطاقون ، وهم سطحيون متغطرسون متعصبون ، لأنهم لا ينقطعون عن التبشير والدعوة ، وهم يحهرون بالألحاد ، وقد لا تصدق مبلغ صراحتهم ، فلا تعجب إذن إذا عدت أنا يسوعياً^(١٠٣) .

وعلى الرغم من ذلك اختارت الأكاديمية لعضويتها تسعة من الفلاسفة في الانتخابات الأربعة عشر التي جرت فيما بين عامي ١٧٦٠ و ١٧٧٢ ، وجعلت دالمبير سكرتيرها الدائم .

ولتهم النبلاء في إبتهاج مشوب بالعداء للدين كل ما قدمته لهم العقول القوية . وقال لاموث لا نجون « كان الاتحاد سائدا إلى حد بالغ في المجتمع الراقي ، وكان الإيمان بالله دعوة إلى الحماسة والسخف وانتشر الكفر والبعد عن الدين بين الأرستقراطية بعد ١٧٧١^(١٠٥) . وكانت دوقه دانفيل ودوقات دي شوازيل وجرامونت وهونتسون وتسي ربوبيات . وارتبط رجال من ذوي المناصب الرفيعة في الحكومة — مثل شوازيل وروهان وموريباس وبوفو وشوفيلين بأواصر الود والصدقة مع دالمبير وترجو وكوندورسيه . وفي الوقت نفسه أوضح الفلاسفة لفرنسا أن النظام الإقطاعي تجاوز عمر الفائدة المرجوة منه ، وأن الامتيازات الوراثية جور متحجر طال عليه الزمن ، وأن صانع الأحذية الطيب خير من لورد مبذر لا يصلح لأي عمل ، وأن كل السلطة مستمدة من الشعب .

وسرت العدوى حتى إلى رجال الدين . وفي ١٧٦٩ قاس تشامفورت درجة تزعزع الإيمان لدى رجال الدين تبعا لتسلسل مراتبهم الكنيسة : « يجب أن يؤمن القسيس قليلا ، أما وكيل الكنيسة فيبتسم لأية قضية تثار ضد الدين ، ويسخر الأسقف دون تحفظ ، ويضيف الكاردينال ملاحظه بارعة أو نكتة ساخرة من عنده^(١٠٦) . وعدد ديدرو ودي هولباخ مجموعة كهنة متشككين من بين أصدقائهم . وكان القساوسة تورني وفوشية ، وموري ، ودي بولوني « من بين أكثر من يرددون آراء الفلاسفة^(١٠٧) . وأنا لنسمع عن « جماعة القساوسة ذوي العقول الناضجة » وبعض هؤلاء الكهنة الأذكاء كانوا ربوبيين ، كما كان بعضهم ملحدين — وعاد مسلييه إلى الحياة . إن المركيز دي شامتلولوكس أبلغ بريستلي حين كان يتناول العشاء مع ترجو ١٧٧٤ « إن السيدين الجالسين أمامه هما أسقف أكس ورئيس أساقفة

تولوز ، ولكنهما ليسا أكثر إيماناً منك أو منى ، وأكدت له أنى مؤمن .
وأبلغنى مسيولى روى الفيلسوف أنى أنا الوحيد المدرك الواعى الذى عرف
أنه مسيحي » (١٠٨)

وكان للإلحاد بعض الأصدقاء حتى فى الأديار . وتجنباً للفضيحة والعامه
كان دوم كولينيون يسمح لهشيقته بأن تكونا معه على المائدة حين يكون
الضيوف الآخرون من الأصدقاء الموثوق بهم . ولم يكن يسمح لطائفة
الرسوليين أن تدخل فى مآذاته ، ولكنه اعتبر الديانة نظاماً جديراً بالإعجاب
للمحافظ على الأخلاق عند العامة (١١٠) . وتحدث ديدرو (١٧٦٩) عن يوم
قضاء مع راهبين : « قرأ أحدهما المسودة الأولى لرسالة حديثة قرية جداً
عن الإلحاد ، زاحرة بالأفكار الجديدة الجريئة . وعلمت فى شئ من
الدهشة أن هذه هى النظرية السائدة فى أديارهم . وبالنسبة للبقية كان هذان
الراهبان نموذجاً لذى الأديار . وكانا يتحليان بالنفكير والمرح والانهاج
وحسن الية والمعرفة (١١٠) .

ويروى لنا مؤرخ كاثوليكي غيور أنه فى أواخر القرن الثامن عشر كان
قد حل شعور بالاحتقار ، مبالغ فيه ، ولكنه عام شامل ، فى كل مكان ،
محل التبجيل الذى كانت الأديار الكبرى قد بثته فى العالم الكاثوليكي (١١١) .

إن ازدياد التسامح نتج أساساً من تدهور الإيمان الدينى . فمن السهل أن
نكون متسامحين إذا كنا غير مكترئين . إن نجاح فولتير فى قضيتى كالاس
وسيرفنس حرك عدداً من حكام الأناليم إلى مطالبة الحكومة المركزية
بتخفيف القوانين ضد البروتستانت ، وتم هذا بالفعل ولم تلغ قوانين الهرطقة
ولكنها كانت تبقى بشئ من الاعتدال . وترك الميجونوت فى سلام كما كان
فولتير قد اقترح ، وأبدى برلمان تولوز ندمه ، بتطبيق مبدأ التسامح إلى
حد أرجع الملك (١١٢) . وأصدر بعض الأساقفة - مثل فيتر جيمس أسقف
سواسون ١٧٥٧ - رسالة كهنوتية يدعو فيها كل المسيحيين إلى اعتبار
الناس أخوة . (١١٣) .

وأضنى فولتير على الفلاسفة شرف هذا الانتصار ، فكتب إلى دالمبير ١٧٦٤
« أن الفلاسفة وحدهم هم الذين إلى حد ما هذبوا سلوك الناس ، وإنه
لولاهم لشهدنا مذبحتين أو ثلاثاً من مثل مذبحه سانت برثلميونى كل قرن^(١١٤) .
وينبغي أن نلاحظ مرة أخرى أن الفلاسفة أنفسهم كانوا أحياناً متعصبين ،
أن دالمبير ومارمونتيل حرصا ما لشرب على كبح جماح فريرون (١٧٥٧)^(١١٥) ،
وطلب إليه دالمبير أن يتبجح الدعوى القضائية على بعض نقاد الموسوعة
(١٧٥٧) ، وحشته بدماء هلفشيوس على إسكات صحيفة كانت قد عرضت
بكتاب زوجها « الذكاء » ١٧٦٨ . وفى بعض المناسبات توسل فولتير إلى
السلطات لإيقاف حملات التشهير بجماعة الفلاسفة والطعن فيهم والسخرية
منهم^(١١٦) . وبقدر ما كان هذا التشهير حقيقياً - أى افتراء مؤذياً - فقد كان
لتوسلاته ما يبررها .

وكان ثمة عوامل أخرى غير الفلسفة لنشر التسامح ، فإن الإصلاح
الدينى على الرغم من أنه أفر العصب ، خلق فرقةً وشيعاً كثيرة . كان
بعضها قويا إلى حد الدفاع عن نفسه ، إلى درجة أن التعصب نادراً
ما تجاوز حد الكلام . وكان على هذه الشيع والفرق أن تتجادل وتقرع
الحجة بالحجة ، وقبلت اختبار العقل كارهة ، ورفعت من شأنه . إن ذكرى
الحروب « الدينية » فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وما نتج عنها من خسائر
اقتصادية ، حولت كثيراً من الزعماء الاقتصاديين والقادة السياسيين إلى
التسامح . ووجدت بعض مراكز التجارة مثل هامبرج وأمستردام ولندن ،
أنه من الضرورى أن تصبر على مختلف المذاهب والعقائد التى يعتنقها
زبائنهم الذين يتعاملون معهم . إن ازدياد قوة الدولة القومية جعلها أكثر
إستقلالاً عن الوحدة الدينية باعتبارها وسيلة للاحتفاظ بالنظام الاجتماعى ،
وانتشار التعرف على مختلف المذنبات والثقافات أضعف ثقة كى عقيدة
فى احتكارها للإله ، وفوق كل ذلك جعل تقدم العلوم من العسير على العقيدة
الدينية أن تصل إلى المساواة والهمجية مثل محاكمات محكمة التفتيش أو إعدام

السحرة . وتقبل الفلاسفة بسرور معظم هذه التأثيرات في دعايتهم من أجل التسامح واستلما عوا بحق أن يدعوا بعض الفضل في الانتصار ، وكان مقياس نجاحهم أنه بينما في النصف الأول من القرن الثامن عشر كان دعاة الهييجونوت لا يزالون يعلقون على أعواد المشانق في فرنسا ، حدث في ١٧٧٦ أو ١٧٧٨ أن دعا ملك كاثوليكي سويسريا بروتستانتيا لأنقاذ الدولة .

٧ - الخلاصة

وهكذا ننهي كما بدأنا ، إذ نرى أن الفلاسفة واللاهوتيين - لالحاربين والديبلوماسين - هم الذين كانوا يحاربون معركة القرن الثامن عشر الحاسمة . وأنا كنا على حق في تسمية هذه الحقبة « عصر فولتير » . قال كوندورسييه « إن الفلاسفة من مختلف الأمم ، إذ اعتنقوا في تأملاتهم المصلحة العامة لبني البشر كونوا كتيبه قوية متحدة ضد أي وصف للخطأ أو أي لون من الظلم والطغيان ^(١١٧) ، وكانت على أية حال كتيبة متحدة . وسنرى روسو يتخلى عن الحياه والسلطان ، وكان يحاول التوفيق بين الفلسفه والدين . ولكنه كان صراعا من أجل النفس الإنسانية . ونتأجه بارزة بيننا اليوم .

وفي هذا الوقت ترك فولتير فرني لانتصاره في باريس (١٧٧٨) . إن الحركة التي كان قد قادها أصبح لها الغلبة في السيطرة في مجال الفكر في أوربا ووصفها فريريون عدوها اللدود بأنها « مرض العصر وحاقيقته ^(١١٨) » . وهرب اليسوعيون وولى الجانسينيون الأدبار ، وتغيرت كل نعمة المجتمع الفرنسي . ونهج كل كاتب في فرنسا تقريبا نهج الفلاسفة ، وسعى إلى كسب رضاهم . وباتت الفلسفة تحت مئات العنوانات وآلاف الشفاه ، « إن عبارة مديح من فولتير: أوديدرو أو دالمبير كانت أثنى وأعظم قيمة من نيل الخطوة عند أي أمير ومن عطفه ^(١١٩) . ووقعت الصالونات والأكاديمية الفرنسية ، بل حتى وزراء الملك نفسه ، أحيانا ، تحت تأثير الفلاسفة .

واحتال الزوار الأجانب على الدخول إلى الصالونات طمعا في لقاء مشاهير الفلاسفة والاستماع إلى حديثهم ، حتى إذا هادوا إلى بلادهم نشروا الأفكار الجديدة . وها هو ذا هيوم . نلى الرغم من أنه استبق فولتير في كثير من

آرائه ، نراه ينظر إليه على أنه استاذ معلم . وبعث روبرتسون إلى فرنى بكتابه القيم « شارل الخامس » وكان تشستر فيلد وهوراس وولبول وجاريك من بين المرسلين الكثيرين لفولتير في إنجلترا . وأسهم سمولت وفرانكلين وغيرهما في إعداد ترجمة إنجليزية لمؤلفات فولتير في سبعة وثلاثين مجلدا لنشرها في إنجلترا (١٧٦٢) . وفي أمريكا تأثر مؤسسو الجمهورية الجديدة تأثرا عميقا بكتابات الفلاسفة . أما في ألمانيا فيمكنك أن تستمع إلى ملاحظات جوته إلى اكرمان في ١٨٢٠ و ١٨٣١ :

« ليس لديك فكرة عن مبلغ تأثير فولتير ومعاصريه العظام على شبابي ، وكيف تسلطوا على ذهن العالم المتحضر بأسره ... إنه يبدو لي أنه شيء رائع عجيب حقا أن ترى أى رجال هؤلاء الذين ظهروا في ميدان الأدب في فرنسا في القرن الأخير . وكم تتولاني الدهشة لمجرد النظر في هذا . إنها حركة التحول في أدب عمره قرن من الزمان ، والذي كان آخذا في النمو منذ عهد لويس الرابع عشر حتى أينع الآن وأثمر وآتى أكله . » (١٢٠)

وشارك الملوك والملكات في التهليل والتصفيق لفولتير ، وتاهوا عجا بأهم في عداد أتباعه . وكان فردريك الأكبر من أوائل من أدركوا أهميته . والآن في عام ١٧٦٧ بعد ثلاثين عاما من التعرف عليه في كل معاب شخصية وكل توقد ذهنه ، هلك فردريك للانتصار في الحملة ضد الرجس والعار . وقوضت أركان صرح الخرافة من أساسها . « وستدون كل الأمم في حولياتها أن فولتير كان هو الذي أحدث هذا الانقلاب الجارى الآن في الروح الإنسانية في القرن الثامن عشر . » (١٢١) وشاركت كاترين الثانية قيصرية روسيا وجوستاف الثالث ملك السويد في هذا التملق . ومما لا نزاع فيه أن الامبراطور جوزيف الثاني كان مدينا بفضل روح اصلاحاته للفلاسفة ، ولو أنه لم يعلن عن نفسه بمثل هذه الصراحة . وتسلم المعجبون مقاليد السلطة في ميلان وبارما ونابلى ومدريد ، وكلها بلدان كاثوليكية . وفي ١٧٦٧ لخص جريم الموقف بقوله : (إنى ليسرني أن أشهد جمهورية مترامية الأطراف

من ذوى العقول المثقفة تتكون فى أوربا . إن الاستنارة تنتشر فى كل مكان (١٢٢) .

إن فولتير نفسه وقد قهر فى نفسه التشاؤم الذى يصاحب كبر السن ، نراة يردد نغمة الانتصار : (إن العقول الراجحة المشككة تشكيلا حسنا كثيره الآن ، وهى تنصدر الأمم وتؤثر فى سلوك الجماهير . وإن التعصب الذى طغى فى الأرض لينحسر سنة بعد سنة جوره الكريه . وإذا لم تعد الديانة الآن تثير الحروب الأهلية فأنا مدينون بهذا للفلسفة وحدها . وبدأ الناس ينظرون إلى الصراعات الدينية وكأنها عرض فى مسرح العرائس فى السوق . إن العقل الذى ييسط سلطانه وحكمه ، ينسف فى كل لحظة أى جور بعض مؤذ قائم على الخداع والاحتيال من جهة ، وعلى الغباء من جهة أخرى (١٢٣) .

ولنوف الرجل حقه . اننا قد نسلم بعد معرفتنا بتطرفات الثورة واسرافها وبرد الفعل الذى تلاها ، بأن الفلاسفة (باستثناء فولتير) كانت لديهم ثقة متفائلة فى الطبيعة البشرية ، وأنهم انتقصوا الان من قوة الغرائز التى تولدت فى آلاف السنين من عدم الشعور بالأمن ومن الوحشية والمهجية ، وأنهم بالغوا فى قوة التعليم لتنمية العقل ضابطا متحكما إلى حد كاف فى هذا الغرائز ، وأنهم عموما عن مطالب الخيال والعاطفة ، وصمت آذانهم عن صيحات المتهورين التماسا لعزاء الإيمان ، ولم يقيموا كبير وزن للتقاليد والنظم التى انتجتها قرون من التجربة والخطأ ، وأقاموا وزنا كبيرا للعقل الفردى الذى هو فى أحسن الظروف نتاج حياة قصيرة ضيقة محدودة . وإذا كانت هذه تقديرات خاطئة خطيرة فإنها لم تتأصل فى مجرد زهو أو غرور فكري ، ولكن تأصلت كذلك فى طموح واسع الآفاق فى إصلاح البشر وتحسن أحوالهم . إننا مدينون لفلاسفة القرن الثامن عشر — وربما للفلاسفة الأكثر عمقا فى القرن السابع عشر — بالحرية النسبية التى ننع بها فى الفكر والكلام والعقائد ، كما أننا مدينون لهم بالفضل فى تضاعف عدد المدارس والمكتبات

والجامعات ، وفي مئات من الاصلاحات الإنسانية في القانون والحكومة ،
وفي معالجة الجريمة والعلل والأدواء والأمراض العقلية . ونحن مدينون لهم
ولأتباع روسو بفضل الاستثارة العظيمة للذهن التي انتجت أدب القرن التاسع
عشر وعلومه وفلسفته ، وفن الحكم وإدارة شئون الدولة فيه . وبسببهم
استطاعت دياناتنا أن تتحرر أكثر فأكثر من الخرافة البليدة الكنيية واللاهوت
الذي يبتهج بالتعذيب ، كما يمكنها أن تولى ظهورها لمعوقات التقدم وللاضطهاد،
وتتبين الحاجة إلى عطف متبادل من مختلف نواحي جهلنا وآمالنا . وبسبب
هؤلاء فإننا هنا الآن نستطيع أن نكتب دون خوف ولا وجل ، ولو مع شيء
من اللوم . إننا إذا توقفنا عن تمجيد فولتير وتكريمه سنكون غير جديرين
بالحرية .

خاتمة في الفردوس

(شخصا الحوار البابا بندكت الرابع عشر وفولتير)
(المشهد : مكان في ذاكرة البشر الشاكرة)

بندكت : إني سعيد برؤيتك هنا ياسيدى ، فعلى الرغم من أنك أذيت كثيراً الكنيسة التى قدر لى أن أكون على رأسها طيلة ثمانية عشر عاما ، فقد أحسنت صنعا بشن الحملة على آثام الكنيسة وأخطائها والمظالم التى أنخرتنا جميعا فى عصرك .

فولتير : أنت الآن كما كنت فى حياتك أرق البابوات حاشية وأكثرهم صفحا . وإذا كان كل خادم من خدم الله مثلك لتحققت من أن آثام الكنيسة هى خاصية طبيعية فى الإنسان ، ولبقيت أجل وأحترم هذا النظام العظيم . وإنك لتذكر أننى لمدة خمسين عاما إحترمت اليسوعيين ؟

بندكت : أذكر ذلك ، ولسكنك اشتركت فى الهجوم عليهم فى نفس الوقت الذى كانوا قد خفضوا فيه من دسائسهم السياسية ، وكانوا يقفون فيه بشجاعة ضد فسق الملك ومجونه وإباحيته .

فولتير : كان جديرا بى أن أعرف أكثر من أن أقف إلى جانب الجانسينيين فى تلك القضية .

بندكت : حسناء أنت ترى الآن أنك أيضا قد تخطىء مثل البابا . والآن وقد وجدتك معتدل المزاج ، دعنى أحدثك لماذا بقيت أنا مخلصا للكنيسة التى تخلت أنت عنها .

فولتير : أن هذا يشوقنى كثيراً .

بندكت : أخشى أن أرهقك لأننى سأطيل الحديث ، ولكن تذكر كم ألفت أنت من مجلدات .

فولتير : كثيراً ما تأقت نفس لزيارة رومه ، وكـم كان يسعدنى أن تتحدث إلى.
بندكت : وكثيراً ما رغبت أنا فى التحدث معك . ويجدر بى أن اعترف
بأنى تمتعت بذكائك وبراعتك ، ولكن تألق ذكائك هو الذى
ضلللك . من العسير أن تكون متألّقا بأرعا ومحافظا ، إنه لا يروق
العقول النشيطة كثيراً أن تقف إلى جانب التقاليد والسلطة ،
وهناك ما يغريها بالنقد . حيث يمكن أن تشعر بلذة النزعة الفردية
والإبداع والجدّة ، ولكن فى الفلسفة يكاد يتعذر أن يكون
الإنسان أصيلاً إلا إذا كان مخطئاً . وإنى لأتحدث إليك ، لا بصفتى
كاهناً أو رجلاً لاهوت . ولكن بصفتى فيلسوفاً يتحدث
إلى فيلسوف .

فولتير : أشكرك ، لقد كان هناك كثير من الشك فى كونى فيلسوفاً .
بندكت : لقد كنت حصيفاً ، فلم تصطنع منهجاً جديداً . ولكنك ارتكبت
خطأً فاحشاً أساسياً .

فولتير : ما هو ؟

بندكت : ظننت أنه من الميسور للذهن واحد على مدى حياة واحدة أن
يكتسب هذا القدر من المعرفة وعمق التفكير ، مما يجعله صالحاً
لينصب نفسه حكماً على حكمة الجنس البشرى كله — على تقاليد
ونظم شكلتها خبرة الناس وتجربتهم عبر القرون . فالتقاليد بالنسبة
للجماعة هى بمثابة الذاكرة للفرد . وكما أن أى خلل فى الذاكرة
قد يؤدى إلى الجنون ، فإن أية مخالفة مفاجئة للتقاليد قد تنزلق
بالأمة بأسرها إلى هاوية الجنون ، مثل فرنسا فى الثورة .

فولتير : أن فرنسا لم تصب بالجنون ، ولكنّها ركزت فى عقد من السنين
على ما تراكم من استياء وغيظ أثناء قرون من الظلم والجور ،
فضلاً عن ذلك فإن « الجنس » الذى تتحدث عنه ليس « ذهناً » ،

بل هو مجموعة وتسلسل لأفراد غير معصومين من الخطأ ،
وليست حكمة الجنس إلا مجموعة مركبة من أخطاء الأفراد وحسن
تبصرهم ، وماذا حدد أى العناصر من هذا الحطام من الأفكار
سينتقل إلى الأعقاب والذرائع ويسترعى انتباه الزمن ؟

بندكت : إن نجاح الأفكار واختفاؤها في تجارب الجماعات والأمم هو الذى
حدد البقاء لبعض الأفكار وفناء الباقي .

فولتير : لست متأكدا ، فربما كان التحيز متسريلا ثياب السلطة هو
الذى حدد في كثير من الحالات أى الأفكار يجب الاحتفاظ به ،
وربما منعت الرقابة ألفا من الأفكار الطيبة من الدخول إلى تقاليد
الجنس البشرى .

بندكت : أظن أن خلفائى فكروا في الرقابة وسيلة لمنع إنتشار الأفكار التى
قد تقوض الأساس الأخلاقى للنظام الاجتماعى ، والمعتقدات
المؤثرة التى تساعد الناس على احتمال أعباء الحياة وأنى لأسلم بأن
مراقبينا قد ارتكبوا أخطاء جسيمة مثل ما حدث مع جاليليو —
ولو أنى أرى أنا كنا أكثر اعتدالا معه مما سول اتباعك لكثير
من الناس أن يعتقدوا .

فولتير : قد تكون التقاليد اذن خاطئة ظالمة وتكون حجرة عثرة في سبيل
تقدم التفاهم . وكيف يتقدم الإنسان إذا حرم مناقشة التقاليد ؟

بندكت : ربما كان علينا أن نناقش التقدم أيضا . ولكن فلنطرح هذه المسألة
جانبا الآن مؤقتا . أعتقد أنه يجدر بنا أن نناقش التقاليد والنظم مع
حرصنا على ألا نهدم أكثر مما نبني ، ومع الحذر من أن الحجر
الذى نزعزعه من مكانه لا يكون ضروريا لتدعيم مانريد الابقاء
عليه . على أن نعى دائما حقيقة متواضعة ، تلك هى أن خبرة
الأجيال قد تكون أفضل وأحكم من عقل فرد عابر .

فولتير : ومع ذلك فالعقل أجل نعمة أنعم الله بها علينا .

بندكت : لا ، الحب هو أكبر نعمة . أنا لا أريد الانتقاص من قيمة العقل ولكن يجب أن يكون خادم الحب لآخادم الغرور والزهو .

فولتير : أنا غالبا ما سلمت بهشاشة العقل وسهولة انقيادة . أنا أعلم نزوعه إلى أثبات كل ما توحى به رغباتنا . أن صديقي البعيد ديدرو كتب في مكان ما أن حقائق الشعور أكثر ثباتا من حقائق العرض المنطقي^(١) . إن المتشكك الحقيقي لأبد أن يرتاب في العقل أيضاً . وربما بالغت أنا في العقل لأن ذلك الرجل المحنون روسو بالغ في الوجدان . وفي رأي أن اخضاع العقل للوجدان أشد خطرا من اخضاع الوجدان للعقل .

بندكت : إن الإنسان ، كل الإنسان ، محتاج إليهما كليهما في تفاعلهما . ولكني الآن أتساءل هل لك أن تصاحبني إلى خطوة أبعد ؟ إلا تتفق معي في أن انصع معرفة مباشرة هي معرفتنا أننا موجودون وأننا نفكر ؟

فولتير : حسنا ؟

بندكت : إذن نحن نعرف الفكر بطريق مباشر أكثر مما نعرف أى شيء آخر .

فولتير : عجيب ! أعتقد أننا نعرف الأشياء قبل أن تتحول إلى انفسنا ونتبين أننا نفكر .

بندكت : ولكن اعترف بأنك حين تنظر في نفسك تدرك حقيقة مختلفة تمام الاختلاف عن المادة التي تميل أحيانا إلى أن تختزل إليها كل شيء .

فولتير : أنا أشك في هذا ، ولكن استمر .

بندكت : واعترف أيضا بأن ما تراه حين تنظره في داخل نفسك هو بعض من واقع الاختيار ومن حرية الإرادة .

فولتير : أنت تنطلق بسرعة . أيها الأب ، لقد اعتقدت يوما بأنى نعمت

بدرجة معتدلة من الحرية ، ولكن المنطق أرغنى على قبول القضاء والقدر .

بندكت : أى أنك أخضعت ما أدركت مباشرة لما انتهت إليه من عملية تفكير طويلة مزعزعة .

فولتير : أنا لم أستطع أن أدحض آراء صانع العدسات الصغير العنيد سبينوا . هل قرأت له ؟

بندكت : بالطبع قرأت . إن البابا ليس مقيدا بقائمة معينة من الكتب المهدية . فولتير : أنت تعرف أننا اعتبرناه ملحدًا .

بندكت : يجدر بنا ألا نخلع النعوت والالقاب بعضنا على بعض . أنه كان محبا إلى نفسه ، ولكنه كان مكثيا إلى حد لا يطاق . أنه رأى الله بطريقة شاملة إلى حد أنه لم يترك مجالا للشخصية الإنسانية . أنه كان متدينا مثل أو غسطين ، وقديسا عظيما مثله .

فولتير : إني أحبك يا بندكت . أنك أرحم به منى .

بندكت : فلتتابع حديثنا ، أسألك أن توافق على أن الفكر والوعى والأحاساس بالشخصية هى أعظم الحقائق المعروفة لنا بطريق مباشر . فولتير : حسنا . . هذا مسلم به .

بندكت : وعلى هذا أشعر بأننى محق فى رفض المادية والاحاد والجبرية . فكل منا روح والديانة تبى على هذه الحقيقة .

فولتير : فلنسلم بكل هذا ، فكيف نميز تلك المجموعة الضخمة من السخافات التى أضيفت إلى مذهب الكنيسة قرنا بعد قرن ؟

بندكت : أنا أعلم أن هناك سخافات كثيرة وأشياء كثيرة لا تصدق ، ولكن الناس كانوا يتصايحون من أجلها ، وفى كثير من الأحيان نجد الكنيسة فى تقبلها لهذه الأعاجيب ، كنت تخضع للمطلب العام

الواسع الانتشار ، وإذا أنت انتزعت من الناس المعتقدات التي
نحيز لهم اعتناقها ، فانهم سيعتقون أساطير وخرافات لا ضابط
ولا حصر لها . أن الديانة المنظمة لن تخترع خرافة ، بل تحول
دونها . اقض على أية ديانة منظمة فسيحل محلها هذه المتاهة من
الخرافات المخلة التي تنشأ ضمناً على أبالة في المسيحية وتزيد في
جراحها . ومع ذلك ففي العلم أشياء لاتصدق أكثر منها في
الديانة . أمناك شيء أبعد عن التصديق من الاعتقاد بأن حالة
بعض سديم يدائي هي التي حددت وفرضت كل سطر في
رواياتك ؟

فولتير : وما بالك بحكايات القديسين غير القابلين للاحتراق حين يلقي بهم
في النار ، وحكاية القديس الذي ضرب عنقه ومشي ورقبته في
يده ، وحكاية مريم التي رفعت إلى السماء - أنا لم أهضم هذه
الحكايات كلها .

بندكت : أن معدتك كانت ضعيفة دائماً . إن الناس لا يجدون فيها شيئاً
عسيراً لأن هذه الحكايات جزء من عقيدة تساند حياتهم ويجدون
فيها بعض العزاء . وهذا هو السبب في أنهم لن يعبروك أذناً
صاغية طويلاً ، حيث أن أنفاس حياتهم لا تتوقف على الاصغاء
إليك - وهكذا ففى الصراع بين الإيمان والكفر ، فإن الإيمان
يكسب المعركة دائماً . أنظر كيف تكسب الكاثوليكية غرب
المانيا ، وتستعيد فرنسا الكافرة ، وتسود أمريكا اللاتينية ،
ويشتد عودها في أمريكا الشمالية ، حتى في أرض الحجيج
والبيوريتانيين .

فولتير : أنا أرى أحياناً ، أيها الأب أن ديانتك تستعيد مكانتها ، لادن
طريق صدق عقيدتكم ، ولا عن طريق الجاذبية في أساطيركم ،
ولا بفضاء استخدامكم البارع للمسرحية والفن ، ولكن

بفضل تشجيعكم الدقيق بشكل شيطاني للاخصاب بين الناس
عندكم . وأعتقد أن معدل التكاثر هو العدو رقم ١ للفلسفة ،
نحن نتناسل في القاعدة ونموت في القمة . وخصوبة السداجة تهزم
حدة الذكاء .

بندكت : أنت تخطيء إذا اعتقدت أن معدل التكاثر هو سر نجاحنا . فان
شيئاً أعمق من هذا بكثير موجود. ضمناً . هل أخبرك لماذا يعود
كل الأذكاء في كل أنحاء للعالم إلى حظيرة الدين ؟

فولتير : لأنهم تعبوا من التفكير .

بندكت : لا ، ليس هذا تماماً ، إنهم إكتشفوا أن فلسفتكم لبس لها جواب
إلا الجهل واليأس . ويدرك العقلاء أن كل المحاولات فيما أسماه
أخوتكم « الأخلاق الطبيعية » أخفقت . وقد نتفق أنت وأنا على
أن الإنسان ولد وفيه غرائز تميل إلى النزعة الفردية تكونت في
آلاف السنين من الظروف والأحوال البدائية ، وأن غرائزه
الاجتماعية ضعيفة نسبياً ، وأن شريعة قوية من الأخلاق والقوانين
مطلوبة لترويض هذا الفوضى بالطبيعة ، وتحويله إلى مواطن
عادي مسالم . إن علماء اللاهوت عندنا أسموا هذه الغرائز التي
تسم بالنزعة الفردية « الخطيئة الأصلية الأولى » الموروثة عن
« آباؤنا الأولين » ، أي أولئك الناس المرهقين الذين لا يخضعون
لقانون ، المعرضين دائماً للخطر ، الصيادين الذين كان لزاماً عليهم
أن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد للقتال والقتل من أجل الطعام
أو الرفاق ، وأن يكونوا مولعين بالاكْتساب والمشاركة ، وأن
يكونوا قساة إلى حد العنف ، لأن أي نظام إجتماعي ساد بينهم ،
كان لابد أن يظل ضعيفاً ، ولكن علمهم أن يعتمدوا على أنفسهم
في الأمن على حياتهم وممتلكاتهم .

فولتير : أنت لاتتحدث كما يتحدث البابا .

بندكت : قلت لك إنه ينبغي علينا أن نتحدث كما يتحدث الفلاسفة . فالبابا أيضاً يمكن أن يكون فيلسوفاً ، ولكن عليه أن يعبر عن نتائج الفلسفة بلغة مفهومة للناس فحسب ، بل كذلك بلغة خليقة بالتأثير على عواطفهم وسلوكهم . نحن ممتنعون — والعالم كله يعود إلينا لأنه يعلم — بأنه ليس ثمة قانون أخلاقي من وضع الإنسان بشكل صريح معترف به ، يمكن أن يؤثر بدرجة كافية حتى يضبط ويتحكم في الدوافع غير الاجتماعية في الرجل الطبيعي . إن الناس عندنا محكومون في حياتهم الأخلاقية — ولو أن هذا لا يلتم مع الجسد — بقانون أخلاق تعلموه وهم أطفال في طور التشكيل ، باعتباره جزءاً من دينهم ، واعتباره من عند الله لامن عنديات الإنسان . أنت تريد أن تحتفظ بالأخلاق وتنبذ اللاهوت ، ولكن اللاهوت هو الذى يجعل الأخلاقيات تستقر في أعماق النفس . ويجب أن نأخذ القانون الأخلاقي على أنه جزء لا يتجزأ من الإيمان الدينى الذى هو أتمن ما يمتلك الإنسان ، لأنه عن طريق هذا الإيمان وحده تكتسب الحياة معنى ومنزلة سامية تعزز وجودنا وتضفي عليه شرفاً ونبلاً .

فولتير : وعلى هذا ابتدع موسى أحاديثه مع الله .

بندكت : إن الذهن الناصح لا يوجه مثل هذا السؤال

فولتير : أنت على حق تماماً .

بندكت : إني أغتفر لك تهكمك الفطير غير الناصح . إن هورابى وليكورغوس

(مشرع أسبرطة في القرن التاسع ق . م) ونوما وبومبيليوس

كانوا بالتأكيد على حق في أن يضعوا للأخلاق أساساً دينياً حتى

لأنهم تحت الذربات المتواصلة من أقوى غرائزنا . وأنت

نفسك قبلت هذا حين تحدثت عن إله بشيب ويعاقب ؛ إنك

(م ١٨ — قصة الحضارة)

أردت أن يتمسك بخدمك بالدين ، ولكنك ظننت أن أصدقائك
يمكن أن يعيشوا بلا دين .

فولتير : ما زلت أرى أن الفلاسفة يمكنهم أن يستغنوا عن الدين .
بندكت : كم أنت ساذج ! هل الأطفال أهل للفلسفة ؟ هل يستطيع الأطفال
أن يفكروا ويتأملوا ؟ إن المجتمع مؤسس على الأخلاقيات ،
وهذه مؤسسة على الشخصية ، والشخصية تتكون زمن الطفولة
والشباب . قبل أن يكون العقل موجهها ومرشداً بزمن طويل .
وينبغي أن نغرس الفضيلة في الفرد حين يكون صغيراً مطواعاً
غض الأهاب ، حيث تكون الفضيلة والأخلاقيات قوية إلى
حد يسمح بمقاومة نوازعه المشربة بروح الفردية . بل حتى
تفكيره الفردي . أخشى أن تكون قد بدأت تفكر بسرعة .
والعقل عمل فردي أساسي ، وإذا لم تحكمه وتضبطه الأخلاق
فانه يمكن أن يمزق مجتمعا لربا .

فولتير : إن بعض أحسن الرجال في عصرى وجدوا أن العقل فضيلة
وأخلاقيات كافية .

بندكت : كان هذا قبل أن يتغلب العقل القائم على النزعة الفردية والزمن
على آثار الديانة . إن نفراً قليلاً من الناس مثل سبينوزا وبيل
ودى هولباخ وهلفشيوس قد يكونون قد عاشوا حياة طيبة بعد
تخليهم عن دين آبائهم ، ولكن من يدرينا أن فضائلهم لم تكن
نتيجة تعليمهم الديني ؟

فولتير : كان هناك مئات من الناس المعاصرين لي ، ممن كانوا خليعين
محترقين على الرغم من تعليمهم الديني وعقيدتهم الكاثوليكية ،
مثل الكاردينال دييوا ولويس الخامس عشر .

بندكت : الذين كتبت عنهم مديحاً يثير الاشمئزاز .

فولتير : واحسرتاه ! نعم ، كنت مثل بعض رهبانكم ، استخدمت بعض حيل وخدع نقيّة لأصل الى ما شعرت بأنه غايات طيبة .

بندكت : مهما يكن من أمر ، فليس ثمة شك في أن هنالك آلافا من الناس ممن يتمسكون بالعقيدة القويمة ، حتى ومن يواظبون على كل الطقوس ، يمكن أن يكونوا آثمين خطائين ومجرمين عريقين في الإجرام . إن الدين ليس علاجاً معصوماً من الخطأ للجريمة ، إنه ليس إلا مجرد عون في المهمة الشاقة ، مهمة تمدين الإنسان . وأننا لنعتقد أن الناس بدون الدين يمكن أن يكونوا أسوأ بكثير مما هم .

فولتير : ولكن تلك الفكرة الرهيبة ، فكرة الجحيم ، حولت الإله إلى إلى غول بشع أشد قسوة من أى مستبد غاشم في التاريخ .

بندكت : أنت تمقت هذه الفكرة ، ولكنك إذا عرفت الناس معرفة أكثر وأفضل ، لأدركت أنه يجب إرهابهم^١ بالخوف والعقاب . أن رأس الحكمة مخافة الله . وعندما فقد إيتاعك هذا الخوف بداؤا يتدهورون ويفسدون . إنك كنت محتشماً معتدلاً نسبياً في فسقك وفجورك ، وكان ثمة شيء جميل في علاقتك الطويلة بمدام دي شاتيليه ، ولكن علاقتك مع ابنة أختك كانت شائنة مخزية . ولم تجد شيئاً يستحق اللوم في سلوك صديقك الفاجر الداعر الدوق دي ريشيليو .

فولتير : وكيف كان يمكن أن ألومه ؟ إذن لتعرضت قروصى للخطر .

بندكت : أنت لم يمتد بك زمنك لترى كيف أن الإلحاد قارب أن يجعل من الإنسان أحقر حيوان . هل قرأت المركز دي ساد ؟ أنه في نشو الثورة الفرنسية نشر ثلاث قصص (٢) أوضح فيها أنه لو لم يكن

هناك إله لكان كل شيء مباحا اللهم إذا كشف وكلاء القانون أمره .
وأشار إلى أن كثيراً من الأشرار الخبيثاء تزدهر أحوالهم في الدنيا ،
وكثيراً من الطيبين الفضلاء يعانون ويشقون ، وعلى ذلك فإنه إذا
لم يكن هناك جنة أو نار ، فليس ثمة معنى في أن نكون طيبين
لنسىء إلى ملذاتنا . وانتهى إلى أنه إذا لم تكن الإرادة حرة فليس
هناك مسئولية أخلاقية ، وليس هناك خير أو شر ، بل هناك
فقط ضعفاء وأقوياء والخير هو الضعيف ، والضعف هو الشر ،
حتى ولو كان لما يجد القوى - لذة في استغلال الضعيف ما يبررها .
وحاول أن يثبت أن القسوة أمر طبيعي وأنها غالباً ما تكون
سارة مرضية . وهكذا أقر كل ضروب اللذة ، بما في ذلك أحط
ألوان الانحراف وأبغضه ، حتى بدا آخر الأمر أن الخير الأعظم
يمكن في إيقاع الألم وتلقيه ، أسلوباً من أساليب اللذة الجنسية .

فولتير : كان لزاماً أن يضرب هذا الرجل بالسوط حتى يموت .

بندكت : نعم إذا استطعت الإمساك به . أما إذا لم تستطع ؟ فكر في
الجرائم التي لاتحصى والتي ترتكب في كل يوم ، والتي لاتكشف
والتي تفلت دون عقاب مطلقاً ، إنه من الضروري أن يكون
هناك قانون أخلاقي يمنع الناس من الإجرام حتى لو أحسوا أنهم
في مأمن من كشف أمرهم . فهل يكون عجيباً أن « عصر فولتير »
أبعد العصور عن الأخلاق وأكثرها فساداً في التاريخ . . ؟

أنا لن أذكر شيئاً عن « غادتك » ولكن فكر في الملك ومنتدى
غزلانه « وفي الأدب الداعر الفاجر الذي كان يطبع بكلمات كبيرة
ويتداول على أوسع نطاق ، ويتلهف الناس حتى النساء على شرائه :
إن هذا الزاد الطائش ، والإثارة الجنسية تصبهحان طوفانا فاجراً
في أزمان الكفر وأرضه .

فولتير : يجب أن تعلم يا صاحب القداسة أن الغريزة الجنسية قوية جداً حتى عند بعض البابوات ، وأنها لا بد أن تجد متنفساً على الرغم من أى قانون .

بندكت : وبسبب قوة تلك الغريزة فإنها تحتاج إلى ضوابط وقيود خاصة ، لا إلى تشجيع قطعاً . وهذا هو مادعانا إلى محاولة حصرها في حدود الزواج المنظم ، وعملنا كل ما في وسعنا لجعل الزواج المبكر حيزاً الإمكان . إنكم في مجتمعاتكم الحديثة تجمعلون الزواج متعذراً للجميع اللهم إلا للطائشين المسرفين ، أى ما بعد الوصول إلى مرحلة النضج الجنسي بزمان طويل . ومع ذلك تجمعلون كبح جماح الغريزة الجنسية أمراً شاقاً عسيراً بالنسبة لهم بإثارة خيالهم الجنسي وشهوتهم الجنسية في كل لحظة بالأدب والمسرح ، بدعوى حرية الصحافة والمسرح .

فولتير : إن شبابنا لا يضارون كثيراً بحريتهم .

بندكت : أظنك مخطئاً . إن الرجل الذى تعود على الإخلاط الجنسي غير المشروع قبل الزواج نادراً ما يكون زوجاً أميناً مخلصاً ، والمرأة التى تفرط في عرضها قبل الزواج لن تكون زوجة أمينة إلا من قبيل الاستثناء، وهكذا نساق إلى إباحة الطلاق بشروط يـيرة . إننا نجعل من الزواج سرّاً مقدساً رهيباً وعهداً بطول الصبر والأمانة - مدى الحياة ، ولكنكم تجمعلون منه عقد عمل يحق لأى من الطرفين أن يفسخه، أثر شجار عابر أو تطلعاً إلى رفيق أصغر سناً أو أكثر ثراء . إن كل بيت مفتحة الآن أبوابه كلها ، الأمر الذى يدعو إلى الانفصال ويشجع عليه . ووقع نظام الزواج في حالة من فوضى التقارب المؤقت التجريبي ، مما يشكل كارثة للنساء ويتقوض أركان النظام الأخلاقي .

فولتير : ولكن الزواج بواحدة فقط أمر غير طبيعي وغير محتمل ، أيها الأب العزيز .

بندكت : وإن أى كبت للغريزة أمر غير طبيعي ، ومع ذلك يستحيل قيام المجتمع دون كثير من هذه القيود ، وأعتقد أن الرجل أو المرأة مع رفيق (زوج) واحد وعدة أطفال أسعد من رجل أو امرأة مع عدة رفاق وطفل واحد . وكيف ينعم رجل بالسعادة وقد طلق زوجته التى فقدت جمالها فى الحمل وفى تربية أبنائه ، حين أثاره وجه جديد وقوام رشيق ؟

فولتير : ولكن بتحريمك الطلاق يجب أن تتسامح مع الزنى المنتشر انتشارا واسعا فى الأقطار الكاثوليكية .

بندكت : نعم نحن هناك ضعفاء مجرمون . نحن ضعفاء بسبب الكفر والتخلى عن الإيمانى ، وربما كان الزنى أفضل من الطلاق ، لأنه يبيء فى الظاهر بيتا متحدا آمنا للأبناء ، وينتطوى على ارتباك وتشويش أقل الأسرة . ولكنى أشعر بالحجل لأننا لم نجد حلا أفضل .

فولتير : أنت رجل مؤمن مخلص أيها الأب ، إنى لأتنازل عن كل ما أملك إذا قدر لى إن أشاركك إيمانك وطيبة نفسك .

بندكت : ومع ذلك فن الصعب إقناعك . وإنى ليتولانى اليأس أحيانا من كسب الرجال الأذكياء الأمميين أمثالك ، ممن تحرك أقلامهم مليوناً من لآلئهم وتوجهها نحو الشر أو الخير . ولكن بعض أتباعك يفتحون أعينهم على الحقيقة المرة الرهيبة . فإن فتاقيع التقدم لانفجرت فى قرن شهد مزيدا من قتل الرجال والنساء بالجملة . ومزيدا من اجتياح المدن وتخريبها ، ومن تحجر القلوب وفسادها ، أكثر من أى قرن آخر فى التاريخ . إن التقدم فى المعرفة والعلم ووسائل الراحة والقوة ليس إلا تقدما فى الوسائل ،

وإذا لم يكن ثمة تحسين الغايات والأغراض أو الرغبات فلن يكون التقدم إلا وهما وخداعا . إن العقل يعمل على تحسين الوسائل ولكن الغايات تحددها الغرائز التي تتشكل قبل المولد وتتكون قبل نمو العقل .

فولتير : أنا مازلت أثق في ذكاء الإنسان ، أننا سنحسن الغايات والوسائل معاً إذا صرنا أكثر اطمئنانا وأمنا على حياتنا .

بندكت : هل ستصبح أكثر أمنا واطمئنانا ؟ هل ينخفض معدل الجريمة العنيفة ؟ هل الحرب أقل فظاعة وبشاعة من ذي قبل ؟ أنك تتعلق بأمل كاذب في إن قوة التدمير في أسلحتكم سوف تعوقكم وتعوق أعداءكم عن الحرب . ولكن هل التقدم المتكافئ من السهم إلى القنبلة سيعوق الأمم عن تحدى بعضها بعضا حتى الموت ؟ فولتير : إن تعليم الجنس البشرى سيستغرق عدة قرون .

بندكت : في نفس الوقت إنظر إلى الخراب الروحي الذي نشرته دعايتكم . وربما كان هذا كارثة أفظع من أى خراب في المدن . أليس الاتحاد مقدمة لتشاوم أعمق من أى تشاوم عرفه المؤمنون ؟ وأنت أيها الفتى الذائع الصيت ، ألم تفكر كثيراً في الانتحار ؟

فولتير : نعم ، وحاولت أن أومن بالله ، ولكنني أعترف لك أن الله لم يعد شيئاً في حياتي ، وفي دخيلة نفسي شعرت أيضاً بفراع في موضع إيمان طفولتي ، ولكن يحتمل أن يكون هذا هو أحساس أفراد وأجيال في فترة إنتقال فقط . ولكن حفدة هؤلاء المتشائمين سيمرحون ويسرحون في حرية حياتهم ، وتنبأ لهم سعادة أكثر من المسيحيين المساكين الذين أظلمت حياتهم بالخوف من الجحيم .

بندكت : إن هذا الخوف لم يلعب إلا دوراً صغيراً في حياة الغالبية العظمى من المؤمنين . إن ما أثلج صدورهم هو إحساسهم بأن سكرات

الموت لم تكن عبثا غير دى معنى : بل مقدمة لحياة أكبر تصحيح وتشقى فيها كل المظالم والقساوت الدنوية ، وسيكونون متمتعين بالسعادة والسلام مع من كانوا يحبونهم ثم فقدوهم .

فولتير : نعم كان فى هذا راحة تامة ، مهما تكن خداعة . أنا لم أحس بها لأننى أكاد لا أعرف والدنى ، ولم أر والدنى إلا نادرا ، وليس لى أولاد معروفون .

بندكت : أنت لم تكن رجلا كاملا ، ولم تكن فلسفتك كاملة . هل عرفت يوما حياة الفقراء ؟

فولتير : عرفت من الخارج فقط . ولكنى حاولت أن أكون منصفاً وعونا للفقراء الذين عاشوا فى ضياعى .

بندكت : لقد كنت سيداً فاضلاً ، وفطنت لى أن الإيمان والعقيدة التى اعتنقها هؤلاء الذين إستخدمتهم فى شبابك والتى لهم فيها عزاء وسلوى ، يجب أن تتجدد عن طريق التعليم الدينى والقيادة ولكن فى نفس الوقت كان إنجيلك المدمر الذى لا أمل فيه فيما وراء القبر يسود فرنسا بأسرها . هل أجبت يوما على سؤال دى موسيه^(٣) ؟ بعد أن علمت أنت أو إتباعك الفقراء أن الجنة الوحيدة التى يمكنهم الوصول إليها يجب أن يخلقوها هم أنفسهم على الأرض أو فى الدنيا . وبعد أن ذبحو حكاهمهم ، وبظهر حكاهم جدد . وبقى الفقر بالاضافة لى خلل وفساد وعدم إستقرار أكبر من ذى قبل ، فإذن تسطيع أن تقدم من عزاء للفقراء المغلوبين على أمرهم ؟

فولتير : أنا لم أحبد قتل حكاهمهم ، وارتبت فى أن يكون الجدد أقرب شها بالقدامى ، ولكن اسوأ سلوكا .

بندكت : لن أقول إن الثورة لى لها ما يبررها مطلقا ، ولكننا تعلمنا من التجارب والخبرات التى تراكمت ونقلتها الينا الأجيال . أنه

بعد كل انقلاب ، سيكون هناك ثانية سادة وأناس ، وأغنياء وفقراء نسبياً . نحن ولدنا جميعاً غير متساوين ، وكل لإختراع جديد وكل تعقيد جديد يضاف إلى الحياة أو الفكر يزيد في الهوة بين البسطاء والدهاة البارعين ، وبين الضعفاء والأقوياء . إن أولئك الثوريين المؤمنين تحدثوا عن الحرية والمساواة والائخاء ولكن هذه الأقانيم لا تتمشى مع بعضها البعض . لأنك إذا أقررت الحرية سمحت للتفاوتات وعدم المساواة الطبيعية أن تتضاعف إلى تفاوتات وفوارق مصطنعة . فإذا حلت دون هذه التفاوتات كان عليك أن تقيد الحرية ، وهكذا تصبح مثلك العليا في الحرية ستاراً للاستبداد وفي غمرة هذا يصبح الأخاء مجرد كلمة .

قولير : نعم هو كذلك .

يندكت : حسناً إذن ، ومن منا يقدم عزاء أكبر للغالبية التي لا مفر من أن تكون تكون مغلوطة على أمرها ؟ هل تظن أنك تحسن صنعاً أو تؤدي خدمة لـالكادحين في فرنسا وإيطاليا إذا إقنعتهم بأن أضرحتهم القائمة على جانب الطريق وصلبانهم وصورهم الدينية وتقدماتهم الثمينة مجرد شعائر سخيفة لا معنى لها ، وأن صلواتهم موجهة إلى سماء خالية ، وهل يمكن أن تكون ثمة مأساة أشد من أنه يجب على الناس أن يؤمنوا بأنه ليس في الحياة شيء إلا تنازع البقاء وليس فيها شيء أكيد على وجه اليقين إلا الموت . ؟

فولير : أنا أشاركك شعورك أيها الأب . لقد أثر في نفسي وأزعجتني رسالة تلقيتها من مدام دي تلموند ، أنا أذكرها جيداً ، وجاء فيها « أرى ياسيدي ألا يكتب فيلسوف مطلقاً إلا ليحاول أن يجعل الجنس البشري أقل شراً وأقل شقاء مما هو عليه . وأنت الآن تعمل على التقيض من ذلك تماماً . أنت دائماً تكتب ضد الدين . وهو وحده القادر على كبح جماح الشر وتقديم السلوى والعزاء

إذا ألم الخطيب^(١) ، ولكن لى إيمانى كذلك بأن الحق سيكون على مدى الأيام نعمة حتى للفقراء .

بندكت : ان يكون الحق حقاً إلا إذا بقى صادقا عبر الأجيال . إن الأجيال السابقة تكذبك والأجيال القادمة ستلومك ، بل إن المنتصرين فى صراع الحياة سيلومونك على إنتزاعك الآمال من صدور المساكين وهى الآمال التى حملتهم على قبول المكانة المتواضعة فى مجتمع مقسم إلى طبقات ، وهو تقسيم لامناص منه .

فولتير : أنا لا أستسلم لخداع الفقراء والمساكين خداعا مزدوجا على هذا النحو .

بندكت : نحن لا نخدعهم . أننا نعلمهم الإيمان والأمل والبر والاحسان ، وتلك كلها نعم حقيقية فى حياة البشر . أنكم سخرتم كثيراً من التثليث ، ولكن هل كانت لديكم يوماً أى فكرة عن الراحة النفسية التى أحس بها ملايين الملايين من الأنفس لجرد التفكير فى أن الله نفسه قد نزل إلى هذه الأرض ليشاركهم آلامهم ومعاناتهم ، ويكفر عن خطاياهم ؟ وسخرتم من ولادة العذراء ، ولكن هل فى كل الأدب شىء محبب أو مؤثر أكثر رمزاً لبساطة النساء واعتداهن ورمزا لحب الأم ؟

فولتير : أنها قصة جميلة ، ولو أنك كنت قرأت كل مجلداتى التسعة والتسعين لوجدت أننى اعترفت بقيمة هذه الأساطير التى تبعث فى النفوس السلوى والعزاء .

بندكت : نحن لا نسلم بأنها أساطير ، أنها من بين أعمق الحقائق . إن آثارها من بين أكثر الحقائق يقيناً فى التاريخ . أنا لن أتحدث عن الفن والموسيقى اللتين خلقتهما ، وهما من أغنى تراث الإنسان . . .

فولتير : كان الفن ممتازا . ولكن أغنيتكم الجريمورية كانت عبثا كريها كثيبا .

بندكت : لو أنك كنت أكثر عمقا لقدرت قيمة طقوسنا وأسرارنا المقدسة .
إن احتفالاتنا تجمع بين المصلين في مسرحية حية وأخوة تشجع
على الوحدة ، وأسرارنا المقدسة هي حقاً أسم على مسمى من
أمارات أو علامات ظاهرية على نعمة وبركة باطنة داخلية ، وأنها
لراحة نفسية للآباء أن يروا طفلهم في التعميد والتثبيت مقبولا في
جماعة العقيدة العريقة وفي ميراثها . وهكذا توحد الأجيال في
أسرة لا يحددها زمان ، ولا يعود الفرد فيها يحس أنه وحيد .
ولأنه لمن أجل النعم للمخطيء أن يعترف بخطاياهم ويتلقى الغفران .
وأنتم تقولون إن هذا لا يعدو أن يكون مجرد سماح له بارتكاب
الذنب ثانية ، ونحن نقول بأن هذا يشجعه على أن يبدأ حياة
أفضل غير مثقلة بوزر الأثم . ألا يكافح أطباؤكم النفسيون من
أجل إيجاد بديل عن الاعتراف للكاهن ؟ إلا يخلقون مصابين
بالمراض العصبية قدر ما يعالجون ويشفون ؟ أليس جميلا إنه في
سر القربان المقدس يقوى الإنسان الضعيف ويتأثر باتحاده مع الله ؟
هل رأيت شيئا أجمل من ذهاب الأطفال لأول عشاء رباني لهم ؟

فولتير : لا يزال يزعجني ويضايقني فكرة أكل الله ، أنها بقايا
عادات وحشية .

بندكت : أنك تخلط مرة ثانية بين الإشارة الظاهرية الخارجية والبركة
الباطنية . ليس ثمة شيء ضحل مثل التحريف ، إنك تحكم على
كل شيء من سطحه ، وتظن أنه عميق . وقد ضلل هذا
التحريف كل الحياة الحديثة . وفي الدين مر العقل الناضج بثلاث
مراحل : الإيمان والكفر والفهم .

فولتير : قد تكون على حق . ولكن هذا لا يبرر نفاق أساقفتك الآثمين
الخطائين ، أو اضطهاد الفكر الصادق المستقيم .

بندكت : نعم . كنا مذنبين . إن العقيدة طيبة لأغبار عليها ، ولكن القائمين عليها رجال ونساء عرضة للخطأ والأثم .

فولتير : ولكن إذا كان القائمون عليها عرضة للخطأ ، فلماذا يزعمون أنهم معصومون منه ؟

بندكت : إن الكنيسة تدعى العصمة فقط لأحكامها الوسمية الأساسية الموقرة جداً ، ويجب المكف عن الجدل في موضع ما ، إذا أريد للذهن أو المجتمع أن يعيش في هدوء وسلام .

فولتير : وهكذا نعود ثانية إلى الرقابة الخائفة والتعصب الوحشي الذميم اللذين كانا مصدر الأذى والهلاك في حياتي ، ومبعث الخزي والعار في تاريخ الكنيسة . ويمكنني أن أرى أبواب محاكم التفتيش مفتوحة من جديد .

بندكت : أرجو ألا يكون الأمر كما تقول . إن هذا كان يسبب ضعف البابوية ، إن محاكم التفتيش كانت قاسية . إن خلفائي كافحوا لوقفها .

فولتير : البابوات أيضاً مذنبين . أنهم نظروا برباطة جاش إلى قتل مئات اليهود أثناء الحروب الصليبية ، وتأمروا مع دولة فرنسا على قتل الالبيجنسين (طائفة دينية ازدهرت في جنوب فرنسا فيما بين ١٠٢٠ - ١٢٥٠ م وأخيرا قضى عليها بتهمة الزندقة) . لماذا نعود إلى عقيدة استطاعت على الرغم من كل سحرها وفتنتها أن تولد مثل هذه الوحشية وما زالت تتغاضى عنها ؟

بندكت : أننا شاركنا في عادات عصرنا وسلوكه . ونحن نشارك الآن في تحسين الأخلاق . أنظر إلى قساوستنا ، أليسو ، مجموعة ممتازة من الناس في تعليمهم وتبليهم وسلوكهم ؟

فولتير : هكذا يقولون لي . ولكن ربما كان هذا بسبب المنافسة . ومن يدري ماذا سيكزنون عليه ، حين يهيء لهم لإنصارهم ذوو الأصل

العريق التفوق السياسى ؟ إن المسيحيين فى القرون الثلاثة الأولى من حقبتنا أشتهروا بسمو الخلق لكنك تعلم كيف أصبحوا حين تسلموا مقاليد الأمور . إنهم قتلوا من أجل الخلاف الدينى أناسا أكثر مائة مرة مما قتل أباطرة الرومان .

بندكت : إن قومنا كانوا آنذاك بادئين فى التعليم ، فلنأمل أن نفعل أفضل مما فعلوه فى المستقبل .

فولتير : لقد أحسنت الكنيسة صنعا فى بعض الأحيان . ففى النهضة الإيطالية أظهر بعض خلفائك تسامحا لطيفا نحو الكفر . ولم يحاول غير المؤمنين أن يحرّموا المساكين من عقيدتهم التى توفر لهم العزاء والسلى . أنا من جانبي لا أريد أن أدمر عقيدة الفقراء المساكين ، وأؤكد لك أن هؤلاء المساكين لا يطالعون كتبى .

بندكت : بارك الله فى المساكين الفقراء .

فولتير : فى نفس الوقت ، ينبغى أن تغفر لى ولأمثالى إذا واصلنا مساعيها لتكوين أقلية كبيرة العدد إلى حد كاف ، مصممة على أن تحول دون تسلط الكنيسة مرة ثانية على أفكار المتعلمين . وسيكون التاريخ غير ذى قيمة لنا إذا لم يعلمنا أن نكون يقظين حذرين ضد التعصب الطبيعى فى ديانة تقليدية تستغل القوة . إنى أجلك وأقدرك أعظم تقدير ، أيها الأب بندكت ، ولكن يجب أن أبى كما أنا فولتير .

بندكت : ليغفر الله لك .

فولتير : المغفرة دعاء الجميع .

NOTES



CHAPTER XVIII

1. Pappas, J. N., *Berthier's Journal de Trévoux and the Philosophes*, 122.
2. Helvétius, *De l'Esprit*, Eng. translation, 414.
3. D'Alembert, *Mélanges de littérature, d'histoire, et de philosophie* (1759), in Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 31; Frankel, *Faith of Reason*, 7-8.
4. In Wolf, 39.
5. Duclos, *Considérations sur les moeurs*, 27.
6. Mornet, *Origines intellectuelles de la Révolution française*, 55.
7. *Ibid.*, 54.
8. Taine, *Ancient Regime*, 288.
9. *Ibid.*
10. In Martin, K., *Rise of French Liberal Thought*, 122.
11. Morley, *Diderot*, I, 169.
12. Mornet, 52.
13. Meslier, Jean, *Superstition in All Ages, or Last Will and Testament*, 30.
14. *Ibid.*, Sec. CXXXV.
15. CVIII.
16. LXVI, CLXXXII-III, and CLX.
17. CLX.
18. LII.
19. II.
20. XXXII.
21. XC.
22. CLX.
23. XI.
24. XII.
25. CXII.
26. CLXI.
27. CLIII.
28. CXLIX.
29. CLV.
30. Preface, p. 37.
31. CVII.
32. CXL.
33. CLXVI.
34. CLXII.
35. Preface, pp. 42-43.
36. CCIV.
37. *Ibid.*
38. CLV.
39. Preface, p. 41.
40. In Martin, K., 240.
41. *Ibid.*, 242.
42. 241-42.
43. Hazard, *European Thought in the 18th Century*, 56.
44. La Mettrie, *Man a Machine*, 4.
45. Walt Whitman's formula for war.
46. La Mettrie, 99.
47. *Ibid.*, 100.
48. 91.
49. 134.
50. 128.
51. In Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 305.
52. *Ibid.*, 316.
53. La Mettrie, 146.
54. *Ibid.*
55. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 316.
56. La Mettrie, 103.
57. Fellows and Torrey, II, 307.
58. La Mettrie, 122.
59. *Ibid.*, 129.
60. 149.
61. In Hazard, 128.
62. La Mettrie, 92.
63. Martin, H., *Histoire de France*, XV, 397.
64. La Mettrie, 119; Lange, F. A., *History of Materialism*, II, 86 f.

THE AGE OF VOLTAIRE

65. Parson, *Life of Voltaire*, II, 25.
66. Desnoirestèrres, IV, 198-200.

CHAPTER XIX

1. Crocker, L. G., *Embattled Philosopher*, 5.
2. *Ibid.*, 8.
3. 38.
4. Diderot, *Pensées philosophiques*, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 264.
5. Crocker, 65.
6. Diderot, *pensée* xxvi.
7. In Crocker, 68.
8. Wilson, A. M., *Diderot: The Testing Years*, 86.
9. Cru, R. L., *Diderot as a Disciple of English Thought*, 189; Wilson, A. M., 90.
10. Diderot, *Lettre sur les aveugles*, in *Oeuvres*, 601.
11. *Ibid.*, 608.
12. 629.
13. 631-32.
14. 650.
15. 617-22.
16. Crocker, 102-3.
17. Havens, *Age of Ideas*, 289.
18. Crocker, 77.
19. *Ibid.*, 83.
20. 87.
21. Brunetière, *Évolution des genres dans l'histoire de la littérature* (Paris, 1890), 210, in Wilson, *Diderot*, 169.
22. Diderot, art. "Encyclopedia."
23. Aldis, *Madame Geoffrin*, 91.
24. Hazard, 199.
25. Morley, *Life of Voltaire*, 198.
26. Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 316; Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 165.
27. Lévy-Bruhl, *History of Modern Philosophy in France*, 212.
28. Fellows and Torrey, 319.
29. *Ibid.*, 320.
30. Ortega y Gasset, *Toward a Philosophy of History*, 77.
31. Crocker, *Embattled Philos.*, 133.
32. Lough, K., ed., *The Encyclopédie: Selected Articles*, 6.
33. Pappas, *Pertinax's Journal de Trévoux*, 181.
34. Wilson,
35. *Ibid.*, 163.
36. Pappas, 185.
37. Wilson, 160.
38. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 235; Wilson, 165.
39. Wilson, 169.
40. Becker, C., *Heavenly City of the 18th Century Philosophers*, 110.
41. Wilson, 283.
42. *Ibid.*, 288.
43. Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 51.
44. Wilson, 288-89.
45. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 175.
46. Wilson, 312.
47. *Ibid.*
48. 358.
49. 339; Crocker, *Embattled Philos.*, 237.
50. Wilson, 339.
51. Crocker, 239.
52. Green, F. C., in Diderot, *Writings on the Theater*, 12.
53. See Hazard, 202, and Naves, 98.
54. In Lough, *Selected Articles*, 180-83.
55. Diderot, art. "Philosophy."
56. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 23.
57. Art. "Philosophy."
58. Art. "Political Authority."
59. *Ibid.*
60. Lough, 43.
61. Morley, *Diderot*, I, 216.
62. *Ibid.*, 172.
63. Article "Privileges."
64. Article "Art."
65. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 5.
66. Diderot, Prospectus, in Havens, 307.
67. Wilson, 136.
68. Grimm, *Correspondance*, VII, 146.
69. Lough, introd., xiv.
70. Art. "Encyclopedia."

CHAPTER XX

1. *Enc. Brit.*, XVII, 614.
2. Cru, *Diderot*, 234.
3. *Ibid.*, 395.
4. Dupee, F. W., *Great French Short Novels*, 8.
5. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 115.
6. *Pensées sur l'interprétation de la nature*, Sec. LVIII, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 276, and Wilson, *Diderot*, 194.
7. Faguet, *Dix-huitième siècle*, 334.
8. Letter of Sept. 2, 1769, to Sophie Voland.
9. Letter of Sept. 11, 1769.
10. Letter of Sept. 2, 1769.
11. Diderot, *Dialogues*, 34-35.
12. *Ibid.*, 43.
13. 53.
14. 57.
15. 69.
16. 79-80.
17. 93.
18. 96.
19. 105.

NOTES

20. 110.
11. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, II, 312.
12. Crocker, *Embattled Philosopher*, 318.
13. *Ibid.*, 320.
14. *Ibid.*, 409; Crocker, *Age of Crisis*, 124.
15. Letter to Damilaville, 1766, in Morley, *Diderot*, I, 20.
16. Cru, 65.
17. Diderot, *Jacques the Fatalist*, 125.
18. Diderot, *Plan for a University*, in La Fontainerie, *French Liberalism and Education in the 18th Century*, 279.
19. *Enc. Brit.*, IV, 4192.
20. Crocker, *Embattled Philos.*, 319.
21. Cru, 417.
22. Grinun, *Correspondance*, 1770, in Diderot, *Oeuvres*, 957-59.
23. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, 67.
24. *Ibid.*, 68.
25. These passages are listed in Diderot, *Jacques the Fatalist*, 271-73.
26. *Ibid.*, 8.
27. 166.
28. Crocker, *Embattled Philos.*, 268.
29. *Neveu de Rameau*, in Diderot, *Oeuvres*, 249.
30. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, 143 f.
31. *Oeuvres*, 191.
32. G. B. Shaw's phrase.
33. *Oeuvres*, 262, 270.
34. *Ibid.*, 222.
35. 218.
36. 268.
37. 220.
38. *Dialogues*, 119-20.
39. *Ibid.*, 146.
40. 140-41.
41. 154.
42. "Essay on Women," in *Dialogues*, 186.
43. Crocker, *Age of Crisis*, 101.
44. Crocker, *Embattled Philos.*, 340.
45. Crocker, *Age of Crisis*, 209.
46. *Ibid.*, 274.
47. *Neveu de Rameau*, in Crocker, *Age of Crisis*, 209.
48. *Ibid.*, 105.
49. 104.
50. *Supplement to the Voyage of Bougainville*, in *Dialogues*, 157.
51. Crocker, *Embattled Philos.*, 343.
52. Articles "Civil Liberty" and "Representatives."
53. Diderot, *Oeuvres*, Édition Assézat et Tourneux (Paris, 1875-77), IX, 16.
54. *Ibid.*, II, 411, in Morley, *Diderot*, II, 242-43.
55. Cru, 135.
56. Ellis, Havelock, *The New Spirit*, 62.
57. Havens, *Age of Ideas*, 342.
58. Crocker, *Embattled Philos.*, 398.
59. *Ibid.*, 393.
60. Diderot, *Salons*, I, 1.
61. *Ibid.*, 79.
62. Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 130.
63. Diderot, *Salons*, I, 188.
64. Crocker, 176.
65. *Ibid.*, 196.
66. Chambers, F. P., *History of Taste*, 146.
67. *Ibid.*, 140 f.
68. Hauser, Arnold, *Social History of Art*, II, 533.
69. *Salons*, I, 418.
70. Morley, *Diderot*, II, 79.
71. Crocker, 19.
72. Cru, 287.
73. Wilson, 273.
74. Crocker, 243.
75. Wilson, 326.
76. Voltaire, *Phil. Dict.*, article "Rhyme."
77. Wilson, 237.
78. Sime, *Lessing*, I, 209.
79. Diderot, *Paradox of Acting*, 14, 18.
80. Cru, 328.
81. *Hamlet*, III, ii.
82. Lee Strasberg, in Diderot, *Paradox of Acting*, introd., x.
83. Wordsworth's phrase.
84. Ellis, *The New Spirit*, 56.
85. Hazard, 383.
86. Crocker, *Embattled Philos.*, 232-33.
87. Michelet, V, 408n.
88. Morley, *Diderot*, I, 30.
89. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, II, 73.
90. Taine, *Ancient Regime*, 266.
91. Diderot, *Oeuvres*, 143.
92. Crocker, 26.
93. *Salons*, II, 354.
94. Crocker, 147.
95. *Ibid.*
96. Letter of July 14, 1762.
97. Crocker, 297.
98. *Ibid.*, 213-15.
99. 220.
100. "Regrets sur ma vieille robe de chambre," in *Oeuvres*, 733.
101. Crocker, 301.
102. Morley, I, 262.
103. Crocker, 302.
104. Marmontel, *Memoirs*, I, 360.
105. Morley, *Diderot*, I, 41.
106. Crocker, 292.
107. Wilson, 8.
108. Morley, I, 10.
109. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, ix.
110. Letter to King Stanislas Poniatowski in Aldis, *Madame Geoffrin*, 185.
111. Fellows and Torrey, *Diderot Studies*, I, vii.

THE AGE OF VOLTAIRE

CHAPTER XXI

1. Cumming, Ian, *Helvétius*, 36.
2. *Ibid.*, 57.
3. Marmontel, *Memoirs*, I, 258.
4. Cumming, 137.
5. Parton, *Voltaire*, II, 302.
6. Helvétius, *Treatise on Man* (*De l'Homme*), Vol. II, p. 480.
7. Grimm, *Corresp.*, II, 262.
8. Helvétius, *Treatise on Man*, Section II, Ch. iii.
9. Helvétius, *De l'Esprit*, p. 11.
10. *Ibid.*, in Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 68.
11. Helvétius, *De l'Esprit*, 175, 222, 277.
12. *Treatise on Man*, IV, i.
13. *Ibid.*, III, ii and iv.
14. IV, xxiii.
15. IV, iii and i.
16. VI, i.
17. *De l'Esprit*, p. 489.
18. *Treatise*, VII, iv.
19. *Ibid.*, I, iii.
20. II, xxi.
21. I, ix.
22. II, xxii.
23. I, iii.
24. I, x.
25. VII, i.
26. I, ii.
27. VII, i.
28. *De l'Esprit*, p. 174.
29. *Treatise*, IX, xxi.
30. *Ibid.*, IV, xxi.
31. I, xiv.
32. I, xiii-xiv.
33. VII, xii.
34. VII, iii and iv.
35. Mordecai Grossman in Horowitz, *Claude Helvétius*, p. 18.
36. *Treatise*, V, iii-x.
37. *Ibid.*, VI, viii.
38. V, iii-iv.
39. V, iii.
40. *De l'Esprit*, p. 179; Cumming, 79.
41. *Treatise*, VI, i.
42. *De l'Esprit*, pp. 6, 17.
43. In Martin, K., p. 180.
44. *Treatise*, II, vii.
45. *De l'Esprit*, p. 169.
46. *Ibid.*, 47; Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 66.
47. *De l'Esprit*, 29.
48. *Ibid.*, 134.
49. *Treatise*, IV, ii.
50. Horowitz, p. 100.
51. *Ibid.*, 111.
52. *Treatise*, VI, v and x.
53. *Ibid.*, VI, xv.
54. VI, v and xi.
55. VIII, iii and v.
56. Brunetière, *Essays in French Literature*, p. 327.
57. Buckle, I, 624n.
58. Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 64.
59. Crocker, *Age of Crisis*, 123.
60. In Grossman, *Philosophy of Helvétius*, 147.
61. Crocker, *Embattled Philos.*, 408.
62. Victor Cousin, *Histoire de la philosophie*, III, 201, in Buckle, I, 624n.
63. Morley, *Diderot*, II, 141.
64. Cumming, 218.
65. Morley, II, 142.
66. Grossman, 169.
67. Marmontel, *Memoirs*, I, 258.
68. Cumming, 139.
69. *De l'Esprit*, 87; Morley, II, 157.
70. D'Alembert, *Eléments de philosophie*, in Cassirer, *Enlightenment*, 4.
71. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 105.
72. Wickwar, *Baron d'Holbach*, 86.
73. *Ibid.*, 59-60; Mornet, *Origines*, 107.
74. Gooch, *Catherine the Great and Other Studies*, 192.
75. Marmontel, *Memoirs*, I, 256.
76. Morley, *Life of Voltaire*, 215.
77. Morley, *Diderot*, II, 193.
78. Robertson, J. M., *Short History of Free-thought*, II, 254.
79. Morley, *Diderot*, II, 194.
80. Rousseau, *Confessions*, 139.
81. Robertson, J. M., II, 254.
82. Morley, *Diderot*, II, 215.
83. Wickwar, 22.
84. *Ibid.*, 23, 27.
85. Diderot, letter of May 10, 1759.
86. Marmontel, I, 351.
87. *Ibid.*
88. Wickwar, 39; Burton, *Life of Hume*, II, 220.
89. Gibbon, *Memoirs*, in Messner, *Life of David Hume*, 485.
90. Priestley, *Memoirs*, I, 74, in Buckle, I, 621n.
91. Wickwar, 25.
92. *Ibid.*, 38.
93. Mme. d'Épinay, *Memoirs*, II, 169.
94. *Ibid.*, 130.
95. Wickwar, 109.
96. Robertson, J. M., II, 272.
97. Grimm, *Corresp.*, Aug. 10, 1789.
98. *Ibid.*
99. Wickwar, 86.
100. D'Holbach, *Le Christianisme dévoilé*, in Pomeau, *La Religion de Voltaire*, 191.
101. Wickwar, 126.
102. *Ibid.*, 135.
103. 127.

NOTES

104. *Phil. Dict.*, art. "God," Sec. 4.
105. Morley, *Diderot*, II, p. 159.
106. D'Holbach, *System of Nature*, preface, pp. viii-x.
107. *Ibid.*, Vol. I, Ch. ii.
108. I, i.
109. I, ii and viii.
110. I, xvi.
111. I, iii.
112. Morley, *Diderot*, II, p. 74.
113. D'Holbach, *System*, I, Ch. xi.
114. *Ibid.*, I, i.
115. Delkin, *Turgot and the Ancien Régime*, p. 16.
116. Martin, K., 175.
117. D'Holbach, *System*, II, Ch. vi.
118. *Ibid.*, II, v.
119. I, xiii.
120. *Ibid.*
121. II, iv.
122. II, v.
123. II, xii.
124. *System*, appendix, Ch. xxi.
125. *System*, I, xiii.
126. *Ibid.*, I, vii.
127. D'Holbach, *Morale universelle*, Vol. I, Ch. i, in Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, p. 367.
128. *Ibid.*, 363.
129. *System of Nature*, I, xv.
130. *Ibid.*, appendix, xix.
131. *System*, I, xiv.
132. D'Holbach, *Politique naturelle*, Part iv, Ch. xxvii, in Wickwar, 182.
133. *Éthico-critique*, Ch. x, in Hazard, 261.
134. *Politique naturelle*, Part vi, Ch. xiv.
135. Cumming, 112.
136. *Politique naturelle*, in Martin, K., 188.
137. *Ibid.*, 189.
138. Wickwar, 178.
139. Martin, K., 189.
140. Wickwar, 178.
141. *System of Nature*, Vol. I, Ch. xiv.
142. *Politique naturelle*, Part vi, Ch. xxxix, in Wickwar, 212-13.
143. *Système social*, Vol. II, 151, in Cobban, *In Search of Humanity*, 166.
144. *System of Nature*, I, xiv.
145. D'Holbach, *Contagion sacrée*, 145, in Wickwar, 141.
146. In Morner, *Origines*, 103.
147. *System of Nature*, I, i.
148. *Système social*, II, ii, in Cassirer, *The Question of Jean-Jacques Rousseau*, 68.
149. *Politique naturelle*, Part i, Ch. vi, in Frankel, *The Faith of Reason*, 71.
150. Morner, 103.
151. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 331.
152. *Phil. Dict.*, art. "God."
153. Wickwar, 89.
154. Morley, *Diderot*, 183.
155. Faguet, *Literary History of France*, 497.
156. Wickwar, 111.
157. Hearnshaw, *Social and Political Ideas of . . . the Age of Reason*, 213.
158. Wickwar, 113.

CHAPTER XXII

1. This is what Faguet forgot in one of the most biased essays in French literature; see, e.g., *Dix-huitième Siècle*, 210.
2. Wade, *Studies in Voltaire*, 67.
3. *Phil. Dict.*, art. "Emblems."
4. Noyes, *Voltaire*, 487.
5. *Phil. Dict.*, I, i, "God."
6. Desnoiresterres, V, 167.
7. Pomeau, *Religion de Voltaire*, 421.
8. Voltaire, *Works*, VIII, 82.
9. Morner, *Origines*, 82; Torrey, *Spirit of Voltaire*, 254, 283.
10. *Phil. Dict.*, in *Works*, VII, 62.
11. In Pomeau, 400, and Crocker, *Age of Crisis*, 385.
12. Parton, *Voltaire*, II, 432.
13. Pomeau, 159, 183.
14. Lévy-Bruhl, 185-86.
15. Letter of May 20, 1738, in Voltaire and Frederick the Great, *Letters*, 115.
16. Voltaire, *Notebooks*, I, 402.
17. *Traité de métaphysique*, Ch. ix.
18. *La Loi naturelle*, in *Works*, XI, 25-26.
19. *Ibid.*; Fellows and Torrey, *Age of Enlightenment*, 424.
20. Bortolgia, *Voltaire's Candide*, 108; Morner, *Age of Reason*, 35.
21. Letter of Oct., 1751, to d'Alenbert, in Desnoiresterres, V, 163.
22. In Torrey, *Spirit of Voltaire*, 87.
23. Letters of May 24 and Dec. 22, 1757.
24. Voltaire, *Oeuvres*, ed. Moland, XXXIX, 363. See also Pomeau, 301; Naves, *Voltaire et l'Encyclopédie*, 53.
25. Naves, 54-57.
26. *Ibid.*, 62-63; Pomeau, 302.
27. Campbell, *The Jesuits*, 451.
28. Nicolson, VI, *Age of Reason*, 82.
29. In Smith, I, II, 410.
30. Pope, *Essay on Man*.
31. Parton, II, 215.
32. Voltaire, *Romans*, I, 165, 169.
33. *Ibid.*, 231.
34. 231.
35. 257.
36. Bortolgia, 249.
37. Pomeau, 311.
38. Martin, II, *Histoire de France*, IX, 127.
39. Pomeau, 319-21.
40. Calvin, *Institutes of the Christian Religion*, Eng. tr., I, 360.
41. Parton, II, 356.
42. Desnoiresterres, VI, 160.

NOTES

CHAPTER XXIII

1. Pomeau, 300.
2. Mornet, *Origines*, 206.
3. Gauchat, *Lettres critiques*, XV, 224, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 313.
4. Pomeau, 338.
5. Voltaire, letter of Dec. 8, 1776.
6. Palmer, R.R., *Catholics and Unbelievers*, 96.
7. *Ibid.*, 142.
8. Our account follows John H. Pappas, *Berthier's Journal de Trévoux and the Philosophes*.
9. *Ibid.*, 38.
10. 23, 137.
11. 48.
12. 128.
13. 48.
14. 205.
15. *Ibid.*
16. 184.
17. 186.
18. 110.
19. 113.
20. 119.
21. 122.
22. 131.
23. Desnoiresterres, III, 389.
24. Hazard, *Eighteenth Century*, 78.
25. Cornou, *Élie Fréron*, in Martin, K., 96.
26. Crocker, *Embattled Philosopher*, 240.
27. *Ibid.*
28. Brandes, II, 205.
29. *Ibid.*, 206.
30. Noyes, I, 51.
31. *Ibid.*, 71.
32. Lanfrey,
33. In Massé, *a Religion de Rousseau*, III, 31.
34. Crocker, *of Crisis*, 382.
35. Lichtenberg, A., *Le Socialisme et la Révolution française*, 60.
36. Crocker, *Emb. Philosopher*, 305.
37. Toth, *Woman and Rococo*, 224, 234.
38. Goncourt, *Woman of the 18th Century*, 305.
39. Toth, 234.
40. Letter of Jan. 10, 1758, in Naves, 53.
41. *Oeuvres*, 231, 239-40.
42. *Ibid.*, 235, etc.
43. Grimm, II, 373.
44. Palmer, *Catholics and Unbelievers*, 7.
45. Parton, II, 334.
46. Pappas, 85.
47. *Ibid.*, 114.
48. 117.
49. Fulop-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 374.
50. Gay, *Voltaire's Politics*, 310.
51. Pappas, 129.
52. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 414.
53. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 201.
54. Lanfrey, 267; Campbell, *The Jesuits*, 482.
55. *Ibid.*, 483.
56. *Catholic Encyclopedia*, XIV, 982; Martin, H., XVI, 211; Ranke, *History of the Popes*, II, 447.
57. Campbell, 487.
58. *Ibid.*, 485.
59. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 251.
60. Robertson, J. M., *History of Free-thought*, II, 236.
61. Desnoiresterres, VI, 269.
62. Bertrand, *D'Alembert*, 132.
63. Lanfrey, 269.
64. *Ibid.*, 270.
65. Pappas, 135.
66. Pomeau, 317.
67. Gilbert, *Prince de Ligne*, 138; Carlyle, *Friedrich the Second*, VII, 470.
68. Campbell, *The Jesuits*, 639.
69. La Fontainerie, *French Liberalism and Education in the 18th Century*, 143, 149.
70. Cumming, *Helvétius*, 160.
71. La Fontainerie, 80.
72. *Ibid.*, 117.
73. *Ibid.*, 39, Desnoiresterres, VI, 239.
74. Letter of Apr. 1, 1766.
75. Lanson, *Voltaire*, 183.
76. Smith, P., *Modern Culture*, II, 441.
77. La Fontainerie, 240.
78. Sée, H., *Les idées politiques en France*, 142.
79. Mornet, *Origines*, 177.
80. Lacroix, *Eighteenth Century*, 265.
81. Helvétius, *Traité en Man*, Vol. II, p. 407.
82. Brunetière, *Manual of French Literature*, 298.
83. Hazard, 369.
84. Bury, *Idea of Progress*, 149.
85. Smith, P., II, 614.
86. D'Alembert, *Éléments de la philosophie*, Ch. iv, in Hazard, 166.
87. Hazard, 169.
88. Voltaire, *Works*, XIXa, 89 f.
89. Hazard, 250.
90. Rousseau, *Sur le gouvernement de Pologne*, in Black, *Art of History*, 20.
91. Source lost.
92. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 212.
93. Bury, *Idea of Progress*, 203; Parton, II, 433.
94. Hazard, 116.

THE AGE OF VOLTAIRE

43. "Essay on toleration," in Voltaire, *Selected Works*, 78; Pomeau, 325.
44. Our account is based upon A. Coquerel's *Jean Calas et sa famille* (Paris, 1858), as summarized in Parton, II, 367.
45. Letter of Mar. 1, 1765.
46. *Ibid.*
47. Text in Parton, II, 356.
48. Letter of Mar. 29, 1762.
49. Letter of Sept., 1762, in Gay, *Voltaire's Politics*, 277.
50. Brandes, *Voltaire*, II, 196.
51. Voltaire, *Selected Works*, 86.
52. *Ibid.*, 113.
53. Parton, II, 433.
54. Morner, *Origines*, 112.
55. *Selected Works*, 88.
56. *Ibid.*, 100, 108.
57. Voltaire, *Works*, IIb, 277.
58. Brandes, II, 214.
59. Desnoiresterres, VII, 469.
60. Parton, II, 397.
61. *Ibid.*
62. Desnoiresterres, VI, 493.
63. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 129.
64. Letter of Frederick the Great, Aug. 7, 1766.
65. Letter of Frederick, Sept., 1766, in Brandes, II, 231.
66. Diderot, *Oeuvres*, 220.
67. Chaponnière, *Voltaire chez les Calvinistes*, 260.
68. In Brandes, II, 232.
69. Voltaire, *Correspondance*, ed. Besterman, Letter 7584.
70. Pomeau, 311.
71. *Phil. Dict.*, art. "Superstition."
72. Letter of June 3, 1760.
73. Letter of Dec. 6, 1757.
74. Pomeau, 213; Bertwand, *D'Alembert*, 118.
75. Voltaire and Frederick, *Letters*, 283.
76. Parton, II, 285.
77. Letter to Damiaville, Apr. 5, 1765.
78. Frederick to Voltaire, Sept. 9, 1739.
79. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XLIII, 198-100.
80. *Selected Works*, 59.
81. *Phil. Dict.*, art. "Laws."
82. J. Gaberel in Parton, II, 428.
83. Luke xxi, 27-32.
84. *Questions of Zapata*, No. 58, in *Selected Works*, 34.
85. *Ibid.*, Nos. 65-66.
86. *Ibid.*, No. 66.
87. Parton, 286.
88. Letter of June 4, 1767.
89. *New Camb. Mod. History*, VII, 152.
90. *Phil. Dict.*, art. "God."
91. Letter of Nov. 28, 1752.
92. *Oeuvres complètes*, XLI, 570, in Torrey, *Spirit of Voltaire*, 279.
93. *Phil. Dict.*, art. "Sin."
94. Pomeau, 373.
95. *Works*, Ib, 139.
96. *Phil. Dict.*, art. "Miracles."
97. Pomeau, 348.
98. *Ibid.*, 374.
99. *Phil. Dict.*, art. "Climate."
100. Art. "Grace."
101. *Profession de foi des théistes*, in Black, *Art of History*, 57.
102. *Works*, XLII, 228.
103. *Ibid.*, 138.
104. *Traité de métaphysique*.
105. Crocker, *Age of Crisis*, 385.
106. *Ibid.*, 190; cf. *Phil. Dict.*, art. "Atheism," and art. "God," Sec. v.
107. Art. "Hell."
108. Art. "Fraud."
109. Art. "Morality."
110. Voltaire, *The Ignorant Philosopher*, Secs. II-III.
111. *Ibid.*, III-IV.
112. XIII.
113. XIV.
114. XVII, XIX.
115. XX.
116. XXIV.
117. LI.
118. *Works*, IIa, 312-16.
119. *Boswell on the Grand Tour: Germany and Switzerland*, 304.
120. Noyes, *Voltaire*, 555; Pomeau, 411.
121. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XXVI, 199, in Pomeau, 438.
122. Art. "Curate."
123. Pomeau, 439.
124. *Essai sur les moeurs*, Ch. cxxxix, in Ducros, *French Society in the 18th Century*, 199.
125. Desnoiresterres, VI, 118.
126. *Ibid.*, 63-64; Pomeau, 431.
127. Desnoiresterres, VII, 237.
128. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 225.
129. Desnoiresterres, VII, 228.
130. *Ibid.*, 287.
131. Pomeau, 390.
132. Diderot, *Letters to Sophie Volland*, I, 29; in Pomeau, 332.
133. Grimm, *Corresp.*, VII, 51.
134. Walpole, H., in Mossner, *Bishop Butler and the Age of Reason*, 175; cf. Morner, *Origines*, 139, and Morley, *Life of Voltaire*, 88.
135. Letter to Mme. du Deffand, June 1, 1770.
136. *Ignorant Philosopher*, Sec. xxiv.
137. Mark ix, 45-48; Matt. xiii, 40-42; Luke xvi, 23-26.

THE AGE OF VOLTAIRE

95. Buckle, I, 620.
96. Parton, II, 507.
97. Lecky, *History of . . . Rationalism*, I, 125.
98. Tocqueville, *L'Ancien Régime*, 165.
99. Lecky, *History of England*, V, 336.
100. Morner, *Origines*, 214-16.
101. La Harpe in Taine, *Ancient Regime*, 400.
102. Walpole, II., letter of Oct. 19, 1765.
103. *Ibid.*, letter of Nov. 19, 1765.
104. Morner, 269.
105. *Ibid.*
106. Toth, *Woman and Rococo*, 234.
107. Morner, 272.
108. Willey, *Eighteenth-Century Background*, 192.
109. Taine, *Ancient Regime*, 293.
110. Robertson, J. M., *History of Free-thought*, II, 278.
111. Montalembert, *Monks of the West*, I, 86.
112. Morner, 141.
113. Voltaire, *Oeuvres complètes*, XLIII, 237.
114. Letter of Nov. 9, 1764.
115. Wilson, *Diderot*, 286; Palmer, *Catholics and Unbelievers*, 17.
116. Torrey, *Spirit of Voltaire*, 133.
117. Condorcet, *Progrès de l'esprit humain*, 251.
118. Morner, 125.
119. *Ibid.*, 273.
120. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, 421, 529.
121. Frederick to Voltaire, May 5, 1767.
122. Grimm. *Corresp.*, Sept. 15, 1767.
123. *Dict. Phil.*, art. "God."

EPILOGUE

1. Crocker, *Embattled Philosopher*, 407.
2. Sade, Marquis de, *Justine* (1791), *Juliette* (1792), *Philosophie dans le boudoir* (1793).
3. Musset, Alfred de, *Confessions of a Child of the Century*, 21 f.
4. Chaponnière, *Geneva*, 231.
5. *Phil. Dict.*, art. "God," Sec. IV, art. "Polytheism."

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديمقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى. واستمتعنا أيضاً استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم. لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه. ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمون بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

